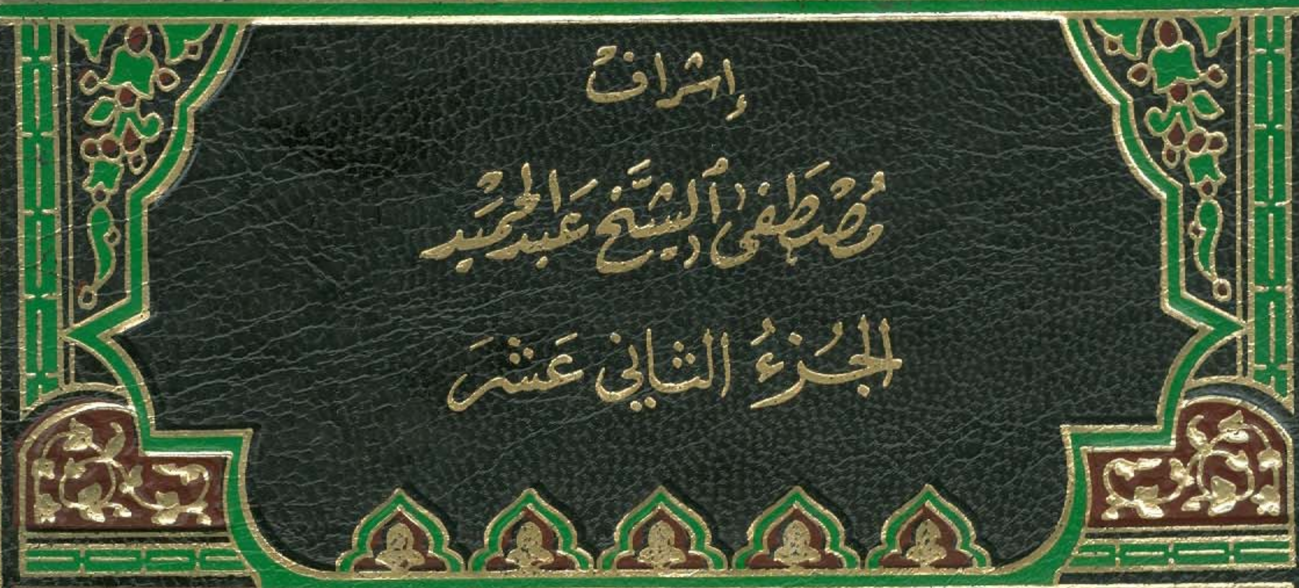
محاضرات الوائلي



إشراف

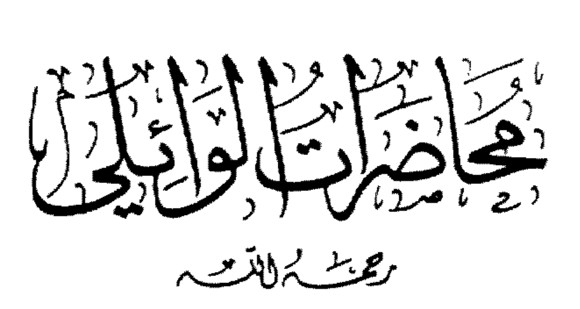
مصطفى الشيخ عبد الحميد

الجزء الثاني عشر

منشورات

شركة دار المصطفى لإحياء التراث

مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر


محاضرات الوائلي
رحمه الله


مصورات
حسين الخزاعي لعام 2012م
مدينة العلم والعلماء قم المقدسة



هوية الكتاب

اسم الكتاب:.... محاضرات الوائلي ج ١٢

المؤلف: .... الشيخ احمد الوائلي ﴿رحمه الله﴾

الناشر: .... ناجي الجزائري

الكمية: .... ١٠٠٠ نسخة

الطبعة: .... الاولى ١٣٨٦ هـ.ش

المطبعة: .... شريعت

الشابك: ١ ـ ١٧ ـ ٢٦٨٢ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨

محاضرات الوائلي

رحمه الله

إشراف

مصطفى آل الشيخ عبد الحميد

الجزء الثاني عشر

منشورات

شركة دار المصطفى لإحياء التراث

الطبعة الأولى

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

يطلب من:
لبنان - بيروت - جادة السيد هادي - مفرق الرويس - بناية اللؤلؤة ط١ -
ص.ب: برج البراجنة - بعبدا - ٢٠٢٠ ١٠١٧ - هاتف: ٠٠٩٦١١٥٤٠٦٧٢
سوريا - دمشق - ص.ب: ٧٣٣ - السيدة زينب - محمول: ٠٠٩٦٣٩٤٤٣٥٦٥٨٤
مؤسسة المصطفى: إيران - قم - خ سمية - ١٦ متري عباس آباد بلاك ٢٤
تلفاكس: ٠٠٩٨٢٥١ - ٧٧٣٨٨٥٥
البريد الإلكتروني: E-mail: mnmnmn3@hotmail.com

منشورات
شركة دار المصطفى لإحياء التراث

﴿٢٠٣﴾

الإسلام في الميزان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَرَدّاً﴾[١].

مباحث الآية الكريمة

تتضمّن هذه الآية الشريفة جملة من المباحث والمضامين العالية، سوف أعرض لها تباعاً إن شاء الله:

المبحث الأول: مسألة النسخ في القرآن

تقول الآية الكريمة: ﴿وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾، وهنا يذهب بعض من المفسرين حول هذا المقطع الشريف منها إلى أن الواو في هذا المقطع الشريف للاستئناف، أي أن ما بعدها كلام مستقلّ لا علاقة له بما قبلها، في حين أن البعض الآخر منهم يذهب إلى أنها عاطفة، وبناء على القول بأنها عاطفة فإنها حينئذٍ ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمسألة كانت وما زالت موضع أخذٍ وردٍّ واحتدام نقاشٍ بين المسلمين، ألا وهي مسألة النسخ.

---

(١) مريم: ٧٦.

إننا نعرف أن في القرآن الكريم أحكاماً شرعت ونزلت ثم بعد ذلك نسخت؛ سواء عُمل بها أو لم يُعمل، وهذا النسخ ولّد نوع شبهة عند بعض المسلمين وفي أذهانهم، وهي شبهة قائمة على التساؤل حول السبب والعلة التي من أجلها يشرع الله تعالى حكماً وينزله، ويأمر المسلمين باتّباعه، ثم بعد ذلك ينسخه ويزيله، مع أنه تعالى يعرف أن هذا الحكم غير صالح للاستمرار، وهذا يعني أنه ينبغي عدم إنزاله بادئ الأمر ثم نسخه.

وهذا الإشكال في واقع الأمر ليس إشكالاً ناهضاً ولا صادراً عمّن له القابلية في التفكير في حقيقة القرآن واستيعابه لكلّ مراحل الحياة ومستجدّاتها. والذين يطرحون مثل هذه الشبهة لم يلحظوا أن البشرية في معرض التطور دائماً، وأن الناس يتطوّرون بشكل أو بآخر، وكذلك أفكارهم وعقولهم وأذهانهم؛ وبالتالي تطوّر مستجدّات الحياة عندهم. وبعد ذلك تأتي مرحلة الأجيال التي يتبلور فيها هذا المفهوم تبلوراً كاملاً من حيث التطوّر والاتّساع في الآفاق والتفكير والذهنيات، وما إلى ذلك.

وهذه المسألة ما زالت في هذا الجانب، وبما أن الدين الإسلامي هو خاتم الأديان فلا دين بعده؛ لذا وجب أن يكون ديناً سيّالاً يصلح لكلّ فترة من فترات الحياة وإلّا كان ديناً جامداً لا يستوعب مشاكل الحياة ومستحدثاتها ومستجدّاتها. فالتطوّر الذهني عند الإنسان أوجب أن يرافقه أو يواكبه تطوّر في الأحكام، وتطوّر في التشريعات حتى يتسنّى لهذه التشريعات أن تغطّي كلّ مقتضيات الحياة في أي زمان وفي أي مكان.

والدليل العملي على هذا هو أننا لو أخذنا عيّنة من جيل ما قبل خمسين سنة، وعيّنة مثلها من جيل ما قبل خمس وعشرين سنة، وعينة ثالثة من الجيل الحالي،

فإننا سنجد أن هناك فوارق في التفكير والاعتقادات والتصرفات والسلوكيات وما إلى ذلك؛ لأن ابن الجيل الحالي بدأ يتفاعل مع منجزات حضارية ضخمة، ومع اختراعات شكّلت قفزة كبيرة جدّاً في عالم التكنولوجيا، كالتلفزيون والكومبيوتر، ومخترعات كثيرة غيرها بخلاف ذلك الذي كان يعيش مثلاً قبل خمسين سنة.

وهذا يعني أنه قد أصبح عندنا معدل نمو في مهارة المخ؛ لأنه بدأ يتفاعل مع أشياء تستدعيه أن يفكر فيها وفي غيرها تفكيراً عميقاً.

ولتقريب الفكرة للذهن أكثر نفرض أن إنساناً يعيش في محيطٍ الدنيا فيه سهلة جداً من حيث التعامل ومن حيث الاستخدام كأن يكون في ذلك المحيط زراعة طبيعية وفيه نخيل وأشجار تثمر بشكل طبيعي، وهناك مياه جارية وخيرات كثيرة وأنهار مليئة بالأسماك، واللحوم المحلّلة متوفرة، والدنيا كلّها من حوله خضراء مونقة زاهية، فهذا الإنسان بطبيعة الحال لا يتفاعل مع هذا المحيط الذي يعيش فيه بعنف كذاك الإنسان الذي يعيش الحياة القاسية والظروف الصعبة وشظف العيش في الصحراء، والذي لا يحصل على رغيف الخبز إلّا بشقّ النفس، وهو يعيش بحذر يحسب الدنيا من حوله وجوداً مليئاً بالخوف.. فهو يعيش حالة يظن الوجود فيها ما بين أرض جدباء وسماء لا تعطي ولا تمطر، وما إلى ذلك. فمثل هذا طبعاً يعيش نمطاً آخر من الحياة، وبالتالي تصبح عنده مهارة أكثر ورجولة أكبر وحركة وسعي بشكل أوسع من ذلك الذي يجد الأشياء كلّها متوفرة من حوله.

إذن فالإنسان بطبيعة الحال يتفاعل مع المحيط بالشكل الذي يقتضيه نوع الحياة التي يعيشها ضمن ذلك الإطار وداخل ذلك المحيط.

الأصابع اليهودية

وعليه فإن هؤلاء غير ملتفتين وغير منتبهين إلى أن النسخ هو لهذه الحكمة، فالله جل وعلا حينما أنزل الأحكام ونسخها كان حتماً ينظر إلى حكمة لا نراها نحن؛ وهذه الحكمة تارة تكون اجتماعية، وتارة تكون أخلاقية، وأُخرى تكون لسبب خارج عن هذين الإطارين، وذلك كأن يكون السبب مما تقتضيه مصلحة الدولة.

اليهود واستقبال بيت المقدس

ولتقريب هذه الفكرة أضرب بعض الأمثلة على ذلك؛ فمن ذلك مسألة القبلة فإن الصلاة أول ما شرعت كان المسلمون يتوجهون إلى بيت المقدس، وقد استمر استقبال بيت المقدس مدة سنتين، فاستغل اليهود هذه الظاهرة وقالوا: إن محمداً يكفرنا ويتوجه إلى قبلتنا، وقد بنى كثيراً من أحكامه على أحكامنا. وهذا الشقّ الأخير من قولهم مبني على أن بعض أحكام التوراة لم ينسخها القرآن الكريم من قبيل: **﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾**[١]، وهذا من الأحكام التي كانت في التوراة ولم ينسخه الإسلام بل أمضاه وجعله تشريعاً للمسلمين.

هذا مع ملاحظة أن هذا الحكم لم يبقِه الإسلام على عمومه؛ ذلك أن هناك نقاشاً بين فقهاء المسلمين حول بقاء حكم **﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾** على عمومه أم أنه قد طرأ عليه تغيرٌ أو تطوير أو ما إلى ذلك، من قبيل مثلاً ما لو قتل حرّ عبداً فهل يقتل به مع أن العبد

---

(١) المائدة: ٤٥.

نفس والحر كليهما نفس واحدة؟ وكما قلنا فإن هناك نقاشاً بين المذاهب الإسلامية حول هذه المسألة؛ فمنهم من يذهب إلى أن الحرّ يقتل بالعبد [١]؛ لأنه لا فرق بين نفس الحر ونفس العبد، فكلاهما وُلد لآدم، ومنهم من يذهب إلى أنه لا يقتل به [٢]. وما هذا الاختلاف بينهما في الرقّية وعدمه إلّا وليد حالة اجتماعية أو ظروف سياسية تعتري المجتمعات سيّما آنذاك، كالحروب وما شاكل. وبعبارة أُخرى فإنه ليس هنالك من يولد في بطن أُمه وهو عبد، فالناس كلّهم يولدون أحراراً، في حين أن البعض يذهب إلى أن الحرّ لا يقتل بالعبد.

موقف الإسلام من الأديان الأخرى

ونظرة الإسلام إلى الأديان السابقة لا تختلف عن اختيار الله تعالى، فالإسلام لم يكن ليكنَّ عداء أو حقداً أو ضغينة على أي دين من الأديان السابقة، بل إنه مكمل ومتمّم وخاتم لتلك الأديان؛ ولهذا فهو لا يعادي حكماً من الأحكام التي وردت في تلك الأديان مما ينسجم مع الفطرة ويتماشى مع العقل ويرتبط بالمصالح الشخصية أو الاجتماعية. فليس من مصلحة للإسلام في أن ينسخ مثل هذه الأحكام، بل إننا نجده يذهب إلى العكس من ذلك وهو إقرار تلك الأحكام التي وردت في الأديان السماوية السابقة، ومن ذلك مسألة الديات التي كانت معمولاً بها حتى بالجزيرة العربية بعيداً عن الأديان السماوية، فهؤلاء كانوا إذا قتل شخص أُعطي أهله ـ كدية عنه ـ ألف دينار، فلما جاء الإسلام أقر هذا الحكم،

---

(١) الدر المختار ٧: ٩٨، الجوهر النقي ٨: ٣٥، تحفة الفقهاء ٣: ١٠١، الاستذكار (ابن عبد البر) ٨: ١٧٤.

(٢) المبسوط (الطوسي) ٦: ١٤٥، المغني ٩: ٣٥٤، ٤٣١، ، المجموع شرح المهذّب ١٨: ٣٥٨.

وجعله مما يتعبّد به المسلمون؛ لأنه رآه لا يتنافى مع الفطرة، بل إنه على العكس من ذلك ينسجم معها ومع القوانين والأعراف السائدة؛ لما فيه من جنبة إصلاح أو حقن الدماء.

وهكذا نجد أن الإسلام يتّخذ مثل هذا الموقف المسالم والموقف غير الرافض لكثير من الأحكام وفي كثير من المواقف حتى تلك التي كانت سائدة عند المجتمعات التي لا تدين بالإسلام.

ومن هذا أيضاً قطع يد السارق، وهو حكم أقرّه الإسلام وليس من مبتكراته، بل إنه من الأُسس التي وضعها عبد المطلب ﵇ والتي أقرّها الإسلام بعد مجيئه. وكما قلنا فهذا الحال تشبهه الكثير من الحالات التي أقر فيها الإسلام أحكاماً لم تكن هي من مبتكراته وإنما هي من إمضاءاته [1].

وهكذا نجد أن اليهود قد استغلّوا هذه الظاهرة التي ساير فيها الإسلام دينهم، فقالوا: إن محمداً عائلٌ علينا؛ فقد أخذ من تفكيرنا ومن أحكامنا ومن كتابنا، ثم بعد ذلك اتّجه لقبلتنا.

وأخذ هذا الموضوع يُحدث شبهة ليس عند اليهود فقط، بل عند بعض ضعاف الإيمان من المسلمين، ثم أخذت هذه المسألة تنحو طابعاً له علاقة بالعقيدة بصورة عامة؛ ولهذا فإن المصلحة قد اقتضت أن ينسخ حكم الصلاة إلى بيت المقدس. وهكذا أمر الله المسلمين بالتوجه إلى الكعبة المشرفة عند أداء الصلاة. وفعلاً تحوّل النبي ﷺ عن بيت المقدس إلى الكعبة؛ لأن التوجّه إلى الأُولى أصبح مورداً من موارد الشبهة التي يتمسّك بها بعض اليهود وبعض ضعاف الإيمان من المسلمين؛ فغدت بذلك مورداً من موارد إضعاف الدين؛ لأنهم ظنّوا أن الدين

---

(١) فالإسلام تارة يؤسّس حكماً ابتداء، وتارة يمضي حكماً كان موجوداً.

الإسلامي عائل على الفكر اليهودي وليس متمّماً له.

اليهود وكتب التفسير

وليس هذا فقط بل إن اليهود لعبوا دوراً خطراً في التفسير، ذلك أن القارئ أو الباحث إذا أراد أن يطلع على بعض كتب التفسير عند المذاهب الإسلامية فإنه سوف يجد بصمات اليهود واضحة عليها. وهذه هي الصفة الغالبة لتفاسير أهل المذاهب الإسلامية الأُخرى، أما تفاسيرنا فهي تكاد تخلو من هذه النظريات إلّا من بعضها التي تنقل نظريات لها جذور يهودية[١]، وهكذا فإننا نجد أن المذاهب الإسلامية الأخرى وفرق المسلمين من غير الشيعة أكثر تأثّراً بهذه النظريات اليهودية، وأكثر نقلاً لها من الإمامية.

نظرة حول عبد الله بن سبأ

والمصيبة أن الأصابع اليوم تتوجه اليوم إلى الشيعة وإلى التفسير والفقه الإماميّين بأن فيهما رواسب يهودية جاءتهما عن طريق عبد الله بن سبأ، مع أن عبد الله بن سبأ شخصية وهمية وهو أمر مقطوع به ولا يتطرق إليه الشك أو الريب أبداً؛ فهو شخصية مختلقة كما عبر عنها بذلك الدكتور طه حسين حيث قال: لقد ادّخره خصوم الشيعة للشيعة [٢].

إذن نسخ القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة كان فيه هدف عقيدي، وربما يترشح منه هدف سياسي لما وضحنا وذكرنا من موقف اليهود إزاء توجه

---

(١) وذلك في كتب التفسير التي تجمع بين آراء الشيعة والسنة وتنقل مذاهبهم في التفسير وآراءهم في هذا المجال، ككتاب (مجمع البيان) وغيره. وأصحاب هذه المؤلّفات إنما ينقلون هذه الآراء لأجل استعراضها فقط، فليس الغرض من هذا النقل تبنّيها أو القول بها.

(٢) الفتنة الكبرى ١ : ١٣١.

الرسول ﷺ إلى بيت المقدس، وإزاء بعض الأحكام التي كانت معمولاً بها في التوراة ولم ينسخها القرآن الكريم. غير أن هؤلاء المعترضين لم ينتبهوا ولم يتوجّهوا إلى النكتة في نظرية النسخ، وأنهم لا بد أن يكونوا قاصرين في هذا المجال؛ لأنهم حينئذٍ سوف يحكمون على أنفسهم بأنهم مغرضون؛ لعدم تبريرهم هذا الاعتراض. بل إنهم ربما حكموا على القائل بالنسخ بالكفر؛ لأنهم يظنون ويصورون عملية النسخ على أنها علم بعد جهل.

ضريبة الزكاة

وكمثال آخر نذكر أن النبي ﷺ في أول بعثته في الجزيرة العربية كانت الحالة المالية للمسلمين آنذاك على نحوين:

الأوّل: الأثرياء

فبعض المسلمين كانوا أثرياء إلى درجة أن ثراءهم يعتبر فاحشاً، وكان هؤلاء قلة قليلة لا تتجاوز الـ(٣٪).

الثاني: المسحوقون

وهم القسم الأكبر، والنسبة الأعلى، وكانوا فقراء فقراً مدقعاً إلى درجة أنهم ممّا يمكن أن يصحّ إطلاق مصطلح (ذوي متربة) عليهم. ولهذا فإن المشرع المقدّس أول شيء أنزله على النبي ﷺ بالنسبة للموضوع الاقتصادي هو قوله تعالى: ﴿خُذْ الْعَفْوَ﴾[1]، أي خذ كلّ ما فضل عن نفقة هؤلاء، ولذا فإن النبي ﷺ أرسل خلف الأثرياء وبيّن لهم بأن الله قد أمرهم بأن يأخذ الفضل من النفقة ويعطيها إلى فقراء المسلمين.

---

(١) الأعراف: ١٩٩.

وهذا ما فعله الرسول الأكرمﷺ، وطبّقه على الواقع العملي، وبذا فإنه أعاد عملية التوازن إلى المجتمع، ليرفع الفقراء عن مستوى فقرهم المدقع، ولينزل بالأغنياء عن مستوى ثرائهم الفاحش. وبعد أن استقر الوضع الاقتصادي، وفتح الله على المسلمين خيرات الأرض، جاء حكم آخر ينسخ هذا الحكم؛ فالزراعة قد نمت، والتجارة كذلك، إضافة إلى ما يعود على المسلمين من بعض مغازيهم، وبهذا فإن الحال الاقتصادي للدولة الإسلامية وللمسلمين قد بدأ يتغير نحو الأحسن، وبدأت مؤشراته تشير إلى نوع من التحسّن الاقتصادي، وارتفاع في الدخل. ولذا فقد نزلت آية الزكاة التي نسخت هذا الحكم، فأصبحت الفريضة أو الضريبة الواجبة تؤخذ عن طريق الزكاة وليس عن طريق أخذ العفو، ثم بعد ذلك جاءت نظرية الخمس التي كانت نظرية مكملة لنظرية الزكاة في عملية إعادة التوازن في توزيع الثروة داخل المجتمع.

نظرة على فريضة الخمس

وبما أننا قد تطرقنا إلى هذه المسألة، ومن باب «أن الشيء بالشيء يذكر» نودّ أن نعرّج على قضية تشغل علماء المسلمين، وقد وقع بينهم حولها نزاع حاد وهي نظرية الخمس، فالواقع أن هناك دوياً حول هذه النظرية، وجدالاً عميقاً تمتدّ جذوره إلى عمق التاريخ الإسلامي، وما زال علماء المسلمين حتى الآن منشغلين في هذه المسألة، مع أنها نظرية واضحة ليس فيها غموض أو إبهام. وما هذا الدويّ إلّا لأنها جاءت عن طريق أهل البيت عليهم السلام وليس عن طريق غيرهم؛ لأنها لو كانت قد جاءت عن طريق غيرهم لكان الأمر مختلفاً، ولأصبحت حينئذٍ نظرية صحيحة معقولة ومقبولة، ولا إشكال فيها.

على أيّ حال فإن الآية نزلت لتحوّل هذا المبلغ الضرائبي من طريق أخذ العفو

إلى طريق أخذ الزكاة والخمس من بعدها، أي أن هذه الآية قد نسخت آية العفو. وهذا حكم من الشارع المقدس، وهو حكم قد راعى فيه تطور المجتمع وتغيّر حالته الاقتصادية.

نظرة حول مناهج التفسير

ولهذا فإننا نجد عندنا أن هناك مسارات فكرية متطرّفة جداً، وهي مسارات موجودة عند بعض الآراء التي تتناول القرآن الكريم مادة للتفسير. ومن هذا أننا حينما نأتي إلى المفسرين فإننا نجد عندهم تيارات متأثرة بسبب أو بآخر بنظرية معينة، وحينما يلج الباحث حول هذا الأمر هذا المجال ليرى من أين أخذ هذا التيار اليساري فإننا نجده قد استند إلى جذر دون أن يعالَجَ معالجة كافية، ومن هذا قوله تعالى: **﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً﴾**[(١)].

فالسفيه هو الذي تنقصه المهارة والحكمة في التصرف في الأشياء ومن ضمنها الأموال، بمعنى أنه يضع الأشياء في غير مواضعها. ومع هذا التفسير اللغوي نجد أحد المفسّرين، وهو الضحاك الذي يعتبر مدرسة مستقلّة في علم التفسير عند المذاهب الإسلامية يصرّح بأن المراد بالسفهاء في الآية الكريمة هنا: النساء؛ لأنهن لا يحسنَّ التصرف مطلقاً[(٢)].

---

(١) النساء: ٥.

(٢) جامع البيان ٤: ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٩، تفسير ابن أبي حاتم ٣: ٨٦٣ / ٤٧٨٥.
وقد ورد في كتبنا أيضاً، لكنه موجّه بالمرأة السفيهة، لا عموم المرأة وإن شذّ بعضها، فعن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً﴾ قوله عليه السلام: «فالسفهاء النساء والولد، إذا علم الرجل أن امرأته سفيهة مفسدة، وولده سفيه مفسد فلا ينبغي له أن يسلّط واحداً منهما على ماله الذي جعله الله قياماً، أي معاشاً». تفسير القمي ١: ١٣١.

ولست ادري من أين جاء الضحاك بهذا الكلام، مع أن الإسلام يعطي المرأة ذمة مالية كما أعطى الرجل تلك الذمة، وعليه فلو كانت المرأة من هذا النمط (السفهاء)، فلماذا إذن يعطيها الإسلام تلك الذمة المالية التي يصح بموجبها أن تمتلك الأشياء، وأن تتصرف بها بيعاً وشراء وهبة وجعالة وما إلى ذلك من سائر التصرفات التي أباحها المشرع الإسلامي؟

ولو أننا تتبعنا السبب الموجب الذي دعاه إلى هذا القول لوجدنا أنه قد عاش أفقاً جاهليّاً ضيّقاً يرى أن المرأة تنحط عن الرجل وتنزل عن مستواه بكثير من القيم. وهذا يعني أن هذا المفسر قد تأثر من قريب أو بعيد بالحضارة الجاهلية والفكر الجاهلي السائدين آنذاك، ولهذا فإننا نجده يقول: إن هذه الأموال لا تعطى إلى المرأة، بل يجب أن تكون ذمتها المالية تابعة لذمة الرجل. وهذا الأمر لا يقتصر على المسلمين فقط؛ بل إنه يتجاوزهم ليصل إلى القوانين الأوروبيّة كذلك كما هو معروف عن القانون الفرنسي والقانون الانكليزي اللذين كانا إلى حد قريب ينظران إلى المرأة هذه النظرة السلبية المتعالية، ولا يعطيانها الحقّ في أن تكون لها ذمّة مالية مطلقاً؛ لأنهما يعتبرانها تابعة للزوج وخاضعة له، أي أنها ليس لها وجود مستقل، بل إن وجودها وجود يتبع غيرها، وهو وجود الرجل.

وهذه الأفكار بطبيعة الحال قد تقادم عليها العهد، وأصبحت في خبر كان، لكننا عندما نبحث في مسارات الفكر الإسلامي نجدها موجودة أيضاً.

المبحث الثاني: تحديد مفهوم الهداية

وإذ تقول الآية الكريمة: ﴿وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾، فإن للمفسرين في معنى الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ﴾ رأيين:

الرأي الأول: أنها عاطفة

والمراد من الآية الكريمة حينئذٍ أنه بعد أن وقع النسخ جاءت مبينة أن هؤلاء الذين اهتدوا بالحكم المنسوخ سيزيدهم الله هدى بالحكم الناسخ. وكتوضيح لهذا نرجع إلى المثال الذي ضربناه وهو أخذ النبي ﷺ العفو من أموال الأغنياء والذي نسخ بعد ذلك بآية الزكاة، فحينما أخذ النبي ﷺ الأموال الزائدة عن حاجة الأغنياء السنوية كانت عملية تتوفر على هدىً للمجتمع، ولما تطور المجتمع وتقدّم، وارتفع المستوى المعيشي لأفراده ولجأ بعضهم للصناعة والزراعة والتجارة وما إلى ذلك اقتضت المصلحة أن يستبدل حكم أخذ العفو بحكم الزكاة، وهي النسبة الثابتة على الأموال. فحكم الزكاة زاد هؤلاء الذين أعطوا العفو أول مرة هدى على هداهم؛ لأنه أشعرهم أنهم في حالة جوع المجتمع وحاجته لابد أن تفرض عليهم ضرائب إضافية كي تسدّ تلك الحاجة، أما إذا كان المجتمع مرفّهاً ويغلب عليه طابع الغنى والثروة وعدم الحاجة فلا حاجة حينئذٍ للضرائب الثانوية.

فهؤلاء بهذا المعنى وبهذا التصرف وبهذا الانقياد للتشريعين زادوا هدىً على هداهم؛ لأنهم كانوا مهتدين ثم ازدادوا هدىً عليه. ومثل هذا حال مع المسلمين الذين صلّوا أول أمرهم إلى بيت المقدس عندما افترضت الصلاة وفي هذا هدىً لهم؛ لكن بعد أن نُسخ هذا الحكم وجعلت القبلة إلى بيت الله الحرام، وانقادوا وانصاعوا إلى هذا الأمر، فإنهم قد ازدادوا هدىً على هداهم.

الرأي الثاني: أنها استئنافية

إن من يذهب إلى هذا الرأي ويرَ أن الواو هنا ليست عاطفة وإنما هي استئنائية يذهب إلى أن هذا حكماً لا علاقة له بالموضوع، وإنما هو حكم تربوي. بمعنى أننا لو فرضنا أن أربعة أشخاص دخلوا إلى الصف وهم في سن موحدة لكن قسماً منهم

يمتاز بأن عنده معلومات أولية ثم راح يتابع هذه المعلومات وينمّيها ويطبّقها على ما يأخذوه في المدرسة من معلومات فتزداد بذلك حصيلته العلمية، أما القسم الآخر فلديهم معلومات أولية لكنهم لم يستثمروها كما استثمرها الصنف الأول. ففي مثل هذه الحالة نجد أن المعلم سينصبّ إقباله على القسم الذي يستثمر معلوماته بشكل أكبر؛ لأنه يجد عنده استعداداً لتقبُّل المعلومة ولفهمها وحفظها وتطبيقها.

وبالرجوع إلى موضوعنا فإننا نجد أن المفسرين يقولون: إن معنى قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ هو أن الإنسان الذي يكون على درجة معينة من الهدى إذا توجه إلى الله جلا وعلا أكثر، بمعنى أنه أوجد في نفسه الاستعداد والقابلية للاستزادة منه؛ فإن الله جلّ وعلا سوف يفيض عليه من رعايته وهدايته بشكل أكبر.

ولتقريب المعنى نروي هذه الحادثة وهي أن السفاح كان جالساً في يوم من الأيام، وقد حضر أبو بكر الهذلي عنده مع جماعة من أصحاب السفّاح، فأقبل السفاح عليه يحدّثه بحديث لأنوشروان في بعض حروبه بالمشرق مع بعض الملوك، وقد تشاغل بعض من في المجلس عن الحديث لسبب ما، وبقي الهذلي مقبلاً عليه تمام الإقبال، وفجأة عصفت ريح شديدة، فأذرت تراباً وقطعاً من الآجر من أعلى السطح إلى المجلس، وسقطت صخرة على جبين الهذلي، فشجّته وسال دمه، فجزع من حضر المجلس لوقعها وارتاع لها، والهذلي شاخص نحو أبي العباس لم يتغير كما تغيّر غيره، ولم يرتع لما سال منه من دم فقال له السفّاح: لله أنت يا أبا بكر، لم أرَ كاليوم، أما راعك ما راعنا، ولا أحسست بما ورد علينا؟ فقال: يا أمير المؤمنين، ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ

﴿فِي جَوْفِهِ﴾[1] وإنما للمرء قلب واحد، فلمّا غُمر بالسرور لفائدة أمير المؤمنين، لم يكن فيه لحادث مجال. وما هذه إلّا كرامة خصصت بها، فمال إليها ذهني، وشغل بها قلبي، فلو انقلبت الخضراء على الغبراء ما أحسست بها، ولا جمعت لها إلّا بما يلزمني في نفسي لأمير المؤمنين.

فسرّ السفّاح بقوله هذا وقال له: لئن بقيت لك، لأرفعن منك ضبعاً لا تطيف به السباع، ولا تنحطّ عليه العقبان. ثم سأل الكاتب: كم عطاؤه؟ قال: ثلاثمئة. قال: ارفعه إلى ألف، واجعله من ندمائي المختصّين؛ لأنه قد أقبل عليّ فوجب أن أُقبل عليه[2].

ونظير هذه الحادثة حادثة أُخرى وقعت لكسرى، ذلك أنه كان في يوم من الأيام يمشي على نهر دجلة، وكان من عادته أنه إذا التفت إلى جهة اليمين جاءه الموبذان، أي صاحب النار، وإذا التفت إلى جهة الشمال جاءه قائد الجيش، وحدث أن التفت إلى الشمال، فجاءه قائد الجيش فأخذ يحدّثه بحديث كان مشهوراً، فتصنّع قائد الجيش الجهل به وأظهر له كأنه لم يسمع به. ولمّا انتهى من حديثه أمر فملئ فمه أحجاراً كريمة.

والشاهد من هذا أنه قد جرت العادة على أن العقلاء يقبلون على من يقبل عليهم.

ومن هنا فإنني أود أن أُلفت النظر إلى نقطة هامّة جدّاً هي أن الخطاب القرآني حينما يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مع أن الخطاب الشرعي والتكاليف الشرعية موجّهة للناس كافّة لهو أمر يسترعي الانتباه، ويستدعي التساؤل؛ فمن المفترض أن يقول: يا أيها الناس مثلاً ولم يقل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا

---

(١) الأحزاب: ٤.

(٢) انظر شذرات الذهب ١: ١٩٦ ـ ١٩٧.

كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[١].

وللإجابة على هذا الإشكال نقول: إننا نعلم أن الصوم واجب على كلّ الناس[٢]، لكن القرآن الكريم إذ خص المؤمنين بالنداء لهذه الفريضة فلأنهم أكثر إقبالاً على الله تعالى من غيرهم؛ باعتبار أن المؤمن أكثر طاعة وأكثر استجابة لله جلّ وعلا من غيره[٣]؛ لأن هذا عنده استعداد أكثر من غيره؛ ولذا فإن الله جلّ وعلا يزيده أكثر مما يزيد غيره.

تهافت الكتّاب

ومن باب أن الشيء بالشيء يذكر نتقل هذه الطريقة عن اليزيدية، وهي طريفة يرويها أحد الكتّاب عنهم وإن كنت لا أستطيع أن أعتبر هذا الكتاب مصدراً من مصادر العقيدة اليزيدية؛ لأن المسلمين يعيشون مشكلة حقيقية خطرة وهي أن أحدهم حينما يريد أن يكتب عن طائفة من الطوائف الإسلامية أو مذهب من مذاهبه أو عقيدة عن عقائد طائفة من المسلمين فإنه لا يعتمد على كتب تلك الطائفة، ولا يستند إلى مصادرها المشهورة أو المعروفة، ولا يرتكز في كتابته هذه أو بحثه هذا إلى أساس من الواقع المبتني على الدليل الوارد في كتب الخصم؛ لأنه إنما يرجع في دراساته حول عقائد تلك الطائفة أو أحكامها وتشريعاتها إلى كتب غيرهم، وإلى نقد مَن كتب عنهم لهم لينتقدهم به.

وهذا خطأ فاضح فادح؛ لأنه إسفاف وعدم استناد إلى دليل كما فعل أحمد أمين مثلاً في كتبه؛ حيث إنه أخذ الأفكار والآراء التي طرحها فيها عن الشيعة عن طريق المستشرقين. وكذلك فعل طه حمادي الذي كتب عن أدب الشيعة وغيرهما

---

(١) البقرة: ١٨٣. (٢) بناء على القول بأن الكافر مكلّف بالفروع.

(٣) ومثله قوله تعالى: ﴿أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ مريم: ١٨.

ونظائرهما من هذا النوع. وهؤلاء حينما تسألهم عن مصدرهم الذي استقوا منه معلوماتهم حول الشيعة فإنهم يقولون: قد كتبنا آخذين ما نقلناه من المستشرقين. ولسنا ندري ما الذي يحدوهم أن ينقلوا آراء الشيعة عن غير الشيعة مع أن كتب الشيعة منتشرة في كل مكان ومشتهرة، ومع أن مكتباتهم مليئة بأُمهات المصادر المتوفرة والمتيسرة لكل باحثٍ، ومبثوثة في كل أرجاء الدنيا.

إن هؤلاء يمشون مشية الأعور إذ ينقلون عن طريق مستشرقٍ ربما يكون حاقداً أو ربما لا يفهم معاريض الكلام ولا يفهم حقيقة النص، فيكتب كتابة غير صحيحة، وينقد نقداً غير علمي أو أكاديمي أو منهجي وما إلى ذلك، ثم يأتي دور هؤلاء فينقلون عنه ماكتب بحذافيره دون إعمال رأي ودون الرجوع إلى المصدر الحقيقي لتلك الطائفة، وبالتالي يبنون أحكامهم بتفكيرهم على ذلك. ولهذا فإننا نجد أن الكثير من الكتّاب يكتبون عن آدم ميتس صاحب كتاب (الحضارة الإسلامية) آخذين عنه ما كتبه عن الشيعة، مع أن كتبنا كما ذكرنا تملأ الدنيا. وعليه فأنا لا أستطيع أن أعتمد على كتاب لا ينقل عن مصادر تلك الطائفة التي يتكلّم عنها، ومنها هذا الكتاب الذي يتكلم عن اليزيدية، فأنا لا أطمئن إلى كتاب كهذا؛ لأنه ربما يحوي من المعلومات ما لا أساس له ولا أصل، بل إنه ينقل قضايا مشهورة بين الناس ليس لها أي أساس أو نصيب من الصحة [١].

على أيّ حال فقد رأيت هذا الكتاب وقرأته، وهو يتكلّم عن الطائفة اليزيدية، وهؤلاء حينما يتناولون هذه الآية الكريمة يقولون: إن القرآن الكريم نصّ على أُلوهيّة يزيد، وحينما يسألون عن الكيفيّة التي يكون فيها هذا النص على أُلوهيّته، يجيبون بأنه تعالى قال: ﴿وَيَزِيدُ اللهُ﴾.

---

(١) وربّ مشهور لا أصل له.

ونظير هذا التفسير طريفة تنقل عن رجل قيل له: لمَ لا تصلي؟ فقال: أنا لا أُصَلي امتثالاً لأمر القرآن؛ لأنه نهى عن الصلاة. فقيل له: كيف؟ قال: إن القرآن الكريم يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ**﴾؛ ولهذا فأنا لا أُصَلي. إن مثل هذا لم يكن ليكمل الآية؛ لأنها تتنافى مع رغبته ولذا فهو لم يقرأ تتمّتها حيث يقول تعالى: ﴿**وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا**﴾[1].

فهذا قد اكتفى بالقسم الأول منها؛ لأنه يتناغم مع رغبته وهواه. واليزيديون وفق هذا الكتاب لم يكملوا الآية، بل أخذوا منها ما يتناسب مع أهوائهم، مع أننا لو قرأناها بقراءتهم لبقيت تتمتّها ـ وهي قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى**﴾ ـ من غير معنى. فهؤلاء من نمط هذا الرجل الذي لم يكن ليصلي متذرّعاً بأن القرآن قد نهاه عن الصلاة.

وإني قد ذكرت هذه الطريفة من باب أن الشيء بالشيء يذكر ـ كما قلت ـ وإلّا فإن هذا النمط من الروايات لا يمكن لأحد أن يطمئن إليه أو يعتمد عليه ما لم تأتِ هذه الروايات عن طريق أهلها أو أصحابها أو من يمثلهم من أبناء تلك الطائفة، بمعنى أن الكتاب الذي يمثل عقيدة شخص ويتكلّم عنها يجب أن يكون مأخوذاً من فكر ذلك الشخص ومن كتبه ومن أساطين مذهبه؛ لأنهم هم الذين يَمثّلون هذا المذهب بأقوالهم أو بكتاباتهم وهم أدرى بالبيت وبالذي فيه. أما أخذ ذلك عن طريق الخصوم، فهذا أمر مرفوض وغير صحيح؛ لأن الخصم يمكن أن ينسب إلى خصمه ما ليس فيه نكاية به، وتجريحاً له، وانتقاماً منه.

---

(١) النساء: ٤٣.

ولكلّ هذا فإننا نقول: إن هذا ليس من الإنصاف في شيء؛ وبهذا فإننا لا يمكن أن نقول: إن هذه النظرية صحيحة مئة بالمئة ولا إنها مكذوبة أو مخترعة عليهم وملفقة لهم مئة بالمئة أيضا، وتبقى الاحتمالات واردة.

المبحث الثالث: في معنى الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾، وللمفسرين في هذا المقطع الشريف من الآية الكريمة آراء ثلاثة:

الرأي الأول: أنهنّ البنات الصالحات

وهذا الرأي ربما يكون مثار تعجب واستغراب من البعض لكن كتب التفسير تنصّ عليه. وهذه النظرية في واقع أمرها تعتبر نظرية ضخمة في المنظور الإسلامي، وليست أمراً بسيطاً كما لعلّه يظن البعض، فهن الباقيات؛ لأنهن المنبع الذي يمدّ الجيل بالبقاء.

فالمرأة هي وسيلة الإنتاج التي تلد الأجيال للمجتمع، وتزوّده بالنواة الصالحة التي تتطوّر لتصبح فرداً صالحاً فيما لو كانت المرأة صالحة. ولذا فهي باقية لأن امتدادها الطبيعي باقٍ في المجتمع، يعني أن ذاتها ممتدّة في بناتها؛ ولذا فإن المشرع الإسلامي لا يجيز الزواج من البنت وإن نزلت حتى وإن كانت ابنة ابنه أو ابنته الخمسين أو أكثر، وهذا فيما لو عمر الرجل أكثر من باقي أبناء جنسه. فمهما تعدّدت الأظهُر بينه وبين بناته من الآباء أو من الأُمّهات فإنه لا يحق له الزواج منهن لأنه فاحشة.

بين الإمام الكاظم عليه السلام والرشيد

وهذا أحد الأُمور التي احتج بها الإمام موسى بن جعفر عليه السلام حينما أُدخل على

هارون الرشيد، بعد أن أوقفه شهراً كاملاً؛ فالإمام موسى بن جعفرعليه السلام كان يمثل الشاخص الذي يذكّر المسلمين الخلّص بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم من وجهة نظر هـؤلاء؛ ولذا فإن الرشيد كان دائماً ما يعمد إلى أن يبدأ الإمامعليه السلام ببعض المواقف التي يـظنّها صعبة على الإمامعليه السلام، وفي هذه المحاورة التي سنذكرها مثال واضح على هذا:

كان الإمامعليه السلام يأتي كل يوم إلى مجلس الرشيد بعد أن يبعث إليـه جـلاوزته فيقولون له: أجب الخليفة. وحينما يصل إلى باب الرشيد يوقفونه هناك ويـبقونه منتظراً حتى تنتهي الفترة المخصّصة لاستقبال النـاس، وحـينذاك يـأتون إليـه ويقولون له: لقد قام الرشيد من مجلسه، وعليه فيجب أن تأتي غداً. وبقي على هذا الحال مدة شهر كامل حيث سمح له الرشيد بأن يدخل عليه، وبعد ذلك وقبل أن يأذن له بالجلوس سأله هذا الأخير قائلاً: يا موسى بن جعفر، خليفتان يجبى إليهما الخراج؟ فقالعليه السلام: «**أُعيذك بالله أن تبوء بإثمي وإثمك، وتقبل الباطل من أعدائنا علينا؛ فقد علمت أنه قد كذب علينا منذ قبض رسول الـلهصلى الله عليه وآله وسلم بـما عُـلم ذلك عندك؛ فإن رأيت بقرابتك من رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم أن تأذن لي أُحدّثك بحديث أخبرني به أُبي عن آبائه عن جده رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم**».

فأطرق الرشيد وقال: قد أذنت لك. فقالعليه السلام: «**أخبرني أبي عن آبائه عن جده رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: إن الرحم إذا مسّت الرحم تحرّكت واضطربت، فناولني يدك**». فقال: ادنُ. فدنا منه، فأخذ بيده ثم جذبه إلى نفسه وعانقه طويلاً ثم تركه وقال: اجلس يا موسى، فليس عليك بأس. وقد دمعت عيناه ثم قال: صـدقت وصدق جدّكصلى الله عليه وآله وسلم؛ لقد تحرّك دمي، واضطربت عروقي، حتى غلبت علي الرقّة، وفاضت عيناي، وأنا أُريد أن أسألك عن أشياء تتلجلج في صدري منذ حين، لم أسأل عنها أحداً، فإن أنت أجبتني عنها خلّيت عنك، ولم أقبل قول أحد فيك، وقد

بلغني أنك لم تكذب قطْ، فأصدقني عما أسألك ممّا في قلبي. فقال له الإمام عليه السلام: **«ما كان علمه عندي فإني مخبرك إن أنت أمنتني»**.

فقال له الرشيد: لك الأمان إن صدقتني وتركت التقيّة التي تعرفون بها معشر بني فاطمة. فقال له عليه السلام: **«اسأل عمّا شئت»**. قال: أخبرني لم فضّلتم علينا ونحن من شجرة واحدة، وكلّنا بنو عبد المطلب، ونحن وأنتم واحد؛ فإنّا بنو العبّاس وأنتم ولد أبي طالب، وهما عمّا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقرابتهما منه سواء؟ فقال عليه السلام: **«نحن أقرب»**. قال: وكيف ذلك؟ قال عليه السلام: **«لأن عبد الله وأبا طالب لأب وأُمّ، وأبوكم العباس ليس هو من أُم عبد الله، ولا من أُم أبي طالب»**.

ثم قال: فلم ادّعيتم أنكم ورثتم النبي صلى الله عليه وآله وسلم والعم يحجب ابن العم، وقبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد توفّي أبو طالب قبله، والعبّاس عمّه حي؟ فقال عليه السلام له: **«ان رأى الخليفة أن يعفيني من هذه المسألة، ويسألني عن كلّ باب سواها يريده»**. فقال: لا، أو تجيب. فقال: **«إن في قول علي بن أبي طالب عليه السلام: إنه ليس مع ولد الصلب ذكراً كان أو أُنثى لأحد سهم إلّا للأبوين والزوج والزوجة، ولم يثبت للعم مع ولد الصلب ميراث، ولم ينطق به الكتاب، إلّا إن تيماً وعدياً وبني أُميّة قالوا: العم والد، رأياً منهم بلا حقيقة ولا أثر عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. وممّن قال بقول علي عليه السلام من العلماء فقضاياهم خلاف قضايا هؤلاء: نوح بن دراج يقول في هذه المسألة بقول علي عليه السلام، وقد حكم به، وقد ولّاه أمير المؤمنين المصرين: الكوفة والبصرة، وقد قضى به»**.

فأمر بإحضاره وإحضار من يقول بخلاف قوله، ومنهم سفيان الثوري وإبراهيم المدني والفضيل بن عياض، فشهدوا بأنه قول أمير المؤمنين عليه السلام في هذه المسألة، فقال لهم: أبلغني به بعض العلماء من أهل الحجاز، فلم لا تفتون به، وقد قضى به

نوح بن دراج؟ فقالوا: جسَر نوح وجبنّا، وقد أمضى أمير المؤمنين قضية يقول قدماء العامّة عن النبي ﷺ أنه قال: «**علي أقضاكم**». وكذلك قال عمر بن الخطاب: علي أقضانا. وهو اسم جامع؛ لأن جميع ما مدح به النبي ﷺ أصحابه من القراءة والفرائض والعلم داخل في القضاء.

وهنا يسأله الإمام عليه السلام: ما تقول في حديث «**علي أقضاكم؟**». فأجابه بأن هذا الحديث ثابت ولا سبيل إلى نكرانه. ذلك أن أحد رواته عبد الله بن عباس جد الرشيد، فقال له الإمام عليه السلام: «**فما معنى: أقضاكم؟**». قال: أي بالحلال والحرام والشرائع والأحكام. فقال له الإمام عليه السلام: «**فهذا هو رأي علي عليه السلام في هذه المسألة، وهو الأعرف بالحلال والحرام والشرائع والأحكام**».

ثم التفت إلى الإمام عليه السلام وقال: زدني يا موسى. فقال عليه السلام: «**المجالس بالأمانات، وخاصّة مجلسك**». فقال: لا بأس عليك. فقال عليه السلام: «**إن النبي ﷺ لم يورّث من لم يهاجر، ولا أثبت له ولاية حتى يهاجر**». فقال: ما حجّتك فيه؟ فقال عليه السلام: «**قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾**[1]**، وإن عمّي العبّاس لم يهاجر**».

فقال له: أسألك يا موسى، هل أفتيت بذلك أحداً من أعدائنا، أم أخبرت أحداً من الفقهاء في هذه المسألة بشيء؟ فقال عليه السلام: «**اللهم لا، وما سألني عنها إلّا أمير المؤمنين**».

ثم قال: فلم جوّزتم للعامّة والخاصّة أن ينسبوكم إلى رسول الله ﷺ، ويقولون لكم: يا بني رسول الله ﷺ، وأنتم بنو علي، وإنما ينسب المرء إلى أبيه، وفاطمة إنما هي وعاء، والنبي ﷺ جدّكم من قبل أُمّكم؟

---

(١) الأنفال: ٧٢.

فأجابه الإمام عليه السلام بقوله: «**لو أن النبي ﷺ نشر فخطب إليك كريمتك، هل كنت تجيبه؟**». فقال: سبحان الله، ولم لا أُجيبه؟ بل افتخر علي العرب والعجم وقريش بذلك. فقال عليه السلام له: «**لكنه ﷺ لا يخطب إلي، ولا أُزوّجه**». فاستغرب الرشيد من هذا، وقال: ولم؟ فقال عليه السلام: «**لأنه ﷺ ولدني ولم يلدك**».

فقال: أحسنت يا موسى، وفي رواية أنه قال: قال: كيف قلتم: إنا ذرّيّة النبي ﷺ والنبي ﷺ لم يعقّب، وإنما العقب للذكر لا للأُنثى، وأنتم ولد البنت ولا يكون لها عقب؟ فقال عليه السلام له: «**أسألك بحقّ القرابة والقبر ومن فيه إلّا ما أعفيتني عن هذه المسألة**». فقال: لا، أو تخبرني بحجّتكم فيه يا ولد علي، وأنت يا موسى يعسوبهم وإمام زمانهم، ولست أعفيك في كل ما أسألك عنه حتى تأتيني فيه بحجّة من كتاب الله تعالى، وأنتم تدّعون معشر ولد علي أنه لا يسقط عنكم منه بشيء؛ ألفٌ ولا واوٌ إلّا وتأويله عندكم، واحتججتم بقوله عزّ وجلّ: ﴿**مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ**﴾[1]، وقد استغنيتم عن رأي العلماء وقياسهم. فقال عليه السلام: «**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[2]، من أبو عيسى؟**». فقال: ليس لعيسى أب. فقال عليه السلام: «**إنما ألحقناه بذراري الأنبياء عليهم السلام من طريق مريم عليها السلام، وكذلك أُلحقنا بذراري النبي ﷺ من قبل أُمّنا فاطمة عليها السلام**».

ثم قال عليه السلام: «**أزيدك قول الله عزّ وجل: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ**

---

(١) الأنعام: ٣٨.

(٢) الأنعام: ٨٤ ـ ٨٥.

فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ [١] ولم يدّعِ أحد أنه أدخل النبي ﷺ تحت الكساء عند المباهلة للنصارى إلّا علي بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، فكان تأويل قوله تعالى: ﴿أَبْنَاءَنَا﴾ الحسن والحسين، و﴿نِسَاءَنَا﴾ فاطمة، و﴿أَنْفُسَنَا﴾ علي بن أبي طالب عليهما السلام. على أن العلماء قد أجمعوا على أن جبرئيل عليه السلام قال يوم أُحد: يا محمد إن هذه لهي المواساة من علي. فقال ﷺ: لأنه منّي وأنا منه. فقال جبرئيل: وأنا منكما يا رسول الله. ثم قال:

لا سيف إلّا ذو الفقار ولا فتى إلّا علي

فكان كما مدح الله تعالى به خليله عليه السلام؛ إذ يقول: ﴿فَتىً يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [٢]. إنا معشر بني عمّك نفتخر بقول جبرئيل عليه السلام: إنه منّا».

فقال: أحسنت يا موسى [٣].

أصداء الرواية

وفي هذه الرواية أُمور عدة ينبغي التنبه إليها:

الأمر الأول: أقربية أبي طالب لعبد الله من العباس

وهو الأمر هامّ جدّاً، إذ أنه يتعلّق ببيان أقربية أبي طالب لعبد الله بن عبد المطلب على العباس. فالإمام عليه السلام يشير إلى حقيقة تاريخيّة هي أن أُم العبّاس جارية مملوكة لفاطمة زوجة عبد المطّلب، وقد أباحتها له، فنكحها وأولدها العبّاس؛ وعليه فأبو طالب وعبد الله (رضي الله عنهما) أشقّاء، والعبّاس ابن أمة.

الأمر الثاني: التقية

فالإمام عليه السلام وآباؤه عليهم السلام وشيعتهم إنّما كانوا يعمدون إلى التقية ويستعملونها؛

---

(١) آل عمران: ٦١. (٢) الأنبياء: ٦٠.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ ٧٨ ـ ٨٢ / ٩، الاحتجاج ٢: ١٦١ ـ ١٦٥، الدر النظيم: ٦٥٧.

لأنهم قد حرموا من حريّتهم الفكريّة وحقّهم في التعبير عن مطالبهم. وهذا الأمر ليس مختصّاً بنا فقط، بل إنه مجال تحرّك كل أولئك الذين حرموا من حقّهم في التعبير عن آرائهم ومعتقداتهم وأفكارهم التي لا تخرج عن إطار الدائرة الإسلامية؛ ذلك أن التقية مسألة عقلية؛ ولذا فإن الإنسان إذا أُعطي حريته كاملة فإنه لن يلجأ إلى التّقية، ولن يقول بها ولن يعمل على ضوئها.

الأمر الثالث: أن العبّاس ابن أمة بخلاف أبي طالب

إن الإمام عليه السلام لم يشأ أن يقول للرشيد: إن الإنسان يلحق بأُمّه سيّما عند العرب إذا كانت أُمّه جارية، لكنه في التشريع الإسلامي يعتق بعد أن يولد، فنحن عندنا أن الجارية إذا حملت ثم ولدت أُعتقت والولد يصبح حراً تبعاً لأبيه. والإمام عليه السلام لم يشأ أن يغمزه من هذا الجانب، بل قال له: إن أُمه أجنبية؛ ولذلك فهو أبعد.

الأمر الرابع: وراثتهم عليهم السلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

وذلك حينما سأله الرشيد عن السبب الذي من أجله يدعون أنهم ورثوا رسول الله دون بني العباس، مع أن المفروض أن النبي حينما توفي خلف عمّاً وابن عمّ، والعم يعتبر من طبقة أقدم من ابن العم، لأن العم أصل وابن العم فرع، وعليه فإن العم أكثر التصاقاً من ابن العم فأجابه الإمام عليه السلام بأن هذا الكلام صحيح فيما لو لم يكن للنبي وارث صلبي، لكنه حينما توفي كان عنده وارث صلبي وهو ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام التي هي الوريثة الوحيدة في كتاب الله. وطبعاً هذه نظرية أهل البيت عليهم السلام.

فالإمام عليه السلام لم يشأ يغمزه من هذا الجانب بهذاالتصريح، فاكتفى بالتلويح.

الأمر الخامس: أعلميّة أمير المؤمنين عليه السلام

وإذ يسأل الإمام عليه السلام الرشيد عن معنى قوله: «**علي أقضاكم**» ويجيبه الرشيد بما

أجاب، يحتجّ الإمام عليه السلام عليه هنا بأنه إذا كان علي بن أبي طالب عليه السلام هو الأقضى والأعرف بالحلال والحرام فإن رأيه هو إذن ما ينبغي أن يكون، وأن يعمل به، وهو أن الولد الصلبي هو الذي يرث الميراث كله، وليس للعم معه شيء، والولد الصلبي لا يفرق فيه أن يكون ذكراً أو أنثى.

والقول بأن العم يرث مع الولد الصلبي فيما لو كانت أُنثى هو قول بنظرية التعصيب، أو نظرية العصبة، وهي ليست نظرية أهل البيت عليهم السلام بل هي نظرية غيرهم من أبناء المذاهب الأخرى.

ولهذا فإن الإمام عليه السلام يبين للرشيد بان إشكاله هنا غير وارد أبداً لأنه مبني على نظرية العصبة التي لم يقل بها علي بن أبي طالب عليه السلام ولا أئمة أهل البيت من بعده، ومع سقوط نظرية العصبة عند الأئمة عليهم السلام فإن العم لا يحجب ابن العم هذا فضلاً عن إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مات وله وارث صلبي وهي فاطمة عليها السلام فهي التي ترثه ميراثه كله.

الأمر السادس: نسب أهل البيت النبوي عليهم السلام

وحول سؤاله الأخير عن سبب تسميتهم بأبناء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مدعياً بأنهم وبني العباس سواء؛ لأنهم أبناء عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما أن العلويين أبناء عم النبي كذلك نقول: إن هذه كما بينا في أول هذه الرواية مغالطة؛ لأن قرابة أهل البيت عليهم السلام مبنية على أمرين:

الأوّل: أن قرابة علي لرسول الله أقرب من قرابة أخيه العباس إليه؛ لأن عبد الله وأبا طالب من أُم واحدة، والعباس أُمّه أمة.

والثاني: أن أبناء أمير المؤمنين عليه السلام ذريّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ابنته فاطمة عليها السلام.

وهذا النمط من التفكير في واقع الأمر مصيبة المصائب عند هؤلاء؛ ولقد بذل البلاط العبّاسي من أجلها الأموال الطائلة؛ كي يبعد هذه النسبة الثابتة لأهل البيت

النبوي عليهم السلام؛ لأن النظريّة السائدة آنذاك أن الخلافة وراثة للخلف عن السلف، ووقع في أذهان العامّة بل والخاصّة أنها أشبه شيء بالرئاسة، (أي الرئاسة القبلية).

وقد فند الإمام عليه السلام هذا الإشكال من الرشيد بقوله له: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لو بعث فإنه يمكن أن يخطب من الرشيد ويمكن للرشيد أن يزوجه أما أنه لو خطب إلى موسى بن جعفر فإنه لا يعطيه ولا يزوجه، بل إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يخطب إليه لأنه إنما يخطب ابنته ولو كانت بالواسطة، وإن تعدّدت الأظهُر بينه وبينها. وهنا موضع الشاهد من الرواية.

وهذه المشكلة قد لعب الأدب فيها دوراً كبيراً؛ فقد حرك البلاط العباسي الشعراء والأُدباء والكتاب ليثبتوا للعامة أن ابن البنت لا يعتبر ولداً[1]؛ ولذا فإننا نجد أن رأي الشريف المرتضى الفقهي كان يمثّل ردّة فعل إزاء هذا الحافز مع أنه رأي مبتنٍ على الدليل الشرعي؛ فكان (رضوان الله تعالى عليه) يقول: إن الذي ينتمي إلى النبي عن طريق الأم من حقّه أن يأخذ الخمس؛ لأنه ابن حقيقي للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ويلتقي به. وكانت هذه النظرية واضحة المعالم، وهناك البعض من الفقهاء ممّن يميل إليها.

رجع

إذن بناء على هذا الرأي فإن البنات هنَّ الشيء المراد من قوله تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾؛ ذلك أن المرأة إن كانت صالحة صلح النشء بها وإن كانت طالحة طلح بها. فبفساد المرأة يفسد المجتمع وبصلاحها يصلح، ولعل من

---

(١) واستشهدوا له بقول الشاعر:

بنونا بنو أبنائنا وبناتُنا   بنوهن أبناءُ الرجالِ الأباعدِ

الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٧٩، شرح نهج البلاغة ١١: ٢٨.

يقرأ هذه النظرية يظن أو يخالجه الشك بأن هذا المفسّر مغفّل، والحقيقة أنه خلاف ذلك؛ فالبنت الصالحة. تصنع الجيل الصالح وبتعبير آخر:

الأمّ مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيّب الأعراقِ

فنحن متى أوجدنا الحجر النظيف والمهذب كانا عبارة عن المرأة التي تمتلك وعياً وديناً وخلقاً، وبالتالي فإنها تخلق الجيل الصالح الذي يتّصف بهذه الصفات، فهو جيل مؤدّب يلد جيلاً مؤدباً فتتناسل الأجيال متّصفة بصفة الدين والالتزام بالأخلاق والآداب. وهكذا تتوالد حتى تتحوّل إلى باقيات صالحات. وأنا أرى أن هذه النظرية لها قيمتها ومكانتها ومنزلتها.

الرأي الثاني: أنها العلم والمعرفة

فـ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ وفق هذا الرأي إنما كانت العلم والمعرفة بلحاظ أنهما هما الباقيان؛ لأن الإنسان يذهب بدنه لكن يبقى علمه ومعرفته من بعده[١].

وواقع الأمر أن الإنسان حينما يمر بالتاريخ البشري الطبيعي فإنه سوف يجد أن أي أثر من الآثار التي تتركها البشرية يعيش فترة من الزمان، ثم يبدأ بعد ذلك بالتلاشي والاضمحلال، فما من صرح ممدّد ولا قصر ضخم ولا أي أثر مادي إلّا ويؤول إلى الخراب وإلى التلاشي والاضمحلال ويصبح تراباً وإن طال به الزمن[٢].

---

(١) يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «هلك خُزّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة». نهج البلاغة / الكلام: ١٤٧.

(٢) وقد حدّثنا التاريخ عن قصر غمدان وعظمته، وما كان عليه، وهو قصر بناه اليشرح، وجعله على سبعة سقوف بين كلّ سقفين منها أربعون ذراعاً، وكان ظلّه إذا طلعت الشمس يرى على عينان وبينهما ثلاثة أميال، وجعل في أعلاه مجلساً بناه بالرخام الملوّن، وجعل سقفه رخامة واحدة. وكان يأمر بالمصابيح فتسرج في ذلك البيت ليلاً، فكان سائر القصر

فأي شيء يتصوّر في الوجود قابل للتلف والفناء مازال شيئاً مادياً. أما النظرية العلمية فإنها لا تموت أبداً مهما تقادمت الأجيال، ومهما امتدّت السنوات حتى وإن أُثبت بعد ذلك خطأ تلك النظرية لكنها تبقى حية، ويقال: هذه نظرية العالم الفلاني.

ولو قيل: إن الاكتشافات العلمية أثبتت وجود أجسادٍ يرجع تاريخها إلى ما يقارب المليوني سنة.

لقلنا: إن هذا ممكن، وربما يكون مؤيداً لنظريتنا التي تقول: إن الشهيد لا تأكل الأرض من جسده شيئاً، فربما يريد الله جل وعلا أن يثبت لنا عبر هذه الأجساد المتقادمة العهد معجزة معينة. وهذه كما قلنا تؤيد نظرية عدم تلاشي جسد الشهيد.

لقد كان البعض يستهزئ بمثل هذه المقولة حينما يسمع أن الشهيد يدفن ويبقى جسده سالماً كما هو، مع أن التاريخ الحديث يحدثنا عن مثل ذلك كما في قصة الشاه إسماعيل الصفوي حينما جاء لبناء العتبات المقدّسة، حيث إنه بنىٰ أولاً قبر الحسين ﴿عليه السلام﴾ وقبور الشهداء، فقيل له: إنك أغفلت قبر الحرّ بن يزيد الرياحي ﴿رضي الله عنه﴾، فقال: إن في نفسي منه شيئاً؛ لأنه آذىٰ الحسين ﴿عليه السلام﴾ وأرعب عائلته وجعجع به. فقيل له: إنه تاب واستشهد في سبيل الله وجاهد وأبّنه الحسين ﴿عليه السلام﴾ واعتزّ به.

☚ يلمع من ظاهره كما يلمع البرق، فإذا أشرف عليه الإنسان من بعض الطرق ظنّه برقاً أو مطراً، ولا يعلم أن ذلك ضوء المصابيح، وكانت أنواره ترى في المدينة، حتى أمر عثمان بهدمه. وفيه يقول ذو جدن الهمداني:

وغمدان الذي حدّثت عنه ... بناه مشيّداً في رأس نيقِ
بمرمرة وأعلاه رخام ... تحام لا يعيب بالشقوقِ
مصابيح السليط يلحن فيهِ ... إذا يمسي كتوماض البروقِ
فأضحى بعد جدّته رماداً ... وغيّر حسنه لهب الحريق

انظر كمال الدين: ١٧٧، معجم البلدان ٤: ٢١٠ ـ ٢١١.

فارتدع الشاه إسماعيل وقرّر بناء القبر، فجاء إليه وأمر بنبش القبر ـ والعهدة على الراوي ـ فنُبش وانتهوا إلىٰ جسد الحرّ ﷺ، فوجدوه ملفّعاً بكفن وعلىٰ رأسه عصابة، فسأل الشاه إسماعيل عن هذه العصابة فقيل له: بلغنا أن الحسين عليه السلام عصبه بها حينما جرح، وهي منديله عليه السلام.

وهنا أراد الشاه أخذ المنديل اعتزازاً به؛ لأنه أثر من آثار الإمام الحسين عليه السلام، فلمّا أماطوا المنديل انبعث الدم، فأرجعوه فانقطع الدم، وهكذا ثلاث مرات، حتىٰ صرف الشاه نظره عن هذا الموضوع وترك المنديل[1].

وعن هذه العصابة يحدثنا التاريخ أن الحرّ حينما وقع كان في رأسه جرح ينزف دماً، فعمد الإمام الحسين عليه السلام إلى ذلك الجرح، وربطه بمنديله كي يتوقّف الدم. فهذا المنديل هو منديل الإمام الحسين عليه السلام.

وهذه الرواية حينما نقرؤها في كتبنا فإننا نستخفّ بها، وننسبها إلى اللّامعقوليّة أو إلى الخرافة، لكن حينما نقرؤها في كتاب كـ(دائرة معارف القرن العشرين) فإننا سنصدق مثل هذا. إننا في مثل هذه الكتب نقرأ أن العلماء قد عثروا على جسد بكامله يرجع تأريخه إلى ما يقارب المليوني سنة كما ذكرنا قبل قليل، وهو محتفظ بكل أجزائه. والقارئ طبعاً سوف يصدّق هذا؛ لأنه سوف يقرأ إزاءها اسماً أجنبياً، وسوف يجد تحتها وصفة علمية، وهذا ما يجعلها أكثر قبولاً في نفس هذا القارئ.

---

(١) شجرة طوبىٰ ٢: ٢٨٥. وفي هذا يقول الشيخ عبد الحسين الأعسم:

ألا يا زائراً بالطفّ قبراً ... به ربحت لزائره التجارهْ

أشر للحرّ من بُعدٍ وسلّمْ ... فإن الحرَّ تكفيه الإشارهْ

فردّ عليه أحد شعراء بيت الهرّ في كربلاء قائلاً:

زرِ الحرَّ الشهيد ولا تؤخّرْ ... زيارته علىٰ الشهداءِ قدِّمْ

ولا تسمع مقالة أعسميٍّ ... (أشر للحرّ من بعدٍ وسلّمْ)

وعلى أيّ حال، فما أردت قوله من هذا هو أن هذه النظرية قد تقرّب لنا هذا المعنى، وهو أن العلم في واقع الأمر لا يموت، وكل شيء ينتهي إلى الفناء. يقول المتنبي:

أيـن الذي الهـرمانِ مـن بـنيانه ... ما يومُه مـا قـومُه مـا المـصرعُ

تــتخلّف الآثـار عـن أصـحابها ... حيناً فيدركها البلاء فتصرعُ[1]

وعليه فالنتيجة هي أن كلّ شيء ينتهي لكن النظرية العلمية تبقى خالدة مدى الدهر؛ ولذا فإننا لازلنا إلى الآن نجد أن أفلاطون يعيش معنا في نظرياته وأرسطو يعيش معنا في نظرياته، وكذلك من سبقوهما ومن جاء بعدهما من الرواد الأوائل من أهل المعرفة الذين خلدوا بنظرياتهم وبآرائهم العلمية. وهذا الخلود لا يشمل فقط الأشياء العلمية بل إنه يمتد ليشمل حتى الجوانب الفكرية المحضة؛ ولذا فإننا لازلنا نعيش مع أفكار من سبقنا من الشعراء الذين أثروا التاريخ والمكتبة بأفكارهم؛ سواء في العصر الإسلامي، أو العصر الجاهلي. ومن هؤلاء المتنبي الذي لو امتدت الدنيا ملايين السنين فإنه لن يموت؛ لأنه ثروة من المعاني الفكرية والإنسانية التي تظل تعيش معنا. وكذلك الحال مع ابن سينا الذي لا يمكن أن يموت.

إذن فالعلماء والأُدباء باقون بأفكارهم ونظرياتهم، ونحن لايمكن أن ننسى نظرية الحركة الجوهرية التي ابتدعها صدر الدين الشيرازي التي سوف تظل خالدة ملايين السنين. وبهذا الاعتبار فإننا نقول: **﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾** هي العلم؛ لأنه الأمر الوحيد الذي سوف يظلّ حيّاً، ولن يموت.

---

(١) الكنىٰ والألقاب ٣: ١٤١.

لكن لابد هنا من وجود قيد في المسألة وهو أن العلم الذي يكون مصداقاً لـ﴿**الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ**﴾ هو العلم الذي يقصد به وجه الله تعالى وخدمة الإنسانية، لا أن يتحوّل هذا العلم إلى أداة ارتزاق، أو إلى وسيلة من وسائل قتل الإنسان والقضاء عليه وعلى حضارته. فهذا وإن خلد فهو لا تنطبق عليه ﴿**الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ**﴾، وليس منها؛ لأن الصالحات تأبى أن يكون العلم سبباً أو وسيلة من أسباب ووسائل إلحاق الضرر بالإنسان أو إيصاله إلى حالة الدمار والفناء والموت. فكلّما اتّجه العلم لخدمة الإنسانية كلما كان مخلّداً، وإلّا فإنه وإن خلد فليس منها ما لم يكن كذلك.

الرأي الثالث: أنها موالاة أهل البيت عليهم السلام

ووفق هذه النظرية تكون ﴿**الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ**﴾ هي طاعة أهل البيت النبوي عليهم السلام، ومودّتهم ومحبّتهم وولاءهم. وهذا هو المروي عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول لأحد أصحابه وهو الحصين: «**لا تستصغروا مودّتنا؛ فإنها من الباقيات الصالحات**»[1].

ونحن حينما نجعل القناة التي توصلنا بأهل البيت عليهم السلام قناة سليمة، وحينما نتخذ من الطريق التي تؤدي بنا إليهم طريقاً صحيحة طاهرة غير مشوبة بالكدر وغير ملوثة فإننا حينئذٍ نكون قد وضعنا أيدينا على منبع ضخم؛ ذلك أن المشكلة التي يقع فيها الكثير من الناس إنما تأتي من الوسائط، فمثلاً ربما يروي راوٍ رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أو عن غيره من أئمة أهل البيت عليهم السلام فنستخفّ بهذه الرواية أو نستبعدها أو نستهزئ بها؛ لأنها لا تطابق العقل ولا تساوق الواقع، متصوّرين أن

---

(١) الاختصاص: ٨٦، مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٤٣، مجمع البيان ٦: ٣٥٢.

هذا فعلاً صادر عن أهل البيت ﵈. هذا مع أن واقع الحال خلاف ذلك؛ إذ ربما يكون هذا الراوي قد دسّها على أحاديث الإمام الصادق﵇، وبالنتيجة فهذا غير صادر عنهم، وحينئذٍ نكون قد ظلمناهم؛ لأننا نسبنا إليهم ما لم يكن منهم، دون تثبّت، ودون تروٍّ، ودون بحث حول هذه الرواية.

وهنا قد يظن البعض أنني أدعو إلى تكذيب بعض الروايات الصادرة عن أهل البيت ﵈.

لكنني أقول: إنني لا أدعو إلى ذلك؛ إذ أن من الممكن أن تكون هنالك روايات لا يتّسع لها فهمنا في الوقت الحاضر، لكن بعد مئة من السنوات أو أكثر ربما تصل العقول إلى مرحلة من التطور والانفتاح والاتساع في الأفق والمعرفة إلى فهم المراد من هذه الروايات. فالذي أُريد أن أقوله هنا هو أن هناك روايات قد دسّت على أهل البيت ﵈، وعليه فينبغي التثبّت والتروي قبل الأخذ بهذه الروايات وقبل نسبتها إليهم.

ومن المعلوم أن هناك روايات نسبت إلى أهل البيت ﵈ وهي ليست عنهم ولا منهم، وإنما هي من الرواة أنفسهم أي من الوسائط التي بيننا وبين أهل البيت ﵈، وإلّا فإن علم أهل البيت ﵈ من علم النبي ﷺ، والنبي ﷺ يأخذ علمه عن جبرائيل﵇ عن الله جلّ وعلا [1]، يقول أحد شعرائنا، وهو جمال الدين

---

(١) ودليل هذا أن بعض المسانيد قد عرضت على الأيمّة ﵈، فحذفوا منها أحاديث بعد أن بيّنوا لأصحاب هذه المسانيد أن هذا ليس من حديثهم، ولا من حديث آبائهم ﵈، ومن ذلك نذكر:

١ ـ عبيد الله بن علي الحلبي، له كتاب مصنّف معوّل عليه، عرضه على الإمام الصادق﵇، فصحّحه واستحسنه، وقال: «ليس لهؤلاء مثله». الفهرست (الطوسي): ١٧٤ / ٤٦٦، وسائل الشيعة ٣٠: ٢٢٦.

أحمد بن منيع الحلي:

قل لمن حجّنا بقول سوانا	حيث فيه لم يأتِنا بدليلِ
نحن نروي إذا روينا حديثاً	بعد آيات محكم التنزيلِ
عن أبينا عن جدّنا ذي المعالي	سيد المرسلين عن جبريلِ
وكذا جبرئيل يروى عن اللـ	ـه بلا شبهة ولا تأويلِ
فتراه بأي شيء علينا	ينتمي غيرنا إلى التفضيلِ[1]

وعليه فالواقع أن ولاية أمير المؤمنين عليه السلام والأيمّة من أبنائه عليهم السلام من بعده تقربنا إلى هذا المنبع الضخم الذي يأخذ علمه عن رسول الله؛ وبالنتيجة فإنه يأخذ علمه عن الله تعالى. ولا شك أن من يأخذ علمه عن الله جل وعلا فإنه يصحّ أن ينطبق عليه هذا العنوان وهو ﴿**الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ**﴾؛ لأنه لا شيء يستحقّ الخلود أفضل وأحسن من علم الله جل وعلا.

إذن ولاية أهل البيت عليهم السلام ينبوع ضخم يستنير به متّبعه فكراً وعلماً وهدياً وأدباً وأخلاقاً وما إلى ذلك فهي باقيات لا تتلاشى، وهي باقيات صالحات، وهي ممّن افترضها الله جلّ وعلا على الناس في قرآنه الكريم حيث يقول: ﴿**وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ**﴾. والحسنة يفسّرها الإمام الحسن عليه السلام:

☚ ٢ـ عبد الله بن سعيد بن حنان الكناني، له كتاب الديات، رواه عن آبائه، وعرضه على الإمام الرضا عليه السلام. رجال النجاشي: ٢٣٠ ـ ٢٣١ / ٦١٢، وسائل الشيعة ٣٠: ٢٢٧.

٣ـ عبيد الله كبير آل أبي شعبة، صنّف الكتاب المنسوب إليه، وعرضه على الإمام الصادق عليه السلام، وصحّحه له، وقال عليه السلام عند قراءته: «أترى لهؤلاء مثل هذا؟». المصدر نفسه.

٤ـ يونس بن عبد الرحمن، عرض كتابه علي الإمام العسكري عليه السلام. رجال النجاشي: ٤٤٧ / ١٢٠٨، وسائل الشيعة ٣٠: ٢٢٧.

(١) الجواهر السنيّة: ٢٢٦، أعيان الشيعة ٣: ١٨٣ / ٥٣٤، ٤: ٢٠٦.

بقوله: «أنا من أهل البيت الذين افترض الله مودّتهم (١) على كلّ مسلم، فقال تعالى شأنه: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا

---

(١) فعن ابن عباس ﷺ قال: لمّا نزلت: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، قالوا: يا رسول الله من قرابتك الذين وجبت علينا مودّتهم؟ قال ﷺ: «علي وفاطمة وابناهما». شواهد التنزيل ٢: ١٩٣ / ٨٢٧، تفسير الآلوسي ٢٥: ٣١ ـ ٣٢. وقد ضعّف بعضهم هذا الحديث الشريف لكن الآلوسي عقّب على هذا بقوله: (إلّا إنه روي عن جماعة من أهل البيت ما يؤيّد ذلك ـ أي كون الآية الكريمة في علي وفاطمة والحسنين عليهم السلام ـ فقد أخرج ابن جرير عن أبي الديلم قال: لما جيء بعلي بن الحسين (رضي الله تعالى عنهما) أسيراً، فأُقيم على درج دمشق، قام رجل من أهل الشام فقال: الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم. فقال له علي (رضي الله تعالى عنه): «أقرأت القرآن؟». قال: نعم. قال: «أقرأت آل حم؟». قال: نعم. قال: «أما قرأت ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾؟». قال: فإنكم لأنتم هم؟ قال: نعم.

وروى ذادان عن علي (كرّم الله تعالى وجهه) قال: «فينا في آل حم آية، لا يحفظ مودّتنا إلّا مؤمن». ثم قرأ هذه الآية. وإلى هذا أشار الكميت في قوله:

وجدنا لكم في آل حم آية ... تأولها منا تقي ومعرب

ولله تعالى درّ السيد عمر الهيتي أحد الأقارب المعاصرين حيث يقول:

بآية آية يأتي يزيدُ ... غداة صحائف الأعمال تتلى

وقام رسول ربّ العرش يتلو ... وقد صمّت جميع الخلق ﴿قُلْ لَا﴾

والخطاب على هذا القول لجميع الأمّة، لا للأنصار فقط وإن ورد ما يوهم ذلك؛ فإنهم كلّهم مكلّفون بمودة أهل البيت؛ فقد أخرج مسلم، والترمذي، والنسائي عن زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ قال: «أُذكّركم الله تعالى في أهل بيتي».

وأخرج الترمذي وحسّنه، والطبراني، والحاكم، والبيهقي في (الشعب) عن ابن عبّاس قال: قال (عليه الصلاة والسلام): «أحبّوا الله تعالى لما يغذوكم به من نعمة، وأحبّوني لحبّ الله تعالى، وأحبّوا أهل بيتي لحبّي».

وأخرج ابن حبّان، والحاكم عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يبغضنا أهل البيت رجل إلّا أدخله الله تعالى النار». إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة من الأخبار». المصدر نفسه.

حُسْناً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾[١]. **فا قتراف الحسنة مودتنا أهل البيت »**[٢].

فولاء الأيمّة عليهم السلام ذكره الله تعالى في القرآن الكريم بهاتين الآيتين الشريفتين المارّتين.

وربما يظنّ البعض أن هذا المعنى ـ اختصاص المودّة في القربى بـمودّة أهـل البيت عليهم السلام – تتفرّد به كتب الشيعة الإماميّة.

وهذا وهم؛ لأن كتب المسلمين عامّة تذكره، وهنا موضع الغرابـة والمـفارقة؛ فنحن حينما نقرأ أن ولاء أهل البيت عليهم السلام هو من العبادات والطاعات المقربة إلى الله جل وعلا، وأنه هو **﴿ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ﴾**، لكننا نجد أن البعض إلى الآن مع ذلك لا يعبّر عن هذا الولاء بشكل عملي أو تطبيقي، ولا يتّخذه منهجاً له. ومع هذا الحال فكيف يمكن لنا أن نعتبر أنفسنا من المتمسّكين بالقرآن وبهدي القرآن؟

والأنكى من هذا أننا نجد من ينتقد الموالين لأهل البيت عليهم السلام، بمعنى أن هؤلاء لم يقفوا موقف الساكت أو الصامت إزاء الولاء مع أنهم يذكرونه في كتبهم، بل إنهم ينتقدون من يوالي أهل البيت عليهم السلام بشكل عملي وليس بشكل نظري فقط، يروي لي أحد الأصدقاء قائلاً: عندي صديق قدّمت له في يوم من الأيام طعاماً طـبخ على شرف الإمام الحسين عليه السلام في اليوم العاشر من المحرم فقال: ماهذا؟ قلت: هذا طعام نصنعه في اليوم العاشر من شهر المحرم فخذ وكل. قال: لا، هذا طعام حرام أكله؛ فقد أُهلّ به لغير الله، وأنا لا آكل منه.

وهذا غريب طبعاً؛ ذلك أن المقصود بـ**﴿ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ ﴾**[٣] هو الطعام الذي لا

---

(١) الشورى: ٢٣.

(٢) الإرشاد ٢: ٨، مناقب آل أبي طالب ٣: ١٧٠ ـ ١٧١، اليقين: ٣٢٠ ـ ٣٢١، بحار الأنوار ٢٣: ٢٣٢.

(٣) البقرة: ١٧٣.

يسمى عليه اسم الله جلّ وعلا عند التذكية، وليس ما يرمي إليه هؤلاء. والدليل على هذا أنهم يأكلون من الطعام الذي يقدم في مجالس الفاتحة التي تقام على أرواح أفراد معينين، ولا يعدّون هذا مما أُهِلّ به لغير الله تعالى، لكن أن يكون طعاماً يقام على شرف الإمام الحسين عليه السلام وعلى ذكراه فإنه طعام أُهِل به لغير الله تعالى ولا يجوز أكله.

إنها حقاً غرابة ومفارقة عجيبة لا يقرّها العقل ولا يقول بها ميزانه، وأهل البيت عليهم السلام لا يضيرهم ذلك ولا ينقصهم أن أحداً لا يتولّاهم، فلا وأبيك. إننا نعتقد ونؤمن أن المنفعة من الولاء تعود على الموالي نفسه، وليس على أهل البيت عليهم السلام؛ لأنهم ممن بلغ مرتبة لا يضيرهم معها حقدُ حاقدٍ ولا ذَمّ ذامٍ ولا قدحُ قادحٍ، بل ولا حتى مدحُ مادحٍ. فالنفع المرجوّ من الولاء هو بالنتيجة يعود على الموالي وليس على الموالىٰ.

المبحث الرابع: في مردود ﴿الْبَاقِيَات الصَّالِحَات﴾

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَرَدّاً﴾، إن الذي تحقّقه ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ لفاعلها ومردودها عليه كما أثبتنا قبل قليل يعود على الشخص نفسه. وهذا المردود هو أفضل من أي عمل من الأعمال لأنه مردود مخلّد يعيش ويبقى خالداً ما بقيت الدنيا.

وتعريجاً على ما ختمنا به المبحث السابق، وإتماماً للنظم معه في هذا المبحث نودّ أن نتناول مظهراً من مظاهر الولاء لأهل البيت عليهم السلام، وبالخصوص الولاء لسيد الشهداء وسيّد شباب أهل الجنة وسبط الرسول صلى الله عليه وآله الإمام أبي الأحرار أبي عبد الله الحسين عليه السلام لنرى ماهو المردود الذي يمكن أن يرجع به

هذا الولاء على صاحبه.

إننا حينما نقول: ولاء الإمام الحسين عليه السلام، فإنما نعني احتضان فكره عليه السلام والوقوف على أسرار العطاء الذي أعطاه الحسين عليه السلام بموقفه وبنهضته يوم الطف حيث أعطى عطاء ضخماً. وهذا العطاء الضخم ككل عطاء لا يعرفه إلّا الذي يقدر مثل هذا النمط من عطاءات العظماء الذين غيّروا وجه التاريخ، فحينما يقف أحد الأدباء على قبر الإمام أبي عبد الله الجسين عليه السلام، ولا يستذكر من الفاجعة التي كانت نتيجة حالة من الحالات الفكرية أو السياسية التي اقتضتها تلك المرحلة، ولا يستذكر إلّا العبرة فإنه يكون قد قضى على تلك الحركة، فهذا الشاعر لا يعرف إلّا الدمعة. فحينما نقرأ قول أحد الشعراء:

هي كربلاءُ فقف علىٰ عرصاتِها ... ودعِ الدموعَ تهلّ في عبراتِها

سلها بأي قرىً تعاجلتِ الأُلىٰ ... نزلوا ضيوفاً عند قفرِ فلاتِها

فإننا نجد أن هذا ليس عنده إلّا الدمعة، وليس عنده إلّا استذكار المصيبة، في حين أننا نجد آخر يقف على قبر الإمام عليه السلام فيأخذ منه أكثر من هذا، فهو ينغمس بروح الحسين عليه السلام، ويحتضن روح الحسين عليه السلام وفكره عليه السلام، ويأخذ من عطائه؛ ولذا فإننا نجده يقول له:

شممت ثراك فهبّ النسيم ... نسيم الكرامة من بلقعِ

وعفّرت خدّي بحيث استرا ... ح خدّ تفرّى ولم يخضعِ

وطفت بقبرك طوف الخيا ... ل بصومعة الملهم المبدعِ

وخلت وقد طارت الذكريات ... بروحي إلى عالم أرفعِ

كأن يداً من وراء الضريـ ... ـح حمراء مبتورة الأصبعِ

تـــمدّ إلى عـــالم بـــالخنو ع والضيم ذا شرف مترعٍ [(١)]

فهذا يأخذ من النهضة غير ما يأخذه ذلك. ولعل أول مـن وقـف وأخـذ هـذا المأخذ هو عبيد الله بن الحر الجعفي، هذا الرجل الذي أعوزه التوفيق فلم يـأتِ لنصرة الحسين عليه السلام، لكنه من بعد ذلك أقبل متألماً نادماً، فاتّكأ على رمحه ووقف إلى جانب القبر وأنشأ يقول:

فـيالك حسـرة مـا دمت حيّاً تـردّد بـين صـدري والتـراقـي
حسين حين يطلب بذل نصري علىٰ أهـل الضـلالة والشـقاقِ
غـداة يـقول لي بـالقصر قـولاً أتـــتركنا وتـــزمع بـــالفراقِ
فـــلو أنـــي أُواســـيه بـــنفسي لنـلت كـرامـةً يـوم التـلاقي
لقد فـاز الأُلى نـصروا حسـيناً وخـاب الآخـرون إلىٰ الشـقاقِ
فـلو فـلق التـلهّف قـلب حـيّ لهـمّ اليـوم قـلبي بـانطلاقِ [(٢)]

ثم جاء من بعده مباشرة سليمان بن قبة الذي وقف على القبر مسـتعبراً ومـتألماً ومتفاعلاً مع موقف الحسين عليه السلام حيث يقول:

مـــررت عـلىٰ أبـيات آل مـحمد فـلم أرَهـا أمـثالها يـوم حـلتِ
فـــلا يـــبعدِ الله الديـار وأهـلها وإن أصبحت منهم بـرغمي تـخلتِ
وإن قـتيل الطـفّ مـن آل هـاشم أذلّ رقـاب المسـلمين فـذلّتِ [(٣)]

(١) الأبيات للجواهري. الشيعة في الميزان: ٣٩٨.

(٢) ذوب النضار: ٧٢، ذكر بيتين، بحار الأنوار ٤٥: ٢٥٤، الفوائد الرجاليّة ١: ٣٢٨، ٣: ٧١، ولم تذكر هذه المصادر نصّ قول الحسين عليه السلام لعبيد الله.

(٣) بحار الأنوار ٤٥: ٢٤٤، ٢٩٠، ٢٩٣، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٦، أُسد الغابة ٢: ٢٢، الإصابة ٧: ١٢٦.

ثم جاء بعد ذلك دور الحوراء زينب عليها السلام ومعها مسبيات آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم حيث أقبلت إلى أن انتهت إلى قبر الإمام الحسين عليه السلام فاحتضنته وجلست عنده تبل ثراه بدموع عينيها:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبكِ حولاً كاملاً فقد اعتذرْ (١)

وعندها راحت تشكو آلامها لأخيها وأقامت على ذلك ثلاثة أيام حيث جاءها الإمام السجاد عليه السلام وقال لها: **«عمة قومي»**. قالت: إلى أين؟ قال: **«إلى المدينة»**. قالت: ومن ذا بقي لي في المدينة؟

يناعي اشبعد تدري شبگالي وشخلّفت عندي الليالي

بيت وبگه من الزلم خالي

والذي يظهر أن السيد حيدراً الحلي رحمه الله يرمي إلى شيء آخر في لاميته حيث يقول:

أيّها الراغب في تغليسة بأمون قط لم تشكُ الكلالا(٢)

اقتعدها وأقم من صدرها حيث وفد البيت يُلقون الرحالا

وإذا أندية الحيّ بدت تشعر الهيبة حشداً واحتفالا

قف على البطحاء واهتف ببني شيبة الحمد وقل قوموا عجالى

وُطئت آنافكم في كربلا وطأة دكت على السهل الجبالا(٣)

ثم جلست وأخذت من تراب القبر وشمّته وأخذت تشكو آلامها لأخيها:

---

(١) البيت للبيد، وقد تمثّلت به عليها السلام. الغارات ٢: ٨١٦، مناقب آل أبي طالب ٣: ١٩٣، تاريخ مدينة دمشق ٦٩: ١٢٠، الإصابة ١: ٣٥٥.

(٢) الأمون: الناقة الشديدة، وهي العُذافرة. العين ٢: ٣٤٤ ـ عذفر.

(٣) ديوان السيد حيدر الحلّي ٢: ١٠٠.

خوية جينه علـى گـبرك گـعدنه ... نـــخيناك يـا عـزنة وضـــمدنه

هـــذي المـــحامل گـوم ردنـــه ... لعـــد المـــدينه مگـام جـدنه

* * *

طـحنت أبـناء حـرب هـامكم ... برحى حرب لها كانوا ثمالى [1]

---

(١) المصدر نفسه .

﴿٢٠٤﴾

الشخصيّة القياديّة عند أهل البيت عليهم السلام

الجراحــات والــدم المطلــولُ

أينـعت فالزمان منها خميـلُ

ومضت تنشئ الفتوح وبعض الـ

ـدم فيما يعطيه فتح جليلُ

والدم الحرّ مارد يُنبئ الأحـ

ـرارَ والثائرين هذا السبيلُ

وحديث الجراح مجدُ وأسمى سِير المجد ما روته النّصولُ

ثم عذراً إن تهتُ يا دم يا جر ح فقد أسكر البيان الشمولُ

يا أبا الطف يا نجيعاً إلى الآ ن تهادى على شذاه الرُّمولُ

توج الارض بالفتوح فللرمـ ـل على كلِّ حبةٍ إكليلُ

أرجفوا أنك القتيل المدمى أوَمَن ينشئ الحياة قتيلُ

كذبوا ليس يُقتل المبدأ الحـ ـرّ ولا يخدع النُّهى التضليلُ

كذبوا لن يموت رأيٌ ونور الـ ـشمس من بعض نوره تعليلُ

كذبوا كلُّ ومضة من سيوف الـ ـحق في فاحم الدُّجى قنديلُ

كلُّ عرق فرَوه لهو بوجه الـ ـظلم والبغي صارمٌ مسلولُ

ويـموت الرســول جســماً ولكن في الرسـالات لن يـموت الرسـولُ
يا أبَـا الطـف سـاحة الطـف تـبقى وعـــــليها مَشـــاهدُ لا تـــزولُ
فـــهنا والنـــبيُّ يـــرقب شـلواً مـــزقته قـــناً وداست خـــيولُ
يـــــزدهيه بأنـــــه وحســـين قـــصة الأمس والغـد المـوصولُ
وبأن الرُّوح الذي حـــمل السِّـــبـ ـــط تـراث مـن النـبي أصـيلُ
وهـــنا حشْـد آل حـرب وللـخسّـ ـــة فـــي كـلِّ مـا بـه تـدليلُ
يـــتهادى كأنـــه أحـرز النـصـ ـــر ولم يـدرِ أنـــه المـخذولُ
وعـــليه مـــن الجـدود بـقاياً هـــي لؤم وحـــطة ونـــزولُ
وهـــنا حشـد هـاشم وهـو جـذر يـــنتمى للشـــذا وطـبع نـبيلُ
وســتبقَى الدُّنـيا وللـوضر النتـ ـــن قـبيل وللسـموِّ قـبيلُ[١]

ملامح معركة الطف وأحداثه

إن بيننا وبين الإمام الحسين عليه السلام أربعة عشر قرناً من الزمان، وهو مدى إذا أردنا اجتيازه لنستوحي عبره ملامح من معركة الطف وأحداثه في تلك الفترة فلابد لنا من المرور على عدّة نقاط تسترعي الانتباه وتشد الإنسان إليها شدّاً قويّاً. وبهذا فإننا سوف نتلمّس ملامح هذه المعركة عبرة الشخصيّة الفذّة والخالدة لأبيّ الضيم الإمام الحسين عليه السلام، لنوجزها بالتالي:

الملمح الأول: سقي شجرة الحقّ

فطالما سُقيت هذه الشجرة المباركة بدماء طاهرة نقية من آل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم. ولقد كان أبو الشهداء والأحرار الإمام الحسين عليه السلام يـمثّل استمراراً للـمنبع الذي

---

(١) ديوان المحاضر ١: ٤٠.

سقى شجرة الإسلام ورواها حتى ذهبت جذورها بعيداً في الأرض بعد أن غرسها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وشجرة الحق لابد لها من رَيّ شأنها في ذلك شأن كلّ شجرة وشأن كل مخلوق يحتاج إلى ما يمده بالوقود الحيوي والطاقة التي يستمر عبرها مهما امتد الزمن.

وشجرة الإسلام قد روّاها شهداء المسلمين بدمائهم، وبالذات الهاشميون من آباء الحسين عليه السلام وأعمامه؛ فقد روّاها جعفر عليه السلام يوم مؤتة حينما نزل إلى ساحة الحرب وقطعت يداه فأبدله الله عوضهما جناحين يطير بهما في الجنة وسقط في المعركة شهيداً ودمه يغذي تلك الشجرة.. شجرة الحق، إلى جنب دماء الشهداء الذين تتابعوا الواحد تلو الآخر. لقد كان يحمل عزمه في نفسه ودمه على يديه وهو يرتجز ويقول:

أقسمت يا نفس لتنزلنّه　　　طوعا وإلّا سوف تُكرهنّه

مالي أراك تكرهين الجنّه (١)

وهكذا تبرعمت هذه الشجرة ونمت بعد أن غذيت بهذا الدم الطاهر. وكذلك قد غذيت هذه الشجرة بدم عمه الحمزة بن عبد المطلب عليه السلام الذي نزل إلى ساحة القتال يوم أحد فروّاها بأن قاتل حتى غاله وحشي، فتوزعت أعضاؤه وسالت دماؤه ريّاً لشجرة الحق. وكذلك كان أبوه علي عليه السلام حيث سقط في المحراب شهيداً وهو يقول: « **فزت وربّ الكعبة** ». وقد ارتفع صوت جبرائيل عليه السلام بين السماء والأرض: « **تهدّمت والله أركان الهدى، وانفصمت العروة الوثقى، قُتل أتقى**

---

(١) تنقل مصادر الحديث والسيرة والتاريخ أن هذه الأُرجوزة لعبد الله بن رواحة، وقد ارتجزها حين أخذ الراية يومئذٍ. سنن ابن ماجة ٢: ٩٣٤ / ٢٧٩٣، السنن الكبرى ٩: ١٥٤، الاستيعاب ٣: ٨٩٩، شرح نهج البلاغة ١٥: ٦٩.

الأتقياء، قتله أشقى الأشقياء»(١).

وهي لحظة فدى فيها الإسلام بنفسه كما فعل من قبل وكما هو شأنه وديدنه، فانبعث الدم من رأسه يسقي شجرة الإسلام.. شجرة الحق التي روّاها من قبل كذلك بجراحاته في كل المعارك التي اشترك فيها مع رسول الله ﷺ، حتى ضربت بجذورها بعيداً في الأرض ثابتةً واقفة لا يمكن لشيء أن يزلزلها.

ثم جاء دور الإمام الحسين عليه السلام الذي وقف يحمل جراحه، وليس هناك أبلغ من الجراح في ريّ شجرة الحق؛ لقد وقف عليه السلام يحمل جراحه في ثلاث وقائع متتالية دفاعا عن حمى المسلمين ليسقي شجرة الحق:

الواقعة الأولى: فتوح أفريقيا

حيث إنه عليه السلام قد نزل في سنة ست وعشرين من الهجرة مع الجيوش التي توجهت لفتح أفريقيا يسكب دماءه في تلك البقاع دفاعاً عن شجرة الحق وإرواءً لها، ورجع وعليه أوسمة من الجراح.

الواقعة الثانية: فتوح طبرستان

وفي هذا المعركة التي اشترك فيها الإمام الحسين عليه السلام كان قد نزل، وسكب من دمائه ما روّى به شجرة الإسلام، وحمل على جسده أوسمة إضافية في طريق إحياء تلك الشجرة والحفاظ عليها، ومدّها بإكسير الحياة لتبقى شامخة واقفة.

الواقعة الثالثة: فتح اسطنبول

ففي هذه الواقعة اشترك الإمام الحسين عليه السلام مع جيش المسلمين الذي توجه إلى فتحها وقاتل فيها قتال الأبطال، ورجع يحمل أوسمة أُخرى من الجراح في ساحة

---

(١) انظر بحار الأنوار ٤٢: ٢٨٢، ٢٨٥، ٢٨٦.

الشرف من أجل نشر كلمة الإسلام، ونشر كلمة **«لا إله إلّا الله»** ومن أجل إبقاء شجرة الإسلام عالية شامخة.

ثم وقف وقفته الضخمة المشرّفة في مثل هذه الليلة؛ من ليالي المحرم حيث إنهعليه السلام قد أعدّ يده لتقطع، وأعدّ رقبته لتستقبل سهماً وسيفاً ماضياً، وأعدّ كلّ جسده ليستقبل سيوف القوم ورماحهم ونبالهم، لينبعث الدم منها إرواءً لشجرة الحقّ، ودفاعاً عنها، واستدامة لحياتها.

وهكذا حمل الحسينعليه السلام دمه ووضعه في أصل شجرة الحقّ ليغذيها به؛ لأنه حينما رأى أن هذه الشجرة قد عطشت وأصبحت بحاجة إلى ما يمدّها بالحياة والاستمرارية والدوام راح يعدّ نفسه لكل ذلك في مثل هذه الليلة.

إذن فالإمام الحسينعليه السلام ليس الساقي الأوّل؛ فقد سبقه كما ذكرنا أبوهعليه السلام وأعمامه. كما أنه ليس بالساقي الأخير؛ فقد تتابع أولاده على هذا المنهج حيث نزلوا الواحد تلو الآخر إلى ساحة القتال ليروّوا تلك الشجرة، ونزل أحفاده كذلك من بعده؛ فقد وقف زيد يوم السبخة يرفع صوته وينشد:

مهلاً بني عمّنا ظلامتنا ... إن بنا سورةً من العلقِ

لمثلكم تحمل السيوف ولا ... تغمز أحسابنا من الرقِ

إني لأنمى إذا انتميت إلى ... عزّ عزيز ومعشر صُدقِ

بيض سباط كأن أعينهم ... تكحل يوم الهياج بالعلقِ [1]

---

(١) الأبيات لضرار بن الخطّاب الفهري قالها يوم عبر الخندق على رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد تمثّل بها الإمام أمير المؤمنينعليه السلام يوم صفّين، والإمام الحسينعليه السلام يوم الطفّ، وزيد بن علي يوم السبخة، ويحيى بن زيد يوم الجوزجان. مقاتل الطالبيّين: ٢٤٧ ـ ٢٤٨، شرح نهج البلاغة ٣: ٣٠٩، الوافي بالوفيات ٦: ٢٤ ـ ٢٥ / ٢.

السباط: ذوو الشعر المسترسل. تاج العروس ١٠: ٢٧٥ ـ سبط.

وهو يمتشق حسامه ويمشي في طريق الموت ثم راح يردّد:

فـــذلّ الحـياة وذلّ المـمات	وكـــلاً أراه طـعاماً وبـيلا
فـإن كـان لابـدّ مـن واحـد	فسيري إلى الموت سيراً جميلاً [1]

فسقط والدم ينبعث من جبهته وتلقت الأرض ذلك الدم الطاهر الذي هـو دمٌ ينبع من فصيلة دم الحسين عليه السلام وامتصّته لتذهب به إلى جذور شجرة الحرية وشجرة الإسلام؛ فهو دم قد اعتادت على امتصاصه.. دم قد أصبحت وتيرتها ألّا تحرم منه في زمن من الأزمان أو في لحظة من اللحظات؛ ذلك أنه دمٌ طاهر لم يفارقها في يوم من الأيّام على امتداد تاريخها؛ ولذا فإنها لم تعد تستأنس إلّا به؛ لأنـه الدم الوحيد الذي يراق من أجلها، والذي يراق من أجل إنمائها وإعلاء كـلمة الحـقّ المتمثلة فيها.

وهي سرعان ما تتعرف إلى هذا الدم الذي لم يكد يفارقها، وهكـذا تـتوالى المصارع حيث جاء بعد الإمام الحسين عليه السلام يحيى بن زيد، وإبراهيم بن عبد الله بن الحسن، ومحمد بن عبد الله بن الحسن؛ فتتالت مصارعهم، وتتالى سقي تـلك الشجرة وريّها ومدّها بروح الحياة وإكسير البقاء والخلود؛ كي تبقى كما ذكـرنا خالدة شامخة.

وعلى هذا فإن الإمام الحسين عليه السلام إذ وقف في مثل هذه الليلة فإنما وقف ليعدّ الدماء لسقي هذه الشجرة وريّها؛ ذلك أنه ليس بدعاً ولا يختلف عن شأن آبائه، وهو مع ذلك قد حمل هذا التراث إلى أبنائه الذين أخذوا منه تلك الصفة وتـلك الخصيصة، فباعوا نفوسهم رخيصة في سبيل هذه الشجرة وفي سبيل هذا النـور.

---

(١) شجرة طوبى ١: ١٤٨، وفيات الأعيان ٦: ١١٠ / ٣١٢.

ولهذا السبب فإننا نجد أن التاريخ قد وقف يرفع صوته ليعلن أن سيد أهل الإباء الذي علم الناس الحمية والإباء والموت تحت ظلال المشرفيّة اختياراً على الدنية هو أبو عبد الله الحسين عليه السلام، حيث عرض عليه الأمان إذا استسلم، فاختار العزّ ورفض الذلّ. وقد كان الأولى أن تقال هذه الأبيات فيه كما يقول ابن أبي الحديد:

وقد كان فوت الموت سهلاً فردّهُ ... إليه الحفاظ المرّ والخلق والوعرُ

ونفس تعاف الضيم حتىٰ كأنه ... هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفرُ

فأثبت في مستنقع الموت رجله ... وقال لها من تحت أخمصك الحشرُ

تردّىٰ ثياب الموت حمراً فما أتىٰ ... لها الليل إلّا وهي من سندس خضرُ[1]

الملمح الثاني: المعركة بين معسكر الحقّ ومعسكر الباطل

لقد كانت معركة الطفّ معركة مصيريّة؛ ذلك أنها تمثّل معارك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم التي خاضها ضدّ الكفار والمشركين والمنافقين. وكلّ الإنسان يعلم أنها كانت معركة بين معسكرين:

الأول: معسكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

فهذا المعسكر قد حمل القرآن على يديه، وحمل الإسلام في فمه على لسانه وفي فكره.. معسكر ضم الصحابة والتابعين وقراء القرآن كحبيب بن مظاهر وعروة بن جابر الغفاري اللذين كانا من الصحابة بل وحتى مسلم بن عوسجة الذي كان من الصحابة أيضاً، وعليه فهذا المعسكر يضمّ أنماطاً من هؤلاء النبلاء والأشراف الذين ينطبق عليهم نعت السيد حيدر حيث يقول:

سمةُ العبيد من الخشوع عليهمُ ... لله إنْ ضمّتهم الأسحارُ

(١) شرح نهج البلاغة ٣: ٢٤٩.

فإذا ترجلت الضحى شهدت لهم   بيض الصوارم أنهم أحرارُ[1]

وهكذا نجد أن هذا المعسكر هو معسكر حملة القرآن الذين احتضنوه وعملوا به.. حملة الهدى والإسلام ودين الحق الذي عاشوا في سماحته وساروا على ربوع ساحته وهم يتمثلون روحه الطاهرة، ويعانقونه فكراً وعقيدة وخلقاً وسيرة وأُنموذجاً يحتذى. إنهم لم يحملوا إلّا الخير للدنيا، ولم يريدوا لها إلّا الإصلاح، ولم يبغوا لأهلها إلّا الخير والنفع والإيمان والإنقاذ من نار الآخرة التي تنتظر من يبتعد عن خطّ الإسلام وخطّ الرسالة المتمثّل بالحسين ﵇.

فهذا المعسكر هو معسكر يرفع بين يديه القرآن فكراً وعقيدةً ومشعلاً ودستوراً، وهو ينادي بأعلى صوته: **«أنت ثقتي في كلّ كرب، ورجائي في كلّ شدة، وأنت لي في كلّ أمر نزل بي ثقة وعُدّة، كم كرب يضعف منه الفؤاد، وتقلّ فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدوّ، أنزلته بك وشكوته إليك؛ رغبة مني فيه إليك عمن سواك، ففرّجته وكشفته وكفيته! فأنت ولي كلّ نعمة، وصاحب كلّ حسنة، ومنتهى كلّ رغبة»**[2].

الثاني: معسكر أبي جهل

أما المعسكر الثاني فهو معسكر عمر بن سعد الذي ضم أُناساً بنيت قلوبهم على الحقد والغدر، وترعرعت على الخيانة، ونشأت وشبّت على الكراهية لأهل هذا البيت ﵈ وللإسلام الذي أراد أن يرجعهم إلى إنسانيتهم بعد أن انسلخوا عنها، وأن يجعل منهم أُناساً ذوي قيمة وذوي مكانة في التاريخ. وهكذا فإن قلوبهم كانت

---

(١) ديوان السيّد حيدر الحلّي ١: ٨٢.

(٢) الإرشاد ٢: ٩٦، مصباح المتهجّد: ٥٧٠ – ٥٧١ / ٦٧٨، تهذيب الأحكام ٣: ٨٤ ٢٣٩، الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ٣٢٢.

خالية من الهدى، ولم يحملوا القرآن إلّا على شفاههم، فلم يصل إلى قلوبهم، ولم يعانق عقولهم وأفكارهم، ولم يتلاقح مع أذهانهم، بل إنهم كانوا يقرؤونه على شفاههم فقط دون أن يلج أبواب تلك القلوب الموصدة دونه.

وهكذا وقف المعسكران.

فهو معسكر يحمل على يديه الحقد والخسّة وطلب الثأر من محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ومن آله الذين ساروا على هديه واقتدوا بسيرته، واستنّوا سنته، وكانوا امتداداً لرسالته.

ولم يكن هذا الثأر الذي يطلبونه سوى ثأر قتلاهم في معارك الإسلام الشريفة، ولذا فإن صوت هذا المعسكر كان يرتفع وينادي على لسان صاحبه الضالّ:

لما بدت تلك الرؤوس وأشرقت ... تلك الشموس على ربى جيرونِ

صاح الغراب فقلت صح أو لا تصح ... فلقد قضيت من الرسول ديوني[1]

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ١٩٩ ـ ٢٠٠ / ٤٠، تفسير الآلوسي ٢٦: ٧٢ - ٧٣.

قال الآلوسي: «وعلى هذا القول لا نتوقّف في لعن يزيد، لكثرة أوصافه الخبيثة، وارتكابه الكبائر في جميع أيام تكليفه. ويكفي ما فعله ـ أيام استيلائه ـ بأهل المدينة ومكّة فقد روى الطبراني بسند حسن: «اللهم من ظلم أهل المدينة وأخافهم فأخفه وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل».

والطامّة الكبرى ما فعله بأهل البيت، ورضاه بقتل الحسين (على جدّه وعليه الصلاة والسلام)، واستبشاره بذلك، وإهانته لأهل بيته مما تواتر معناه وإن كانت تفاصيله آحاداً.

وفي الحديث: «ستة لعنهم الله وكل نبي مجاب الدعوة... والمستحلّ من عترتي».

وقد جزم بكفره وصرّح بلعنه جماعة من العلماء منهم الحافظ ناصر السنة ابن الجوزي، وسبقه القاضي أبو يعلى. وقال العلامة التفتازاني: لا نتوقّف في شأنه، بل في إيمانه (لعنة الله تعالى عليه، وعلى أنصاره وأعوانه).

وممن صرح بلعنه الجلال السيوطي (عليه الرحمة)...».

ثم نقل عن تاريخ ابن الوردي، وكتاب (الوافي بالوفيات) البيتين الآنفين، ثم عقّب عليهما قائلاً: «يعني أنه قُتل بمن قتله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر كجدّه عتبة وخاله ولد عتبة وغيرهما. وهذا كفر صريح، فإذا صحّ عنه فقد كفر به. ومثله تمثّله بقول عبد الله بن الزبعرى

....

☚ قبل إسلامه : ليت أشياخي... الأبيات ».
ثم نقل فتوى الغزالي بحرمة لعنه، ثم قال : « وتعقب السفاريني من الحنابلة نقل البرزنجي والهيثمي السابق عن أحمد ﷺ فقال : « المحفوظ عن الإمام أحمد خلاف ما نقلا، ففي الفروع ما نصه : « ومن أصحابنا من أخرج الحجّاج عن الإسلام، فيتوجّه عليه يزيد ونحوه. ونصّ أحمد خلاف ذلك، وعليه الأصحاب... والمختار ما ذهب إليه ابن الجوزي. وأبو حسين القاضي ومن وافقهما »...».
ثم قال : « قال ابن الجوزي (عليه الرحمة) في كتابه (السر المصون) : من الاعتقادات العامّة التي غلبت على جماعة منتسبين إلى السنة أن يقولوا : إن يزيد كان على الصواب وأن الحسين (رضي الله تعالى عنه) أخطأ في الخروج عليه، ولو نظروا في السير لعلموا كيف عقدت له البيعة وألزم الناس بها ولقد فعل في ذلك كل قبيح. ثم لو قدرنا صحّة عقد البيعة فقد بدت منه بواد كلّها توجب فسخ العقد، ولا يميل إلى ذلك إلّا كل جاهل عامي المذهب يظن أنه يغيظ بذلك الرافضة... والذي يغلب على ظنّي أن الخبيث لم يكن مصدّقاً برسالة النبي ﷺ، وأن مجموع ما فعل مع أهل حرم الله تعالى، وأهل حرم نبيّه (عليه الصلاة والسلام) وعترته الطيبين الطاهرين في الحياة وبعد الممات، وما صدر منه من المخازي ليس بأضعف دلالة على عدم تصديقه من إلقاء ورقة من المصحف الشريف في قذر. ولا أظن أن أمره كان خافياً على أجلّة المسلمين إذ ذاك، ولكن كانوا مغلوبين مقهورين. لم يسعهم إلّا الصبر ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. ولو سلم أن الخبيث كان مسلماً فهو مسلم جمع من الكبائر ما لا يحيط به نطاق البيان، وأنا أذهب إلى جواز لعن مثله على التعيين ولو لم يتصور أن يكون له مثل من الفاسقين. والظاهر أنه لم يتب، واحتمال توبته أضعف من إيمانه، ويلحق به ابن زياد. وابن سعد. وجماعة فـ(لعنة الله عزّ وجل عليهم أجمعين، وعلى أنصارهم وأعوانهم وشيعتهم ومن مال إليهم إلى يوم الدين، ما دمعت عين على أبي عبد الله الحسين). ويعجبني قول شاعر العصر ذو الفضل الجلي عبد الباقي أفندي العمري الموصلي وقد سئل عن لعن يزيد اللعين :

يزيد على لعني عريض جنابه ... فأغدو به طول المدى ألعن اللعنا

ومن كان يخشى القال والقيل من التصريح بلعن ذلك الضلّيل فليقل : لعن الله عزّ وجل من رضي بقتل الحسين، ومن آذى عترة النبي ﷺ بغير حق، ومن غصبهم حقّهم». تفسير الآلوسي ٢٦ : ٧٢ ـ ٧٤.

وهكذا فإننا نجد أن الأمر واضح وجلي في أن المستهدف هو النبي ﷺ نفسه، وبالنتيجة فإن المستهدف أيضاً هو الإسلام، هذه الشجرة التي راحت ترفرف رايتها على بقاع كثيرة من الأرض.

إذن كانت معركة الطف معركة بين من حمل القرآن وحمل الإسلام، وبين معسكر يريد أن يقضي على من حمل القرآن والإسلام، وهكذا نجد أن رد الفعل عند هؤلاء هو أنهم بدلاً من أن يحفظوا رسول الله ﷺ في عترته وبدلاً من أن يحملوا شعار الإسلام رحمة وهدى، حملوا حقدهم في صدورهم فأوغروها عليه، وأوصدوا أبوابها دون أن تلجها كلمات الحقّ فراحوا يقتلون النبي ﷺ بقتلهم عترته، وباعتدائهم على سنّته، وعلى كتاب الله وعلى دينه الذي نزل به؛ ذلك أنهم حملوا تراث الجاهلية وجاؤوا بما عندهم من كلّ طبع يأباه النبل

☚ وقال الذهبي: «كان ناصبياً، فظّاً، غليظاً، جلفاً، يتناول المسكر، ويفعل المنكر. افتتح دولته بمقتل الشهيد الحسين، واختتمها بواقعة الحرة». سير أعلام النبلاء ٤: ٣٧.

وقال الشوكاني: «لقد أفرط بعض أهل العلم فحكموا بأن الحسين (رضي الله عنه) باغٍ على الخمير السكّير، الهاتك لحرمة الشريعة المطهرة يزيد بن معاوية (لعنهما الله) فيا للعجب من مقالات تقشعر منها الجلود، ويتصدع من سماعها كل جلمود». نيل الأوطار ٧: ١٤٧.

وقال الجاحظ: «المنكرات التي اقترفها يزيد قتل الحسين، وحمله بنات رسول الله ﷺ سبايا، وقرعه ثنايا الحسين بالعود، وإخافته أهل المدينة، وهدم الكعبة تدل على القسوة والغلظة، والنصب، وسوء الرأي، والحقد والبغضاء، والنفاق، والخروج عن الإيمان. فالفاسق ملعون، ومن نهى عن شتم الملعون فملعون». رسائل الجاحظ / الرسالة الحادية عشرة: ٣٩٨.

وقال ابن العماد الحنبلي: «قال التفتازاني في (شرح العقائد النسفية): اتّفقوا على جواز اللعن على من قتل الحسين، أو أمر به، أو أجازه، أو رضي به. والحقّ أن رضا يزيد بقتل الحسين واستبشاره بذلك وإهانته أهل بيت رسول الله ﷺ ممّا تواتر معناه وإن كان تفصيله آحادا، فنحن لا نتوقف في شأنه، بل في كفره وإيمانه، (لعنة الله عليه وعلى أنصاره وأعوانه)...». شذرات الذهب ١: ٦٨.

والأخلاق والدين والسماء.. حملوا كلّ ذلك على أيديهم وجاؤوا ليقتصّوا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عبر قتلهم عترته وذريته، وسبيهم حريمه.

لقد جاؤوا ليريقوا آخر قطرة من دماء النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقد انتهى بهم الأمر إلى أن يقتلوا حتى الرضيع الذي لم يكد يبلغ من العمر يوماً واحداً. ويفرح الحسين عليه السلام أن دماً من دماء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإن كان دم رضيع سيساهم مع دماء أهل البيت عليهم السلام في سقي شجرة الحق.

وإذا كان الجيش في الجانب الثاني ينادي: اقتلوهم، ولا تبقوا لأهل هذا البيت باقية، فإن الجيش عند الحسين كان يسرّ إذ يرى أن طفلاً وضع رقماً إلى جانب الأرقام في سجل الحرية والدفاع عن الهدى والمقدّسات، وعن كلمة السماء ورسالتها الخالدة؛ ذلك أنه كان يواجه معسكراً قاده حقده ونصبه عداءه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولأهل بيته ولمعسكر حمل الرحمة وحمل مشعل الهداية وحمل القرآن دستوراً له.

ومرت الأيام، ومرت الدنيا فأماتت معسكر الحقد وأحيت معسكر الهدى والكتاب.. وها نحن نسمع في مثل هذه الليلة في أغلب العواصم الإسلامية والبلاد غير الإسلامية ممن تحتوي فيها على جاليات إسلامية من مختلف بقاع الأرض تمجيداً لهذا الدم الذي سقط على ثرى كربلاء.. وها نحن نسمع في مثل هذه الليلة أن هذا الدم قد تبرعم إلى مئات من الأصوات تهتف لتعلي شعار الحسين عليه السلام: **«والله لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرّ إقرار العبيد»**[1].

وها نحن نسمع النبرة التي خلقها دم الحسين عليه السلام وغذّاها وحوّلها إلى نبرة محببة للنفوس؛ لأنها النبرة التي تحمل شعار الهدى والحقّ والسماء والجهاد في

(١) الإرشاد ٢: ٩٨، تاريخ الطبري ٤: ٣٢٣، البداية والنهاية ٨: ١٩٤.

سبيل الله وفي سبيل خير الإنسانية. إننا حينما نتمعن في هذه المعركة وفي ظروفها فإننا سنجد أنه ليس هناك من معسكر يقف في مواجهة معسكر الحسين عليه السلام إلّا وهو يعدّ سلاحه ونبله ليرشق به قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم المتمثّل بذلك المعسكر الذي أعدّ السيف للدفاع عن النفس، وحَمَّلَ السيف رسالة القرآن الكريم من أجل أن يعليها. ولهذا فإننا نقول: إن السيف الذي كان يحمل رسالة القرآن لم يكن في يوم من الأيام سيف بغي، ولم يكن صاحبه باغياً أبداً؛ لأنه كان سيفاً يريد انتزاع الحقّ من يد سالبيه وإرجاعه إلى نصابه، ويريد دفع الباطل وتخليص هذا الدين مما تلبّسه من مؤثّرات هذا الباطل الذي راح يزحف تحت جنح الظلام ليمدّ خيوطه حول عنق الحق، محاولاً خنقه لإعادة الناس إلى زمان الجاهلية، وللقضاء على هذا الدين الشريف.

إننا نقول: هيهات أن تجتمع روح الإسلام مع البغي، فكّل صارم في معسكر الحسين عليه السلام حمل القرآن شعاراً له، وحمل الإسلام روحاً له لا يمكن أن يكون صارم بغي، في حين أن الصوارم التي رفعت في المعسكر الثاني كانت صوارم تحمل الحقد والبغضاء للدين الحنيف ولأهله وحملته وأصحابه. ولذا فإن برير بن خضير رضي الله عنه قد وقف في ذلك اليوم يقرّر هذه الحقيقة، حيث راح يخاطب معسكر ابن سعد ويقول لهم: «يا قوم، اتقوا الله؛ فإن ثقل محمد صلى الله عليه وآله وسلم قد أصبح بين أظهركم، هؤلاء ذريته وعترته وبناته وحرمه، فهاتوا ما عندكم وما الذي تريدون أن تصنعوه بهم». فقالوا: نريد أن نمكّن منهم الأمير ابن زياد، فيرى رأيه فيهم. فقال لهم برير: «أفلا تقبلون منهم أن يرجعوا إلى المكان الذي جاؤوا منه؟ ويلكم يا أهل الكوفة أنسيتم كتبكم وعهودكم التي أعطيتموها وأشهدتم الله عليها؟ يا ويلكم أدعوتم أهل بيت نبيكم، وزعمتم أنكم تقتلون أنفسكم دونهم، حتى إذا أتوكم

أسلمتموهم إلى ابن زياد، وحلأتموهم عن ماء الفرات؟ بئس ما خلفتم نبيكم في ذريته، ما لكم لا سقاكم الله يوم القيامة؟ فبئس القوم أنتم »[١].

ولكنها القلوب التي أمحلت من الخير، والآذان التي صُمّت عن سماع النصح والموعظة ونداء الحق.

الملمح الثالث: طيُّ لواء الباطل

ففي مثل هذا اليوم حاولت هذه الدماء الطاهرة أن تطوي لواء نُشر ورُفع يوم بدر بيدي أبي سفيان وهو ينادي: اعلُ هبل، وذلك ضمن محاورته مع رسولنا الأكرم ﷺ عقيب معركة أُحد، فعن ابن عبّاس ﷺ قال: لما كان يوم أُحد صعد أبو سفيان الجبل، فقال رسول الله ﷺ: « **اللهم إنه ليس لهم أن يعلونا** ».

فمكث أبو سفيان ساعة، وقال: يوماً بيوم، إن الأيام دول، وإن الحرب سجال. فقال النبي الأكرم ﷺ: « **أجيبوه** ». فقالوا له: لا سواء؛ قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار. فقال أبو سفيان: لنا عُزّى ولا عُزّى لكم. فقال النبي الأكرم ﷺ: « **الله مولانا ولا مولى لكم** ». فقال أبو سفيان: اعلُ هبل. فقال رسول الله ﷺ: « **الله أعلى وأجل** »[٢].

حيث قابله آنذاك لواء النبي ﷺ وهو يقول: « **الله أعلى وأجل** ». ففي مثل هذه الليلة كان هذا اللواء قد نشر من جديد وهو ينادي: اقتلوهم، ولا تبقوا لأهل هذا البيت باقية.

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٥، لواعج الأشجان: ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٢) بحار الأنوار ٢٠: ٢٣، ٩١، ٦٧، ٥٦، ٤٥، ٣١: ٥٢١، مسند أحمد ١: ٤٦٣، ٢٨٨، ٤: ٢٩٣، صحيح البخاري ٤: ٢٧، ٥: ٣٠، المستدرك على الصحيحين ٢: ٢٩٧، مسند أبي داود الطيالسي: ٩٩، المصنف (عبد الرزاق) ٥: ٣٦٦، مسند ابن الجعد: ٣٧٥، المصنف (ابن أبي شيبة) ٨: ٤٩٢، السنن الكبرى ٥: ١٩٠، ٦: ٣١٦، صحيح ابن حبّان ١١: ٤١.

ولذا فإن أهل البيت قد نشروا لواءهم إزاءه، وهو لواء كان إذا نشر حفّت به الملائكة.. لواء كان كلّما نشر على امتداد تاريخ الإسلام حفّت به ملائكة الله، وحفّت به أنصار الحقّ؛ فقد نشره يوماً الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام فحفّ به الأنصار والتفّوا حوله وأنشؤوا يردّدون خلف قيس بن عبادة الذي أنشأ يقول:

هذا اللواء الذي كنا نحفّ به ... مع النبيّ وجبريل لنا مددُ

ما ضرّ من كانت الأنصار عيبته ... ألّا يكون له من غيرها أحدُ

قوم إذا حاربوا طالت أكفّهُمُ ... بالمشرفيّة حتى يُفتحَ البلدُ[1]

إذن فهاهنا لواءان: لواء أقبل يحدوه الغدر والخسة والخيانة والحقد الدفين على الإسلام وعلى رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم وعلى أهل بيت الرسول عليهم السلام وعلى خلّص من المسلمين، ولواء أقبل يحمل شعار سفير السماء محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي سقط بعد أن قطعت الأيدي التي كانت تمسكه حيث جيء بهذا اللواء بعد أن أُخذ إلى يزيد بن معاوية الذي أمسكه وأطال النظر إليه، فوجده لواء قد استوعبته السهام والنبال ومزّق، ولم يسلم منه إلّا مكان مقبض قبضْته اليد التي كانت تحمله، ولذا فإن يزيد حينذاك أخذ اللواء ثم أطال النظر إليه وقال: أبيت اللعن يا عبّاس. إنه اللواء الذي انحدر من ألوية النبي التي ما رفّت إلّا لتعلي الخير بين الناس، وقصد طريق الخير للمجتمع.

فهذا اللواء قد أُعدّ هذه الليلة لينشر صباحاً كي يرفع الإسلام وكلمة الإسلام، ويقاتل دونه من حملوه من أجل الإسلام، فيستقبل نبلة إثر نبلة، ورمية إثر

---

(١) الجمل: ١٨٣، الاستيعاب ٣: ١٢٩٢ / ٢١٣٤، أُسد الغابة ٤: ٢١٦، الوافي بالوفيات ٢٤: ٢١٣ / ١، تاريخ مدينة دمشق ١٠: ٢٤٤.

رمية، ورمحاً إثر رمح، وهي جميعها أوسمة بطولة نالها أولئك الذين حملوه، واستزادوا شرفاً بتقبلها، في حين أنه قد قابلته ألوية إذا خفقت فإنما تخفق بالخسّة والجبن والعار.. ألوية طالما هربت من أمام الحقّ، وطالما حادت عن طريق الحقّ، ورفعت في كلّ طرق الباطل.. ألوية طواها علي بن أبي طالب﵇ يوم صفين، وطواها من قبله رسول اللّه ﷺ يوم بدر والخندق وغيرهما من معاركه، لكنها عادت لتنشر هذا اليوم سهماً يوجّه إلى صدر الإسلام وإلى صدر رسول الإسلام ﷺ، وإلى صدر أهل بيت الإسلام الذين حملوا الإسلام ودافعوا عنه.

لقد نشرت في مثل هذا اليوم وهي ترفرف فوق قلوب ليس فيها إلّا الحقد والبغض والكره والشنآن لرسول الله ﷺ ولعلي﵇ الذي حمل لواءه الذي كان يرفرف على رأس الحسين﵇ ـ في اثنتين وثمانين غزوة، فما سقط من يده حيث إنه﵇ قد قاتل دونه قتال الأبطال. وهكذا يعود الإمام الحسين﵇ يوم الطفّ لينشره، وليحمله وليدافع عنه ودونه من أجل إعلاء كلمة الإسلام.

الملمح الرابع: أن فيها قتلت آخر أذن سمعت الوحي

ففي صباح تلك الليلة وعندما اشتجرت المعركة وسقط الإمام الحسين﵇، كان بسقوطه قد سقطت آخر أُذن سمعت الوحي والتقطته وهي في حجر النبي ﷺ؛ ذلك أنه ﷺ كان دائماً ما يحتضنه، وكان دائماً ما يكون عنده في بيته، حيث الإمام الحسن﵇ عن جنبه الأيمن والحسين﵇ عن جنبه الأيسر، فيهبط جبرائيل﵇ يقرع بالوحي سمع الحسن والحسين﵉ وهو يخاطب به الرسول الأكرم ﷺ. وهكذا نجد أن رحيق الوحي كان لا يزال في آذانهما﵉ التي ما فتئت يَغزوها نور الهداية، فانتشت بروح الإسلام الذي تعمق فيها ووصل إلى حدّ

لا يمكن أن يتراجع دونه من أحد منهما.

إذن كانت أُذن الحسين عليه السلام هي آخر أُذن تلتقط الوحي، وكانت كذلك آخر أُذن ترتفع في صبيحة هذا اليوم، ولذا فإنه حينما سئل الإمام الصادق عليه السلام: يابن رسول الله، لماذا أخذت معركة الطفّ هذا المقدار من الاهتمام والفاجعة، مع أن حياة آبائك عليهم السلام كانت كلها مآسيَ وآلاماً، وأن سجلّهم كلّه كان تضحية في سبيل الدين والإسلام؟ فأجابهم عليه السلام بأنه حينما فقد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم توجّهت الأنظار إلى أمير المؤمنين عليه السلام وفاطمة الزهراء عليها السلام، فكانوا يتسلّون بهما عن فقد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبعد فقد فاطمة الزهراء عليها السلام توجّهت الأنظار إلى أمير المؤمنين عليه السلام والحسنين عليهما السلام، وبعد فقد أمير المؤمنين عليه السلام توجّهت الأنظار إلى الحسنين عليهما السلام، وبعد فقد الحسن عليه السلام توجّهت الأنظار إلى الحسين عليه السلام، وبعد فقد الحسين عليه السلام لم يبقَ من تتوجّه الأنظار إليه؛ فكان فقده فقداً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام وفاطمة الزهراء عليها السلام، والحسن عليه السلام.

فهؤلاء يسألون الإمام مستعلمين عن هذا الأمر؛ لأنهم كانوا يعرفون أن سجلّ آباء الحسين عليه السلام كلّه تضحية في سبيل الإسلام، ومليء بالشهادة، وعليه فما هي الخصوصية التي كانت لمعركة الطف حتى جعلتها في هذا المقام وفي هذه المنزلة. والواقع أن هؤلاء هم أهل الكساء الذين نزل فيهم حديث الكساء[1]، والذين هم عِدل القرآن[2]. وكان الإمام الحسين عليه السلام أحد الخمسة الذين طالما رُدّدت أصداؤهم على مسمع الدهر، وانبعثت فيها مشاعر كثيرٍ من الشعراء مثل أبي العلاء الذي يقول مخاطبا الحسين عليه السلام:

---

(١) المعجم الأوسط ٧: ٣١٩، فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٢١٧ / ٢٠٤.

(٢) مسند أحمد ٣: ١٤، ١٧، ٢٦، ٤: ٣٧١، وغيره كثير.

يـابنَ مستعرضِ الصُّفوفِ ببدرٍ والقَنَا المرّ من بني غطفانِ

أحدُ الخمسةِ الذين هُمُ الأشـ ـباح في كلّ منطق والمعاني[1]

نعم لقد كان الحسين عليه السلام أحد الخمسة، بل خاتمهم وآخرهم، وبقتله ارتفعت عن الأرض آخر أُذن طرقها صوت الوحي وهو يخاطب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، ففي صبيحة يوم عاشوراء الذي انفرج عنه الليل راحت تلك الأجساد الطاهرة تتلفّع بالدماء، وراح ذلك الفم الذي حمل القرآن، وتلك الروح التي شربت القرآن، والأُذن التي التقطت الوحي وعت القرآن تختضب بخضاب الحقّ، وبمداد شجرة الحياة، فلم يبقَ جزء منه إلّا ورشقته نبلة أو سهم، أو طعنه رمح، أو ضربه سيف، فتلك جراح مجّدها التاريخ:

وصدى كلّ هادر وبليغ ليس مثل الجراح حيث تقولُ

وستبقى يرويك للدهر مجداً الدمُ الحرّ والحسام الصقيلُ

الملمح الخامس: الأسى واللوعة

إن كل ما مرّ من ملامح ذكرناها كانت ملامح حقٍّ تمثلت بالحسين عليه السلام، لكنها ملامح لم تقوَ على دفع هذا الملمح، وهو ملمح الأسى حيث إن واقعة الحسين عليه السلام ومصيبة الحسين وعيالاته من بعده لم تكن لتمرّ دون أن تبعث الحزن واللوعة والأسى في قلوب محبيهم، بل حتى في قلوب أعدائهم. وهكذا فإننا نجد أن بجانب ملامح البطولة والمجد والعزّ والشموخ والرفعة التي تمثلت كلها بسيد الشهداء عليه السلام وبأهل بيته وأصحابه وأنصاره ممّن استشهد معه فإننا نجد بجانبها الثاني ملامح للأسى واللوعة، وإلّا فما الذي يبعث اللوعة والأسى إن لم تكن

(١) ديوان سقط الزند: ٩٤.

هذه المناظر المأساوية حيث كان الحسين عليه السلام يدور بين حرم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأطفال من عيالاته، يودّع هذه، ويقبّل هذا، ويصبّر هذا، ويرسم خططه المستقبلية لما بعد المعركة لأُخته سفيرته والواجهة الإعلامية لحركته الّتي تغلبت عليها اللوعة، وسبقتها الدمعة، مع أنها تحمل قلباً سجدت له العظمة بكل أبعادها، لكنها لم تحتمل تلك اللحظة التي جاء فيها آخر من سمع الوحي يودّعها؛ لأنها تعلم أنها سوف لن تراه بعدها أبداً.

وإذاكانت مناظر الأسى تحتشد هاهنا فهو ذلك الأسى المشروع الذي لم يصل معه من أُصيبوا به إلى حدّ فقدان الصبر، أو إلى حدّ ارتكاب ما حرّمه الله جلّ وعلا.. لقد كان أسى عليه الحشمة والجلال والوقار، وهكذا وضع الحسين عليه السلام يده بيد أُخته زينب ودخل بها إلى الخيمة حيث انفرد بها بوداع خاص ولما فرغ من وداعه قال: **«أُخيّة، اتقي الله وتعزّي بعزاء الله، واعلمي أن أهل الأرض يموتون، وأهل السماء لا يبقون، وأن كلّ شيء هالك إلّا وجه الله الذي خلق الخلق بقدرته، ويبعث الخلق وإليه يعودون، وهو فرد وحده. أبي خير منّي، وأُمّي خير منّي، وأخي خير منّي، ولي ولكلّ مسلم برسول الله صلى الله عليه وآله أسوة»**. ثم عزّاها بهذا ونحوه وقال لها: **«يا أُخيّة إني أقسمت فأبرّي قسمي، لا تشقّي عليّ جيباً، ولا تخمشي عليّ وجهاً، ولا تدعي عليّ بالويل والثبور وعظائم الأُمور إذا أنا هلكت»**[1]. ثم عزّاها وسلّاها وبعض التسلية تورية.

فامتلأت عيناها بالدموع، وأحسّت بعبرتها تخنقها، وغالبتها دموعها إذ

---

(١) الإرشاد ٢: ٩١ ـ ٩٢، الأمالي (الصدوق): ٢٢١، روضة الواعظين: ١٨٣، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، اللهوف في قتلى الطفوف: ٨٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣٩١، تاريخ الطبري ٤: ٣١٤ ـ ٣١٩، الكامل في التاريخ ٢: ٥٥٨، البداية والنهاية ٨: ١٩٠ ـ ١٩٢، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٤٤، مقتل الحسين (الخوارزمي) ١: ٣٤٩.

حاولت منعها، فانهمرت على خدّيها، فمدّ الإمام الحسين عليه السلام يده إلى جيبه وأخرج منديله فمسح به تلك الدمعة العزيزة التي نزلت على خدّها، وعند ذلك آوت عليها السلام إلى كسر الخباء تمسح دموعها وتتجلّد وتطيل النظر إلى أخيها سيد شباب أهل الجنة وسبط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والبقية الباقية منه.

ثم خرج الحسين عليه السلام من بعد موقفه مع أُخته ليلتقي واجهة أُخرى من واجهات الأسى واللوعة والحزن حيث بدأ يودّع نساءه واحدة واحدة، ويصبرهنَّ على ما سيحدث لهنَّ من فقدهنَّ أبناءهنَّ وأطفالهنَّ، ثم انفرد بخباء وحده وعنده جون مولى أبي ذر وابنه علي بن الحسين عليه السلام مسجى قد أُثقل بالمرض، يقول الإمام السجّاد عليه السلام [1]: **«إني لجالس في تلك العشيّة التي قتل أبي في صبيحتها، وعندي عمّتي زينب تمرّضني، إذ اعتزل أبي في خباء له، وعنده جون مولى أبي ذرّ الغفاري، وهو يعالج سيفه ويصلحه وأبي يقول:**

يـا دهر أُفٍّ لك مـن خـليل	**كـم لك بـالإشراق والأصيلِ**
مـن صـاحب أو طـالب قـتيل	**والدهـر لا يـقنع بـالبديلِ**
وإنـما الأمـر إلى الجـليل	**وكـلّ حـيّ سـالك سـبيلي** [2]

فأعادها مرّتين أو ثلاثاً حتى فهمتها وعرفت ما أراد، فخنقتني العبرة فردّدتها ولزمت السكوت، وعلمت أن البلاء قد نزل، وأمّا عمّتي فإنها سمعت ما سمعت وهي امرأة، ومن شأن النساء الرقّة والجزع، فلم تملك نفسها أن وثبت تجرّ ثوبها حتى انتهت إليه فقالت: واثكلاه! ليت الموت أعدمني الحياة، اليوم ماتت أُمّي فاطمة وأبي علي وأخي الحسن، يا خليفة الماضي وثمال الباقي. فنظر إليها

---

(١) الكلام السابق أيضاً ورد على لسانه عليه السلام كما في الإرشاد.

(٢) المصدر نفسه.

الحسين عليه السلام وقال لها: يا أُخية، لايذهبن بحلمك الشيطان. وترقرقت عيناه بالدموع وقال: ولو ترك القطا لناما.

فقالت: يا ويلتاه، أفتغتصب نفسك اغتصاباً؟ فذاك أقرح لقلبي وأشدّ على نفسي. ثم خرّت مغشيّاً عليها، فقام إليها الحسين عليه السلام فصبّ الماء على وجهها».

ثم خرج عليه السلام عنها فيما راحت هي تلاحقه بعينيها الدامعتين اللتين يشوبهما الحزن والأسى واللوعة؛ لما تعرفه من أنها ستفارق أخاها وستودعه، وأنها سوف لن تراه مجدّداً، وهكذا انفردت النساء في هذه الليلة كل واحدة منهنّ بمن تعرف أنه سيكون فقيداً لها، فلازمت ليلى عليّاً الأكبر عليه السلام، ولازمت رملةُ القاسم بن الحسن عليه السلام، ولازمت الرباب طفلها الرضيع، وهكذا راحت النساء كل واحدة منهنّ تمسك بعزيزٍ لها:

يـاليل كـلّك ولم ونـياح عسى لايمرّ عليك مصباح

منهو بدال حسين لو راح

ثم انفردت النساء في هذه الليلة كلّ واحدة منهن بفقيدٍ لها، أمّا أُخت الحسين عليه السلام الحوراء زينب فكانت تجول وتدور على الجميع؛ لأن هؤلاء بأجمعهم سيفارقونها. ومر عليهم الليل وهم بين أسى وبين دمع، والإمام الحسين عليه السلام وأصحابه بين قائم وقاعد وراكع وساجد، وكانت عائلة الحسين عليه السلام غرقى بالدموع لا تكاد تهدأ. وبعد هدوء الأصوات عند سكون الليل انطلق الإمام الحسين عليه السلام يتفقّد أصحابه؛ فأطلّ على خباء الأنصار، وأطلّ على خباء بني هاشم ثم أباحهم وأحلّهم من بيعته، وطلب منهم أن يرجعوا عنه إن كانوا يرغبون في ذلك؛ لأن القوم إنما يطلبونه ولا يطلبونهم، ولذا فإنه عليه السلام قال لهم: **«هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً... الطريق غير خطير، والليل ستير، والوقت غير هجير،**

وأنتم في حلّ من بيعتي. إن القوم يطلبونني، ولو ظفروا بي لذهلوا عن طلب سواي»[١].

فقد حاول الإمام عليه السلام أن يضعهم وجهاً لوجه أمام الحقيقة، لكنهم لم يكن منهم الجواب إلّا إن قاموا ونشروا عمائمهم، وأشهروا صوارمهم، وقالوا كلّهم: قبّح الله العيش من بعدك أبا عبد الله، والله لا نفارقك حتى نلقى ما تلقى. أمّا الحوراء زينب فكانت لا تكاد تهدأ:

وصــوا بــنا گــبلٍ تــرحـلـون   گبلٍ مـا عـلـى الـغـبرة تـنـامون

يحسـين منـتـه نـور العيــون

ها الليـلـه گشـرة شـلـون ليـله   كـــل اخـــوتي امست چـــتيله

* * *

أحـبّتنا مـن لـلـظعائن بـعدكم   فليت فداكم يـا كـرام الظـعائنُ

---

(١) انظر: الدمعة الساكبة ٤: ٢٧٢، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٢٦٢ ـ ٢٦٥.

﴿٢٠٥﴾

ملامح النهضة الحسينيّة المباركة

في كلّ عام لنا بالعشر واعية

تطبّق الدور والأرجاء والسككا

المباحث العامة للموضوع

المبحث الأول: الدوافع وراء تحرك الحسين عليه السلام

إن الواعية التي يعبّر عنها السيد جعفر الحلي رحمه الله في بيته هذا هي اثر واقعة الطف.. الواقعة التي كان لها صدى كبير وأثر أكبر في معالجات الباحثين والمفكّرين والكتّاب الذين تناولوا هذه الواقعة. وكان عند كلّ من هؤلاء مناهج عدّة يعتمد عليها في عملية بحثه وتنقيبه حول ملابسات الواقعة وأحداثها وما يدور حولها، لكن أغلب هذه المناهج كانت تعتمد على مفهوم «نظرية العامل الواحد»، العامل الذي يكمن وراء البحث عن الأسباب الكامنة خلف واقعة الطف.. الواقعة التي مافتئ كلّ من كتب فيها يطرح تساؤلات عدّة حول الأسباب التي حملت الإمام الحسين عليه السلام على أن يخرج على الأمويين وهم أصحاب النفوذ والسلطة؛ مما أدّى إلى أن يجهّز له هؤلاء جيشاً جرّاراً، وينتهي الأمر إلى مصرعه ومصرع أهل بيته.

والحقيقة أن هناك نظريّات عدة لتفسير هذه الدوافع، وهي تفسيرات جميعها تشترك فيما بينها بشيء واحد هو أنها تعتمد على ما يسمى بـ« نظريّة العامل الواحد»، كما قلنا. ومن هذه الدوافع نذكر:

الأول: نظرية اختلاف الطبائع بين العائلتين

إن الكثير من الباحثين عندما يتناولون واقعة الطفّ، ويطرحون الأسباب المتعلّقة بقيامها يعتمدون على هذه النظرية، ويرجعون أسبابها إلى حالة من العداء العائلي التي نشأت بين بني هاشم وبين بني أُميّة بسبب اختلاف الطبائع عندهما. إن لكل من الهاشميين والأُمويّين خطّ رسمه في حياته، ومسيرة انتهجها وسار بها، ولكل فرد من أفرادهما مزاج معيّن وتربية معينة لكنهما مزاج وتربية يتصادمان دائما مع مزاج وتربية البيت الآخر ولا يلتقيان معهما. وبهذا يفسّر هؤلاء كثيراً من حالات الصدام التي وقعت بينهما (بين أصحاب هذين الطبعين).

وهكذا فإن الطبع الأُموي قائم على الجانب الوصولي والانتهازي، وهو طبع مادّي يقيس الأُمور بمقياس المال والمادّة، في حين أن الطبع الهاشمي قائم على أُسس دينيّة وأخلاقيّة.

دور المهنة في تحديد الطبائع والتربية

وكلّ هذا يرجع إلى عامل المهنة، فهي أُمور تخضع لها خضوعاً تاماً. وإن شاء الله سوف أُبيّن الآلية التي يتمّ فيها هذا الأمر على ضوء هذه النظريّة. ولقد عالج المرحوم العقّاد في كتابه (أبو الشهداء)[1] هذا الموضوع، وكان يركّز على هذه النقطة. وكذلك فعل الدكتور طه حسين أيضاً، فكان في أغلب معالجاته لهذا

---

(١) أبو الشهداء الحسين بن علي: ١١ ـ ٤٠.

الموضوع حينما يمرّ به يركّز على هذا الجانب. ومثلهما الكثير من الباحثين ممّن تقدّم عليهما كعلي جلال وغيره ممّن تناول واقعة الطفّ وكتب عنها أو تناول جذور الصراع بين الأُمويّين والهاشميّين؛ فكلّ هؤلاء ركّزوا على هذا العامل، أي الأعمال التي كانت تمتهنها تانك العائلتان.

وحينما نأتي إلى الأُمويّين نجد أنهم كانوا يعيشون على المعاملات الربويّة سيما أبو سفيان والنسبة الغالبة منهم. والمعاملة الربويّة كما هو معلوم معاملة قائمة على أساس استغلال الآخرين، فهي معاملة تجارية يشوبها الظلم والقهر والقسر والابتزاز لحقوق الناس ولأموالهم.

وإضافة إلى هذا فإننا نجد أنهم كانوا يدمنون الخمر، والجو الذي كانوا يعيشون فيه ينطبق عليه وصف الليالي الحمراء التي هي متاجرة غير مشروعة بأي شكل من الأشكال. فهذه الأجواء التي كانوا عليها من عمل الربا إلى المتاجرة غير المشروعة بالخمر وإدمانه، إضافة إلى الوظيفة التي أعطتهم إياها قريش، وهي وظيفة الحرب وسفك الدماء بغياً؛ لأنها كانت تقوم على البغي والاعتداء، كلّ هذا جعل من هذه العائلة عائلة منغمسة بالانتهازية والوصول إلى الهدف بأقصر الطرق وإن كان غير مشروع، بل إنها لاتعمد إلى طريق مشروع أبداً.

أما عمل العائلة الثانية (الهاشميّون) فكان سقاية الحاجّ، وعمارة الكعبة الحرام وسدانتها، وإطعام الحاجّ، وتوفير وسائل الراحة لهم. وهي وظائف دينيّة غالباً؛ ولهذا فإن الهاشميّين كانوا يفتخرون على غيرهم من قريش بسدانة البيت، وسقاية الحاجّ وإطعامهم، وما إلى ذلك، كما جرى في المحاورة أو المفاخرة التي حدثت بين العباس بن عبد المطلب وبين طلحة بن أبي طلحة، ذلك أن أمير المؤمنين عليه السلام دخل على العبّاس بن عبد المطلب رضي الله عنه وطلحة بن شيبة، فقال طلحة: أنا صاحب

البيت، بيدي مفتاحه، ولو أشاء بتّ في المسجد؛ فأنا أفضل من علي. وقال العبّاس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، ولو أشاء بتّ في المسجد؛ فأنا أفضل من علي. فقال ﵇: **«ما أدري ما تقولان، لقد صلّيت ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد»**. وفي رواية أنه ﵇ قال: **«لكنني أسلمت وآمنت بالله ورسوله وجاهدت في سبيل الله قبلكما، فلي في ذلك من الحظّ ما ليس لكما. ولقد ضربتكما بالسيف على خياشيمكما حتى دخلتما في دين الله»**. فأنزل الله تعالى قوله: **﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾**[١]...[٢].

فالعباس بن عبد المطلب ﵁ يقول له: إن عملي أهمّ من عملك؛ لأني أتولّى سقاية الحاج، وأحفظ أكبادهم وأرواحهم من العطش؛ فأُنجيهم بذلك من الموت. وأمير المؤمنين ﵇ حينما يقول ذلك لهما وفيهما العبّاس؛ لأن قريشاً أجبرت العبّاس على أن يخرج لقتال النبي ﷺ، والذي أتى به أسيراً إلى النبي ﷺ هو الإمام علي ﵇.

وأمّا هذا العبدري فقد كانت عائلته تتولّى سدانة الكعبة، إضافة إلى حمل الألوية في الحرب، والذين قتلهم الإمام ﵇ من حملة الألوية كانوا كلهم من بني عبد الدار، فقتل السبعة الذين حملوا اللواء من بني عبد الدار، وأسر العبّاس بن عبد المطلب على الرغم من أنه عمّه، فقد وضع يده في تلابيبه وأقبل به أسيراً، يسحبه إلى أن وقف به أمام النبي ﷺ. وبهذا فإن الإمام علي ﵇ يفاخرهم بهذا ويقول لهم: أنا هذه وظيفتي في الواقع.

---

(١) التوبة: ١٩.

(٢) انظر المحاورة في شرح الأخبار ١: ٣٢٤ - ٣٢٥، العمدة: ١٩٣، فتح الباري ٣: ٣٩٣.

وموضع الشاهد من هذه الحادثة هي أن وظائف بني هاشم كانت أقرب إلى الروحيّة.. وظائف تلتصق بمرتبة الخُلُق، وهي خلاف الوظائف التي كان يزاولها الأُمويّون، والتي بني على أساسها مزاجهم القائم على النفعيّة، والربح والمادّي كما ذكرنا. ولم يكن لبني أُميّة شيء من الممارسات العمليّة ممّا هو قريب من الدين أو الأخلاق؛ فكل ما كانوا يزاولونه أو يمارسونه كان بعيداً عن تصوّر الدين وعن معناه. ولهذا السبب نجد أن الباحثين حينما يتناولون معركة الطفّ فإنهم يصوّرون العداء فيها بين الجيش الهاشمي المحمدي، وبين الجيش الأُموي الجاهلي على أنه عداء يرجع إلى التناقض بين مزاجين، وعلى أنه استمرار لعداء بين عائلتين.

فهاتان العائلتان كانتا في الجاهلية هكذا، وحينما جاء الإسلام عمر القلوب عند بعض منهما، في حين أن البعض الآخر دخله دخولاً فقط؛ فلم يعمره، ولم يستقرّ فيه، ولم يتجاوز قشورها إلى اللباب، وهو أمر أشبه ما يكون بتوصيف النبي ﷺ للخوارج حينما يمر بذكرهم: **«يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يرمق السهم من الرمية»**[1].

أي أن بعض الناس يقرأ الآية ولا تكاد تتجاوز حنجرته؛ لأنه يتمسّك بظاهرها فقط، وحينما يناقَش حول هذا الأمر ويقال له: إن هذا الظاهر الذي تتمسّك به وتعمل عليه يصطدم مع آية أُخرى، أو مع العقل، أو مع العلم، فإنه ليس من العسير عليه حينئذٍ أن يصف هذا القائل بأنه كافر، أو أنه ليس بمؤمن، وأنه يريد أن يحرّف كلام الله تعالى. وهؤلاء هم فعلاً كما يصفهم النبي الأكرم ﷺ بذلك الوصف

---

(١) شرح الأخبار ٢: ٤٣، مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ٢: ٣٢٦، وقريب منه في صحيح مسلم ٣: ١١٥، سنن أبي داود ٢: ٤٢٩.

الدقيق؛ لأنهم ليس لديهم أي عمق أو تعمق عند قراءة القرآن أو التعامل معه؛ ولذا فهو لا يتجاوز تراقيهم.

وفي هذا المضمار نجد أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم إنما يصف مثل هؤلاء حيث يقول: «**يخرج قوم من أُمّتي؛ يقرؤون القرآن، ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرؤون القرآن يحسبون أنه لهم، وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية**»[1].

فهؤلاء ببالغ الأسف يتمسّكون بظواهر الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة دون أن يسبروا غورها، وأن يعرفوا معاريضها، والمعاني الكامنة وراء ذلك. ولهذا نجد أنهم يتّهمون بالشرك من يزور قبراً من قبور المؤمنين ويقف عنده ليدعو له أو يدعو عنده، ويصلّي له أو لنفسه، ويقرأ شيئاً من القرآن الكريم. إن معنى هذا ـ وقوف الإنسان على قبور المسلمين، والصلاة لهم، وقراءة شيء من القرآن الكريم ـ أنه مسلم، فهل هناك من مسلم يشرك بالله؟ إننا حينما نزور قبور المؤمنين أو الأئمة (صلوات الله وسلامه على جدّهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعليهم أجمعين) فإنما نزورهم بقصد إكرامهم؛ لأن هذا المزور مسلم، وربما كان شهيداً أو إماماً ووليّاً.

يضاف إلى هذا أننا نروي في الحديث الشريف أن «**من أتى قبر أخيه، ثم وضع يده على القبر وقرأ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[2] سبع مرات أمن يوم الفزع الأكبر**»[3].

---

(١) صحيح مسلم ٣: ١١٥، سنن أبي داود ٢: ٤٢٩.

(٢) القدر: ١.

(٣) الكافي ٣: ٢٢٩ / ٩، كامل الزيارات: ٥٢٨ ـ ٥٢٩ / ٨٠٨، ٨٠٩.

وغيره من أقوال النبي ﷺ ممّا يرويه أهل السنة أنفسهم في كتب الصحاح عندهم[1]. فلماذا إذن يُعمد إلى تكفير هذا الشخص الذي يمتثل لهذه الأحاديث، ويطبّق معانيها، ويستلهمها في حياته، حيث يزور قبراً من قبور المؤمنين؟ إنّ هؤلاء حينما يعمدون إلى هذا التكفير فإنما ينبئون عن أن إيمانهم سطحي وقشري لا يصل إلى اللباب، وليس فيه ذلك العمق الذي نجده عند المؤمنين الحقيقيّين. كما أنه ليس له القابلية على فهم الكلام والمطارحات وتحليلها ومقارنتها.

على أيّ حال فإننا نقول: إن بعض هاتين العائلتين قد دخله الإيمان كالإمام علي عليه السلام والحسنين عليهما السلام، وإخوة الإمام علي (رضي الله عنهم)، وأولاد إخوته، ومن ثم أهل بيت النبي ﷺ الذين حملوا القرآن وعملوا به، ولم يحملوه فقط؛ ذلك أنهم وعوه وتعمّقوا فيه، وكانوا من أنصاره. في حين أننا نجد في الطرف الثاني من يقول بعد أن سمع الأذان: ولقد كنّا في محفل فيه أبو سفيان وقد كفّ

(١) كقوله ﷺ: «زوروا القبور فإنها تذكّركم الآخرة»، وقوله ﷺ: «كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ثم بدا لي أنّها تُرقّ القلب وتُدمع العين وتُذكّر الآخرة؛ فزوروها»، وقوله ٦: «ما من أحد يمرّ على قبر أخيه المؤمن يعرفه في الدنيا فيسلم عليه، إلّا عرفه وردّ عليه». وقد صحّ أنه ﷺ كان يخرج إلى البقيع لزيارة الموتى، ويسلّم عليهم، وغيرها من الأحاديث الكثيرة المبثوثة في كتب القوم، والتي تصبّ في الباب نفسه. انظر في كل ذلك مضافاً إلى آراء علماء القوم التي في بعضها التصريح بجواز زيارة المسلم حتى لقبر غير المسلم: الموطّأ ٢: ٤٨٥، سنن ابن ماجة ١: ٥٠٠ / ١٥٦٩، السنن الكبرى (البيهقي) ٤: ٧٨، المستدرك على الصحيحين ١: ٣٧٦، المعجم الصغير ٢: ٤٣، التلخيص الحبير ٥: ٢٤٧، الشرح الكبير ٢: ٤٢٦، المجموع شرح المهذب ٥: ٣١٠، المغني ٢: ٤٢٤، تلخيص الجيّد ٥: ٢٤٧، فتح الباري ٣: ١١٨، ١٢٠، مغني المحتاج ١: ٣٦٥، فيض القدير شرح الجامع الصغير ٤: ٨٨، ٥: ٧٢، كشف القناع ٢: ١٧٤، ٤: ٣٠١، كنز العمّال ١٥: ٣٨٣ / ٤١٤٨٦، نيل الأوطار ٣: ٣٠٥. وقد مرّ مفصلاً في ج ٢ ص ٢٥٩ من كتابنا هذا، وفي موارد أُخرى متفرّقة كثيرة منه.

بصره، وفينا علي بن أبي طالب ﷺ، فأذّن المؤذن، فلمّا قال: أشهد أنّ محمداً رسول الله ﷺ، قال أبو سفيان: أهاهنا من يحتشم؟ قال واحد من القوم: لا. فقال: للّه درّ أخي هاشم، انظروا أين وضع اسمه. فقال أمير المؤمنين ﷺ: **«أسخن الله عينيك يا أبا سفيان، الله فعل ذلك بقوله: ﴿ورفعنا لك ذِكْرَك﴾»**[1]. فقال: أسخن الله عين من قال: ليس هاهنا من يحتشم[2].

والقائل: يا بني أُمية، تلقّفوها تلقّف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان، مامن عذاب ولا حساب، ولا جنة ولا نار، ولا بعث ولا قيامة[3].

---

(١) الشرح: ٤. (٢) قصص الأنبياء (الراوندي): ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

(٣) تاريخ الطبري ٨: ١٨٢ ـ ١٩٣ / كتاب المعتضد بالله في لعن معاوية، شرح نهج البلاغة ٢: ٤٥. وله من هذا الكلام الشيء الكثير الذي ذكرته كتب التفسير، نذكر منه:

قال أبو سفيان لما بويع عثمان: كان هذا الأمر في تيم، وأنى لتيم وهذا الأمر، ثم صار إلى عدي فأبعد وأبعد، ثم رجعت إلى منازلها، واستقرّ الأمر قراره. فتلقّفوها تلقف الكرة. جمهرة الأمثال: ٤٢٣.

ثم دخل على عثمان فقال له: صارت إليك بعد تيم وعدي، فأدرها كالكرة، واجعل أوتادها بني أُميّة؛ فإنما هو الملك ولا أدري ما جنّة ولا نار. الاستيعاب ٤: ١٦٨٠ / ٣٠٠٥.

وقال له: بأبي أنت، أنفق ولا تكن كأبي حجر، وتداولوها يا بني أُمية تداول الولدان الكرة، فو الله ما من جنّة ولا نار. شرح نهج البلاغة ٩: ٥٣ ـ ٥٤.

ودخل إليه (إلى عثمان) بنو أُميّة حتى امتلأت بهم الدار، ثم أغلقوها عليهم، فقال أبو سفيان بن حرب: أعندكم أحد من غيركم؟ قالوا: لا. قال: يا بنى أُميّة، تلقّفوها تلقّف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان، ما من عذاب ولا حساب، ولا جنّة ولا نار، ولا بعث ولا قيامة. شرح نهج البلاغة ٩: ٥٣ ـ ٥٤.

وفي رواية أنه دخل على عثمان بعد أن كفّ بصره، فقال: هل علينا من عين؟ قال: لا. فقال: يا عثمان، إن الأمر أمر عالميّة، والملك ملك جاهلية، فاجعل أوتاد الأرض بني أُميّة. الأغاني ٣٢٣ / ٦.

وعن أنس أنه دخل على عثمان بعدما عمي فقال: هل هاهنا أحد؟ فقالوا: لا. فقال: اللهم اجعل الأمر أمر جاهلية، والملك ملك غاصبيّة، واجعل أوتاد الأرض لبني أمية. تاريخ

وبهذا فإننا نجد أنه أمر لا شكّ فيه أن يتنافر هذان الصنفان من الناس، فالذي يصرّح بالكفر في كلّ لحظة من لحظاته، وفي كلّ تصرّف من تصرّفاته وفعل من أفعاله لا ينسجم البتّة مع من انعقد على الإيمان ومن ملئ بالإيمان. ولهذا فإن حصول ذلك الخلاف بين هاتين العائلتين لهو أمر صريح جدّاً.

وهذا اللون من الصراع أو الصدام بين هذين المزاجين قد أكّد عليه الباحثون، لكنه كما ذكرنا لا يتعدّى نظرية العامل الواحد، أي حصر السبب في الاختلاف بين المزاجين. وهذا الاختلاف كان في زمن الجاهلية، ثم انتقل إلى زمن الإسلام. وقد نصّ الحديث الشريف على أن: «**خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا**»[1].

ذلك أن العنصر النظيف يبقى نظيفاً سليماً طاهراً، أما العنصر غير الطاهر وغير السليم فإنه لا يمكن إلّا أن يكون كذلك حتى بعد مجيء الإسلام.

وخلاصة الأمر أن هذه النظرية تقول: إن السبب في حدوث واقعة كربلاء هو هذا الصدام بين مزاجي العائلتين منذ البداية والذي تعمّق أكثر وبشكل أكبر بعد مجيء الإسلام. وهو اختلاف في جوانب عدّة حيث انتهجه الأُمويّون كوسيلة للربح أو الوصول إلى أغراض دنيويّة بعيدة عن مفاهيم الإسلام وتعليماته؛ ممّا أدّى إلى حدوث هذا الصدام. ولهذا فإن المعركة كانت معركة مبادئ ـ أي بين

☚ مدينة دمشق ٢٣: ٤٧١.

ووقف على ثنية أُحد بعد ذهاب بصره، ثم قال لقائده: هاهنا ذببنا محمداً وأصحابه. تاريخ الطبري ٨: ١٨٢ ـ ١٩٣ / كتاب المعتضد بالله في لعن معاوية.

وقد ذكرنا جملة من أحواله في محاضرة (أصحاب النار وأصحاب الجنة)، وغيرها.

(١) مسند أحمد ٢: ٢٥٧، ٣: ٣٨٣، ٤: ١٠١، صحيح البخاري ٤: ١١١، ١٢٠، ١٢٢، ١٥٤، ٥: ٢١٦، سنن الدارمي ١: ٧٣.

مبادئ الإسلام وبين مبادئ الجاهلية ـ وقد تجلّى فيها الصدام بين الحقّ المتمثّل بالبيت النبوي الطاهر، وبين الباطل المتمثّل بالبيت الأُموي.

تساؤل حول هذا الرأي

وربما يقول قائل: إن هذه النظرية لا تعدو أن تكون دعوى من غير دليل، وعليه فلا بد من إقامة الدليل عليها.

ونقول: إن الدليل موجود حيث إن الإسلام يقول: «**المثلة حرام ولو في الكلب العقور**»[1]، غير أن هؤلاء قتلوا ابن رسول الله ﷺ، وقطعوا إصبعه، ورفعوا رأسه فوق الرمح، فهل هنالك حقد جاهلي أكبر من هذا؟ وهل هناك حقد أبعد من أن يأمروا بنبش قبر لطفل عمره ستة أشهر ليقطعوا رأسه ويأخذوه مع الرؤوس إلى يزيد بن معاوية؟ وهل لهذا الأمر أدنى علاقة بروح الإسلام؟ وهل مطاردة النساء بشكل تبقى معه الهاشمية ترتعد كما ترتعد السعفة في مهبّ الريح حتى ينزع عنها رداءها، ويسلبها حليّها، ويعتدي عليها بالضرب والسبّ وما إلى ذلك يمتّ للإسلام بصلة؟ إن هذه الأُمور ليست من الإسلام في شيء.

وهذا كما هو واضح نمط بعيد جداً عن التفكير الإسلامي، وعن الروح الإسلاميّة، بل وحتى عن الروح العربية التي كانت سائدة قبل الإسلام، فالعرب كانوا يحترمون المرأة الكريمة الشريفة التي تكون من بيت شريف وعالٍ وسامٍ، فيقدّرونها. ثم إن من شيمهم ألّا يعتدوا على امرأة أبداً؛ لأنهم يعدّون ذلك عاراً عليهم.

إذن فالاعتداء على المرأة ليس من شيم العرب، وليس من شيم الإسلام

---

(١) نهج البلاغة / الوصيّة: ٤٧، عن رسولنا الأكرم ﷺ، وسائل الشيعة ٢٩: ١٢٨ / ٣٥٣١٦، المعجم الكبير ١: ١٠٠.

والمسلمين، أما هؤلاء فضربوا عرض الحائط كلّ شيم العرب، وكلّ شيم الإسلام ومبادئه، واعتدوا على حرائر البيت النبوي الطاهر بالضرب والتنكيل والسبّ وما إلى ذلك. يقول عبد الله بن قيس:

إن من أعجب العجائب عندي   قتل بيضاء حرة عطبولِ

قتلوها ظلماً على غير جرم   إن لله درها من قتيلِ

كُتب القتل والقتال علينا   وعلى المحصنات جرّ الذيولِ[1]

فهؤلاء قد ضربوا النساء في المعركة، وقتلوا بعضهن كما فعلوا مع أُمّ وهب، وبعض من نساء آل بكر حيث تعرضن إلى القتل. وهذا كما قلنا ينأى بعيداً جداً عن روح الإسلام ومفاهيمه.

الثاني: نظرية الدم المراق بين هاشم وعبد شمس

وهذه النظرية هي أيضا نظرية تعتمد على العامل الواحد، وهي تنص على أن أسباب معركة الطفّ تعود إلى العداء والحقد المستحكم بين العائلتين منذ أيّام الجاهليّة. فهذه النظريّة تفترض أن هناك حقداً كامناً في كل عائلة ضد العائلة الأخرى. وهؤلاء يعتمدون في نظريتهم هذه على أُسطورة حيث تزعم بعض كتب التاريخ أن هاشماً وعبد شمس قد ولدا من بطن واحدة، وأنهما كانا ملتصقين مع بعضهما؛ إذ خرج هاشم، وتلاه عبد شمس، وعقبه ملتصق بعقبه، فلما أرادوا أن يفرّقوا بينهما لم يتمكّنوا؛ مما اضطرّهم إلى أن يأتوا بسيف ويقطعوهما من منطقة

---

(١) الأبيات لعمر بن أبي ربيعة، قالها في عمرة بنت النعمان بن بشير الأنصاريّ حينما قتلها مصعب بن الزبير بأمر أخيه عبد الله. تاريخ الطبري ٣: ٤٥١ ـ ٤٩٤، الكامل في التاريخ ٤: ٢١١ ـ ٢٧٨، البداية والنهاية ٨: ٢٨٩ ـ ٣١٣.

والعطبول: المرأة الجميلة الفتيّة الطويلة العنق الشبيهة بالظبية. لسان العرب ٩: ٢٦٥ ـ عطبل.

الالتصاق وبهذا فرقوا بينهما. وكان هناك أعرابي واقف فـقال: إن هـذا السـيف سيكون سمة لهما إلى النهاية، وليخرجن بين ولد هذين من التقاطع ما لم يكن بين أحد سواهم [١].

وهذا في واقع الحال أمر أُسطوري واضح، وهو ليس الأمر الأُسطوري الوحيد المذكور في كتب التاريخ، فنحن حينما نرجع إلى هذه الكتب نجد فيها أساطير كثيرة. إن الباحث العلمي حينما يحاول أن يعرض التاريخ على الوسائل العلميّة فإنه سوف يرى حينئذٍ أنه يجب أن يحذف منه الشيء الكثير، لتوفّره على هـذا العامل (عامل الأُسطورة)؛ ذلك أن البعض من المـؤرّخين لا يـتورّع أن يـذكر أُسطورة ليقيمها مقام الحقيقة، دون أن يتروّى في نـقلها، ودون أن يـتأكّـد مـن مصداقيّتها وصحتها وعدمها.

الثالث: نظرية الاختلاف على بئر زمزم

حيث إننا نجد من يرجع هذا الصراع إلى العداء الذي قام بين العائلتين بسبب تفضيل عبد المطلب على غيره في حفر بئر زمزم، فقد نشب من حينها خلاف بين القرشيّين وبين عبد المطلب على هذا الأمر؛ لأنهم أرادوا أن يشاركوه فيه، مـمّا اضطرّهم إلى أن يطالبوه بالذهاب إلى الكاهن حيث حدث ما حدث فـي تـلك الرحلة مما أقنعهم بأحقّيّة عبد المطلب ببئر زمزم [٢]، لكن العداء الخـفي والحـقد

---

(١) تاريخ اليعقوبي ١: ٢٤٢.

(٢) رأى عبد المطّلب في منامه ذات ليلة قائلاً يقول له: احفر طيبة. قال: وما طيبة؟ فـمضىٰ عنه. وفي الليلة الثانية جاء إليه، فقال له: احفر برّة. قال: وما برّة؟ فمضىٰ عنه. وفي الليلة الثالثة جاء إليه، فقال له: احفر ميمونة. قال: وما ميمونة؟ فمضىٰ عنه. وفي الليلة الرابعة جاء إليه، فقال له: احفر زمزم. قال: وما زمزم؟ ـ وكانت حينئذٍ قد نُسي خبرها، ودرس أثرها، وبعد أن مضىٰ علىٰ ردمها نحو من ثلاثمئة عام ـ قال: بئر لا تنزف ولا تذمّ، تسقي الحجيج

الخبيث بقي في قلوب الأُمويّين.

☚ الأعظم، مثل نعام جافل لم يقسم، ينذر فيها ناذر بمنعم، عند منحر قريش، عند قرية النمل، عند نقرة الغراب الأعصم، وهي شرب لك ولولدك من بعدك.

فلمّا تبيّن له أنه قد صدقته الرؤيا، غدا بمعوله ومعه ابنه الوحيد آنذاك الحارث، فوجد قرية النمل، ووجد الغراب الأعصم ينقر عندها بين أساف ونائلة اللذين كانت قريش تنحر عندهما ما تتقرّب به إليهما. فجاء بالمعول وجعل يحفر حيث أُمر، وجعل ولده الحارث ينقل التراب، حتّىٰ بدا له طيّ البئر، فكبّر فرحاً؛ لأنه تأكّد من وجوده هناك.

وحينئذٍ سألت قريش من مشايخها المسنّين عن هذا البئر، فعرّفوهم بما سمعوا من آبائهم وأجدادهم من أن هناك بئراً نبعت لأبيهم إسماعيل بن إبراهيمعليهما السلام، فعادوا إلى عبد المطلب، وقالوا: إنها بئر أبينا كلّنا، فدعنا نكن معك، وأشركنا فيها. فأبىٰ وقال: هذا شيء خصصت به دونكم، وأُعطيته من بينكم.

فطلبوا منه أن يخاصموه، فأجابهم وقال: اجعلوا بيني وبينكم من شئتم. فاختاروا كاهنة بني سعد بن هذيل، وكانت في أطراف الشام، فأجابهم إلىٰ ذلك فذهبوا. وكان مع عبد المطلب نفر من بني عبد مناف، فنفد ماؤهم في بعض الطريق، فاستسقوا مَن معهم من قبائل قريش، فأبوا، وقالوا: إنا في مفازة ونخشىٰ أن يصيبنا ما أصابكم. فأمر عبد المطلب أصحابه أن يحفروا لأنفسهم الحفائر، وأن ينتظروا فيها الموت، فإذا مات منهم أحد دفنه الآخر، وتكون النتيجة أن يبقىٰ منهم رجل واحد؛ وذلك أهون من أن يبقوا كلّهم طعمة للطيور والسباع.

وبعد أن حفروا لأنفسهم، وامتدّوا في حفائرهم ينتظرون الموت ساعة بعد أُخرىٰ، عدل عبد المطلب عن رأيه هذا، وأمر أصحابه أن يركبوا إبلهم، وأن يضربوا في الأرض؛ فلعلّ الله أن يرزقهم الماء. وأقبل هو إلىٰ راحلته، فركبها، فلمّا انبعثت به، انفجر الماء من تحت أخفافها، فكبّر عبد المطّلب وكبّر أصحابه، ونزلوا وشربوا، ثمّ ملؤوا أسقيتهم.

ولمّا رأى المخاصمون له ما أكرمه الله به، رجعوا عن مخاصمته، وخلّوا بينه وبين زمزم، فحفرها وبنىٰ عليها حوضاً واسعاً ينقل إليه ماءها؛ تسهيلاً للواردين. ثمّ لما جاء موسم الحجّ، جعل ينقل ماءها للحجيج أين ما كانوا؛ فلقب لذلك ساقي الحجيج.

سبل الهدى والرشاد ١: ١٨٨، الطبقات الكبرى ١: ٨٣، الكامل في التاريخ ٢: ١٢، البداية والنهاية ٢: ٣٠٣، البداية والنهاية ٢: ٣٠٤، سيرة ابن إسحاق ١: ٢، السيرة النبوية (ابن هشام) ١: ٩٣، ٩٤ ـ ٩٥، السيرة النبوية (ابن كثير) ١: ١٦٨ ـ ١٧٠، السيرة الحلبية ١: ٥٢ ـ ٥٣.

الرابع: نظرية الخلاف الشخصي

أي الخلاف بين الإمام الحسين عليه السلام وبين يزيد. وهذه النظرية أيضاً تعتمد على العامل الواحد، وتُقرّر أن سبب الخلاف بين يزيد والإمام الحسين عليه السلام وهو الذي أدّى إلى وقوع معركة الطف هو الخلاف على أرينب، وتقول القصّة: لما بلغ معاوية عشق يزيد وهيامه بأُرينب بنت إسحاق من وصيف له، وكانت مثلاً في أهل زمانها جمالاً، وكانت تحت ابن عمّها عبد الله بن سلام القريشي وكان له منزلة عند معاوية، وقد استعمله بالعراق، امتلأ معاوية همّاً وغمّاً بأمر يزيد، فأخذ في الحيلة والنظر فيما يجمع بينهما حتى يرضى يزيد، فاستدعى زوجها من العراق يبشّره بأمر له فيه حظّ وافر، فلما أنزله منزلاً حسناً، دعا أبا هريرة وأبا الدرداء ـ وكانا بالشام ـ فقال لهما: إني قد بلغت لي ابنة أردت نكاحها ليقتدى بي من بعدي، وإني أخاف أن يعضل الأُمراء بعدي نساءهم، وقد رضيت لها عبد الله بن سلام لدينه وفضله وأدبه فاذكرا ذلك عني، وإني كنت جعلت لها الشورى في نفسها غير أني أرجو ألّا تخرج من رأيي.

فخرجا إلى عبد الله بن سلام وأعلماه بما قاله معاوية فسرّ به وفرح، وحمد الله ودعا لمعاوية، ثم بعثهما إلى معاوية خاطبين عليه، فلما قدما قال لهما معاوية: إنكما تعلمان رضاي بذلك فادخلا عليها واعرضا عليها ما رضيت لها. فدخلا وأعلماها بكل ما جرى، وكان معاوية قد لقّنها ما يريد أن تجيب به فقالت: عبد الله بن سلام كفء كريم وقريب حميم، غير أنه تحته أُرينب بنت إسحاق، وأنا خائفة أن تعرض لي غيرة النساء فأتولّى منه ما يسخط الله، ولست بفاعلة حتى يفارقها. فأخبرا عبد الله بن سلام بالأمر ففارق زوجته وأشهدهما على طلاقها، فأظهر معاوية كراهيته طلاقها وقال: لا أستحسنه ولو صبر ولم يعجل كان أمره إلى مصيره. فانصرفا في عافية ثم عودا لتأخذا رضاها.

ثم أخبر يزيد بما كان من طلاق أُرينب، ثم عادا إلى معاوية فأمرهما بالدخول إليها ليسألاها فدخلا عليها وأعلماها بطلاق أُرينب؛ طلباً لمسرّتها فقالت: إنه في قريش لرفيع، وإن الزواج هزله جدّ، والأناة في الأُمور أوفق، وإني سائلة عنه حتى أعرف دخيلة خبره، ومستخيرة فيه ومعلمتكما بخيرة الله.

ثم انصرفا وأعلما عبد الله بن سلام فقال:

فإن يكُ صدر هذا اليوم ولّى فإن غداً لناظره قريبُ

ثم استحثّهما عبد الله بن سلام وسألهما الفراغ من أمره، فأتياها فقالت لهما: إني سألت عن أمره فوجدته غير ملائم لي ولا موافق لما أُريد لنفسي. فعلم عبد الله أنه قد خدع، فقال متعزّياً: ليس لأمر الله رادّ. ولام الناس معاوية على خديعته وجرأته على الله. ولما انقضت أقراؤها وجّه معاوية أبا الدرداء إلى العراق خاطباً لها على ابنه يزيد، فخرج حتى قدمها وبها يومئذ الإمام الحسين عليه السلام، فقدّم أبو الدرداء زيارة الحسين عليه السلام والتسليم عليه على مهمّته، فرحّب عليه السلام به، وأخبر أبو الدرداء بمهمته، فقال عليه السلام: «**لقد ذكرت نكاحها فلم يمنعني إلّا تخيّر مثلك، فاخطبها عليّ وعليه، وأعطها من المهر ما أعطاها معاوية عن ابنه**».

فلما دخل عليها أبو الدرداء قال لها: قد خطبك أمير هذه الأُمّة وابن الملك، ووليّ عهده يزيد بن معاوية، وابن بنت رسول الله الحسين بن علي، فاختاري أيهما شئت. فسكتت طويلاً ثم فوّضت أمرها إليه، فقال: أي بنيّة، ابن بنت رسول الله أحبّ إليّ وأرضاهما عندي. فتزوّجها عليه السلام، وساق لها مهراً عظيماً، وبلغ معاوية ما فعل أبو الدرداء فتعاظمه جدّاً، وقال: من يرسل ذا بلاهة وعمى يركب خلاف ما يهوى، ورأيي كان من رأيه أسوأ، ولقد كنّا بالملامة أولى.

وكان عبد الله بن سلام قد استودعها قبل فراقه بدرات مملوءة درّاً هو أعظم

ماله، وأحبّه إليه، وكان معاوية قد جفاه وقطع جميع روافده لتهمته إياه بالخديعة، ولم يزل يقصيه حتى عيل صبره وقلّ ما في يده، فخرج راجعاً إلى العراق يذكر ماله الذي كان استودعه أُرينب ولا يدري كيف يصنع، ويتوقّع جحودها؛ لطلاقه إياها من غير شيء أنكره منها ونقمه عليها، فلمّا قدم لقي الإمام الحسين عليه السلام وسلّم عليه وقال: قد علمت جعلت فداك ما كان من قضاء الله في طلاق أُرينب، وكنت استودعتها مالاً عظيماً درّاً، فذكّرها أمري، واحضضها على الردّ؛ فإن اللّه تعالىٰ يحسن إليك.

فلما انصرف عليه السلام إليها قال لها: **«قد قدم عبد الله بن سلام وهو يثني عليك، ويذكر أنه استودعك مالاً، فأدِّ إليه ماله»**. فقالت: صدق، وإنه لمطبوع عليه بطابعه. ثم لقي عليه السلام ابن سلام فقال: **«ما أنكرت، وزعمت أنها لكما دفعتها لها بطابعك»**. ثم دخل عليها عليه السلام وقال: **«هذا عبد الله يطلب وديعته، فأدّها إليه»**. فأخرجت البدرات فوضعتها بين يديه، ثم قال الحسين عليه السلام: **«أُشهد الله أنها طالق، اللهم إنك تعلم أني لم أتزوجها لمال ولا لجمال، ولكن أردت حبسها لبعلها، وأرجو ثوابك على ذلك»**. فتزوّجها عبد الله بن سلام [١].

وبهذا فإن الإمام الحسين عليه السلام حينما منع يزيد عن أن يتزوّجها، ثم تنازل عنها وأعادها إلى زوجها نشأ من ذلك كثير من الحقد في قلب يزيد على الإمام الحسين عليه السلام.

نقد الرواية

والواقع انه على الرغم من أن هذه الرواية يذكرها بعض المؤرّخين، لكنها بعيدة جدّاً عن مزاج الإمام الحسين عليه السلام، ثم إن معاوية ليس من النوع الذي يتقيّد

---

(١) الإمامة والسياسة ١: ١٦٦ ـ ١٧٠، النصائح الكافية: ١٢٨.

بالقانون ويتصرف على ضوئه، ليعمد إلى هذه الطريقة، بل انه يستطيع أن يزوج ابنه منها بعد أن يأمر زوجها بطلاقها بمختلف وسائل الإكراه التـي يـتّبعها مـعه. والدليل على هذا أننا نقرأ في كتاب (البداية والنهاية) لابن كثير ـ عندما يأتي إلى تاريخ سنة أربعين ـ أن معاوية قد أجبر أحد عمّاله على ترك زوجته لكي يتزوّجها هو نفسه [١].

---

(١) لم نعثر عليه، قال الشيخ عبد الحميد المرهون: ومن عجيب ما جاء في التاريخ ما روي في كتاب (قصص العرب) نقلاً عن (نهاية الأرب)، وعن (المختار من نـوادر الأخـبار) أنّ رجلاً من تميم دخل علىٰ معاوية، شاكياً له من عامله مروان بن الحكم، فقال له معاوية: اذكر قصتك وأفصح عن أمرك. فقال: كانت لي زوجة ـ وهي ابنة عمي، وكنت لها محبّاً، وكانت لي صرمة من الإبل ـ والصرمة هي ما بين العشرين إلى الثلاثين ـ فأصابتنا سنة ذات قحط شديد أذهبت الخفّ والظلف، وبقيت لا أملك شيئاً. فلما علم أبوها ما بي من سـوء الحال، أخذها مني وجحدني وطردني، فشكوته إلىٰ عاملك مروان، فاستحضره وسأله عن حالي، فأنكر معرفتي، فقلت لمروان: إن رأى الأمير أن يحضرها ويسألها عن قول أبيها، فليفعل.

فلمّا أحضرها، وقعت منه موقع الإعجاب، فصار لي خصماً، وبعث بي إلى السجن وقـال لأبيها: إن ضمنت لي أن تزوّجها مني ضمنت لك أن أُخلّصها من الأعرابي. وأجزل له المهر، فرغب أبوها في البذل، وأجابه إلىٰ ذلك؛ فوكّل بي جماعة من غـلمانه يـعذبونني، حـتّىٰ طلّقتها قهراً، وتركني في السجن حتّىٰ انقضت عدّتها، فتزوّجها، ولم يُطلقني من السـجن حتّىٰ دخل بها. وقد أتيتك مستجيراً، وإليك ملتجئاً. ثمّ اضطرب وخرّ مغشيّاً عليه.

فكتب معاوية إلىٰ مروان: لقد انتهكت حرمة من حرم المسلمين، وتعدّيت حدّاً من حدود الدين، وينبغي لمن كان والياً أن يغضّ بصره عن شهواته، ويزجر نفسه عن لذّاته. ثمّ ختم الكتاب، وأعطاه الكميتَ ونصر بن ذبيان، فلمّا قدما بالكتاب علىٰ مروان، طلّقها وجهّزها وأرسلها معهما، وكتب إلىٰ معاوية كتاباً قال فيه:

حَوراءُ يقصُرُ عنها الوَصفُ إن وُصفتْ   أقـــولُ ذلكَ فِـــي ســـرٍّ وإعـــلَانِ

فلمّا قرأه قال: لقد أحسن في الطاعة، وأطنب في حسن الجارية. ولما رأىٰ معاوية الجارية وكلّمها رآها كما وصف مروان، فقال لزوجها: هل لك عنها من سلوة، وأُعوّضك عنها ثلاث جوارٍ أبكارٍ، ومع كلّ جارية ألف دينار، وأُقسم لك من بيت المال في كلّ سنة ما يكـفيك

ونحن حينما نذكر مثل هذه الأُمور فإننا لا نرجع إلى مصادرنا بل إلى مصادر غيرنا من أبناء المذاهب الإسلامية الأُخرى [(١)]، وعليه فإن معاوية ليس بحاجة إلى أن يحتال على الرجل. ثم إن هذه الحادثة لا تسبّب عداوة تستدعي أن يريق الإمام الحسين ﵇ في سبيلها دماء أهل بيته وأصحابه، وأن يعرّض حرائر وعقائل آل بيت محمد ﷺ إلى السبي والضرب وما إلى ذلك؛ فالإمام الحسين ﵇ أكبر من أن يفعل ذلك، ومن أن يريق كلّ هذه الدماء التي يحرم إراقتها إلّا بالحقّ من أجل امرأة يختلف حولها مع يزيد بن معاوية.

الخامس: نظرية المنهج التكاملي

وهي نظرية تعتمد على كلّ هذه العوامل، وتأخذها جميعها بعين الاعتبار في تحديد أسباب الصراع بين البيت الهاشمي الطاهر والبيت الأموي. ويضاف إلى

☚ ويعينك علىٰ صحبتهن؟ فشهق الأعرابيّ وخرّ مغمى عليه، فلمّا أفاق، قال له معاوية: ما بالك؟! قال: شرّ بال وأسوأ حال، استجرت بعدلك من جور مروان، فبمن أستجير من جورك؟ ولو أعطيتني ما حوته الخلافة ما اعتضته دون سعدى. فغضب معاوية وقال: إنك مقرّ أنك طلقتها، ومروان مقرّ أنه طلّقها، ونحن نخيّرها، فإن اختارت سواك زوّجناه بها، وإن اختارتك رددناها إليك. قال: افعل، ولاحول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم. فقال لها معاوية: ما تقولين يا سعدى، أيّما أحبُّ إليك: أميرُ المؤمنين في عزّه وشرفه وسلطانه، أو مروان في عسفه وجوره، أو هذا الأعرابيّ في جوعه وفقره؟ فاطرقت هنيهة، ثمّ قالت: والله يا أمير المؤمنين، ما أنا بخاذلته لحادثات الزمان، ولا لغدرات الأيّام، وإن لي معه صحبة قديمة لاتنسىٰ، ومحبّة لا تبلىٰ، وأنا أحقّ من يصبر معه على الضرّاء، كما تنعّمت معه في السرّاء. فقال له: خذها لا بارك الله لك فيها (باختصار). رائق الضمير ٣: ٢٦٢ ـ ٢٦٥، عن قصص العرب ٤: ٢٨٥ ـ ٢٩٠ / ٩٣.

(١) انظر: سمط النجوم العوالي ٣: ١٤٤ ـ ١٤٧، أخبار النساء ١: ١ (نسخة المكتبة الشاملة / الإصدار الثاني / كومبيوترية)، إعلام الناس بما وقع للبرامكة ١: ٧ (نسخة المكتبة الشاملة / الإصدار الثاني / كومبيوترية)، تاريخ مدينة دمشق ٦٨: ١٤٣ ـ ١٤٦ / ٩١٢١.

ذلك ممّا تقدّم من العوامل ـ عدا ما ذكرنا من العامل الأخير وهو العامل الشخصي ـ عامل هامّ جدّاً، هو عامل وجود الأصبع الأجنبي لضرب مصادر الوحدة في تاريخ المسلمين ووحودهم.

يزيد ربي بين أخواله النصارى

إننا حينما نرجع إلى سيرة يزيد فإننا نجد أنه قد ربي عند أخواله بني كلب، وبنو كلب هؤلاء كانوا مسيحيين من النساطرة، وحينما ربي بينهم تولّوا تدريسه وتعليمه وتثقيفه؛ ولذا فإن دراسته جميعها كانت في الأديرة على أيدي الرهبان والقساوسة من النساطرة. إن كون معلمه مسيحيّاً وتربيته وثقافته تربية وثقافة مسيحيّة أدّى إلى أن يكون مصير الدولة الإسلاميّة بيد هؤلاء بعد أن تولّى زمام الحكم؛ فقد اتّخذ بعد ذلك نديماً مسيحياً هو الأخطل الشاعر المعروف [1]، ثم إنه عمد إلى مستشاريه فاختارهم من المسيحيين وهم سرجون بن منصور الذي كان مستشاراً لأبيه من قبله وغيرهما، وهؤلاء جميعهم هم الذين كانوا يديرون له شؤونه وأُمور مملكته.

وعليه فما الذي يمكن أن ننتظره من رجل كانت كلّ ثقافته مسيحية، وكان ندماؤه ومستشاروه مسيحيين؟ وهؤلاء ليسوا إلّا أعداء الإسلام والمسلمين، ولم

---

(١) الذي أنشد ليزيد في الأنصار:

خلّوا المكارم لستُمُ من أهلِها ... وخذوا مساحيَكم بني النجّارِ

ذهبت قريشٌ بالمكارمِ والندىٰ ... واللؤمُ تحتَ عمائمِ الأنصارِ

فلمّا بلغ ذلك الشعر النعمانَ بنَ بشير، دخل علىٰ معاوية وحسر عن رأسه عمامته، وقال: أترىٰ لؤماً؟ قال: لا، بل أرىٰ كرماً وخيراً، فما ذاك؟ قال: زعم الأخطل أن اللؤم تحت عمائمنا. قال: أو فعل؟ قال: نعم. قال: لك لسانه.

وأمر أن يؤتىٰ به، فاستشفع فيه يزيد. فتركه. انظر العقد الفريد ٥: ٣٢١ ـ ٣٢٢.

يكن لهم من همّ إلّا القضاء على الإسلام؛ لأنهم لم يكونوا يريدونه؛ ولهذا فإننا نجدهم دائما يدفعون يزيد دفعاً إلى اتّخاذ قرارات خطرة[١]، أو إلى إصدار أوامر بها، وجميعها تتنافى مع الإسلام.

وربما يسأل سائل فيقول: وما المانع من ذلك ونحن نرى اليوم أن أبناءنا يتربّون في الدول المسيحيّة، ويدرسون هناك، ويعيش بعضهم ضمن إرساليّات مسيحية، وهم مع ذلك لم ينسوا وجودهم ولا ذواتهم ولا دينهم؟

وأقول: إننا لو اطلعنا الآن على ما يجري في المحافل الدينية في أوروبّا لعرفنا أنهم حينما يمرّون بذكر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم فإنهم لا يقرنون ذكره إلّا بالعبارات البذيئة، والانتقاص من قدره صلى الله عليه وآله وسلم، وتشويه نبوّته ودينه، وتشويه القرآن ومحاولات الدس عليه وعلى الدين للقضاء على الإسلام. فهذه المحافل حينما تمرّ بالإسلام تمزّقه إرباً إرباً مع أنها في القرن العشرين ـ أي في عصر العلم والانفتاح والتطور والتعايش بين أبناء الكرة الأرضية جميعها ـ فكيف والأمر قبل أربعة عشر قرناً من الزمان حيث كان الناس منغلقين على جهلهم وعلى حقدهم، وكانوا منطوين على أهدافهم سيّما النصارى واليهود في ذلك الوقت، والذين مافتئوا يريدون للإسلام الاندثار، وللمسلين التفكّك والتباغض والتباعد؛ كي تسهل عملية السيطرة عليهم؟

ولهذا فإننا نقول: إن أوروبّا لا زالت إلى الآن تعيش عقليّة الحروب الصليبية، فهي في كلّ محافلها تحاول أن تقضي على الإسلام وأن تقصيه من الحياة والوجود، وأن تبعد الناس عنه. ونحن حينما نقول: إن أوروبّا تعيش عقليّة الحروب الصليبيّة إلى الآن فإن هذا يعني أن العنصريّة أو النظرة إلى العنصريّة باقية

---

(١) وليس شيء أعظم من قتل الإمام الحسين عليه السلام.

حتى الآن. ومن مصاديق هذا أننا لا زلنا نقرأ بين آونة وأُخرى تصريحاً يلفت النظر، ومن هذا أنني قرأت اليوم في جريدة القبس إن شخصاً اقترح إعادة مجد الإسلام لكن بشرط أن يكون الخليفة تركيّاً في اسطنبول ـ إذ أنه ينظر إلى اسطنبول على أنها أوروبّية ـ وإلّا فلا إسلام.

وكأن هذا وأمثاله لم يكفهم ما فعله العثمانيّون عبر تاريخهم الأسود بالمسلمين. ومثل هذه العقليّة موجودة مع أن الإسلام لا يعرف جنساً ولا يعرف لوناً؛ ذلك أنه رسالة عالمية خالدة: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾**[1].

فالإسلام لا يأخذ العرق بعين الاعتبار أبداً، ولا يأخذ العنصر بعين الاعتبار كذلك، فهو لا ينظر إلى الجنسية ولا إلى الهويّة والدم، وإنما ينظر إلى الإنسان من حيث إنه إنسان فقط. فالإنسان في نظر الإسلام الحنيف أخو الإنسان من أي عرق كان، أحبّ ذلك أم كره[2].

وعليه فإن عامل تربية يزيد هنا لم يخرج عن هذا الجوّ الصليبي، وعن هذا الإطار. ثم إن يزيد نفسه لم يخرج بأفكاره عن الجو المسيحي الذي تكلّمنا عنه آنفاً، بل إن أفكاره كانت ملبّدة بتعليماته وآرائه وميوله. ولو لم يكن كذلك لما وجدناه وهو خليفة يحكم باسم الإسلام يجلس على منبر رسول الله ﷺ في بيت مسلم وفي بلد مسلم حيث الشام بلد الفتوحات، ثم يصعد المنبر ويقول:

لما بدت تلك الرؤوس وأشرقت ... تلك الشموس على ربى جيرونِ

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) قال أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الأشتر: «وأشعر قلبك الرحمة للرعيّة والمحبة لهم واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم؛ فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخلق». نهج البلاغة / ٥٣ ـ عهده عليه السلام له عندما ولّاه مصر.

صاح الغراب فقلت صح أولا تصح فلقد قضيت من الرسول ديوني [(١)]

فهذه اللغة ليست لغة مسلم على الإطلاق، وكذلك نجده يردّد من على ذلك المنبر:

اسقني شربة تروّي فؤادي ثمّ قم واسقِ مثلها ابن زياد

موضع العدل والأمانة مني ولتنفيذ مغرمي ومرادي [(٢)]

المبحث الثاني: مصادر الوحدة عند المسلمين

وأنا من هذا المنبر لا أُريد أن أقول: إن هؤلاء الذين جاؤوا إلى كرسي الخلافة مسلمون ويجب أن يكونوا ملائكة، لكن أُريد أن أُبيّن أن هؤلاء الذين جاؤوا إلى كرسي الخلافة كانوا كلّهم يفعلون المعاصي، غير أن منهم من كان يستتر بها ولا يشهّر أما الحال مع يزيد فإنه كان يرتقي المنبر ويتطاول على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويتحدّاه، ويتحدّى الله تعالى والإسلام[(٣)]. وهو بهذا مثله كمثل أبي نؤاس حيث يقول:

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ١٩٩ ـ ٢٠٠ / ٤٠، مختصر الفتاوى المصرية (ابن تيمية) ١: ٢٠٩، مجموع الفتاوى (ابن تيمية) ٤: ٤٨١، ٤٨٥، توحيد الأُلوهيّة (ابن تيمية) ٤: ٥٠٦، منهاج السنة النبويّة ٤: ٥٤٩، تفسير الآلوسي ٢٦: ٧٢ ـ ٧٣.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٢٢: ١٤٣ ـ ١٤٤، الأغاني ١٥: ٢٨٢، النصائح الكافية: ٧٩.
وهو الذي كان مع جارية له في دير مَرّان تغنّيه، فوصل له خبر جيش المسلمين الذي أصابته الحمىٰ والطاعون وفتكا به، فشرب حتىٰ ثمل مستخفّاً بما حصل للجيش غير عابئ به، ثم أنشأ يقول:

ما إن أُبالي بما لاقت جموعُهُمُ بالفَرقَدونة من حمًّى ومن شومِ

إذا اتّكأت علىٰ الأنماط مرتفقاً بدير مَرّان عندي أُمّ كلثومِ

معجم البلدان ٢: ٥٣٤، ٤: ١٨٨.

(٣) بما مرّ من شعر له، وغيره ممّا نقلته المصادر الآنفة والآتية في الهامش التالي ممّا فيه معصية حتى قال ابن تيمية عند نقله قوله: نعق الغراب... وهذا الشعر كفر. مختصر الفتاوى المصرية ١: ٢٠٩.

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمرُ ولا تسقني سرّاً إذا أمكن الجهرُ

وبح باسم من تهوى ودعني من الكنى فلا خير في اللذّات من دونها سترُ[١]

فكما أن أبا نوّاس يتحدى بهذا حيث يقول: «وقل لي»، فكذلك كان يزيد يتحدّى رسول الله ﷺ حينما يقول بأعلى صوته من على منبر المسلمين:

أقول لصحب ضمّت الكأس شملهم وداعي صبابات الهوى يترنّمُ

خذوا بنصيب من نعيم ولذّة فكلٌ وإن طال المدى يتصرّمُ

ولا تتركوا يوم السرور إلى غد فربّ غد يأتي بما ليس يُعلمُ[٢]

إن هذا تحدٍّ عجيب، وهو تحدٍّ بعيد عن روح الإسلام بعداً شاسعاً كبيراً بل إنه يطوّح بها بعيداً؛ وهذا ليس بالأمر العجب حينما نلتفت إلى أن هذا الشخص هو وليد تلك التربية المسيحيّة، والذي تشبّع بأفكارها، وقد رافقته هذه الأفكار حتى كرسي الخلافة حيث جاء محمّلاً بها ولم يكن لها من مهمّة سوى ضرب مصادر الوحدة الإسلامية.

بذور الوحدة الإسلاميّة ومصادرها

وكما هو واضح فإن الكلّ يعلم أن شعار الوحدة الإسلامية هو القرآن الكريم حيث يقول: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[٣]، فهذه أُمّة إسلاميّة واحدة؛ الله جلّ وعلا خالقها، وهو ربّها الذي بذر بين أفرادها بذور التوحيد

---

(١) تاريخ الطبري ٧: ١٠٩، تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات: ٤١٤، تفسير الآلوسي ١٤: ١٣١، ١٥: ٣٠٨، الكامل في التاريخ ٦: ٢٩٥.

(٢) جواهر المطالب (الدمشقي) ٢: ٣٠١، سمط النجوم العوالي ٣: ٢٠٨، شذرات الذهب ٤: ٩، النجوم الزاهرة ١: ١٦٣، وفيات الأعيان ٣: ٢٨٧، التدوين في أخبار قزوين ٤: ٩٨، فوات الوفيات ٢: ٦٤٤.

(٣) الأنبياء: ٩٢.

ومصادره، وحثّ على اتّباع جميع المظاهر التي تعمل على توثيق تلك الوحدة بين المسلمين، والتي تدفعهم إلى تلك الوحدة. وهي تتمثّل في ثلاثة أشياء:

البذرة الأولى: الكتاب الكريم، وهو القرآن الذي أنزله الله جل وعلا على نبيه محمد ﷺ.

البذرة الثانية: العترة، وهم أهل بيت النبي ﷺ (١).

البذرة الثالثة: الكعبة الشريفة التي يتوجّه إليها المسلمون كلّ يوم خمس مرات لأداء فريضة الصلاة، والتي يؤمونها عند الحجّ.

فهذه هي مصادر الوحدة عند المسلمين، وحينما نتناول هذه المصادر واحداً واحداً لنرى ما الذي فعله الأُمويّون به، فإننا سنخرج بنتيجة هي أن هؤلاء لا يمكن أن يمتّوا إلى الإسلام بأدنى صلة.

المبحث الثالث: موقف الأمويين من بذور الوحدة

موقفهم من القرآن الكريم (البذرة الأولى)

إننا حينما نتناول القرآن الكريم فإننا لا نجد مسلماً لا يمكن أن ينظر إليه بعين التقديس والإكبار، فكلّ مسلم ينظر إلى القرآن هذه النظرة، المملوءة تقديساً واحتراماً؛ لأنه كتاب الله جلّ وعلا المنزّل على رسوله ﷺ، ولأنه دستور حياتهم. فالقرآن محلّ تقديس عند المسلمين عامّة لهذا، وقد حثّ النبي الأكرم ﷺ على احترام القرآن الكريم وعلى التعامل به والتفاعل معه، وعلى تعلّمه، والاستنارة به، كما حثّ على ذلك أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: « **تعلّموا القرآن الكريم فإنه أحسن الحديث، وتفقّهوا فيه فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنه**

---

(١) الذين جمعهم رسول الله ﷺ مع القرآن، وجعلهم عدلاً له في حديث الثقلين.

شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص»[١].

وعليه فإن على الإنسان ألّا يقرأ القرآن قراءة عابرة، أي أن يقرأ الآية ويتمسّك بظواهرها، ويرفض فكرة التأويل. وهذا كما أسلفنا لون من الإيمان السطحي غير المتجذّر وغير الناضج.

وعليه فالقرآن الكريم محلّ وحدة المسلمين؛ لأنه الجامع لكلمتهم؛ ولهذا فإننا نرى أن المسلمين في كلّ يوم يقفون بين يدي الله جلّ وعلا وقت الصلاة وفي جميع أرجاء الكرة الأرضية ليقرؤوا من القرآن في صلاتهم سورة الحمد وغيرها من سور القرآن الكريم. وبهذا فإن القلوب تتوحّد، وتتوحّد المشاعر بين جميع المسلمين.. من في شرق الأرض، ومن في غربها. وهكذا فإن المسلم الذي يعيش في أوروبّا بدلاً من أن يقول: «إيّاك أعبد وإيّاك نستعين»، فإنه يأتي بصيغة الجمع ويقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٢]. وكذلك الذي في أفريقيا وفي أمريكا، وفي الصين وفي غيرها من البلاد والقارات. فهؤلاء كلّهم يجمعهم شعار واحد هو القرآن الكريم حيث إنه المصدر الأول لوحدة المسلمين.

وإذا كان القرآن الكريم كذلك ـ المصدر الأول لوحدة المسلمين ـ فلست أدري كيف يرضى شخص بأن يمزّق هذا الكتاب؟ وكيف تطيب نفس شخص بأن يجعله صدراً لنبال الخليفة الأُموي الوليد وهدفاً لحقده؟ وهل هذا إلّا لأجل تفكيك وحدة المسلمين؟ إن هؤلاء يرون أن من الواجب أن تزال منزلة القرآن الكريم من النفوس بمختلف الوسائل وبألوان الطرق؛ لأن هذا يعتبر الكتاب الممثّل للإسلام المناقض للجاهليّة التي يريدون أن يعيدوا الناس إليها.

والقضاء على القرآن عند هؤلاء يمكن أن يكون بعدة أنماط:

---

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ١١٠. (٢) الفاتحة: ٥.

الأول: بعدم العمل بمفاهيمه

الثاني: بتزييف هذه المفاهيم

الثالث: بالتقليل من قيمته ككتاب سماوي إلهي نزل به الروح الأمين على قلب سيّد المرسلين رسول الله ﷺ.

وقد اتخذ معاوية بن أبي سفيان بمشورة من عمرو بن العاص من القرآن الكريم وسيلة للخدعة، وللغدر حينما أشرف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام على النصر؛ فقد كان بينه وبين النصر في صفّين خمس خطوات، وقد وضع معاوية رجله في الركاب واستعدّ للهرب. وكان حينما يتذكّر تلك الواقعة يقول: حينما وضعت رجلي في ركاب الفرس تذكّرت أبيات ابن الأطنابة حيث يقول:

أبت لي عفّتي وأبى بلائي	**وأخذي الحمدَ بالثمن الربيحِ**
وإقدامي على المكروه نفسي	**وضربي هامةَ البطل المشيحِ**
وقولي كلّما جشأت وجاشت	**مكانك تحمدي أو تستريحي**[1]

وهنا جاءه عمرو بن العاص وقال له: إلى أين أنت ذاهب؟ قال: وماذا أفعل؟ قال: مرهم أن يرفعوا المصاحف على الرماح وأن ينادوا: كتاب الله بيننا وبينكم. وفعلاً وضعوا القرآن على طرف رمح ونادى مناديهم: كتاب الله بيننا وبينكم. وبهذا فإنه قد جعل القرآن وسيلة للضحك على غيره من سذّاج المسلمين، وللعبث؛ لكي يخدع به. وبعد كثرة خدعه كتب له الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**وأما تلك التي تريد فإنها خدعة الصبي عن اللبن في أول الفصال**»[2].

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢: ٢٢٣، ٨: ٥٩، ١٨: ٢٠٣، تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات: ٣٥٩، تفسير الثعلبي ٤: ٥٢.

(٢) نهج البلاغة / الكتاب: ٦٤، وانظر: مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٥٠، كتاب الفتوح ٢:

ولمّا لم يجد الإمامعليه السلام أُذناً صاغية انطوى على نفسه وسكت.

ومعاوية هذا الذي جعل القرآن الكريم خدعة بني الخضراء بحمل أربعين بعيراً ذهبا وفضة[1]، وهو مع ذلك يعلم أن هناك من المسلمين من يأتي عليه الليل ولا يجد ما يأكله حتى رغيف الخبز.

على أية حال فإن الأمر حينما وصل إلى الوليد بن يزيد استفتح به فخرجت له الآية القرآنية: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[2]، فوضعه على أربعة رماح وجعله هدفاً له، حتى مزّقه، ثم أنشأ يقول:

أتوعد كل جبار عنيد	**فها أنا ذاك جبار عنيدُ**
إذا ما جئت ربك يوم حشر	**فقل يا رب مزقني الوليد**[3]

وبهذا فإننا نأخذ صورة واضحة عن التعامل الأُموي مع القرآن الكريم الذي يعد المصدر الأول من مصادر الوحدة عند المسلمين.

موقفهم من الكعبة المشرّفة (البذرة الثانية)

وهي المصدر الثاني من مصادر الوحدة عند المسلمين، وهم منذ أن جاء الإسلام وحتّى اليوم يتوجّهون كلّ يوم إليها من شرق الأرض وغربها، ومن مختلف بقاع المعمورة. كما أنهم يقصدونها من كلّ حدب وصوب متحمّلين جرّاء

☚ ٥٠٦، الإمامة والسياسة ١: ٨٥، تاريخ مدينة دمشق ٥٩: ١٢٨، شرح نهج البلاغة ١٧: ٢٥١.

(١) وقد اشتراها عبد الملك بن مروان من خالد بن يزيد بن معاوية بأربعين ألف دينار، وأربع ضياع بأربعة أجناد الشام اختارهن؛ فاختار من فلسطين عمواس؛ ومن الأردن قصر خالد، ومن دمشق أندر، ومن حمص دير زكي، وذلك لعظمتها واتّساع رقعتها. تاريخ مدينة دمشق ٢: ٣٥٩.

(٢) إبراهيم: ١٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٩: ٣٥٠.

الهدف الذي يقصدونه ـ وهو حجّ بيت الله الحرام ـ الحرّ والبرد، والألم، وبعد المسافة وشقّة، السفر، وما إلى ذلك من مشاكل تمرّ بهم ومن مخاطر تعترضهم. فهؤلاء لا يعيرون أيّاً من هذه المعوّقات ولو قليل اهتمام، فما إن يتمكّن أحدهم من تحصيل مقدّمات الحجّ حتى يتوجّه إلى ذلك البيت الطاهر ويقصده ليؤدّي فريضة افترضها الله عليه.

وهناك يلتقي كل مسلم مع إخوانه المسلمين الذين جاؤوا لأداء هذه الفريضة المقدّسة، فيصافح بعضهم بعضاً مصافحة غير مقصودة عبر استلامهم جميعاً الحجر الأسود؛ إذ أن على كلّ مسلم أن يستلم الحجر ويلمسه. وفي هذا نمط من المصافحة ومن إيداع الشعور؛ ذلك أن كلّ مسلم يحمل شعوره ويأتي إلى هذا البيت فيقف عند المغرب ليرى كل هذه الجنسيات ذائبة تحت لواء «**لا إله إلّا الله**». ونحن نأمل ونودّ لو أن هؤلاء يحتفظون بهذه الروح، لكنهم ببالغ الأسف يتركون هذه الروح ويخلّفونها وراءهم داخل الكعبة، ويخرجون من غيرها. وهي روح أرادها الإسلام أن تلازم الإنسان في كلّ معطيات حياته؛ لأنه يريد من المسلم أن يكون دائماً متقولباً بروح «**لا إله إلّا الله**»، ومأخوذاً بها، وألّا يضع نفسه تحت سيطرة أي شيء غيرها.

ولو رجعنا إلى التاريخ لنرى ما هو موقف الأُمويين من هذا المصدر (البيت الحرام) لوجدنا أنهم تعاملوا معه معاملة لا تنمّ عن الإسلام في شيء؛ فقد سلّطوا عليه المنجنيقات وهدموه، وأحرقوا أستاره، وأسقطوا جدرانه، ودخلوا إلى المسجد الحرام وهتكوا حرمته، وأراقوا الدماء فيه، حيث راحت الدماء تسيل داخله. وقد أنذر الله هؤلاء الذين توجّهوا لهدم الكعبة بأن أنزل عليهم الصواعق، لكننا نجد التاريخ يحدثنا أن الحجاج كان يقول لهم: لا تخافوا منها؛ فهذه صواعق

تهامة وأنا أعرف بها.

ثم يتقدّم بنفسه ليرمي الكعبة؛ محاولاً تبديد خوف الناس، فيرمون معه إلى أن تتحول الكعبة الشريفة الطاهرة إلى ركام من الأحجار وإلى سيل من الدماء. ومع كلّ هذا هل يمكن لأحد أن يدّعي أن لهذه الكعبة حرمة في نفوس هؤلاء؟ إن بعض السطحيّين من الناس يقول: لماذا لم يعاقب الله هؤلاء على عملهم هذا؟ والواقع أن الله جلّ وعلا لو كان من شأنه أن ينتقم من كلّ أحد بهذه السرعة فإنه سوف لن يترك على هذه الأرض من أحد[1]. والدعاء الشريف عن الإمام السجّاد عليه السلام يقول: «**إنما يعجل من يخاف الفوت، وإنما يحتاج إلى الظلم الضعيف**»[2].

فهناك نُظُم ومسارات حفظ الله لنا فيها هذا الكون وهي عبارة عن الخطط الإلهيّة التي يُحكم بها هذا الكون، وهو تعالى أعلم بها، ولا يمكن أن تُتجاوز أو أن تخترن.

إذن فالأُمويّون عمدوا إلى أن يغلغلوا الشكّ في نفوس المسلمين إزاء المصدر الثاني من مصادر الوحدة عن المسلمين؛ حيث إنهم أهانوه، واعتدوا على حرمته، وأروا الناس ألّا حرمة لهذا البيت؛ بدليل أنهم أحرقوه وهدموه. فهم يريدون أن يقولوا للناس: لو كان لهذا البيت قدسيّة أو أهميّة عند الله لعاقبهم عليه إذ عمدوا إلى هدمه وحرقه، وبما أنه تعالى لم يعاقبهم عليه فإن هذا البيت ليس له شيء من القدسية.

---

(١) يقول تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً﴾ فاطر: ٤٥.

(٢) الصحيفة الكاملة السجادية: ٢٨٤، دعاؤه عليه السلام في ردّ كيد أعدائه، مصباح المتهجّد: ٣٧٠/ ٥٠١، وعدّه من آخر أدعية الصحيفة، ويدعى به بعد صلاتي الجمعة والأضحى.

وبهذا فإنهم أرادوا أن يشكّكوا الناس في قدسيّة هذا البيت الشريف، وضرورة حرمته ومراعاتها عبر انتهاكهم تلك لحرمة [١].

موقفهم من العترة الطاهرة (البذرة الثالثة)

وإنما جعلنا العترة مصدراً من مصادر الوحدة بين المسلمين؛ لأن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قد أشار في جملة من أحاديثه إلى هذا المعنى حيث قال من ضمن ما قال: «**النجوم أمان لأهل السماء فإذا ذهبت النجوم أتىٰ للسماء مايكرهون، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض فإذا ذهب أهل بيتي أتىٰ أهل الأرض مايكرهون**» [٢].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم في أُمهم الزهراء عليها السلام: «**روحي التي بين جنبي**».

تروي السيدة زينب عليها السلام بنت أمير المؤمنين عليه السلام فتقول: كان جدي صلى الله عليه وآله وسلم في بيت أم المؤمنين أُم سلمة (رضي الله عنها) مضطجعاً على كساء حبري، وكانت قائمة

---

(١) يشار إلى أنهم قد قاموا بهدمه مرتين:
الأُولى: حينما حاصروا عبد الله بن الزبير فيها، حيث سلّطوا عليها المنجنيق والأحجار وأحرقوها، ثم قتلوه وصلبوه داخل الكعبة حتى سالت الدماء فيها انظر: التاريخ الكبير ٣: ٤ / ١٢، وقد ضعّف السند. تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥١ - ٢٥٢، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٨٥، تهذيب الكمال ٦: ٥٤٨ / ١٣٧٦، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٧٤، فتح الباري ٨: ٢٤٥، تهذيب التهذيب ٢: ١٨٧ / ٣٣٨، ١٠: ١٤١ / ٢٩٧، ١١: ٣١٦ / ٦٠٠، ينابيع المودّة ٣: ٣٦.
الثانية: حينما أعدّ الحجّاج جنده ورماها حتى هدم جدرانها. سنن ابن ماجة ١: ٦٢٣ / ١٩٣٦، الأخبار الطوال: ٣١٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٦٦، تاريخ الطبري ٥: ٣٠، تهذيب التهذيب ٢: ١٨٤ / ٣٨٨، ١٠: ١٤١ / ٢٩٧، الكامل في التاريخ ٢: ١٣٥ / ٣، البداية والنهاية ٨: ٣٦٣، سبل الهدىٰ والرشاد (الشامي) ٦: ٢١٤.

(٢) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، المعجم الكبير ٧: ٢٢ ـ ٢٣، نوادر الأُصول (الحكيم الترمذي) ٣: ٦٦،٦٣ / الأصل: ٢٢٢، ينابيع المودّة ١: ٧٢ / ٤.

تصلّي، فدخلت عليه أُمّي فاطمة الزهراء عليها السلام تحمل له برمة فيها خزيرة، فقال صلى الله عليه وآله لها: «ادعي لي زوجك وابنيك». فجاء أبي أمير المؤمنين عليه السلام والحسن والحسين عليهما السلام فدخلوا، فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة، وهبط جبريل عليه السلام، وتلا على النبي الكريم صلى الله عليه وآله قوله الله سبحانه: **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾**[1]، فأخذ الرسول صلى الله عليه وآله طرفاً من الكساء الذي كان يضطجع فوقه، فغطى به أُمّي فاطمة وأبي علياً وحسناً وحسيناً، ثم أخرج يديه فألوى بهما إلى السماء، ثم قال: **«اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً»**[2].

فهؤلاء مصدر من مصادر الوحدة عند المسلمين وكما ضُرب المصدر الأول والمصدر الثاني فقد ضُرب المصدر الثالث؛ ذلك أن الأُمويين حاولوا تشكيك الناس بهذا المصدر، كما حاولوا تشكيكهم بقدسية الكتاب وقدسية الكعبة، وفعلاً عمدوا إلى القضاء على هذا المصدر بأن دبّروا واقعة الطفّ كي يضربوه كما ضربوا القرآن والكعبة.

إذن هناك تخطيط مسبق التحضير للأُمويين لضرب مصادر الوحدة عند المسلمين. وهكذا ضربوا العترة، ولم يكتفوا بها بل إنهم تعدّوها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله في ضريحه[3]، لكن ضربتهم للعترة كانت ضربة موجعة؛ فلقد تركت أثراً

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) انظر حول حديث الكساء: الأمالي (الصدوق): ١٧٥ / ١٧٨، مسند أحمد ١: ٣٣١، ٣: ٢٥٩، ٢٨٥، ٤: ١٠٧، ٦: ٢٩٢، صحيح مسلم ٧: ١٣٠، جامع البيان، المجلد: ١٢، ج٢٢: ٤ / ٢١٧١١ وغيرها كثير، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣١/ ٣٢٥٩، معاني القرآن ٥: ٣٤٨ / ٤٥، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٠٨.

(٣) ومن هذا قول الحجّاج واليهم على الكوفة: إن المسلمين مخدوعون حينما يطوفون بقبر

كبيراً في نفس كلّ مسلم، فتحرّكت فيها اللوعة. وليس بمسلم من يتصوّر مصارع آل الرسول ﷺ ثم لا ينفعل لذلك المنظر أو لا يتفاعل معه، وهل تلك المصارع إلّا الخدّ الذي كان يتكئ عليه النبي ﷺ ويشبعه لثماً وتقبيلاً؟ إن هذا الخدّ قد جرى عليه يوم الطفّ ما لم يجرِ على أي بشر سواه.. لقد ترك على الرمضاء تحت حرّ الهجير، وأخذت منه الحجارة والسهام دوراً كبيراً، وتناوشته النبال والسيوف من كلّ جهة.

وفوق كلّ هذا جاءه حجر أبي الحتوف الجعفي (لعنه الله تعالى)، فوقع على تلك الجبهة التي كان يشبعها رسول الله ﷺ لثماً وتقبيلاً، فسقط ﵇ على الأرض، وقد أخذه نزف الدماء، وجراحاته تشخب دماً عبيطاً، فرمق السماء بطرفه الشريف وقال: **«صبراً علىٰ قضائك يارب، ياغياث المستغيثين، لا معبود سواك، لك العتبىٰ يارب»**[1].

كلّ هذا وعائلة الإمام ﵇ داخل المخيّم تترقّب رجوعه ﵇، وبينما هي في لحظة الانتظار وإذا بها تفاجأ برجوع الجواد خالياً يسحب عنانه على وجه الأرض، فخرجن وأحطن بذلك الجواد الذي كان دليلهن إلى مصرع الحسين ﵇، حيث خرجن إلى أرض المعركة بعد سقوط الإمام الحسين ﵇ قتيلاً عند حلول الظلام، ذلك أنه ﵇ كان قد طلب من اُخته الحوراء زينب ألّا تعرّضه ﵇ وتعرّض نفسها إلى مثل هذا الموقف قبل مصرعه، وقد أوصاها ﵇ قائلاً: **«اُخيّة تعزّي بعزاء الله، لا يذهبن بحلمك الشيطان. اعلمي أن أهل السماء لا يبقون، وأهل**

☚ محمد ﷺ، وقد تحوّل صاحب القبر إلى عظام بالية، ألا يطوفون بقصر عبد الملك؟ انظر: الكامل في الأدب ١: ٢٢٢، وقال المبرد فيه: إن ذلك ممّا كفّرت به الفقهاءِ الحجّاج، شرح نهج البلاغة ١٥: ٢٤٢.

(١) ينابيع المودّة ٣: ٨٢.

الأرض يموتون، ولي ولكلّ مسلم برسول الله ﷺ أُسوة حسنة. أُخيّة تمسّكي بحبائل الصبر»[1].

فهو عليه السلام يريد أن يقول لها: إن البكاء ما زال أمامك، فلا تدعيني ألمح في عينيك دمعة. وفعلاً فبعد أن جنّها الليل خرجت إلى ذلك الجسد المسجّى وهي باكية ولسان حالها:

مظلومة مقهورة مضروبة　　　مسلوبة حتى الخمار وبرقعي

أُأخي ما عوّدتني منك الجفا　　　فعلامَ تجفوني وتجفو من معي

أنعِم جواباً يا حسينُ أمَا ترىٰ　　　شمرَ الخَنا بالسوط ألهبَ أضلُعي

* * *

يخويه الشمر والله هضمني　　　ضربني على متوني وشتمني

لا انكسر گلبه ولا رحمني

* * *

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما　　　ومن يبكِ حولاً كاملاً فقد اعتذرْ[2]

ثم جلست وأخذت من تراب القبر وشمّته، وراحت تشكو آلامها لأخيها:

خوية اجينه وعلى گبرك گعدنه　　　ونخيناك يا عزنه وضمدنه

هذه المحامل گوم ردنه　　　لعند المدينة مقام جدنه

فما أقامت إلّا ثلاثة أيام هناك؛ ذلك أن الإمام السجاد عليه السلام قال لها: **«عمة قومي»**. قالت: إلى أين؟ قال: **«إلى المدينة»**. قالت: ومن ذا بقي لي في المدينة

---

(١) الإرشاد ٢: ٩٤، تاريخ الطبري ٤: ٣١٩،البداية والنهاية ٨: ١٩٢.

(٢) البيت للبيد. مناقب آل أبي طالب٣: ١٩٣، الإصابة ١: ٣٥٥ / ٤٨٨، تاريخ مدينة دمشق ٦٩: ١٢٠.

حتى أعود إليها؟

أيّها الراغب في تغليسة ... بأمون قط لم تشكُ الكلالا[١]

اقتعدها وأقم من صدرها ... حيث وفد البيت يُلقون الرحالا

وإذا أندية الحيّ بدت ... تشعر الهيبة حشداً واحتفالا

قف على البطحاء واهتف ببني ... شيبة الحمد وقل قوموا عجالى

طحنت أبناء حرب هامكم ... برحى حرب لها كانوا ثمالا

وُطئت آنافكم في كربلا ... وطأة دكت على السهل الجبالا[٢]

---

(١) الأمون: الناقة الشديدة، وهي العُذافرة. العين ٢: ٣٤٤ ـ عذفر.

(٢) ديوان السيد حيدر الحلّي ٢: ١٠٠.

﴿٢٠٦﴾

النشاط الثقافي للإمام السجّاد عليه السلام

يـا عـليّـاً بـه يـتـيه العـلاءُ
وإمـامـاً آلاؤه غـــرّاءُ
أي مجـد حملـته فـي دمـاء
نسَلتـهـا الملـوك والأنبـيـاءُ
أنت مجد النهار والراهب السجّـ
ـادُ ليـلاً إن عمّـت الظلمـاءُ

الإلمام بسيرة الإمام زين العابدين عليه السلام

لابدّ لكلّ باحث في سيرة هذا الإمام العظيم من تناول مختلف الأبعاد ذات العلاقة به، والتي لها المدخليّة الكبرى في استيضاح تلك السيرة اللامعة العطرة. وهذا الأمر يقتضي التوجّه إلى عدّة أبعاد والنظر فيها، ومنها:

البعد الأول: البعد الانتمائي

ونعني به نسبه الشريف، فهو (نسبه عليه السلام) من ناحية الآباء لا يحتاج الإنسان معه إلى وقت للتأمّل في ذكره، فلا أحد من الناس يمكن له أن ينكر النسب الهاشمي من جهة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن جهة علي بن أبي طالب عليه السلام. فهو ابن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام.

النسب القصير

وهذا ما تسميه العرب (النسب القصير)، بمعنى أنه نسب لا يحتاج الإنسان معه إلى أن يذكر سلسلة آباء الشخص الذي يراد نسبته، بل إن هذا الإنسان يقف عند أب قريب في سلسلة آبائه؛ لاشتهار ذلك الأب.

أهداف تزويج الإمام الحسين عليه السلام من بنت يزدجرد

أما من ناحية الأُمّهات فالواقع أن الزواج الذي تمّ بين الإمام الحسين عليه السلام وبين إحدى بنات يزدجرد كان زواجاً قد توخّى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من ورائه أهدافاً معينة محدّدة غير خافية، وقد نصّت الأخبار على يعض منها. ومن هذه الأهداف:

الهدف الأول: القضاء على نظرة التعالي عند العرب

فهذه النظرة التي كانوا ينظرون بها إلى كلّ شخص هجين، أي ما يتولّد من أُمّ غير عربية، ومن أب عربي أراد الإسلام أن يزيلها تماماً من العقلية العربيّة التي كانت تعتنقها اعتناق الدين.

إفرازات نظرة التعالي

وإطلاق هذه التسمية على الهجين لا تنتهي عند هذا المقدار من الازدراء، بل إنها كانت تترتّب عليها آثار عمليّة كبيرة، وإفرازات كثيرة، منها:

الأولى: أنهم لا يزوّجونه

فالعرب كانوا يرغبون عن الهجين ويأنفون من تزويجه، ويرون في فعل ذلك عاراً عليهم[1].

---

(١) وقد مرّ بنا في المجلّد السابق / محاضرة (الفتنة) قول عقيل بن علفة المري لعبد الملك

الثانية: أنهم يرفعون مكانته

فهؤلاء كانوا لا يعطونه مكانة تليق به في المجتمع، ولا مكاناً ملائماً في صدر المجلس. وقد مرّ بنا حادثة دخول زيد بن الإمام زين العابدين عليه السلام على هشام بن عبد الملك؛ فقد تلكّأ الناس في القيام له، وفي فسح مكان له في المجلس، وأظهروا ازدراءهم له؛ لأنه كان ابن أمة، فلم يجد موضعاً يقعد فيه.

كما أن هشاماً قد ازدراه أكثر؛ لأنه قد وصلته عنه أخبار بأنه يريد الخروج عليه؛ ولذا فإنه التفت إليه وقد رآه واقفاً، وقال له: أنت الذي تنازعك نفسك إلى الخلافة، وتحدّث نفسك بها، وأنت ابن أمة؟ فقال له زيد: أمّا قولك: إني أُحدّث نفسي بالخلافة، فلا يعلم الغيب إلّا اللّه. وأمّا قولك: إني ابن أمة، فإن لك جواباً. قال: هاته. قال: أيهما أفضل النبي أم الخليفة؟ قال: النبي. فقال: هناك أنبياء أُمّهاتهم إماء، وهذا إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن عليهما السلام ابن أمة، ومن صلبه خير البشر محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وإسحاق ابن حرّة أخرج من صلبه القردة والخنازير وعبدة الطاغوت. فلو كانت الأُمّهات يقعدن بالأبناء عن نيل المعالي، لقعدت أُم إسماعيل بولدها إسماعيل هذا، لكنه كان نبيّاً وأبا خير نبي، محمد صلى الله عليه وآله وسلم. فقال له: قم. قال: إذن لا تراني إلّا حيث تكره.

ولذا فإن أحد فقهائنا يعقّب على هذه الرواية عندما يمرّ بها بحديث الإمام الصادق عليه السلام الذي يقول: «**إنما يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر مؤمن فيتّعظ، أو جاهل فيتعلّم، وأما صاحب سوط وسيف فلا**»[1].

☚ جنبني هجناءك. طبائع النساء ١: ٦٧. وفي الأغاني ١٢: ٢٩٨، خزانة الأدب ٤: ٤٣٨: قوله لمن خطب إليه ابنته: يخطب إلي عبد الملك فأردّه، مشيراً إلى ما نقل عنه في (طبائع النساء) الآنف.

(١) الكافي ٥: ٦٠ / ٢، الخصال (الصدوق): ٣٥ / ٩.

على أيّ حال فلما خرج من عنده، قال: ما أحبّ أحد الحياة قطّ إلّا ذلّ. فزيد قد تنبّه إلى أن هذه اللغة التي يكلّمه بها ليست هي اللغة التي يفهمها، فهذا له لغة يجب أن يخاطب بها غير لغة اللسان.. اللغة التي يفهمها، وهي لغة السيف.

والمراد بهذه الرواية أن بعض الناس لا يفهم لغة الحوار والموعظة، بل يحتاج إلى لغة أُخرى هي لغة السيف ولغة السلاح؛ ولذا فإننا وجدنا أن زيداً قد خرج من عند هشام وقد وضع يده على قائم سيفه، وهو ينشد هذه الأبيات:

شـرّده الخـوف وأزرى بـه	كـذاك مـن يكـره حـرّ الجِلاد
ومحتفي الرجلين يشكو الوجى	تـقرعه أطـراف مـرو حـداد
قـد كـان فـي المـوت له راحـة	والمـوت حـتم فـي رقـاب العـباد

ثم خرج عليه وهو ينشد في المعركة:

فـذلّ الحـياة وعـزّ المـمات	وكـلّاً أراه طـعاماً وبـيلا
فـإن كـان لابـدّ مـن واحـد	فسَيري إلى المـوت سيراً جميلا

حتى قتل (رضوان الله تعالى عليه)[1].

وموضع الشاهد هنا أن ابن الأمة يزدريه الناس ويحتقرونه، ويحاولون أن يبعدوه عنهم؛ فلا يعطوه صدر المجلس، ولا يزوّجوه، ولا يتعاملوا معه.

الثالثة: أنهم ينعتونه بقبيح النعت

فهؤلاء كانوا كذلك ينعتونه بنعوت لا تليق بمقامه وإن كان ذا مكانة علميّة مثلاً. والإسلام حينما جاء كان يهدف إلى كسر كثير من النطاقات القائمة على أساس

---

(١) انظر: شجرة طوبى ١: ١٤٨، العقد الفريد ١: ٣٢، شرح نهج البلاغة ٣: ٢٨٥ - ٢٨٦، الفصول المهمة (ابن الصباغ) ٢: ٩٠٠ - ٩٠١، والبيتان لبشامة بن الغدير من ضمن أربعة أبيات كما في شرح نهج البلاغة ٣: ٢٥٧، وقد تمثّل بهما.

التعامل العرقي أو العنصري، أو المبتنية على جوانب غير إنسانيّة. وقد حاول أن يكسر كلّ هذه الحواجز التي يضعها الناس بينهم وبين غيرهم من الأعراق أو الشعوب الأُخرى. وفعلاً فإن المؤرّخين يذكرون أن العرب كانوا يحتقرون أبناء الإماء حتى ولد ثلاثة أبناء منهن هم: الإمام زين العابدين عليه السلام، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب[1]. وبهذا فقد أصبح ابن الأمة ذا مكانة تختلف عن المكانة التي كان ينظر بها هؤلاء الأعراب إليه؛ فلا يعيّر بشيء مما كان يعيّر به سابقاً، ولا يشار إليه على أنه هجين أو ابن أمة.

الحضارات التي انحدرت منها الإماء

ويجب ألّا ننسى بأن الكثير من الإماء كنّ ينحدرن من حضارات تعدّ وقتها أعلى وأسمى من حضارة العرب القائمة على أساس القتل والسلب والنهب، وأكل الحشرات، وشرب الطرق، وما إلى ذلك. فالكثير منهن جئن من حضارات أضخم وأكبر وأعرق، بل لا وجه للمقارنة بين حضارات أقوامهن وحضارة العرب آنذاك. فحينما تكون الأمة مثلاً روميّة أو فارسيّة فإن هذا يعني أنها ابنة إحدى هاتين الحضارتين اللتين كانتا تسودان العالم آنذاك، وهما حضارتان تتوفّران على الكثير من الإمكانيات العلمية والحضاريّة نظريّاً وتطبيقيّاً. وكان أبناء هاتين الحضارتين يعتزّون بحضارتيهما أكثر مما يعتزّ العرب أنفسهم بحضارتهم.

وفعلاً فقد تغيّرت النظرة إلى ابن الأمة وهو الهجين تغيّراً تامّاً، وأصبحت الجوانب الإيجابيّة أكثر فاعليّة في هذا الباب. وهي الجوانب التي أشار إليها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في جملة من الأحاديث.

---

(١) وفيات الأعيان ٣: ٢٦٩.

إيجابيات الزواج من الأجنبيات

إن هناك أهدافاً كثيرة تعدّ ثمرات إيجابية للزواج من الأجنبيات؛ فهو يخلق خواصّ إيجابية كثيرة للأسر، نذكر منها لتقريب المعنى:

الإيجابية الأولى: التلاقح الثقافي

ذلك أن هذه الأُسر التي تمتزج فيها الدماء المختلفة سوف تجتمع فيها خواصّ من حضارتين مختلفتين، وسوف تندكّ هذه الخواصّ في أُسرة واحدة جديدة هي عبارة عن مزيج من تينك الأُسرتين؛ ممّا يؤدّي إلى توسيع أُفق الثمرة المتولّدة منه.

الإيجابية الثانية: الجنبة الصحّيّة

إننا حينما ننظر إلى الأُسر المنغلقة على نفسها، فإننا نجدها غالباً ما تنتج أولاداً معاقين أو مصابين بالأمراض التي تعدّ أمراضاً وراثيّة؛ فالزواج من الأقارب أو من أبناء العائلة نفسها يؤدّي إلى انتقال المرض من الآباء إلى الأبناء بنسبة أكبر ممّا لو كانت تلك الزيجة من عائلة أُخرى. وهذا الأمر قد أثبته العلم الحديث الذي أثبت كذلك أن المتولّدين من هذه الزيجات (الأقارب) إن لم يكونوا مرضى جسديّاً، فربما يكونون مرضى نفسيّاً.

وعلى العموم فإن أول هدف استهدفه الإسلام من هذه الناحية هو أن يكسر هذا الطوق السميك المتمثّل بالعرف الجاهلي الذي كان يسيطر على العرب آنذاك عبر ازدرائهم ابن الأمة، وبنظرتهم له على أنه يجب أن ينحطّ في مستواه عن ابن الحرّة. يروى أنه جاء ثلاثة إخوة إلى سوار بن عبد الله بن قدامة القاضي، فقال أحدهم: إننا إخوة وقد مات أبونا، ونحن الاثنان أشقّاء، أمّا الثالث فابن أمة، ونريدك أن تقسم الميراث بيننا. فقال: لكلّ واحد منكم الثلث. فقال الشقيقان:

لا نراك فهمت. قال: بل فهمت؛ فإنه أخوكما. قالا: تعطي ابن الأمة كما تعطي ابن الحرّة؟ فقال: بلى. فقالا: إنك لقليل الخالات بالدهناء. قال: وليكن، فقد سألتماني عن حكم الله جلّ وعلا وقد أجبتكما وِفْقَه[1].

والمهم أن هذه الظاهرة كانت تعيش داخل النفوس آنذاك، وقد ووجه أمير المؤمنين عليه السلام بهذا المعنى حينما دخلت عليه امرأتان وهو عليه السلام جالس في مسجد الكوفة عند بيت المال، وكانت إحداهما عربيّة حرّة والأُخرىٰ مولاة مملوكة، فسألتاه العطاء، فأمر عليه السلام لكلّ واحدة منهما بكرّ من طعام وأربعين درهماً، فأخذت المولاة العطاء الذي أُعطيت وذهبت، وقالت العربيّة: يا أمير المؤمنين، تعطيني مثل الذي أعطيت هذه، وأنا عربية وهي مولاة؟ فحمل أمير المؤمنين عليه السلام قبضتين من التراب وقال: **«والله، إني لا أرىٰ فرقاً بين هذه وبين هذه، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[2] ...»**. ثم قال عليه السلام لها: **«إني نظرت في كتاب الله عزّ وجلّ، فلم أرَ فيه فضلاً لولْد إسماعيل على ولْد إسحاق»**[3].

فـ**«كلّكم لآدم وآدم من تراب»**[4].

---

(١) الكامل في الأدب ٢: ٤٨. (٢) الحجرات: ١٣.

(٣) انظر السنن الكبرى (البيهقي) ٦: ٣٤٩، كنز العمّال ٦: ٦١٠ ـ ٦١١ / ١٧٠٩٥. وفي الكافي ٨: ٦٩ / ٢٦ أنه عليه السلام خطب فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس، إن آدم لم يلد عبداً ولا أمة، وإن الناس كلّهم أحرار، ولكن الله خوّل بعضكم بعضاً، فمن كان له بلاء فصبر في الخير فلا يمنّ به على الله عز وجل. ألا وقد حضر شيء ونحن مسوّون فيه بين الأسود والأحمر». فقال مروان لطلحة والزبير: ما أراد بهذا غيركما.
ثم وزّع عليه السلام المال، فأعطى كل واحد ثلاثة دنانير، وأعطى رجلاً من الأنصار ثلاثة دنانير، وجاء بعدُ غلام أسود فأعطاه ثلاثة دنانير، فقال الأنصاري: يا أمير المؤمنين، هذا غلام أعتقته بالأمس تجعلني وإياه سواء؟ فقال عليه السلام: «إني نظرت في كتاب الله، فلم أجد لولد إسماعيل على ولد إسحاق فضلاً».

(٤) تحف العقول: ٢٤، شرح نهج البلاغة ١: ١٢٨، الدرّ المنثور ٦: ٩٨.

الهدف الثاني: القضاء على الآثار النفسيّة للفتوحات

إن من الواضح الذي لا يمكن إنكاره أن وقع الفتوح على الأُمم التي تفتح بلادها يبقى وقعاً مرّاً، فإذا احتلّت أُمّة أُمّة أُخرى، واستولت على أرضها، وسلبتها الحكم، وسيطرت على زمام الأُمور في بلدها، فإن تلك الأُمّة التي قد فتح بلادها تظلّ تعيش مرارة الهزيمة والإحساس بالاحتلال لأجيال عدّة. وللقضاء على هذا الإحساس، ولرفع هذه المرارة من نفوس هؤلاء أمر الإسلام بالإصهار معهم، أي أن يتزاوجوا من بعضهم البعض؛ فيتزوج العرب من بنات أُولئك، ويتزوّج أُولئك من بنات العرب بشرط أن يكونوا مسلمين، فيصبح هذا خال ذاك وذاك قريب هذا وابن عمّته. وهكذا إذ يستمرّ العمل بهذا النهج العلاجي فإن الأمر ينتهي إلى حالة تذوب عندها تلك الأحقاد، وتلك المرارة، وذلك الشعور والإحساس بالاحتلال والذلّ وما إلى ذلك.

إن هذا الأمر ينتهي بطبيعة الحال إلى حصول لون من ألوان التمازج بين الشعبين أو الحضارتين؛ وهو ما يؤدّي بالتالي إلى اندماجهما في فكر واحد، وفي بوتقة واحدة. وهذا هو من أهمّ الأهداف التي ندب إليها الإسلام الحنيف، وأولاها عناية كبرى.

إذن فالإصهار مع الأجناس الأُخرى من الأُمور التي تقضي على حالة التمايز بين الناس، بل الشعور بتلك المرارة وذلك الإحساس بالاحتلال؛ ولذا فإن عندنا نحن الإمامية وعند الشافعي [١] أيضاً أن الكفاءة هي الاتّفاق بالدين فقط. أما أن يأتي من يقول: إن المرأة غير العربية ليست كفئاً للرجل العربي، أو أن الرجل غير العربي ليس كفئاً للمرأة العربيّة، فهذا مرفوض تماماً. وهذا الأمر موجود عند

---

(١) انظر فتح الباري ٩: ١١٣.

بعض فقهاء المسلمين، مع أن الدين خلاف ذلك؛ فالقرآن الكريم يقول: **﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ﴾**[١]، كما أن الحديث النبوي الشريف يصدح: **«من جاءكم ممن ترضون دينه فزوجوه»**[٢].

والغريب في الأمر أن الذي يذهب إلى هذا المذهب ـ وهو عدم جواز تزويج العربية من غير العربي ـ يذهب في مقابل هذا إلى جواز كون الخلافة في غير العرب، مع أن الثابت عندنا أن الخلافة لا تكون إلّا في قريش كما نصّ عليه الحديث الشريف[٣].

وبناء على هذا فإن أمير المؤمنين عليه السلام قد زوّج ولده الإمام الحسين عليه السلام إحدى ابنتي يزدجرد، وزوج الأُخرى لربيبه القاسم بن محمد بن أبي بكر الذي ولد له منها ولد، كما أن الّتي تزوّجها الإمام الحسين عليه السلام قد ولدت له الإمام زين العابدين عليه السلام.

وعلى رواية فإن هناك ابنة ثالثة قد زوّجها للإمام الحسن عليه السلام. وكل هذا يذكره الزمخشري في (ربيع الأبرار).

الهدف الثالث: توخّي الأقرب بالصلة

إن عندنا أن حدود الجزيرة العربية مشتركة غالباً؛ فالجزيرة كان بعض منها تحت حكم الفرس، والبعض الآخر منها تحت حكم غيرهم؛ فمنها ما اتّصل

---

(١) الحجر: ١٣.

(٢) الكافي ٥: ٣٤٧ / ٢ ـ ٣، الفقيه ٣: ٢٩٣ / ٤٣٨١، كنز العمّال ٦: ٤٥٩ / ٤٥٤٢٧.

(٣) قال رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «من ولدي اثنا عشر نقيباً نجباء محدثون مفهمون، آخرهم القائم بالحقّ يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً». تقريب المعارف: ٤١٩، شرح أُصول الكافي ٢: ٢٤٠. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يزال الدين قائماً حتى يكون اثنا عشر خليفة من قريش». مسند أحمد ٥: ٨٦، صحيح مسلم ٦: ٣ ـ ٤، سنن أبي داود ٢: ٣٠٩ / ٤٢٧٩.

بالحيرة عن طريق المناذرة، ومنها ما اتّصل بالأحباش، وهو ما يشكّل محلّ احتكاك كذلك بينها وبين هؤلاء، لكن التأثّر بالحضارات الخارجيّة هو محلّ احتكاك بشكل أكبر بالنسبة لسكان الحدود أو أطراف الجزيرة العربية، كتلك التي تربط فارس بجزيرة العرب. وبهذا فإن الإسلام أراد أن تتحقّق هذه الصلة بين الشعوب بشكل أكبر، بل وأن تتعمّق فيما بينها.

وينبغي أن نذكر بأننا لا نولي هذا الأمر ـ كون أُمّ أحد أيمّتنا عليهم السلام ابنة ملك أو ما يشبه ذلك ـ عناية كبيرة، أو شيئاً من الأهمية؛ فمن الضروري أن نؤكّد على أنه ليس من ضروريّات تاريخنا أو فكرنا، وعلى أن من مجالات اهتماماته أن تكون أُمّ أحدهم عليهم السلام بنت ملك مثلاً. فسواء كانت بنت ملك أو بنت شخص عادي، فهذا ممّا لا يرفع من منزلة الإمام عليه السلام، ولا يقلّل منها. إن هذا الأمر بعيد كلّ البعد عن حساباتنا؛ لأنه لا يشكّل أي نقطة ضوء في مضمار إعطاء الإمام عليه السلام أي دور كان؛ سواء على مستوى الدين، أو العلاقات الاجتماعية، أو المنزلة الروحيّة التي يتمتّعون عليهم السلام بها.

إننا إذ نذكر هذا الأمر فإنما نذكره كحقيقة تاريخية، وإذا كان غيرنا يعتبره نوعاً من أنواع المجد فهذا شيء آخر لا شأن لنا به، ولا نقيم له أي وزن أو اعتبار؛ فمثل هذه الأُمور الجانبية المادية لا يمكن أن نعتبرها في يوم من الأيام ممّا يمثّل لوناً من ألوان المجد مطلقاً.

الهدف من ذكر هذا النسب

إننا إذ نذكر هذا الأمر فإنما نذكره لسببين:

الأول: أنه من باب ذكر الحقائق التاريخية.

الثاني: أن فيه إشارة إلى الهدف الذي ينشده الإسلام في مثل هذه الحالات،

وهو القضاء على حالة الشعور بالتمايز بين العرب وغيرهم من الأُمم المفتوحة عن طريق الزواج من الإماء، وهو ما أشرنا إليه عند الكلام حول أهداف الحثّ على الزواج من الأجنبيّة.

ولذا فإننا نجد في مجال الفقه والتشريع عندنا أن هناك تكريماً لأُم الولد؛ فهي تنعتق من نصيب ولدها بمجرد أن تضع حملها، أي أن ملكيّتها تصبح متزلزلة بمجرّد أن تحمل، فإذا وضعت أصبحت حرّة؛ كيلا يلحق الولد بالأمة وهو ابن حرّ، وكيلا يعيّر بعد ذلك على أنه ابن أمة. فالإسلام يريد له أن يكون ابن حرة.

بيع الإماء

يروي بعض الفقهاء أن لأمير المؤمنين عليه السلام رأيا يجيز فيه بيع أُمّهات الأولاد[1]، وأنا استغرب مثل هذا الرأي الذي ينقل عنه عليه السلام، وهو رأي غير صحيح النسبة وغير ثابت عن أمير المؤمنين عليه السلام[2]. وفي هذا المجال أذكر أن أُستاذنا الإمام الخوئي كان يقول دائماً: في حدود اطّلاعي أن هذا الرأي لا وجود له مطلقاً، ومع أنه غير صادر عنه عليه السلام لكنه نسب إليه خطأً أو لغرض آخر.

البعد الثاني: عصر الإمام السجاد عليه السلام

ولد الإمام (صلوات الله وسلامه عليه) في حياة جدّه أمير المؤمنين عليه السلام،

---

(١) بدائع الصنائع ٤: ١٣٠، الإحكام في أُصول الأحكام ( ) ١: ٢٥٤، ٢٥٨، ٤: ٤٣، شرح نهج البلاغة ٧: ٧٢.

(٢) فرواياتنا وفقهنا صريحان في النصّ على أنها تنعتق من نصيب ولدها. انظر: الفقيه ٤: ١٦٢ / ٥٠٩، وسائل الشيعة ١١: ٥٣، المختصر النافع: ١٦٤، كشف الرموز (الفاضل الآبي) ٢: ٧٥، قواعد الأحكام ٣: ٢٣١، ٢٥٦، إيضاح الفوائد ٣: ٥٦٩، المهذب البارع ٣: ١٠٩، مسالك الأفهام ١٣، ٥٢١.

وتوفي عام (٩٤) أو (٩٥) هـ؛ وبهذا فإنه يكون قد عاصر جدّه أمير المؤمنين عليه السلام، وعمّه الإمام الحسن عليه السلام وأبيه الإمام الحسين بطبيعة الحال. وكانت فترة معاصرته لجدّه أمير المؤمنين عليه السلام ثلاث سنوات. والذي يبدو من خلال تتبّع سيرة هذا الإمام العظيم وملاحظتها أنه على الرغم من قصر الفترة التي عاصر فيها جده أمير المؤمنين عليه السلام، فإننا نجد أن هذه السنوات قد غرست في ذهنه انطباعاً نمّاه بعد ذلك بتتبّع سيرة جده عليه السلام، كما سيمر بنا. ثم بعد ذلك بقي مع عمّه الإمام الحسن عليه السلام ثلاث عشرة سنة، وكانت سنوات حبلى بالأحداث والمضاعفات السياسية والدينية؛ لما حصل فيها من انتقال للسلطة من الطرف الشرعي والخليفة الذي نصّبته السماء إلى طرف غير شرعي، ولم تنصّبه السماء، بل نصّبته الآراء والأهواء والسلطان والقوة والمال.

وبهذا فإننا لو تتبّعنا حياة الإمام عليه السلام ومراحلها، لوجدناها تتّسم بأنها قد مرّت بأكثر من مرحلة، كما سنلاحظ إن شاء الله تعالى، وسوف نتناولها من خلال هذا المبحث مرحلة مرحلة بما يقتضيه المقام من إيجاز أو إسهاب:

الفترة الأولى: معاصرته لجده أمير المؤمنين عليه السلام

كان عليه السلام في هذه الفترة القصيرة يختزن في وعيه وذاكرته صوراً مؤلمة؛ فقد كانت فترةً محتدمةً مشحونةً بالأحداث؛ ولذا فإن ذاكرته عليه السلام كانت تحتضن تلك المشاهد والمناظر المؤلمة التي مرّت بها الخلافة الشرعيّة.. خلافة جدّه أمير المؤمنين عليه السلام من حيث مناجزة معاوية له، أو مناجزة أصحاب الجمل، أو مناجزة أصحاب صفّين الذين حاولوا جميعاً زعزعة أركان حكم الإمام عليه السلام؛ إذ أنهم كانوا يعتبرونه وجوداً خطراً على مصالحهم.

الفترة الثانية: معاصرته لعمّه الحسن عليه السلام

وفي هذه الفترة أيضاً اختزنت ذاكرة الإمام عليه السلام، واحتضن وعيه الكثير من الصور المؤلمة التي حفلت بها تلك الفترة، والتي كانت حبلى بها؛ ومن هذه نذكر:

الأولى: استيلاء بني أُميّة ممثّلين بمعاوية على السلطة الشرعية من الخليفة الشرعي بغير وجه حقّ.

الثانية: نقض الحاكم الأُموي (معاوية) لبنود وشروط الصلح الذي عقده مع الإمام الحسن عليه السلام.

الثالثة: قطع الرواتب والعطاءات عن أبناء الشهداء من المهاجرين والأنصار الذين استشهدوا مع الإمام علي عليه السلام في معاركه الثلاث ضدّ المارقين والقاسطين والناكثين، وتعرّضهم للمتابعة الاقتصادية، وبالتالي جعلهم عرضة لمعاناة الجوع والعري والحرمان وما إلى ذلك.

الرابعة: متابعة أصحاب الأئمة (سلام الله عليهم) الخلّص، وملاحقتهم، وإنزال التقتيل والتنكيل بهم، بل وصل الأمر إلى الإبادة المنظّمة على أيدي معاوية من جهة، وأيدي أتباعه من جهة أُخرى، عبر نظام التصفية الذي اعتمده معاوية؛ السيف أو العسل.

الخامسة: محاولات القضاء على ذكر أهل البيت النبوي الطاهر عليهم السلام، فيما يعود لهم من مناقب، فحاولوا أنّ يسلبوهم مناقبهم ويلحقوها بغيرهم، وأن يلصقوا معايب ومثالب هؤلاء بهم. وقد بذلوا الأموال ورفعوا السيوف في سبيل تحقيق ذلك الترغيب والترهيب والإكراه[1]. يذكر أحد المؤرخين أن سليمان بن عبد

---

(١) قال ابن حجر: «عن إسحاق بن راهويه أنه قال: لم يصح في فضائل معاوية شيء». ثم

الملك أرسل خلف رجل ممّن يهتمّ بكتابة التاريخ، وقال له: اكتب لي التاريخ الذي تعرفه. فقال له: إنه مكتوب عندي، وقد دوّنته على هذه الرقاق (أو الرقاع). ثم سلّمها إليه.

فلما نظر سليمان بن عبد الملك فيها رأى أن في مجموعة منها ذكراً لسيرة الرسول ﷺ وسيرة أهل بيته ﵈، وأصحابه الخلّص (رضوان الله تعالى عليهم)، وأن فيها روايات في فضل الأنصار (رضي الله تعالى عنهم)، فقال له: هل إن هؤلاء مجاهدون ومقاتلون وأبرار، وقد دافعوا عن النبي؟ وهل إنهم أهل عبادة وورع وتقوى كما تذكر؟ من أين لك هذا الكلام؟ إنهم إن كانوا بهذه الشاكلة فهذا يعني أنهم قد ظُلموا، وأن أسلافي ظالمون، وإن لم يكن أسلافي كذلك فهذا يعني أن هذا الكلام كلّه كذب وافتراء، ولا أساس له من الصحّة.

ثم طوى هذه الرقاق ومزّقها وقال لصاحبها: أُريد أولاً أن أستوثق من هذا

☚ قال: «واخرج ابن الجوزي أيضاً من طريق عبد الله بن أحمد بن حنبل: سألت أبي: ما تقول في علي ومعاوية؟ فأطرق ثم قال: اعلم أن علياً كان كثير الأعداء، ففتّش أعداؤه له عيباً فلم يجدوا، فعمدوا إلى رجل قد حاربه فأطروه كياداً منهم لعلي. فأشار بهذا إلى ما اختلقوه لمعاوية من الفضائل مما لا أصل له. وقد ورد في فضائل معاوية أحاديث كثيرة لكن ليس فيها ما يصحّ من طريق الأسناد، وبذلك جزم إسحاق بن راهويه، والنسائي، وغيرهما، والله أعلم». فتح الباري ٧: ٨١.

ونقل المباركفوري مثله. تحفة الأحوذي ١٠: ٢٣١.

وأسرّ الشافعي إلى الربيع أن لا تقبل شهادة أربعة من الصحابة، وهم: معاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة، وزياد». خزانة الأدب ٦: ٥١، ونقله مروان خليفات وأحمد حسين يعقوب عن تاريخ الطبري/ حوادث سنة ٥١، الكامل في التاريخ ٣: ٢٠٢ ـ ٢٠٩، تاريخ مدينة دمشق ٢: ٣٧٩. انظر: وركبت السفينة: ٢٢١، نظرية عدالة الصحابة: ١١٢

وقال إسحاق بن راهويه: «لا يصحّ عن النبي ﷺ في فضل معاوية شيء». انظر سير أعلام النبلاء ٣: ١٣٢.

الأمر الذي تذكره، ومن صحّة هذه الروايات من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان. ثم دخل عليه وأخبره بما قرأ في هذه الرقاق وبما فعله فيها حيث إنه مزقها، فقال له عبد الملك: لقد أحسنت صنعاً؛ إننا لا نريد لأهل الشام أن يقرؤوا مثل هذا الكتابات، ولا أن يعرفوها.

والواقع أن الأنصار قد قسا عليهم الدهر، وجارت عليهم السلطات؛ لأن بعضهم قد اتّبع الإمام علي بن أبي طالبعليه السلام، وناصره وأحبّه دون أن يفعل ذلك مع بني أُميّة؛ لا في حياته، ولا حال موته.

إذن في هذه الفترة بدأت الملاحقة الفعليّة لكلّ من ناصر أمير المؤمنينعليه السلام، ولكل من أحبّه وشايعه، وكل من يروي رواية في فضلهعليه السلام أو فضل أهل البيتعليهم السلام [1]. فكلّ من يُشمّ منه رائحة لحبّ عليعليه السلام أو أحد من أهل بيته يلاحق بمختلف أنواع الملاحقة، ويتعرّض لأقسى الأساليب وأشدها من السجن، وألوان التعذيب، وقطع الأرزاق، وما إلى ذلك. وقد كان معاوية ينتهج أُسلوبي الترغيب والترهيب في تجريد المذهب الشيعي من أتباعه؛ سعياً لإضعاف التشيّع، فمن لم

---

(١) وقد ذكرنا فيما سبق أن الأمر لم يقتصر على الحكّام الطغاة فقط، بل تعدّاهم إلى طبقة العلماء، وإلى الشعوب الإمّعة كما حدث مع النسائي حينما ألّف كتابه (خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام) فقد اجتمع عليه المحدّثون والقرّاء وغيرهم في دمشق ـ وقيل: في فلسطين، وكان قد خرج من مصر وافداً على دمشق ـ في بعض مجالسه، فسأله بعضهم: أيهما أفضل علي أم معاوية؟ فقال على الفور: أما رضي معاوية أن يخرج رأساً برأس حتى يفضّل؟ وقال: والله لا أعرف له فضيلة إلّا قول النبيصلى الله عليه وآله وسلم: «لا أشبع الله بطنك». فداسوه بأرجلهم وأخرجوه من الشام مضروراً، فتوجّه نحو مكّة المكرّمة وتوفّي بها متأثّراً بإصابته. وفيات الأعيان ١: ٧٧، النصائح الكافية: ١٩٩.
ونقل عنه أنه قال: «دخلت الشام، والمنحرف عن عليعليه السلام بها كثير، فصنّفت كتاب (الخصائص) رجوت بذلك أن يهديهم الله». شذرات الذهب ٢: ٢٤٠.

ينفع معه المال كان السم أو السيف له أجدى وأنفع.

وقد بذل الأموال الطائلة في سبيل شراء الذمم ومن ذلك ما يروى من أن الأحنف بن قيس، وجارية بن قدامة، والجون بن قتادة، والحباب بن يزيد أبا منازل دخلوا على معاوية بن أبي سفيان، فأعطى كلّ رجل منهم مئة ألف درهم، وأعطى الحباب سبعين ألف درهم.

فلما خرجوا منه وكانوا في الطريق، سأل بعضهم بعضاً عمّا أعطاه معاوية، فأخبروا بجوائزهم، فرجع الحباب إلى معاوية، فقال له: ما ردّك يا أبا منازل؟ قال: فضحتني في بني تميم، أما حسبي صحيح؟ أولست ذا سن؟ أولست مطاعاً في عشيرتي؟ فقال معاوية: بلى أنت كذلك. قال: فما بالك خسست بي دون القوم، فتعطي الأحنف ورأيه رأيه ـ وكان علويّ الرأي والهوى ـ مئة ألف درهم وتعطيني ورأيي رأيي ـ وكان عثمانيّ الرأي والهوى ـ سبعين ألف درهم؟ فقال: يا حباب، إني اشتريت منه دينه بما أعطيته، أمّا أنت فقد وكلتك إلى دينك ورأيك في عثمان بن عفّان، فإني أردت أن أُبقي لك دينك؛ لأنك عثماني، وأنا أُريد أن أُبقيك على عثمانيّتك. فقال الحباب: يا أمير المؤمنين، فاشترِ مني أيضاً ديني. فأتمّها له مئة ألف درهم، وألحقه بالأحنف ورفيقيه.

ثم لم يأتِ على الحباب بعد ذلك أُسبوع حتى مات، ورُدّ المال بعينه إلى معاوية [1].

---

(١) انظر: الغارات ٢: ٧٥٤، تاريخ مدينة دمشق ١٠: ٢٧٨ ـ ٢٧٩. وقد روي أن معاوية همّ أن يعزل المغيرة عن الكوفة ويولّي عليها سعيد بن العاص، فلمّا بلغه ذلك شخص إلىٰ معاوية بالشام، وقال لأصحابه حين وصل إليه: إن لم أكسبكم اليوم ولاية وإمارة لا أفعل ذلك أبداً. ومضىٰ حتىٰ دخل علىٰ يزيد، وقال له: إنّه قد ذهب أعيان أصحاب محمد ﷺ وكبراء قريش وذوو أسنانهم، وإنّما بقي أبناؤهم وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأياً، وأعلمهم بالسنّة

فهذه المفارقات المؤلمة كانت نصب عيني الإمام السجادعليه السلام، وهو يعيش هذه المرحلة التي عاصر فيها عمّه الإمام الحسنعليه السلام ومعاوية، وقد استمرّت هذه الفترة إلى وفاة الإمام الحسنعليه السلام.

جوابهعليه السلام الزهري بأن الصوم أربعون وجهاً

وفي هذه الأثناء ـ أي في زمان أبيه وعمه عليهما السلام ـ كان الإمامعليه السلام يعقد في مسجد النبيصلى الله عليه وآله وسلم حلقة للتدريس، فكان الإمامعليه السلام يجيب على أسئلة السائلين بالمقدار الذي تسمح به الظروف، ولهذا فإن الأسئلة كانت تتوارد عليه فيجيب أصحابها دون كلل أو ملل، ومن هذا ما يروى من أن الزهري جاءه يوماً فقال له: لقد حصل

☚ والسياسة، وما أدري ما يمنع أميرالمؤمنين أن يعقد لك البيعة! قال: أوترىٰ ذلك يتمّ لي؟ قال: نعم.

فدخل يزيد علىٰ أبيه، وأخبره بما قال المغيرة، فأحضره معاوية، وقال له: ما يقول يزيد؟ فقال: يا أمير المؤمنين، قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد قتل عثمان، وفي يزيد منك خلف فاعقد له، فإن حدث بك حادث كان كهفاً للناس، وخلفاً منك، ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة. قال: ومن لي بهذا؟ قال: أكفيك أهل الكوفة، ويكفيك زياد أهل البصرة، وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك. قال: فارجع إلىٰ عملك، وتحدّث مع من تثق إليه وترىٰ ونرىٰ.

فودّعه ورجع إلىٰ أصحابه، فقالوا: مَه. فقال: لقد وضعت رجل معاوية في غرز بعيد الغاية علىٰ اُمّة محمّدصلى الله عليه وآله وسلم، وفتقت عليهم فتقاً لا يرتق أبداً.

وسار المغيرة حتىٰ قدم الكوفة وذاكر من يثق فيه، ومن يعلم أنّه من شيعة بني اُميّة، فأجابوا إلىٰ بيعة يزيد. فأوفد منهم عشرة وأعطاهم ثلاثين ألف درهم، وجعل عليهم ابنه موسىٰ بن المغيرة. وقدموا علىٰ معاوية فزيّنوا له بيعة يزيد، ودعوه إلىٰ عقدها، فقال معاوية: لا تعجلوا بإظهار هذا الأمر، وكونوا علىٰ رأيكم. ثمّ قال لموسىٰ بن المغيرة: بكم اشترىٰ أبوك من هؤلاء دينهم؟ قال: بثلاثين ألف درهم. قال: لقد هان عليهم دينهم. الكامل في التاريخ ٣: ٤٠٥، النصائح الكافية: ٦٤. وليس بعد هذا تلاعب بالدين.

بيننا نزاع، ونريدك أن تفصل فيه. ثم قال: لقد تذاكرنا أمر الصوم، فاجتمع رأيي ورأي أصحابي على أنه ليس من الصوم شيء واجب إلّا صوم شهر رمضان.

فقال عليه السلام: **«يا زهري، ليس كما قلتم؛ الصوم على أربعين وجهاً: فعشرة أوجه منها واجبة كوجوب شهر رمضان، وعشرة أوجه منها صيامهن حرام، وأربعة عشر منها صاحبها بالخيار إن شاء صام وإن شاء أفطر، وصوم الإذن على ثلاثة أوجه، وصوم التأديب وصوم الإباحة وصوم السفر والمرض».**

الصوم الواجب

فقال: جعلت فداك فسّرهن لي. فقال عليه السلام:

«أما الواجبة؛ فصيام شهر رمضان، وصيام شهرين متتابعين في كفارة الظهار لقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾[1].

وصيام شهرين متتابعين فيمن أفطر يوماً من شهر رمضان. وصيام شهرين متتابعين في قتل الخطأ لمن لم يجد العتق واجب؛ لقول الله عزّ وجل: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾[2].

وصوم ثلاثة أيام في كفّارة اليمين واجب؛ قال الله عزّ وجل: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ

---

(١) المجادلة: ٣ ـ ٤.

(٢) النساء: ٩٢.

ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ ﴾[١]. هذا لمن لا يجد الإطعام، كلّ ذلك متتابع وليس بمتفرّق.

وصيام أذى حلق الرأس واجب قال الله عزّ وجل: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾[٢]، فصاحبها فيها بالخيار؛ فإن صام صام ثلاثة أيام.

وصوم المتعة واجب لمن لم يجد الهدي؛ قال الله عز وجل: ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾[٣].

وصوم جزاء الصيد واجب قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً ﴾[٤]. أو تدري كيف يكون عدل ذلك صياماً يا زهري؟». قال: لا أدري. قال عليه السلام: «يقوّم الصيد قيمة، ثم تفضّ تلك القيمة على البّر، ثم يكال ذلك البّر أصواعاً، فيصوم لكلّ نصف صاع يوماً.

وصوم النذر واجب، وصوم الاعتكاف واجب».

الصوم الحرام

«وأما الصوم الحرام، فصوم يوم الفطر، ويوم الأضحى، وثلاثة أيّام من أيّام التشريق، وصوم يوم الشك أُمرنا به ونهينا عنه؛ أُمرنا به أن نصومه مع صيام شعبان، ونهينا عنه أن ينفرد الرجل بصيامه في اليوم يشك فيه الناس». فقال له: جعلت فداك، فإن لم يكن صام من شعبان شيئاً، كيف يصنع؟ قال عليه السلام: «ينوي ليلة الشك أنه صائم من شعبان؛ فإن كان من شهر رمضان أجزأ عنه، وإن كان من شعبان

---

(١) المائدة: ٨٩.
(٢) البقرة: ١٩٦.
(٣) البقرة: ١٩٦.
(٤) المائدة: ٩٥.

لم يـضرّه». فقال: وكيف يجزئ صوم تطوّع عن فريضة؟ قال ﵇: «لو أن رجـلاً صام يوماً من شهر رمضان تطوّعاً، وهو لا يعلم أنه من شهر رمضان، ثم علم بذلك لأجزأ عنه؛ لأن الفرض إنما وقع على اليوم بعينه.

وصوم الوصال حرام، وصوم الصمت حرام، وصـوم نـذر المـعصية حـرام، وصوم الدهر حرام».

الصوم المباح

«وأما الصوم الذي صاحبه فيه بالخيار، فصوم يوم الجمعة والخميس، وصوم البيض، وصوم ستّة أيام من شوّال بعد شهر رمضان، وصوم يوم عرفة، وصوم يوم عاشوراء، فكلّ ذلك صاحبه فيه بالخيار؛ إن شاء صام، وإن شاء أفطر».

صوم الإذن

«وأما صوم الإذن فالمرأة لا تصوم تطوّعاً إلّا بإذن زوجها، والعـبد لا يـصوم تطوّعاً إلّا بإذن مولاه، والضيف لا يصوم تطوّعاً إلّا بإذن صـاحبه. قـال رسـول الله ﷺ: من نزل على قوم فلا يصم تطوّعاً إلّا بإذنهم».

صوم التأديب والإباحة والسفر والمرض

«وأما صوم التأديب فأن يؤخذ الصبي إذا راهق بالصوم؛ تأديباً، وليس بفرض، وكذلك المسافر إذا أكل من أوّل النهار ثم قدم أهله أُمر بالإمساك بقيّة يومه وليس بفرض. وأما صوم الإباحة لمن أكل أو شرب ناسيا أو قاء من غير تعمّد، فقد أباح الله له ذلك وأجزأ عنه صومه. وأما صوم السفر والمرض فإن العامّة قد اختلفت في ذلك فقال قوم: يصوم وقال آخرون: لا يصوم، وقال قوم: إن شاء صام وإن شاء أفطر، وأما نحن فنقول: يفطر في الحالين جميعاً فإن صام في السفر أو في حال المرض

فعليه القضاء، فإن الله عزّ وجل يقول : ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾[١]، فهذا تفسير الصيام»[٢].

وفي واقع الأمر إن هذه الإجابة للزهري على سؤاله هذا، مضافاً إليها قضيّة أُخرى حدثت للزهري مع الإمام السجادعليه السلام وقد حلها له لهما مدعاة للتساؤل.

والقضية الثانية هي أن الزهري كان قاضياً عند الأُمويّين، فرأى يوماً فيما يرى النائم كأن يده قد غمست بدم، فسأل عن ذلك فقيل له: سوف تُبتلى بدم وبقتل. وفعلاً ابتلي يوماً بدم خطأ؛ فقد جيء إليه بشخص فعاقبه حتى مات، فلما عرف أنه مات أصابه يأس وقنوط من الحياة، وحبس نفسه في بيته ولم يخرج منه.

وقد افتقده الإمام السجادعليه السلام مرّة؛ إذ لم يرَه في المسجد، فسأل عنه، فقيل له: هل لك فيه؟ قالعليه السلام: **«إن لي فيه»**. أي أُريد أن أراه، فقال له أحدهم: إنّ من أمره كذا وكذا، وهو يظن نفسه أنه قاتل الرجل.

فدخل عليه الإمامعليه السلام وقال له: **«إنّ ما أخافه عليك من قنوطك من رحمة اللّه أكثر مما أخافه عليك مما ابتليت به، وقنوطك من رحمة الله التي وسعت كل شيء أعظم عليك من ذنبك»**. فقال الزهري: **﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾**[٣]، لقد فرّجت عني فرّج اللّه عنك، أشهد أنك زين العابدين. ثم رجع إلى أهله وماله[٤].

علم الإمام السجاد ومصادره

والحادثة الثانية بالذات قد تركت انطباعاً طيّباً عن الإمام السجادعليه السلام في نفس الزهري، وأثراً حميداً فيها. وهذه المبادرة من الإمامعليه السلام في هذه الأدوار المبكّرة

---

(١) البقرة: ١٨٤.

(٢) الكافي ٤: ٨٣ـ ٨٧ / ١، البداية والنهاية ٩: ١٣٤.

(٣) الأنعام: ١٢٤.

(٤) ينابيع المودّة ٢: ٤٦٨.

من عمره الشريف تنمّ عن علم جزل، وثقافة غزيرة، ومعرفة واطّلاع واسعين.

ولنا هنا أن نتساءل عن علم الإمام عليه السلام ومصدره، وهل إن مصدره طريق طبيعي أم طريق غير طبيعي؟ وبعبارة أُخرى: هل إنه علم يخضع للظروف الطبيعيّة أو العادية، أم إنه علم بطريقة غيبية؟ وهذه المسألة تثار بشكل مستمرّ، وتدور حول علم الأيمّة عليهم السلام كلّهم.

إن هنا عندنا أكثر من إجابة لهذا التساؤل، ولو أننا وسّعنا مساحة البحث في هذه المسألة، ووصلنا إلى الإمام الجواد عليه السلام لرأينا أنه عليه السلام وهو في عمر مبكّر جدّاً يختبره فقهاء المذاهب الأُخرى، فيطرحون عليه ثلاثين ألف مسألة في أوقات متعدّدة فيجيب عليها جميعها بالبرهان والدليل [1]، فمن أين جاء عليه السلام بهذه العلمية؟ ولعل المشكلة تكمن هنا؛ ذلك أننا إذا ذكرنا لأحد الأئمة عليهم السلام منقبة أو فضيلة أو كرامة، فإن الدنيا تقوم ولا تقعد، بل إن قيامتنا تقوم، لاسيما إذا ذكرنا ما يخصّ علمهم عليهم السلام، ونوّهنا إلى أنه علم من الله جلّ وعلا؛ باعتبار أنهم ملهمون على اختلاف مشارب الإلهام الذي يقع تارة بالنقر في الأسماع، أو النكت في القلوب، أو عن طريق المنام وما إلى ذلك.

هذا في حين أن الطرف الآخر حينما يذكر بعض هذه المناقب، وينسبها إلى جماعة فإنه لا يتحسّس منها، بل ويعدّها أمراً طبيعياً؛ ومن ذلك ما يرويه ابن حجر في (تهذيب التهذيب)[2] وغيره من ان عمر بن عبد العزيز كان يمشي وإلى يمينه الخضر، وهو يحدّثه ويلهمه.

وإذا كان هؤلاء لا يستكثرون على عمر بن عبد العزيز أن تلهمه الملائكة

---

(١) مستدرك سفينة البحار ٣: ٤٠٢، عن الاختصاص، وفيهما أن هذه المسائل كلها طرحت في مجلس واحد.

(٢) تهذيب التهذيب ٧: ٤١٩ / ٧٩١.

أحكامه، وإذا كانوا كذلك لا يستكثرون على عمران بن الحصين مثل هذه المسألة؛ إذ أنهم يروون أنه كانت تحدّثه الملائكة[1]، فلماذا هذه الحساسية إذن تجاه آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟

القول بنظريّة الإلهام ضرورة يفرضها الواقع

ونحن حينما نقول بنظرية الإلهام فلأننا نضطرّ إلى أن نفرضها في الواقع، وأن نقول بها. وهذا هو المعنى الذي يشير إليه الإمام عليه السلام من أنه لو أراد أن يعلم لعلم. وهذا يعني أن الإمام عليه السلام بمجرّد أن يتوجّه إلى الله جلّ وعلا في أن يمدّه تعالى بعلم من عنده، وأن يفيض عليه بمعرفته، فإنه جلّ وعلا حينئذٍ يلهمه علم تلك المسألة، أو علم ذلك الأمر الذي أراده.

وهذه هي عقيدتنا بعلم الأئمة عليهم السلام، أما أن يُدّعى أننا نقول بأن علم الإمام علم ذاتي، فهذا محض افتراء لا أساس له من الصحّة، بل إن القائل به يخرج معه عن ربقة الإسلام. وهذا الأمر ينسحب أيضاً حتى على ولاية المعصوم عليه السلام، فولايته ولاية متفرّعة عن ولاية الله جلّ وعلا؛ أي أن ولايته عليه السلام ليست ولاية ذاتية، وليست لذاته، بل إنها مستمدّة من ولاية الله جلّ وعلا وعطائه. ونحن إنما نقول بهذا القول فلأنهم عليهم السلام عباد مكرمون، أكرمهم الله جلّ وعلا وأعطاهم؛ لقاء ما نذروا أنفسهم من أجله، وهو خدمة دينه، وإلّا ما الذي يمكن أن يفسّر به أن يتصدّى أحد المعصومين عليهم السلام للإجابة عن أعتى المسائل وأصعبها وهو في سنّ مبكرة؟

---

(١) سنن أبي داود ٢: ٢٢١ / ٣٨٦٥، كما يروون أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قال: «قد كان في الأمم السابقة قبلكم محدّثون، فإن يكن في أُمّتي أحد منهم فهو عمر بن الخطاب». صحيح البخاري ٤: ١٤٩، صحيح مسلم ٧: ١١٥، مسند الحميدي ١: ١٢٣، صحيح ابن حبّان ١٥: ٣١٧.

وبناء على هذا فإننا نستطيع أن نجمل مصادر علم الإمام السجاد عليه السلام بطريقين، هما:

الأول: الطريق الطبيعي

فالإمام السجاد عليه السلام هو ابن الحسين وابن أخي الحسن عليهما السلام؛ فهو حفيد علي بن أبي طالب عليه السلام، وفاطمة الزهراء عليها السلام؛ وبالتالي فهو ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا هو الجوّ الذي كان يعيش فيه، وليس من هؤلاء المكرمين أحد إلّا عالم غير معلّم، وقد توارثوا العلم خلفُهم عن سلفِهم. وهكذا نرى أن جوّ العلم الذي عاش فيه الإمام عليه السلام هو جوّ الوحي.

الثاني: الطريق الغيبي

ذلك أن جبرائيل عليه السلام كان ينزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيعلّمه من علم الله جلّ وعلا، وقد علّم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أمير المؤمنين عليه السلام عِلمه هذا[1]. ثم انتقلت هذه المعارف والعلوم بعد انتقال أمير المؤمنين عليه السلام إلى الرفيق الأعلى إلى ولديه الحسن والحسين عليهما السلام اللذين ورّثاها إلى تلك السلسلة الذهبية الطاهرة من أبناء الحسين عليهم السلام.

وهكذا راحت معارف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم التي هي معرفة الله وعلمه جلّ وعلا تنتقل إلى أبنائه عليهم السلام من بعده بمقدار ما أطلعهم تعالى عليه[2]. والدليل على هذا

---

(١) حتى قال عليه السلام: «علمني رسول الله ألفَ باب من العلم، ينفتح لي من كلّ باب ألفُ باب». الخصال: ٥٧٢ / ١، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٣٨٥.

(٢) قال السيد الخوئي: إن القضاء على ثلاثة أقسام:
الأول: قضاء الله الذي لم يطلع عليه أحداً من خلقه، والعلم المخزون الذي استأثر به لنفسه. ولا ريب في أن البداء لا يقع في هذا القسم، بل ورد في روايات كثيرة عن أهل البيت عليهم السلام أن البداء إنما ينشأ من هذا العلم.

تلك المحاورة التي حدثت بين الإمام الحسن عليه السلام والرجل الشامي؛ فقد كان الإمام الحسن عليه السلام يطوف في أحد الأيّام، فوقف له رجل شامي وشتمه، فقال له الإمام: **«على رسلك: أنا آخذ بيدك إلىٰ بيتنا لأُريك زغب جناح جبرئيل»**[(١)].

الفترة الثالثة: معاصرته لأبيه الحسين عليه السلام

وبعد أن انتهت تلك الفترة جاء دور الفترة الثالثة التي عاصر فيها أباه الإمام الحسين عليه السلام، فعاشها بكلّ معاناتها ومآسيها، وكانت إمامته في هذه الفترة محجوبة بإمامة أبيه عليهما السلام كذلك. وقد استمرت هذه الفترة منذ وفاة الإمام الحسن عليه السلام وحتى وفاة معاوية عام (٦٠) للهجرة، أي قبل معركة الطف. وهي مرحلة اتّسمت بالعنف الأُموي من جهة، وبأن فيها كانت تعدّ التحضيرات للثورة ضدّ يزيد بعد استخلاف معاوية له وتوليته إياه على المسلمين بعد وفاته. فكانت إرهاصات النهضة المباركة تلوح في الأُفق، وكانت الاستعدادات النفسيّة والتهيّؤ للقيام بهذا الدور قد نشأت في تلك الفترة التي ذكرنا أنها كانت فترة معاناة في حياة الإمام السجاد عليه السلام؛

☚ الثاني: قضاء الله الذي أخبر أنبياءه وملائكته عليهم السلام بأنه سيقع حتماً. ولا ريب في أن هذا القسم أيضاً لا يقع فيه البداء، وإن افترق عن القسم الأول، بأن البداء لا ينشأ منه.

الثالث: قضاء الله الذي أُخبر أنبياءه وملائكته عليهم السلام بوقوعه في الخارج، إلّا إنه موقوف على ألّا تتعلق مشيئة الله بخلافه. وهذا القسم هو الذي يقع فيه البداء: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ الرعد: ٣٩.

البيان في تفسير القرآن - - ص ٣٩١ - ٣٨٦، وبهذا فإن القسمين الأخيرين كليهما قد انتقلا إلى رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله، ومنه إلى أهل بيته الكرام عليهم السلام.

(١) لم نعثر عليه بهذا النصّ، وقد سبق أن أشرنا إلى أنه كان للحسن والحسين عليهما السلام تعويذتان حشوهما من زغب جناح جبرئيل عليه السلام. انظر مناقب آل أبي طالب ٣: ١٦٢، بحار الأنوار ٤٣: ٢٦٣ / ٩، ترجمة الإمام الحسن عليه السلام (ابن عساكر): ١١٣، ١١٤، ترجمة الإمام الحسين عليه السلام (ابن عساكر): ١٩٢.

لما كان يراه من ظلم الظالمين وجور الجائرين.

الفترة الرابعة: فترة معركة الطفّ

وفي هذه الواقعة الفاجعة كان عمره الشريف ثلاثاً وعشرين سنة، وقد خرج مع أبيه عليهما السلام، وبيده ولده الإمام الباقر عليه السلام الذي كان له من العمر ثلاث سنوات.

أبناء الإمام السجاد عليه السلام

وكان للإمام السجاد عليه السلام ثمانية أبناء هم: الإمام محمد الباقر عليه السلام وزيد والحسن والحسين وعبيد الله وعبد الله وعلي وعمر. وقد نصّ أغلب المؤرّخين على أنه عليه السلام لم تولد له أُنثى، وأن كلّ ذرّيّته كانت من الذكور. وكان من أولاده عليه السلام معه في الطف الإمام الباقر عليه السلام كما ذكرنا وأمه فاطمة بنت الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام ولذا فإن بعض المؤرخين يستغرب تلك النبرة أو اللهجة التي خاطبت بها الإمام عليه السلام في حادثة وقوع الإمام الباقر عليه السلام في البئر وهو يصلي؛ ذلك أنها (رضي الله عنها) كانت من العارفات الورعات العابدات، تقول الرواية: إن الإمام السّجاد عليه السلام كان قائماً في صلاته فزحف ابنه محمد عليه السلام ـ وهو طفل ـ إلى بئر كانت في داره بعيدة القعر، فسقط فيها، فنظرت إليه أُمّه فصرخت، وأقبلت تضرب نفسها من حوالي البئر وتستغيث به وتقول له: يابن رسول الله، غرق والله ابنك محمد. وكلّ ذلك لا يسمع قولها ولا ينثني عن صلاته، وهي تسمع اضطراب ابنها في قعر البئر في الماء. فلما طال عليها ذلك قالت له جزعا على ابنها: ما أقسى قلوبكم يا أهل بيت النبوة! وهو مستمرّ في صلاته ولم يخرج عنها إلّا بعد كمالها وتمامها، ثم أقبل عليها فجلس على رأس البئر، ومدّ يده الشريفة إلى قعرها ـ وكانت لا تنال إلّا برشاء طويل ـ فأخرج ابنه محمداً بيده وهو يناغيه ويضحك،

ولم يُبلّ له ثوب ولا جسد بالماء [١].

ولهذا فإن بعض من نقلوا هذه الرواية يستغرب صدور مثل هذا الكلام منها، ويذهب إلى عدم صحته، وإلى أنها بمنزلة من الأدب والتقوى والطاعة تمنعها من أن تخاطب زوجها وهو الإمام بهذه اللهجة، مضافاً إلى أنها من آل بيت محمد كذلك. فالحقيقة التي نخلص إليها هي أن فاطمة (رضي الله عنها) لا تقول مثل هذا الكلام.

وعلى أيّ حال فقد قضى الإمام عليه السلام فترة الطف القصيرة مع أبيه الإمام الحسين عليه السلام بشكل لا يمكن أن يُتَصور أو يوصف؛ لِما كان فيها من مآسٍ وآلام، ولِما ارتُكبت فيها من مجازر وجرائم وحشية يندى لها جبين الإنسانية. وإضافة إلى هذا ما كان يعانيه هو عليه السلام من المرض، فقد كان (سلام الله عليه) مريضاً في أشدّ حالات المرض، فكان يغمى عليه بين آونة وأُخرى من الألم والإعياء والمعاناة والمرض. ولهذا السبب لم يشترك في القتال، أو على الأصح لم يأذن له أبوه عليه السلام بالقتال حتى بعد أن اخترط سيفه ونزل وسحب نفسه إلى المعركة يجر أذياله لأنه سمع نداء أبيه ولم يسمع من يجيبه.

العلّة من مرض السجاد عليه السلام في واقعة الطف

إن الله جل وعلا له وسائل عديدة للحفاظ على عباده، ومن هذه الوسائل المرض، وهي الوسيلة التي استخدمها مع الإمام السجاد عليه السلام حينما امتحنه بهذا الاختبار؛ فإن الله جل وعلا أبى إلّا أن يبقى محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ونور محمد وآل محمد (عليهم الصلاة والسلام). ولولا أن الإمام السجّاد كان مريضاً لوجب عليه القتال

---

(١) دلائل الإمامة: ١٩٧، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٧٨.

تحت لواء أبيه ﵇[1]. وهذا المرض أراد الله جلّ وعلا به أن يحفظ النسل النبويّ الكريم، وأن يبقى امتداد الرسالة به.

إذن فهذه وسيلة من وسائل الحفظ، ودليل هذا أن عمر بن سعد بعد أن انتهت معركة الطف حينما أراد أن يقتله (سلام الله عليه)، وقف له رجل من الجيش وقال له: أتقتلون رجلاً مريضاً؟ إن هذا عار عليكم. فتركوه، وهكذا بقي الإمام ﵇؛ ليحفظ لنا نسل رسول الله ﷺ، وليحفظ لنا خطّ الإمامة المقدّسة.

الفترة الخامسة: فترة ما بعد الطف

وبانتهاء معركة الطف تنتهي هذه الفترة من حياة الإمام ﵇ وهي فترة مليئة بالأحزان وبالمعاناة، وهو (سلام الله عليه) يشاهد إخوانه وأبناء عمومته وأنصار أبيه ثم أباه ﵇ يتساقطون الواحد تلو الآخر في أرض المعركة دون أن يستطيع أن يقدم لهم شيئاً.

وفي هذه الفترة بالذات تتجلى لنا أبعاد كبيرة في سيرة الإمام ﵇. إننا نعيش الآن في دنيا هي عبارة عن صحراء قاحلة من الأخلاق، وعن غابة مليئة

---

(١) ويدلّ على هذا قول الإمام الحسين ﵇ لهرثمة: ـ إذ جاءه الأخير قائلاً: لقد مررت بكربلاء مع أبيك بعد واقعة صفين، ونحن راجعون،، فوقف وأخذ قبضة من تراب كربلا وشمّها وقال: «هذا ـ والله ـ مناخ ركابهم وموضع منيّتهم» فقيل له: يا أمير المؤمنين، ما هذا الموضع؟ قال: «هذا كربلاء، يقتل فيه قوم يدخلون الجنة بغير حساب». وفي رواية أنه ﵇ قال: «واهاً لك يا تربة ليحشرن منك قوم يدخلون الجنة بغير حساب ـ: «أنت لنا أم علينا؟». فقلت: يابن رسول الله، لا لكم ولا عليكم؛ خلّفت صِبية أخاف عليهم عبيد الله بن زياد. فقال ﵇: «فامضِ حيث لا ترى لنا مقتلاً، ولا تسمع لنا صوتاً، فوالذي نفس الحسين بيده، لا يسمع اليوم واعيتنا أحد فلا يعيننا إلّا دخل النار». انظر: الإرشاد ١: ٣٣٢، شرح نهج البلاغة ٣: ١٦٩، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٢٢، تهذيب الكمال ٦: ٤١١، تهذيب التهذيب ٢: ٣٠١.

بالوحوش التي يفترس بعضها بعضاً ويأكل بعضها حق بعض؛ ولذا كان من الواجب علينا في مثل هذه الحالة أن نتبع أخلاق أئمتنا عليهم السلام وسيرتهم ومواقفهم وأن نعيشها واقعاً وأخلاقاً وتعاملاً مع الآخرين؛ لأنها سيرة شريفة تضفي طراوة على هذه الأجواء التي أصبحت قاحلة.

البعد الثالث: صفات الإمام السجّاد عليه السلام

ولو تتبعنا هذه السيرة العطرة المشرّفة والمشرقة لهذا الإمام العظيم فإننا سنجد فيها الجوانب الأخلاقية كافة، كما أننا سنجدها وقد ضمخت كل أبعاد حياته وتعاملاته، فكان المثل الأعلى والأسمى في جميع تصرفاته وأبعاد حياته، ومن هذه الصفات والأخلاق نذكر:

الصفة الأولى: النبل

إن النبل كان في معدن أهل هذا البيت النبوي الطاهر قاعدة وأساساً بنيت عليه كل أخلاقياتهم وتعاملاتهم. ولو أردنا أن نتتبع سيرة الإمام عليه السلام لوجدناها مليئة بمفردات هذه الكلمة، ويكفي هنا أن نذكر أكثر من حادثة مر بهما الإمام عليه السلام لتكشفا عن حقيقة نبله ومقداره، وسموّ خلقه:

الحادثة الأولى: واقعة الحرة ومضاعفاتها

ففي هذه الواقعة احتل الجيش الأُموي المدينة المنورة، واشتد ضغطهم على جميع من في المدينة مما اضطر الإمام عليه السلام إلى أن يتكفل بأربعمئة عائلة والقيام على شؤونهم. ولعل البعض يستغرب حينما يعرف هذا، لكننا نرى أن مورد استغرابه سيزول حينما يعرف ما هو أكثر من ذلك ففي هذه الواقعة قتل عشرة آلاف من أهل المدينة المنورة ممن ناصروا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقاسموا المهاجرين

أموالهم وبيوتهم ونساءهم بعد أن طلقوا قسماً منهن بالنسبة لمن كان متزوجاً من أكثر من امرأة، وكان من هؤلاء القتلى سبعمئة صحابي من حملة القرآن. كما أن الأمر وصل إلى أن تباح الأعراض، فقد أباحوا المدينة للجيش ثلاثة أيام يفعلون بها ما يشاءون[1].

ومع كل هذا فإننا نجد أحد من يدّعي بأنه عالم أو فقيه يقول عن يزيد بأنه: قد تاب؛ وعليه فلا يجوز سبّه أو لعنه.

وممّا يحزّ في النفس أن المرء حينما يمرّ بتاريخنا المدوّن فإنه يجد أقلاماً تمدح يزيد، وتصفه بصفات المؤمنين، بل وتدافع عنه كما فعل الغزالي حيث يقول: لا ينبغي شتم يزيد ولا سبّه؛ لأنه مسلم وقد تاب. ثمّ يتساءل فيقول: من قال: إنه هو الذي قتل الحسين، أو إنه تسبّب في ذلك؟[2].

---

(١) حتى روي أن بعض أهلها كان إذا جاءه أحدهم خاطباً قال له: أُزوّجكها، لكن لا أضمن لك عذريّتها؛ فقد روى المؤرّخون في ذلك الأعاجيب، منها ما رواه الذهبي حيث قال: (وقال جرير بن عبد الحميد، عن مغيرة: نهب مسرف بن عقبة المدينة ثلاثاً، وافتضّ فيها ألف عذراء). تاريخ الإسلام ٥: ٢٦.
وقال ابن خلّكان هذا: (حتى قيل: إنه بعد وقعة الحرّة ولدت أكثر من ألف بكر من أهل المدينة ممّن ليس لهن أزواج؛ بسبب ما جرى فيها من الفجور). وفيات الأعيان ٦: ٢٧٦.
وقال ابن كثير: (وزعم بعض علماء السلف أنه قتل في غضون ذلك ألف بكر، فالله أعلم). البداية والنهاية ٦: ٢٦٢.
وقال: (قال المدائني: عن أبي قرّة قال: قال هشام بن حسان: ولدت ألف امرأة من أهل المدينة بعد وقعة الحرة من غير زوج). البداية والنهاية ٨: ٢٤١.
وفي الغدير ١٠: ٣٥ عن الإتحاف: ٢٢، وفاء الوفاء ١: ٨٨، وفي معالم المدرستين ٣: ١٨٨ ـ ١٨٩ عن تاريخ الخلفاء: ٢٠٩، تاريخ الخميس ٢: ٣٠٢ مثل ذلك.

(٢) قال الآلوسي: (وأبو بكر بن العربي المالكي (عليه من الله تعالى ما يستحقّ) أعظم الفرية، فزعم أن الحسين قتل بسيف جدّه ﷺ، وله من الجهلة موافقون على ذلك:

فهذا يقتل ابن بنت النبيصلى الله عليه وآله ، ويهتك حرمتهصلى الله عليه وآله ، ويسبي حرَمه، ويستبيح المدينة، ويقتل عشرة آلاف مسلم منهم سبعمئة من حملة القرآن، ومع ذلك يعتبر تائباً ومسلماً ولا يجوز سبه، أما إذا أخطأ أحد وشتم أحد أصحاب النبيصلى الله عليه وآله فإن الدنيا تقوم ولا تقعد، وتكفّر طائفة بكاملها. إنها لمفارقة عجيبة.

وبهذا يتّضح حال يزيد الذي قتل كماً هائلاً من المسلمين ومع ذلك يسمى مسلماً بل ويخلع عليه لقب (أمير المؤمنين) الذي لا زال البعض حتى الآن يسميه به.

وعلى أيّ حال فالإمامعليه السلام جمع أربعمئة عائلة من تلك العوائل، وكفلها، وقام على شؤونها ورعايتها من توفير المسكن والمأوى والمأكل والملبس وما إلى ذلك حتى انتهت تلك الواقعة وعادت الأُمور إلى طبيعتها.

الحادثة الثانية: موقفهعليه السلام من الأمويين بعد طردهم من المدينة

فبعد أن ثار أهل المدينة على الأُمويين وقرروا إجلاءهم عن المدينة وطردهم

☚ ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً﴾ الكهف: ٥. ثم نقل قول ابن الجوزي: (عليه الرحمة) في كتابه (السر المصون) المار في محاضرة (الشخصيّة القياديّة عند أهل البيت عليهم السلام) قال: (هذا ويعلم من جميع ما ذكره اختلاف الناس في أمره فمنهم من يقول: هو مسلم عاصٍ بما صدر منه مع العترة الطاهرة، لكن لا يجوز لعنه... ولا يخالف أحد في جواز اللعن بهذه الألفاظ ونحوها سوى ابن العربي المارّ ذكره وموافقيه؛ فإنهم على ظاهر ما نقل عنهم لا يجوّزون لعن من رضي بقتل الحسين (رضي الله تعالى عنه)، وذلك لعمري هو الضلال البعيد الذي يكاد يزيد على ضلال يزيد.

وأفتى الغزالي (عفا الله عنه) بحرمة لعنه). تفسير الآلوسي ٢٦: ٧٢. وبخصوص ابن العربي انظر فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦، ٥: ٣١٣.

وقال ابن تيمية: (وأما الذين سوّغوا محبّته أو أحبّوه كالغزالي والدستي، فلهم مأخذان). مجموع الفتاوى ٤: ٥٠٦.

منها بل وقتل من يعثرون عليه لاذ بعضهم بالإمام السجاد عليه السلام واستجاروا به فأجارهم، وكان من هؤلاء مروان بن الحكم الذي كان يضرب رأس الإمام الحسين عليه السلام حينما أحضروه إلى المدينة بعصا بيده وهو يقول:

يا حبّذا بردك باليدينِ ولونك الأحمر بالخدّينِ

شفيت نفسي من بني الحسينِ[1]

ومع ذلك فإننا نجد إن نبل الإمام قد أصبح هو الحاكم في مثل هذه الظروف ولم ينظر إلى أن هذا عدو له وأن عنده ثأراً له، أو أنه كان في يوم من الأيام يشمت بقتل أبيه، وفعلاً وفر الإمام عليه السلام الحماية لعائلة مروان بل إنه أرسل ابنه عبد الله ليقف على بيت زوجته عاتكة ليحرسها ويرعاها، ثم بعد ذلك أمره أن يوصلها إلى أهلها.

الحادثة الثالثة: موقفه عليه السلام مع محمد بن أُسامة بن زيد

فقد دخل عليه السلام في يوم من الأيّام على محمد بن أُسامة بن زيد يعوده فسمعه يقول: وا غمّاه. قال: **«ما غمك؟»**. قال: دَيني. فسأله الإمام عليه السلام: **«كم هو؟»**. قال: ستون ألفاً. قال الإمام عليه السلام: **«هي عليّ»**. وكان الإمام قد باع ضيعة كانت عنده، فلم يقم من مجلسه حتى قضى عنه دَينه[2].

الحادثة الرابعة: موقفه عليه السلام من إسماعيل الأموي

وإسماعيل هذا هو إسماعيل بن هشام المخزومي، وكان عامل عبد الملك بن مروان على المدينة، لكنه كان يسيء لأهل البيت عليهم السلام عامّة، وخصوصاً للإمام

---

(١) شرح الأخبار ٣: ١٦١، مثير الأحزان: ٧٥، شرح نهج البلاغة ٤: ٧١، ترجمة الإمام الحسين عليه السلام (ابن عساكر): ٣٣٩.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٢١، بحار الأنوار ٤٤: ١٨٩، وقد ذكرنا فيما سبق أنها جرت بين الإمام الحسين عليه السلام وأُسامة أبيه.

السجاد عليه السلام، وكان يكنّ له بغضاً شديداً، وكان إذا مرّ به الإمام عليه السلام يشتمه ويشتم آباءه عليهم السلام. وبقي عاملاً إلى زمن الوليد الذي عزله. وكان من عادة الأُمويين أنهم إذا أرادوا عزل والٍ وأرادوا أن ينكّلوا به أوقفوه يشهّرون به بين الناس، فيمرّ به الناس ويطالبونه بالسجلّات والأموال، ويتّهمونه بكلّ ما يريدون. فكان أن أُوقف في الشمس عارياً، وأخذ الناس يطالبونه بالأموال، فجمع الإمام كلّ أصحابه وأهل بيته وقال لهم: **«لا تتعرّضوا لهذا الرجل بسوء أبداً»**. فقال أحد أولاد الإمام عليه السلام: يا أبه، نحن ننتظر منه مثل هذا اليوم. فقال الإمام عليه السلام: **«كِله إلى الله»**. وطلب منهم أنهم إذا مرّ به أحد منهم فلا يبدِ على وجهه أي امتعاض.

ثم مرّ الإمام عليه السلام قربه فهمس في أُذنه قائلاً: **«انظر إلىٰ ما أعجزك من مال تؤخذ به فعندنا ما يسعك، فطب نفساً منا ومن كلّ من يطيعنا»**. وأرسل له الإمام كلّ ما يحتاج إليه، فكان يقول بعد ذلك: **﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾**[1]، وكان أن ترك النصب له عليه السلام[2].

فتأمل هذا النبل العظيم من الإمام عليه السلام وهو نبل كان يعد سمةً واضحةً من سماته الكثيرة الحميدة.

الصفة الثانية: الخلق العالي

وحينما نستعرض بعض الوقائع في حياة الإمام عليه السلام فإننا نجد أنها مطبوعة بطابع الخلق الكريم العالي ومن ذلك أنه عليه السلام كما يروي المؤرخون عنه ضرب غلاماً له ضربة واحدة بسوط، وكان بعثه في حاجة فأبطأ عليه، فبكى الغلام وقال: الله! تبعثني في حاجتك، ثم تضربني. فبكى عليه السلام وقال: **«يا بني، اذهب إلى قبر رسول**

---

(١) الأنعام: ١٢٤.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠١، بحار الأنوار ٤٦: ٥٥، تاريخ الطبري ٥: ٢١٧.

الله ﷺ، فصلِّ ركعتين وقل: **اللهم اغفر لعلي بن الحسين خطيئته**». ثم قال عليه السلام للغلام: «**اذهب فأنت حر**»[١].

وقد حجّ عليه السلام على ناقة له (٢٥) حجّة ما قرعها بسوط، وكان يرفع السوط فيقول: «**آه، لولا القصاص**». ويردّ يده عنها[٢].

والذي يبدو من هذه الرواية أن القصاص لا يقتصر على الإنسان، بل إنه يمتدّ إلى الحيوانات أيضاً، فكلّ كبد رطبة لها وزنها عند الله جلّ وعلا. وفي هذه الرواية إذ يمسك الإمام عليه السلام سوطه ثم يمتنع عن قرع ناقته رسالة إلى السياط التي تتوالى على متون الأحرار بألوان التعذيب والاعتداء الذي يتعرّض له المؤمنون والأحرار وهو يصعد إلى السماء في عهد جبابرة هذا الزمن. فالسوط الذي يقول: إن هذه المقرعة لا يمكن أن تنال من الناقة التي تتلكأ عن مشيها يبعث رسالة إلى هؤلاء، وأي رسالة أعظم وأبلغ منها.. رسالة تنضح بالنبل والشعور بالمسؤولية والاتّسام بالخلق العالي.

وهكذا كان الإمام عليه السلام حتى بالنسبة إلى ألدّ أعدائه، بل حتى إلى الحيوانات التي لا تعي ولا تعقل، وقف عليه أحد أبناء عمومته يوماً، فشتمه وأبلغ في شتمه، ثم مضى إلى بيته، فقال الإمام عليه السلام: «**قوموا بنا إليه**». ثم شقّ طريقه إلى بيته، وهم

---

(١) وسائل الشيعة ٢٢: ٤٠١ / ٢٨٨٩٢. وهذا ليس بغريب عن خلق أهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة ومهبط الوحي والتنزيل؛ ففي (مشكاة الأنوار) أن أمير المؤمنين عليه السلام بعث غلاماً له في حاجة فأبطأ عليه، فلمّا جاءه قال: «اسعَ». فسعى، ثم أقبل، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «ما أرى إلّا وقد أشفقت عليك، فاذهب فأنت حر». مشكاة الأنوار: ٣١٣.
وفي (الكافي) أن الإمام الصادق عليه السلام بعث غلاماً له في حاجة، فأبطأ عليه، فخرج عليه السلام على أثره، فوجده نائماً، فجلس عند رأسه يروّحه حتى انتبه، فلما تنبّه قال عليه السلام له: «يا فلان والله ما ذلك لك، تنام الليل والنهار؟ لك الليل ولنا منك النهار». الكافي ٢: ١١٢ / ٧.

(٢) روضة الواعظين: ١٩٩، الإرشاد ٢: ١٤٤، دلائل الإمامة: ١٩٦.

يظنّون أنه يريد أن يقابله بالمثل، حتى إذا وقف على باب البيت وطرقه، خرج إليه ابن عمّه متوثّباً للشرّ والردّ على الإمام عليه السلام، فقال له الإمام عليه السلام: **«إنك وقفت علي آنفاً وقلت الذي قلت؛ فإن كان الذي قلته فيّ فغفر الله لي، وإن لم يكن فيّ فغفر الله لك»**. فقال: سيدي، بل هو فيَّ والله وليس فيك. ثم انحنى على رجليه يقبّلهما وهو يقول: **﴿اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾** ثم اعتذر منه[١].

ويمرّ عليه السلام وهو يقرأ **﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾**[٢]. وهل هذا إلّا أدب القرآن، وخلق الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، بل أدب الله جلّ وعلا؟

الصفة الثالثة: الكرم

وكان الناس يظنّون به البخل؛ لأنه عليه السلام لم يكن يتصدّق نهاراً، مع أنه عليه السلام كان يباري السحابة المرسلة، يقول محمد بن طلحة: قال أبو حمزة الثمالي: كان زين العابدين عليه السلام يحمل جراب الخبز على ظهره بالليل، فيتصدّق به، ويقول: **«إن صدقة السرّ تطفئ غضب الربّ»**[٣].

ولما مات عليه السلام وغسّلوه جعلوا ينظرون إلى آثار في ظهره، فقالوا ما هذا؟ قيل: كان يحمل جُرُب الدقيق على ظهره ليلاً ويوصلها إلى فقراء المدينة سرّاً. وقال ابن عائشة: سمعت أهل المدينة يقولون: ما فقدنا صدقة السرّ حتى مات علي بن الحسين[٤].

فهؤلاء كانوا يظنون أنه عليه السلام يبخل؛ لأنه لا يتصدّق جهراً، وهم لهم الظاهر،

---

(١) تهذيب الكمال ٢٠: ٣٩٧، سير أعلام النبلاء ٤: ٣٩٧.

(٢) فصلت: ٣٤.

(٣) بحار الأنوار ٤٦: ٧٧/٨٨.

(٤) مطالب السؤول: ٤١٥.

لكنهم لم يعرفوا هذه الظاهرة من الكرم التي عنده ﷺ إلّا بعد أن مات. فهؤلاء حينما مات الإمام ﷺ عرفوا أنه هو الذي كان يعطيهم؛ ولذا فإنه (صلوات الله عليه) كان يقول: «**إن صدقة السرّ تطفئ غضب الربّ**».

الصفة الرابعة: العبادة

لقد قسم (سلام الله عليه) ليله إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: المناجاة

فقد ترك لنا (سلام الله عليه) هذا الأثر الضخم المسمى (الصحيفة السجادية) وهي ما يطلق عليها (إنجيل آل محمد) أو (زبور آل محمد) وهي الصحيفة المفخرة التي أرى أن على كل شيعي ينتمي إلى أهل البيت ﷺ أن يقتني نسخة منها ليناجي الله جل وعلا بها، ويدعوه بما ورد فيها؛ ففيها يجد الداعي والمناجي ضالّته وبغيته، وفيها يجد الإنسان المواقف الرائعة. إن عظمة هذه الصحيفة نجمت عن عظمة الموقف الذي ولدت فيه، لقد ولدت في جوف الليل والناس نيام حيث يرفع الإمام ﷺ رأسه إلى السماء ويقول: «**وما أنا يا ربّ؟ وما خطري؟ هبني بفضلك، وتصدّق علي بعفوك... فوعزّتك يا سيّدي لو انتهرتني ما برحت من بابك، ولا كففت عن تملّقك؛ لِما انتهى إليّ من المعرفة بجودك وكرمك، وأنت الفاعل لما تشاء، تعذّب من تشاء بما تشاء كيف تشاء، وترحم من تشاء بما تشاء كيف تشاء، ولا تسأل عن فعلك، ولا تنازع في ملكك، ولا تشارك في أمرك، ولا تضادّ في حكمك، ولا يعترض عليك أحد في تدبيرك. لك الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين. يا رب هذا مقام من لاذ بك، واستجار بكرمك، وأَلِف إحسانك ونعمك، وأنت الجواد الذي لا يضيق عفوك، ولا ينقص فضلك، ولا تقل رحمتك. فوعزّتك**

لو انتهرتني ما برحت عن بابك، ولا كففت عن تملّقك، لِما أُلهم قلبي من المعرفة بكرمك، وسعة رحمتك. إلى من يذهب العبد إلّا إلى مولاه؟ وإلى من يلتجئ المخلوق إلّا إلى خالقه؟»[1].

ويقول عليه السلام في مناجاة أُخرى له: **«يا من قصده الضالّون فأصابوه مرشداً، وأمّه الخائفون فوجدوه معقلاً، ولجأ إليه العائذون فوجدوه موئلاً. متى راحة من نصب لغيرك بدنه؟ ومتى فرح من قصد سواك بهمّته؟ إلهي قد انقشع الظلام ولم أقضِ من خدمتك وطراً، ولا من حياض مناجاتك صدرَاً، صلِّ على محمد وآل محمّد، وافعل بي أولى الأمرين بك»**[2].

ويستمر (سلام الله عليه) في هذه اللون من المناجاة، وبهذا النمط من الدعاء والتسبيح والانصهار في بوتقة الله جلّ وعلا، وهو نمط من العبادة لا يمكن أن يجده الإنسان إلّا عند رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وعند أمير المؤمنين عليه السلام، وعند آل علي ابن أبي طالب عليهم السلام. إنها حقّاً نسيج رائع مشرق.

القسم الثاني: البكاء والتوسّل

فهذا القسم هو عبارة عن مستدر للدمع عنده (سلام الله عليه) يقول عنه أحد المؤرخين: كان يصلي إلى أن يصل إلى درجة أنه إذا أراد الذهاب إلى فراشه يزحف زحفاً على يديه ورجليه[3].

---

(١) الصحيفة السجادية: ١١٦/٢٢٥.

(٢) الخرائج والجرائح ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦ / ٩، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٨٤، بحار الأنوار ٤٦: ٤٠، ٨٤: ٢٣١.

(٣) لم نعثر عليه بهذه الصورة، والذي ورد فيه عليه السلام أنه كان يصلّي في كل يوم وليلة ألف ركعة، وتهيج الريح فيسقط مغشياً عليه. شرح نهج البلاغة ١٥: ٢٣٤، تاريخ مدينة دمشق ٣٥: ٤٢، ٤١: ٧٨، ٤٥: ١٨١، تهذيب الكمال ٢٠: ٣٩٠، سير أعلام النبلاء ٤: ٣٩٢، تهذيب

القسم الثالث: مساعدة الفقراء والمحتاجين

فقد كان عليه السلام يحمل على ظهره جراباً فيه دنانير ودراهم ودقيق أحياناً ويأتي إلى الأبواب يطرقها ليلاً ليعطي أصحابها ما يقيمون به أودهم، وقد لا يكتفي بهذا المقدار بل يتجاوزه إلى أن يدخل معهم إلى بيوتهم سيما كبار السن الذين لا يقوون على الحركة فيستقي لهم. وقد اشتهر عنه عليه السلام هذا وأنه كان يستقي لضعفة جيرانه، ممن لا يمتلك القدرة على أن يقف على البئر ويمتح منه الماء بيده الكريمة، فكان يرفع الماء لهم ويحمله على ظهره، حتى حصل في ظهره الشريف مجل. وقد سئل الإمام الباقر: لماذا كان على ظهر أبيك مجل؟ فقال عليه السلام: **«إنه كان يستقي لضعفة جيرانه بالليل»**[1].

أما عند الصباح فإنه عليه السلام كان يتجه إلى كل فعل فيه مجد، سواء كان اجتماعيّاً أو اقتصاديّاً أو غيرهما. وكان من عادته عليه السلام أنه إذا أراد أن يخرج في سفر له مع قافلة اعتزل الناس وكتم نسبه عنهم فقيل له ـ وقد كان بيّن الفضل ـ: ما بالك إذا سافرت كتمت نسبك عن أهل الرفقة؟ فقال عليه السلام: **«أكره أن آخذ برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما لا أُعطي مثله»**[2].

ويروى عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: **«إن أبي خرج إلى مال له، ومعنا ناس من مواليه وغيرهم، فوُضعت المائدة ليتغدى، وجاء ظبي وكان منه قريباً، فقال له: يا ظبي، أنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وأُمّي فاطمة بنت رسول**

☚ التهذيب ٧: ٢٦٩، مطالب السؤول: ٤٢٠، وهو موجود في تذكرة الخواصّ: ٣٢٦، صفة الصفوة ٢: ١٠٠، تذكرة الحفّاظ ١: ٧٥، وغيرها كثير.

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٤.

(٢) دلائل الإمامة: ١٩٦، مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٠، وفيات الأعيان ٣: ٢٧١، خزانة الأدب ٤: ٢٠٨.

الله صلى الله عليه وآله وسلم ، هلمّ إلى هذا الغداء . فجاء الظبي حتى أكل معهم ما شاء الله أن يأكل ، ثم تنحّى الظبي ، فقال بعض غلمانه : ردّه علينا . فقال لهم : لا تخفروا ذمّتي؟ قالوا : لا . فقال له : يا ظبي ، أنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام ، وأُمّي فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، هلمّ إلى هذا الغداء وأنت آمن في ذمّتي .

فجاء الظبي حتى قام على المائدة ، فأكل معهم ، فأخذ رجل كان يأكل معه حصاة فقذف بها ظهره ، فنفر الظبي ، فقال علي بن الحسين عليه السلام : أخفرت ذمتي؟ لا كلمتك كلمة أبداً » [١].

فالإمام عليه السلام هنا يرتقي بمراتب الرأفة والشفقة إلى أن يصل إلى درجة من الرأفة على الحيوان أنه لا يكلم رجلاً بسبب غزالة . وهذا المعنى كان موجوداً عند العرب الذين ذكرت أكثر من مرة في محاضراتي السابقة موقفهم من حماية الحيوان والرفق به [٢]. وهكذا نجد أن الإمام عليه السلام كان يرعى حتى الأمجاد التي تبانى عليها العرف ، والعادة عند الناس ، فكان يرعاها مروءةً وخلقاً .

وبهذا فإننا نرى أن من يفعل هذا الفعل مع الحيوان لا يمكن في أي حال من الأحوال أن يترك جاره؛ ولذا فإنه عليه السلام كان إذا جن عليه الليل يشرف على القدور ثم يقول : **«ابعثوا لآل فلان ، واغرفوا لآل فلان ، واعطوا آل فلان»** [٣].

البعد الرابع: من حكمه عليه السلام

وهكذا نجد هنا أن الإمام عليه السلام يحاول أن يشبع عند الإنسان احتياجاته كافّة ؛

---

(١) كشف الغمة ٢ : ٣٢٠ ـ ٣٢١ ، بحار الأنوار ٤٦ : ٤٣ ـ ٤٤ / ٤٢ .

(٢) كما في قصّة مجير الجراد ، انظر الكنى والألقاب ٣ : ١٥٢ . وكما كان من أمر عدي بن حاتم الذي كان إذا رأىٰ قرية من النمل رجع وفتَّ لها الخبز ولا يترك النمل جياعاً ويقول : هؤلاء جيراني ، انظر بحار الأنوار ٦١ : ٢٤٢، تاريخ مدينة دمشق ٤٠ : ٨٨ ، ٨٩ .

(٣) المحاسن ٢ : ٣٩٦ / ٦٧ ، بحار الأنوار ٩٣ : ٣١٧ / ٦ .

فهو يملأ البطون طعاماً، ولا يغيب عن ذهنه الشريف أن يملأ الرؤوس وعياً والأذهان أخلاقاً. فكان كلّ كلامه حكماً، وهنا نذكر من حكمه:

الأولى: لقد كان﵇ طالما يردّد: **«عجبت لمن يحتمي من الطعام لمضرّته، ولا يحتمي من الذنب لمعرّته»** [1].

فالذنب حقّاً عار؛ لأن الله جل وعلا لم يسمِّ شيئاً ذنباً ما لم يكن به عار؛ وبهذا فإن الزنا عار، والقتل عار، والاعتداء على حقوق الآخرين وحرياتهم عار. وهو﵇ بهذا الحديث يريد أن يقول: إني أعجب من الناس الذين يتورّعون عن طعام خاصٍّ؛ لكيلا يؤذي أجسادهم، ولا يبتعدون عن الذنب الذي يؤذي أرواحهم وعقولهم وأخلاقهم وقيمهم. وهذه حكمة عالية إذا سمعها الإنسان لا يمكن له إلّا أن يمجدها.. حكمة منتزعة من صميم الواقع يعجز الإنسان عن ألّا ينحني إجلالاً لها، أو أن يسجد في محرابها إكباراً لها.

الثانية: **«إذا قنعت من الله بالرزق القليل، قنع الله منك بالعمل القليل»**.

الثالثة: **«فقد الأحبّة غربة»** [2].

وهكذا نجد إن الشخص الذي يعيش مع جماعة ويؤنس بهم، ثم يجد نفسه بعد ذلك وحيداً بعد أن ابتعد عنهم فإن الحياة تصبح في نظره فراغاً قاتلاً، وسأماً ومللاً. وقد مرّ بنا كيف أن الإمام أمير المؤمنين﵇ كان يخرج إلى الجبّانة من ظهر النجف، ويقف على القبور وينكت الأرض بإصبعه، وهو يناجي أحبّاءه الذين

---

(١) كشف الغمّة ٢: ٣١٩، الفصول المهمّة ٢: ٨٥٩ ـ ٨٦٠، نزهة الناظر وتنبيه الخاطر: ٩٠ / ٩.

(٢) بحار الأنوار ٧٥: ١٥٨، سير أعلام النبلاء ٤: ٣٩٦، البداية والنهاية ٩: ١٣٣، ورويت هذه الحكمة عن أمير المؤمنين﵇، انظر: نهج البلاغة / الحكمة: ٦٥، عيون الحكم والمواعظ: ٣٥٨.

أصبحوا تراباً بعد أن أخذتهم الأرض(١):

إن قـــبرَ الحـــبيبِ دارٌ وداراً ... ليس فـيها الحـبيبُ قبرٌ كئيبُ

البعد الخامس: الحزن في حياة الإمام عليه السلام

ومن خلال هذه المقتطفات نجد أن حياة الإمام عليه السلام كانت منجماً غنياً للحِكم والمواعظ، ومقلعاً ضخماً مملوء عطاءً في مختلف أبعادها، لكن دعنا نرَ كيف أن هذه الحياة كانت فيها مساحة كبيرة للحزن والأسى واللوعة. إن مجموع عمر الإمام عليه السلام كان سبعة وخمسين سنة قضى منها ثلاثاً وعشرين سنة مع أبيه عليه السلام، والمتبقي منها ـ وهو البالغ أربعاً وثلاثين سنة ـ قضاها بعد استشهاد أبيه عليه السلام. وهذه السنوات الثلاثون والأربع كما رأينا وكما نعرف قد استهلكها عليه السلام في مختلف الجوانب الإيجابية التي تشيد الأمجاد لصاحبها، وهو ما رأيناه من خلال المباحث السابقة، لكن إضافة إلى كل ذلك، وإضافة إلى كلّ ما قام به عليه السلام من أعمال تؤدي إلى تشييد ذلك المجد الأثيل نجد في نفسه الشريفة وعلى ملامح وجهه الكريم مسحة من الحزن والكآبة تغطي نور تلك الإشراقة كلما تذكّر واقعة الطف وكلّما تذكّر مصيبة أبيه وسبي عمته وحرائر البيت النبوي. لقد كانت الأحداث التي مرت به عليه السلام لا يمكن أن تنسى بأي حال من الأحوال، يقول المنهال: حججت سنة، فلمّا

---

(١) وكان عليه السلام ينشد ويقول:

وفـــي الصَّـــدرِ لُـــباناتٌ ... إذا ضـــاق بـــها صـــدري
نكتُّ الأرضَ بـــالكفِّ ... وأبـــديتُ لهـــا سِـــرِّي
فـــمهما تُـــنبِتُ الأرضُ ... فـــذاك النَـــبتُ مـــن بَـــذري

فضل الكوفة ومساجدها (المشهدي): ٦٥، بحار الأنوار ٤: ٢٠٠، ٩٧، ٩: ٤٥٢.

كما أنه عليه السلام كان يصعد على المنبر فيقول: «أين إخواني الذي ركبوا الطريق ومضوا علىٰ الحق؟ أين عمار؟ وأين ابن التيهان؟ وأين ذو الشهادتين؟... أوّه علىٰ إخواني الذي تلوا القرآن فأحكموه». نهج البلاغة / الخطبة: ١٨٢.

فرغت من الحجّ مررت بالمدينة لأزور سيّدي ومولاي عليّ بن الحسين عليه السلام، فلمّا دخلت عليه سلّمت، فردّ عليّ السلام، وقال: **«يا منهال، ما فعل حرملة بن كاهل الأسدي؟»**.

والذي يبدو أن هذا قد ملأ قلب الإمام عليه السلام ألماً ولوعة بحكم أنه عليه السلام كان على تماسّ بالواقعة؛ فقد رأى الطفل يتلوّى على يد والده عليه السلام وقد عاد به، والدماء تغرقه، وقد ملأت كفّ أبيه عليه السلام ثم رمى به إلى السماء، ورأى السهم وقد أخذ مأخذه من هذا الطفل الرضيع وقد حزّ جيده من الوريد إلى الوريد.

يقول المنهال: فقلت له: يا مولاي تركته حيّاً بالكوفة. فرفع يده إلىٰ السماء، وقال: **«اللهم أذقه حرّ الحديد، اللهم أذقه حرّ الحديد، اللهم أذقه حرّ النار»**.

يقول المنهال: وقد بقيت عند الإمام عليه السلام فترة ثمّ رجعت أهلي، فلمّا دخلت الكوفة، سمعت جلبة، فسألت عنها، فقيل: هذا المختار قد ظهر، وقتل من قتل، وهذا موكبه. وكان بيني وبينه صداقة، فلمّا استرحت من سفري، وانقطع الناس عنّي ركبت وخرجت في طلبه، فلقيته خارجاً من باب داره، فسلمت عليه، فردّ عليّ السلام، وقال لي: يا منهال ما أتيتنا، ولا هنّأتنا بما فتح الله علىٰ أيدينا، ونصرنا علىٰ أعداء الله وأعداء رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيت رسوله عليهم السلام! فقلت: يا مولاي إني كنت بمكّة، وقد جئت الآن.

ثم سايرته حتّىٰ أتينا كناسة، فوقف كأنه ينتظر شيئاً، وكان واشٍ قد أخبر بحرملة؛ فبعث قوماً يفتّشون عنه، فلم تكن إلّا ساعة حتّىٰ جاء القوم يركضون، ويقولون: يا أمير، البشارة، فقد جئنا بحرملة.

فلمّا أُحضر بين يديه مكتوفاً، نظر إليه، وقال: الحمد لله الّذي مكّنني منك يا عدوّ الله. ثمّ قال: أين الجزّار؟ فجيء به إليه، فقال له: اقطع يديه ورجليه. فقطعها وهو يستغيث، ثمّ قال: عليّ بالنار. فأُحضرت بين يديه، فأخذ قضيباً من حديد،

وجعله في النار حتّىٰ احمرّ، فوضعه علىٰ رقبته، فصارت رقبته تجوش من النار، وهو يستغيث حتّىٰ قطعت النار رقبته.

قال المنهال: فعند ذلك قلت: سبحان الله. فقال المختار: التسبيح حسن في كلّ حال، ولكن فيم سبّحت؟ فقلت: أيها الأمير، دخلت في سفرتي هذه عند منصرفي من مكّة على علي بن الحسين عليهما السلام فقال لي: **«يا منهال، ما فعل حرملة بن كاهل الأسدي؟»**. فقلت: تركته حياً بالكوفة؟ فرفع يديه جميعاً فقال: **«اللهم أذقه حرّ الحديد، اللهم أذقه حرّ الحديد، اللهم أذقه حرّ النار»**

فقال: بالله عليك، سمعته يقول هذا؟ فقلت: نعم والله. فنزل من دابّته، وصلّىٰ ركعتين ثمّ حَمِدَ الله كثيراً، ثمّ ركب وسرنا راجعين، فلمّا قربنا من داري، قلت: يا أمير أُحبّ أن تشرّفني، وتكرمني وتتملّح بطعامي. فقال: يا منهال، أنت تعرف أن مولاي دعا بدعوات، وقد استجابها الله علىٰ يدي، ثمّ تأمرني أن آكل وأشرب؟ لا والله، بل أصوم هذا اليوم؛ شكراً لله علىٰ توفيقه [1].

ومن هذا نعرف أن أشباح معركة الطف كانت تلاحق الإمام عليه السلام في كل لحظة من لحظات حياته، يدخل عليه أبو حمزة الثمالي فيجده علىٰ تلك الحالة فيقول له: سيدي، أما آن لحزنك أن ينقضي! أما آن لبكائك أن ينقطع؟ القتل لكم عادة، وكرامتكم من اللّه الشهادة، مَن مِن آبائك عليهم السلام مات حتف أنفه؟ فقال عليه السلام: **«شكر اللّه سعيك يا أبا حمزة، ولكن ما رنعت عيناي علىٰ عماتي وأخواتي إلّا وذكرت فرارهن يوم عاشوراء من خيمة، إلىٰ خيمة، ومن خباء إلىٰ خباء والمنادي ينادي: أحرقوا بيوت الظالمين»**.

---

(١) الأمالي: ٢٣٩ / ٤٢٣، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٧٦، كشف الغمّة ٢: ٣٢٤، ذوب النضار: ١٢١.

أما الشيء الثاني الذي كان يؤرقه وكان يزيد من مساحة مسحة الحزن تلك فهو أنه إذا جيء له بماء فوضع بين يديه نظر إليه وأطال النظر ثم قال: «**أأشرب وابن رسول الله مات ظمآناً؟ أأشرب وابن رسول الله مات عطشاناً؟**».

وكان إذا قصد النجف وقف على الفرات وخاطبه بقوله: «**إلى الآن تجري يا فرات وقد قتل عندك ابن بنت رسول الله ظمآناً؟ إلى الآن تجري يا فرات وقد سقط آل رسول الله إلى جانبك؟**».

وهنا يمر على محاريب آبائه.. على دار أبيه الحسين﵇ ودور أعمامه من آل عقيل فيقول: «**إذا مررت على دور آل عقيل خنقتني العبرة؛ لأني أراها خالية ليس فيها إلّا أرامل ويتامى**»[1]:

قفا نسألِ الدارَ التي بادَ أهلُها	متى عهدُها بالصَّومِ والصَّلواتِ
وأينَ الأُلى شَطَّت بهم غُربَةُ النَّوى	أفانينَ بالآفاقِ مُفترِقاتِ
ديارُ عليٍّ والحسينِ وجعفرٍ	وحمزةَ والسجادِ ذي الثَّفَنَاتِ[2]

* * *

وحكّك لو چهبت الدار	ألاگيها بدمع سچابْ
أشوف ارسومكم بيها	واشتم ريحة الأحبابْ
واتذكر ثناياكم	واتكوّم اگبال البابْ

* * *

(١) لم نعثر على الحديث الشريف بنصه، لكن هناك حديث قريب منه في كامل الزيارات (ابن قولويه): ٢١٣ / ٣٠٦.

(٢) ديوان دعبل: ٥٩.

﴿٢٠٧﴾

فقه الأُسرة في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ* فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: بناء الأسرة النظيفة

إن هذه السلسلة الشريفة، والعالية المضامين من الآيات الكريمة تعتبر من الآيات التي تدور في فلك فقه الأُسرة؛ لأنها تعالج موضوعاً من أخطر المواضيع وأهمّها؛ لما لها من مدخلية في تحقيق الاستقرار الأُسروي والأمن الأُسروي داخل المجتمع، بناء على الرغبة الأكيدة والجهود الحثيثة التي يبذلها الإسلام من أجل بناء الأُسرة بناء قويّاً متيناً. إننا نعرف أن الأُسرة الكريمة النظيفة التي يريدها الإسلام هي دون غيرها اللبنة القوية والأساس في بناء المجتمع؛ لأنه ليس من المعقول أن يعمد إنسان يريد أن يبني بيتاً إلى وضع طابوق منخور أو متحاتّ في

---

(١) المؤمنون: ٥ ـ ٧.

أساس البيت هذا؛ لأن هذا يعني أن البيت كله سيتهاوى وسينهار دون أن يصمد أمام ثقله، وأمام تقلبات الزمن.

فالمجتمع هو البيت، وكل شخص من أفراده لبنة تمده بطاقته التي تحافظ على وجوده؛ فإن كانت اللبنة صالحةً كان المجتمع صالحاً والعكس صحيح كذلك.

وموضوع الأُسرة يعد موضوعاً خطراً، وهذا الجانب الذي تكلّمنا عنه آنفاً هو أخطر جوانبه، وهو الجانب الذي يتعلّق وجوده بوجود الزواج، أو ما يسمى بالعلاقات الجنسية بين الأفراد داخل المجتمع. إن هناك جوانب مهمة في الأُسرة التي ربما يصيبها الفقر أو ربما يصيبها المرض أو يصيبها أحد عوارض الدنيا، لكن ليس في كلّ هذا عيب؛ ذلك أن الله جلّ وعلا لعلّه يحدث بعد ذلك أمراً، فيغير الحال التي كانت عليها هذه الأُسرة إلى حال أفضل، وإلى مستوى معيشي أرقى وأسلم [1].

إذن فالفقر يمكن أن يزول، والمرض لا يمكن أن يستمرّ إلى نهاية الحياة إلّا ما شاء الله تعالى، فكل عوارض الدنيا لا يمكن أن تبقى إلى نهاية الحياة. بل حتى تلك المصائب المتمثلة بفقد عزيز فإنها يمكن أن تنسى مع مرور الزمن؛ فالوقت كفيل أن يمحو آثار تلك المصيبة وأن يحدث أُموراً أُخرى عند الإنسان تسلّيه وتنسيه وتصرف تفكيره إلى الأُمور الأُخرى في حياته، أو إلى أُمور غير تلك التي سببت له تلك المصيبة أو هذا الحزن، وما إلى ذلك. لكن المصيبة والكارثة التي يمكن أن تلحق المجتمع، والمرض الذي لا يمكن أن يكون له علاج، والعيب الذي لا يمكن أن يسدّه شيء هو الخلل الذي يلحق العلاقات الجنسية التي تربط بين أفراد المجتمع؛ فإنها إذا انحرفت انهدمت الأُسرة؛ وحينئذٍ سينهدم كلّ شيء،

---

(١) قال تعالى: ﴿لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً﴾ الطلاق: ١.

وستتلاشى كلّ القيم والاعتبارات الأخلاقيّة، وكل المفاهيم السماويّة البنّاءة والضرورية لقيام المجتمع الصالح الذي ينشده الإسلام.

ولذا فإننا حينما نلتفت إلى التعبير القرآني الذي يقول: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ﴾، فإننا نلاحظ أن العقاب مشدّد وكبير. وهناك فرق كبير بين فقهاء الشريعة وفقهاء القانون في معالجة هذه القضية، ذلك أن معالجة فقهاء القانون لها يمكن أن نسميها معالجة منحلة.. معالجة تسبب الكثير من المآسي والكوارث؛ لأن الفقه القانوني يقرر أنه إذا ارتكب أحد الزوجين خطيئة برضا الطرف الثاني فإنها حينئذٍ لا تعتبر جريمة إلّا إذا حدثت من غير رضا أحد الطرفين المذكورين، ومن غير اختياره وعلمه؛ لأنه حينئذٍ يطلق عليها لفظة خيانة، أما إذا كان هناك علم من أحد الزوجين، واختيار منه فإن الفقه القانوني الوضعي ينزلها منزلة الفعل غير القبيح، ولا يتعامل معها على أنها جريمة، أو فاحشة.

وبطبيعة الحال فإن مثل هذه الأفكار أو النظريات الهدامة لا يمكن أن تستكثر على تلك القوانين التي تضفي صفة المشروعية على العلاقة بين الجنسين المتماثلين، كالعلاقات القائمة بين ذكر وذكر[1]. وهؤلاء الذين يقبعون خلف رغباتهم، ويصلون إلى درجة الانحلال بهذا المستوى من التشريع لا يمكن لنا أن نسميهم بشراً.

ونحن إذ نقرر هذا لا ننكر أن عندهم حضارة مادية، بل إن هذا التقرير لا

---

(١) سبق أن نوّهنا إلى أن الدانمارك تعدّ أول بلد في العالم يعترف بزواج المثليين، وذلك عام (١٩٨٩) م، كما أن البرلمان الأوروبي دعا في (٨ / ٢ / ١٩٩٥م) إلى منحهم الحقوق والواجبات التي يتمتّع بها الأزواج العاديّون. الإسلام والغرب: ٥٨.

يتنافى ووجود تلك الحضارة، لكن الإنسان الذي يصل إلى هذه الدرجة من الانحطاط لا يمكن أن يعتبر بشراً أو إنساناً؛ لأنه يعتنق فكراً هدّاماً للأخلاق، ويمارس علاقة موبوءة لا يمكن أن يمارسها أو أن ينزل إلى مستواها حتى الحيوانات التي تعد أدنى رتبة من الإنسان، في حين أن الإنسان يصل به الأمر إلى هذا المستوى المتسافل والواطئ من العلاقة التي تؤدي في نهاية الأمر إلى بناء مجتمع متهالك منخور.

ونحن طبعاً لا يهمنا هنا رأي الفقه القانوني؛ لأنه فقه يتوفر على الكثير من الثغرات الأخلاقية، والثغرات التي تتعلق بالحقوق وإغماطها وبالجوانب البعيدة عن النزعة البشريّة؛ لأنه قانون من وضع الإنسان ومن صنعه. ومن هو الإنسان؟ الإنسان هو ذلك الكيان المملوء حسداً وحقداً وبغضاء وأخطاء.. الإنسان الذي قد يصبح ملكاً وقد يصبح أخس من الحيوان[1].

وما دام الإنسان بهذه المكانة وبهذه النمطية، فكيف يمكن إذن أن نعطي تشريعاته قداسةً أو أهميةً أو اعتباراً؟ إن الحق هو أنه يجب ألّا يلتفت إلى تلك التشريعات أبداً[2].

وأنا أؤكد من هنا أن جميع التشريعات الإنسانية عبارة عن نقص، أي أنها ليست ناقصة فقط بل إنها هي النقص عينه، أما الله جل وعلا فهو رب الكمال

---

(١) فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «إن الله ركّب في الملك عقلاً بلا شهوة، وركّب في البهائم شهوة بلا عقل، وركّب في بني آدم كليهما؛ فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو شرّ من البهائم». علل الشرائع ١: ٤ ـ ٥ / ب٦ ح١.

(٢) وقد تكلّمنا عن أثر العامل الذاتي في عملية التشريع في الجزأين السابقين، انظر: ج ١٠ / محاضرة (مبدأ توظيف الأموال في الإسلام)، ج ١١ / محاضرة (أهداف البيعة في الإسلام).

واللطف والبراءة والنظافة؛ وحينما يكون جل وعلا كذلك فإن التشريعات السماوية قطعاً ستكون تشريعات ليس لها من مهمة إلّا أن تصوغ لنا المجتمع النظيف القائم على الأخلاق. ومن الواضح الذي لا يقبل جدالاً أو أخذاً ورداً فيه أن المجتمع إذا جُرد من الأخلاق لم يعد مجتمعاً بل إنه سوف يتحول إلى حظيرة للحيوانات، بل إن حظيرة الحيوانات تكون أفضل منه بكثير، كما نوّهنا [١]؛ ولذلك جاء العقاب في هذه الحالة صارماً جداً.

وفي نظر الفقه التشريعي الإلهي أن الإنسان إذا ارتكب هذه الخطيئة سواء كان بعلم الطرف الثاني أو بغير علمه فإنه يعدّ خاطئاً ومجرماً، ومتعدّياً على حدود الله جل وعلا التي نهى عن اقتحامها [٢]، وعلى حدود الإنسانية؛ ولذا فإن العقاب جاء شديداً جداً إلى درجة أنه يصل إلى القتل مع المحصن، وإلى الجلد مع غير المحصن لملاحظة هذه الخصوصية (الإحصان وعدمه).

وهذا العقاب يعتبر عقاب رادعاً؛ لأنه سوف يوقف هذه الحالات المرضية التي إن تركت فسوف تستشري داخل المجتمع وتتفشى فيه حتى تحيله إلى كتلة

---

(١) قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الأعراف: ١٧٩، وقال جلّ شأنه: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ الفرقان: ٤٤.

(٢) قال رسول الله ﷺ: «إن الله افترض عليكم فرائض فلا تضيّعوها، وحدّ لكم حدوداً فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تكلّفوها». سنن الدار قطني ٤: ٢٩٨، وفي كنز العمّال ١: ٣٨١ / ١٦٥٦ نحوه.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إن الله افترض عليكم فرائض فلا تضيّعوها، وحدَّ لكم حدوداً فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت لكم عن أشياء ولم يدعها نسياناً، فلا تتكلّفوها». نهج البلاغة / الحكمة: ١٠٥.

ورواهُ الصدوق رحمه الله وزاد عليه: ثم قال عليه السلام: «حلال بيِّن، وحرام بيِّن، وشبهات بين ذلك، فمن ترك ما اشتبه عليه من الإثم فهو لما استبان أترك. والمعاصي حمى الله عزّ وجلّ، فمن يرتع حولها يوشك أن يدخلها». الفقيه ٤: ٥٣ / ١٩٣.

موبوءة، وإلى بؤرة من الانحطاط والانهيار.

وبهذا الاعتبار فإن الله جلّ وعلا أمر بالزواج وبإحصان الفرج، فمن يتزوج ـ سواءً كان رجلاً أو امرأة ـ فإن الله جل وعلا يحصن فرجه بهذا الأمر وبهذا التشريع الذي وضعته السماء للحفاظ على الحياة. وعندما ينحرف أحد الطرفين فيعتدي على أعراض الآخرين، أو يسمح للآخرين بأن يعتدوا عليه، فإن هذا حتماً سيكون مكانه القبر وفقاً للتشريع الإلهي، فيرجم ويدفن لأنه عار يجب أن يتخلص المجتمع السليم منه، ولا يمكن أن نحافظ على سلامة العضو الذي أصابه داء السرطان، أو التسمم إلّا بقطع ذلك المقدار منه؛ كيلا يتسرب الورم الخبيث إلى باقي أجزاء العضو. وهذا ما يفعله العقاب الإلهي الذي يأمر بقطع دابر هذا المتمرد على الأحكام والقوانين السماوية والإنسانية، فيعمد إلى الاعتداء على أعراض الآخرين وهتكها، وحينئذٍ ـ إذ يقتل ويقبر ـ فإن المجتمع سوف يتخلص من هذا الوباء الذي يمكن أن يستشري داخله.

الآثار الوضعية للزنا

ثم إن الإنسان متى ما أشاع الفاحشة، فإنه سوف يتسبّب في أُمور كثيرة منها:

الأول: إضاعة الأنساب.

الثاني: زرع الشكّ في نفوس المجتمع كله حول أحقّيّة أيهم بهذا المولود.

الثالث: تحويل المجتمع إلى مؤسسة موبوءة أو مصدرة للوباء، تنعدم فيها القيم والأخلاق. وهذا بخلاف المفروض، وهو أن المجتمع يجب أن تحكمه الضوابط السماوية والأخلاقية.

إذن فإذا بدأ الإنسان بالتفكير بأن يعتدي على أعراض الناس ثم راح ينفذ هذا العزم ويفعل فعل الحيوان، فما الفرق بينه وبين الحيوان حينئذٍ؟ فالإنسان حينما

أباح الله تعالى له التصرف بالحيوانات عامة والاستفادة منها بشتى أنواع الاستفادة؛ فتارة من لحمها، وتارة من أصوافها، وتارة من ألبانها، وتارة من ظهورها، وتارة من حراستها، وما إلى ذلك فلأنه سيد الموجودات وأشرفها، لكن إذا وصل سيد الموجودات إلى هذه الحالة من التسافل والتداني والانحدار في مهاوي الرذيلة والخطيئة، فهل حينئذٍ يمكن أن نعتبره إنساناً؟ والجواب حتماً: أنه لا يمكن أن يعد كذلك؛ لأنه حينئذٍ سيكون أسوأ حالاً من الحيوان.

ومن هنا فإنني أُؤكد على أنه حتى لو لم ينزل تشريع من السماء بتحريم هذه الأُمور، فإن العقل يحكم بقبحها وحرمتها، سئل أحد الأعراب عن استجابته للإيمان بالدين بسرعة دون تروٍّ أو تفكير، فقيل له: لقد آمنت بالدين وقبلته بمجرد أن عُرض عليك دون تروٍّ، فما هو سبب ذلك؟ قال: لأن هذا الدين الذي جاء به النبي محمد ﷺ يتلاءم مع العقل والفطرة.

المبحث الثاني: معنى حفظ الفروج

تقول الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾، ويراد بهذا ألّا يعتدي أحد سواء كان ذكراً أو أنثى على الحدود التي حرم الله تعالى على الناس وعلى أعراضهم؛ مما يؤدي بالنتيجة إلى سلوك الطريق غير النظيف.

إذن على الإنسان أن يسلك الطريق النظيف، وأن يرتاد الأُسلوب الطاهر العفيف الذي شرعه الله جل وعلا؛ كي نصل إلى هدف السماء المنشود، وهو بناء المجتمع الصالح.

دور الآباء في تحقيق هدف السماء

وإننا إذ نقول هذا، فإنه لا يعني أننا نخلي طرف الآباء من مسؤولية تحقيق هذا

الهدف الذي ندبت إليه السماء؛ لأنهم (الآباء) جزء هامّ وضروري جدّاً من المعادلة التي تحقّق هذا الهدف. ودور الآباء يتمثّل بتسهيل الوصول إلى طرق العلاقات المشروعة، وعدم خلق العقبات والعثرات في طريق ذلك. فالمجتمع نفسه قادر على أن يقضي على أسباب الفساد الخلقي والانحراف في العلاقات الجنسية عن طريق مؤسسات ينشئها لتتعامل مع هذه المشكلة، ولتضع لها الحلول على ضوء القوانين والأسس والتشريعات السماوية التي أقرتها الأديان والتي جاء بها الأنبياء عليهم السلام مثلاً.

الإسلام يشجّع على تذليل العقبات

لقد شجّع الإسلام على ضرورة تذليل العقبات التي تعترض مسيرة الزواج كمشروع إلهي عبر عدّة طرق منها:

الأول: إقحام المؤسّسات في بناء العملية التربويّة

ومن الأدوار التي يجب أن تقوم بها هذه المؤسسات مثلاً: أن تعمد إلى مساعدة من ليس له مهر يدفعه إلى زوجته، أو تهيئة وحدات سكنية يلجأ إليها الشباب الممتنع عن الزواج نتيجة العقبة المالية. وليس في هذا من عيب مطلقاً؛ إذ أن المجتمع مثل الأُسرة الصغيرة فكما أنه لا عيب في أن يمدّ الولد يده إلى أبيه لو احتاج إلى شيء، أو أن يمدّ الأب يده إلى ولده إن كان مسنّاً لا يقوى على الكدح، فكذلك لا عيب في أن يمد أبناء المجتمع أيديهم إلى بعضهم البعض عندما يحتاج أحدهم وفيهم الغني الموسر الذي يتمكن من مساعدة الآخرين. فالناس جميعاً أُسرة واحدة يجمعهم دين واحد، ورب واحد، وكتاب واحد، وتشريع واحد. وبهذا فإنهم ينضوون داخل أسرة واحدة كبيرة يساعد غنيها فقيرها، ويعول

موسرها عائلها، ويعين ذو المال فيها المحتاج منهم.

وهذه المؤسسات وإن كانت تعمد إلى مساعدة هؤلاء وتوفير الأجواء المناسبة للزواج إلّا إنها يجب أن تلتفت إلى أن مهمتها خطرة وخطيرة جداً؛ لأنها مهمة تستوعب مفهوم نشر الأخلاق داخل المجتمع، وتؤدي وظائف عملية تقوم على أساس جوانب عدة تحتوي على كثير من المفاهيم والموارد التي تصب بالنتيجة في قناة مساعدة المحتاجين من شرائح المجتمع كافة، سيما أولئك لذين يعرضون عن الزواج نتيجة للحاجة والفاقة.

ولا يلزم في تلك المؤسسات أن تقدم منحاً أو هدايا، بل إن على المجتمع أن ينشئ مثل هذه المؤسسات حتى لو كانت بعنوان تقديم قروض مسترجعة على شكل أقساط مريحة لا تضرّ بالشخص المقترض، ولا تشكّل عامل ضغط مالي عليه، ولا تؤثّر على مستوى حياته. فهي بالنتيجة تساعد المجتمع وتساهم في حلّ هذه المشكلة المعضلة، وهي مشكلة الامتناع عن الزواج التي ربما تؤدي إلى ولوج طريق الخطيئة والانحراف، وبالتالي تلوّث المجتمع بداء الرذيلة.

فمثل هذه القروض سوف تساهم حتماً في عملية دفع الشباب إلى ولوج الطريق المشروع، على ألا تتّبع طرقاً تضيق عليهم في عملية استرجاع هذه المبالغ، بل إن عليها أن تتركها عندهم لحين قدرتهم على الوفاء بها، أو أن تسترجعها على شكل أقساط مريحة كما ذكرنا. ومن لم يستطع أن يحقق أحد هذين الأمرين فإن على هذه المؤسسات أن تعفي هذا الشخص من سداد هذه الديون أو هذه المبالغ؛ لأنه حينئذٍ يدخل في دائرة المحتاج الذي يجب أن يعطى من الحقوق التي فرضها الله جل وعلا له ولأمثاله في أموال الأغنياء، أو أن تحاول إعادة جدولتها على أقل التقادير.

الثاني: تذويب العقبات المصطنعة

وكذلك يمكن للمجتمع أن يسهم في حل هذه المشاكل عن طريق إيجاد غرفة عمليات إرشادية يكون دورها الأساس والرئيس تذويب العقبات وتذليل الصعوبات التي يصطنعها المجتمع عامة والآباء خاصة، والتي تحول بالنتيجة دون اقتراب الشباب من الخط الأحمر لمشروع الزواج. فأي عمل اجتماعي مهمّته تذويب الفوارق وتسهيل العلاقات المشروعة يعتبر من أقرب القربات إلى الله عزّ وجلّ.

إنني أقرأ أحياناً في بعض الصحف بعض ما يكتبه العقلاء فيشرحون مآسي بلدانهم وما فيها من مشاكل ومعوقات تحول دون مسيرتها نحو التقدم والازدهار وبناء المجتمع السليم، فأستشعر الألم يقضّ مضجعي ويعتصر ما بين أضلاعي؛ لأن المجتمع اليوم قد أصبح مليئاً بوسائل الاحتكاك كافّة، وإلى جانب هذا نجد هنالك في الطرف الآخر من المعادلة الحاجة الجسدية الملحّة عند الإنسان، فإذا لم نضع قواعد تمنع الانحراف فإن المجتمع سوف يتردّى وينحدر. وهنا أود أن أُلفت نظر المتلقي إلى أن البعض قد يقول: إن تطبيق أحكام الشريعة يتعذّر وجوده في هذه الأزمان، وإن القانون الوضعي هو الذي يطبّق. والحقيقة أن الدنيا كلها ما هي إلّا أيام معدودة [1]، ولذا فإنه ينبغي على العاقل استثمارها في فعل الخير، وطلب مرضاة الله تبارك وتعالى.

ونحن حينما ننتقل إلى الحياة الأبدية فإنما نقبل على حياة هي دار الحساب

---

(١) فهي القائلة على لسان أبي الفرج الساوي:

هي الدنيا تقول بملء فيها ... حذارِ حذارِ من بطشي وفتكي

فلا يغرركم حسن ابتسامي ... فقولي مضحك والفعل مبكي

يتيمة الدهر ٣: ٤٥٨ / ٣٢، مختصر المعاني: ٣١٦، شرح نهج البلاغة ٣: ٣٣٥.

والعقاب فإذا كانت الحياة الأبدية كذلك فإننا يجب ألّا تنسى أن البارئ جلّ وعلا يقول: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾[١]. وبهذا اللحاظ فإننا نجد أن الله تبارك وتعالى قد شرع القصاص لتأديب من يخرج على طاعته ومن يعصي أوامره ومن يتجرأ على تعدّي حدوده. والقصاص غير العقاب؛ فالقصاص في الحياة الدنيا، أما العقاب فهو في الحياة الآخرة، وهي الحياة الأبدية.. الحياة التي سيجد الزاني فيها طفلاً يتعلق بأذياله وهو يقول له: لماذا جعلتني سخريةً في المجتمع؟ ولماذا تركتني من غير أب في مجتمع يناديني: ابن زنا؟ أو أن تتعلّق بأذياله نطفة تقول له: لقد وُضعت فيك لتضعني في الطريق الحلال المشروع، فلماذا وضعتني في مجرى غير نظيف ومسلك غير طاهر؟

إذن فعقاب الله جل وعلا من وراء الإنسان، والمسألة ليست هينةً أبداً؛ ذلك أن عقاب الله شديد لا يقوى على احتماله أحد؛ فعلى الإنسان أن يتّعظ ويرتدع، وأن يرجع إلى الله تعالى.

المبحث الثالث: المورد المشروع للزواج

ثم انتقلت الآية الكريمة وقالت: ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾، وهنا يقول الفقهاء: إن الإنسان لا يحق له أن يقارب أحداً من النساء إلّا زوجته أو ملك يمينه كأن تكون سبية يحصل عليها من حرب، ثم يطأها بملك اليمين.

إشكال حول المتعة

ومن هنا فإن البعض يقول: إن الله جلّ وعلا قد حصر تحليل الوطء بما ذكره هذا المقطع الشريف من آية المقام الكريمة. وعليه فإن كل عقد أو كل وطء سواه

---

(١) الإسراء: ٣٢.

باطل، وبهذا فإن عقد المتعة الذي تنادون به أنتم الشيعة لا صحّة له؛ لأنه ليس بعقد للزواج المعروف، وليس هو بملك اليمين. وهذا يدل على أنه نكاح باطل، والمتولّد منه ابن ليس شرعياً. فالمتمتع بها ليست زوجةً معروفة، وليست موطوءة بملك يمين حتى يقال: إن هذا النكاح صحيح وجائز شرعاً، أو أن يقال: إن المتولد منه ابن شرعي.

حلّ الإشكال

والجواب هو أن نقول: إن لنا أن نسأل هنا سؤالاً هو: لماذا لا تعدّ المتمتّع بها زوجة؟ إنها زوجة شرعيّة؛ لأنها جاءت بعقد قد توفر على أركانه من الصيغة وذكر المهر بزيادة لفظ المدّة. وهذا الأمر قد يستهجنه البعض لكن هذا الزواج يبقى عقداً شرعياً؛ لأنه جاء عن طريق تشريع السماء. وأُحب أن أُنوّه إلى أنني أدافع عنه نظرياً لأنه عقد مشروع أما من الناحية التطبيقية فإنني لا أحبّذ هذا النكاح؛ بناء على ما ورد في بعض روايات أهل بيت العصمة ﵈، سيما إذا جاءت عناوين ثانوية حاكمة عليه كحصول الضرر، أو وصول الأمر معه إلى إراقة الدم كما هو الحال مع بعض المجتمعات القائمة على طابع قبلي، وغيرها ممن يحذو حذوها، فإنه بهذا العنوان يأخذ نطاقاً آخر ويأخذ حكماً آخر.

المتعة عند المذاهب الإسلاميّة

وهذا النكاح موجود حتى عند المذاهب الإسلامية الأُخرى، لكنهم يعطونه اسماً آخر، ويتعاملون به على نحو الصحة، ويطلقون عليه لفظ المتعة أو قريباً منها[1]، أو العقد المؤقّت أو ما يقرب من هذا الاسم. وقد ناقشت هذا الموضوع

---

(١) قال الباحي الأندلسي ـ وهو من فقهاء المالكية ـ في كتابه (المنتقى): «من تزوّج امرأة لا يريد إمساكها، وانما يريد أن يستمتع بها مدّة ثم يفارقها، فقد روى محمد عن الإمام مالك

مفصلاً في كتاب (من فقه الجنس في قنواته المذهبية) [1]، وأثبتّ فيه آراء

☚ أن ذلك جائز وإن لم يكن من الجميل». ويقول ابن حبيب – وهو من أيمّة المالكيّة أيضاً – معقّباً على ذلك: «إن النكاح وقع على وجهه؛ لعدم اشتراط شيء في العقد، وإنما نكاح المتعة ما شُرطت فيه الفرقة بعد انقضاء المدّة». انظر فقه الجنس: ١٦٨ عن كتاب مع القرآن (الباقوري أحمد): ١٧٦/ ط مصر ـ ١٩٧٠ م. وكذا ما ذكرنا مثله في ج ٩ من كتابنا هذا / محاضرة (نظام الأُسرة في الإسلام).

(١) قال المحاضر: «إن من له أدنى إلمام بالفقه الإسلامي يعلم أن المشرّع يربط العقود بالقصود، ومن شروط العقد أن يشتمل على مقتضاه، وإلّا كان باطلاً إذا كان المقتضي ركناً، أو إذا لم يكن ركناً واشتمل على محرّم أو غرر. فالذي يعقد عقداً لابدّ أن يتوجّه قصده إلى مضمونه على رأي المحقّقين. وكذلك فإن الرضا المأخوذ في العقد الذي يشترط فيه الرضا لا يتحقّق بدون القصد، فإذا أجرى الإنسان صيغة عقد يفيد الدوام فلابدّ من الالتزام بمضمونه، أما إذا نوى عدم الالتزام بقصد المضمون وأوقع العقد على خلاف المقتضي، فإن ما وقع لم يقصد، وما قصد لم يقع.

ثم إن محقّقي أهل السنة يذهبون إلى أن الشرط المتقدّم على العقد كالشرط المقارن له، فإذا اتفقا على شيء وعقدا العقد بعد ذلك فهو مصروف إلى المعروف بينهما. وهذا مذهب أهل المدينة ومذهب فقهاء الحديث، وهو قول في مذهب الشافعي. يقول ابن تيمية: المشهور في نصوص أحمد ـ بن حنبل ـ وأُصوله وما عليه قدماء أصحابه: أن الشرط المتقدّم كالشرط المقارن [القواعد النورانية ١: ٢٢١]. وهذا بناء على قاعدة اعتبار المقاصد في التصرّفات كما سبق أن ذكرناه.

ويقول ابن قيم الجوزية: لا فرق بين الشرط المتقدم والمقارن، إذ مفسدة الشرط المقارن لم تزل بتقدّمه وإسلافه، بل مفسدته مقارناً كمفسدته متقدّماً، وأي مفسدة زالت بتقدّم الشرط إذا كانا قد علما، وعلم الله والحاضرون أنهما إنما عقدا على ذلك الشرط الباطل والمحرّم وأظهر صورة العقد مطلقاً. وهو مقيد في نفس الأمر بذلك الشرط المتقدّم، فإذا اشترطا قبل العقد أن العقد نكاح تحليل أو متعة أو شغار، وتعاهدا على ذلك وتواطآا عليه، ثم عقدا على ما اتّفقا عليه وسكتا عن إعادة الشرط في صلب العقد اعتماداً على ما تقدّم ذكره، لم يخرج العقد بذلك عن كونه عقد تحليل أو متعة أو شغار حقيقيّة. وكيف يعجز المتعاقدان اللذان يريدان عقداً قد حرّمه الله تعالى ورسوله ﷺ بوصف أن يشترطا قبل العقد إرادة ذلك الوصف، وأنه هو المقصود، ثم يسكتا عن ذكره في صلب العقد، وأنه هو المقصود؛ ليتمّ

المذاهب الإسلامية جميعها حول نكاح المتعة، وذكرت القائلين بجوازه منهم. وإذا كان البعض يعقد عقداً دائماً لكنه ينوي ألّا يديم هذا العقد بل يقطعه بعد فترة معينة كالشهر أو الأسبوع وما إلى ذلك. وبناء عليه فما هو الفرق حينئذٍ بين هذا النكاح، وبين نكاح المتعة؟

أدلّة زوجيّة المتمتّع بها

ويدل على أن المرأة المتمتّع بها زوجة شرعية أُمور عدة، منها:

الأول: وجوب العدّة عليها

أي أن عليها أن تعتد منه (من الزوج) فيما لو مات عنها أو انقضت مدة نكاحها سوى أن العدة هنا فيما لو انقضى أجلها قرءان (مثنى قرء)، أو حيضتان.

الثاني: أن لها حقّ الإرث عند اشتراطه

أي أنها إذا اشترطت الميراث أو النفقة فإن على الزوج أن يورثها أو ينفق عليها.

الثالث: لحوق الولد بالأب

فالزوج إذا ولد له ولد من هذه المتمتّع بها، فإنه يلحق به شرعاً، وهما حينئذٍ يتوارثان.

☚ غرضهما؟ وهل إتمام غرضهما إلّا عين تفويت مقصود الشارع؟ وهل هذه إلّا فتح لباب الحيل، بل هي أصل الحيل وأساسها؟ [عنه في أعلام الموقعين ٣: ١١٨ مطبعة المنيرية مصر].
وبعد هذا الذي ذكرناه من وجوب اشتمال العقد على مقتضاه وإلّا بطل، ومن كون الشرط المتقدّم، والاتّفاق السابق عند محقّقي أهل السنّة كالشرط المقارن. دعني أذكر بعض الآراء عند شريحة من فقهاء أهل السنّة في العقد المؤقت الذي هو المتعة بعينها». ثم ذكر ثلاثة نصوص الفقهاء من أهل السنة في صحّة العقد المؤقّت، والتي أشرنا إليها في الهامش السابق. فقه الجنس: ١٦٥ ـ ١٦٦.

وبهذا فإننا نرى أن هذا النكاح المنقطع لا يفرق عن النكاح الدائم إلّا من بعض الأُمور الثانوية أو غير الأساسية المأخوذة في عمليّة الزواج، وهذه الفوارق لا تعدو كونها فوارق أدبية.

نعم، قد يساء استغلال هذا النوع من النكاح، وقد ذكرت قبل قليل بأني لا أُحبّذه؛ لما يترتّب عليه من آثار وضعيّة؛ ومضاعفات بعضها اجتماعي، وبعضها أخلاقي ربما تؤدّي إلى إراقة الدم عند البعض من المجتمعات. وإلّا فإني لا أكره حكم الله (وأعوذ بالله من هذا) لكنني أكره تطبيقاتنا نحن لحكم اللّه جل وعلا، ذلك أن الكثير منا يسيء استخدام كل رخصة يعطينا إياها الشارع المقدّس، فلا نستعملها كما أمرنا أن نستعملها وأن نستغلّها، بل إننا نعمد في بعض الأحيان إلى تسفيه الأحكام وتحويل بعض منها إلى رذيلة.

إن الله جل وعلا لم يشرّع ما شرّع عبثاً، بل شرع كل حكم لمصلحة ارتأتها حكمته وعلمه السابق جلّ وعلا، ومنه المتعة التي شرعها ليصون الإنسان عن أن يقع في الخطيئة أو أن ينزلق في مهاوي الزنا. لكننا كما ذكرت لا نحسن استعمالها، بل ننساق وراءها انسياقاً تاماً نصل به إلى حد أننا نجعلها الجانب الغالب على حياتنا وإشباع غرائزنا دون النظر إلى العواقب التي يمكن أن تترتب على بعض من هذا. دخل رجل على الإمام الكاظمعليه السلام ليسأله عن زواج المتعة، وقال له: جعلت فداك، إني أُريد أن أعقد على امرأة عقد متعة، فما تقول؟ فقالعليه السلام له: **«وما أنت وذاك؟ فقد أغناك الله عنها»**[١].

---

(١) الكافي ٥: ٤٥٢ – ٤٥٣ / ١، باب أنه يجب أن يكفّ عنها من كان مستغنياً. ومن أحاديث هذا الباب ما رواه عن الصادقعليه السلام: «دعوها، أما يستحي أحدكم أن يُرى في موضع العورة؛ فيحمل ذلك على صالحي إخوانه وأصحابه؟». الكافي ٥: ٤٥٣ / ٤.

بل إنه ورد في بعض الروايات أن من دنا إلى امرأة زانية ليعقد عليها عقداً مؤقّتاً فهو زانٍ [١].

شبهات حول زوجيّة المتمتّع بها

إذن فمن يقل بأن هذه المتمتع بها ليست بزوجة نقل له: إنها زوجة؛ لأن الزوجة هي ما يستحلها الرجل بعقد ومهر ولا شيء غير هذا، ولذا فإن هـؤلاء القـائلين بحرمة المتعة يذكرون في الباب شبهات عدة منها:

الأولى: عدم ميراث المتمتّع بها

ولو قال قائل: إن هذه المرأة لا ترث كما في كتبكم، وما دامت كذلك فهي ليست بزوجة؛ لأن الزوجة الدائمة ترث حتماً.

لقلنا: إن هذا ليس بدليل؛ فإن هناك من النساء الزوجات الدائمات مـمن لا يرثن، كمن تقتل زوجها فإنها حينئذٍ لا ترثه، لكن عدم ميراثها هذا لا ينفي عنها صفة الزوجية كما هو ثابت.

الثانية: عدم ثبوت النفقة لها

وربما يعترض هذا المعترض أيضا بأن يقول: إن المتمتّع بها لا نفقة لها كما هو ثابت عندكم.

---

(١) لم نعثر عليها بهذا النصّ، وفي بعض الروايات أنه سأل رجل الإمام الرضا﴿ع﴾ عن رجـل يتزوّج امرأة متعة، ويشترط عليها ألّا يطلب ولدها، فتأتي بعد ذلك بولد. فشدّد﴿ع﴾ فـي إنكار الولد، وقال: «أيجحده إعظاماً لذلك؟». فـقال الرجـل: فـإن اتّـهمها؟ فـقال﴿ع﴾: «لا ينبغي لك أن تتزوّج إلّا مؤمنة أو مسلمة؛ فإن الله عزّ وجل يقول: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ النور:٣». الكافي ٥: ٤٥٤ / ٣.

ونقول: إن هذا ليس مطرداً في الزوجة الدائمة كذلك، ومن هـذا أن الزوجـة الدائمة التي تنشز عن زوجها ولا تطيعه فإنها حينئذٍ لا نفقة لها، علماً أن سـقوط النفقة لا ينفي عن الزوجة صفة الزوجية.

المبحث الرابع: في موارد النكاح المحرم

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ﴾، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ هو كل ما حرم الله جل وعلا على الإنسان من محارم بـخصوص مسألة النكاح. لكن هناك مسألة ينبغي أن يشار إليها، وقد شغلت حيزاً كبيراً من ساحة البحث والنقاش والأخذ والرد والنقض والإبرام بين فقهاء المسلمين، وهي مسألة وطء الشبهة. والمراد بوطء الشبهة هو الوطء الذي يقع من الرجل مع امرأة يظن أنها زوجته أو مملوكته، فيطؤها مع أنها ليست بزوجة له.

أقسام الشبهة ومنشؤها

والشبهة تكون على ثلاثة أقسام

الأول: ماكان منشأ الشبهة فيه الفاعل

أي أن منشأها الرجل فهذا الرجل مثلاً قد اعتاد على أن تكون زوجته بجانبه على الفراش دائماً، وحصل أن وجد امرأة على فراشه، فظن أنها زوجته، فوطئها بناء على ظنّه أنها حليلته دون أن يقصد فعل الحرام، ثم تبين له بعد ذلك أنها ليست بزوجته. فهذا وطء شبهة. وهو وطء منشؤه الزوج؛ لأنه هو من وقع فـي هـذا الاشتباه.

الثاني: الشبهة الناشئة عن العقد وأقسامها

وهذه الشبهة تكون في حالتين:

الأولى: ظنّ صحّة العقد

أي أن الرجل يظن أن هذا العقد الذي دخل به على المرأة وبه أصبحت زوجةً له بحيث يحلّ له أن يقاربها هو عقد صحيح، في حين أن العقد لم يستوفِ شروطه كاملة، وبالتالي فهو عقد باطل دون أن يعلم الرجل بذلك الشرط المفقود، ودون أن يكون قاصداً للحرام. ففي مثل هذه الحال حينما يطأ زوجته، فإنه يطؤها ظانّاً أن وطأها حلالاً له، وهو في واقع الأمر حرام، لكنه لا يحكم بالحرمة بالنسبة له؛ لأنه يسمى حينئذٍ وطء شبهة كذلك.

الثانية: نكاح البنت من الزنا

وهناك حالة أُخرى من مصاديق وطء الشبهة الذي يكون منشؤه العقد، فيبيح له هذا الوطء، وهو وطء البنت المتولّدة من ماء الزنا، فهذه البنت من الناحية الشرعية لا تلحق نسباً بصاحب الماء؛ لأنها لم تأتِ عن عقد شرعي، وما دامت ليست بنتاً فهل يحق للرجل بأن يتزوجها؟ لقد وقع نقاش طويل بين الفقهاء من مختلف المذاهب الإسلامية في هذه المسألة؛ لأن هذه البنت تعتبر أجنبية عن أبيها كما قلنا، وما دامت أجنبية فهي لا تعامل معاملة البنت. ولذا فإنه الشوافع والموالك يقولون: إن هذه البنت أجنبية عن الرجل الذي تولدت من مائه؛ لأن «**الولد للفراش، وللعاهر الحجر**»[1]، وهذه لم تولد على فراش وبالنتيجة فإنها لا تلحق به، وإذا لم تولد على فراش ـ أي ليس هناك من عقد شرعي ـ و«**الولد للفراش**»، كما هو نصّ الحديث الشريف، فهذه ليست ابنة لصاحب الماء، بل هي بنت أجنبية

(١) الكافي ٥: ٤٩١ / ٤٩٢، ٧: ١٦٣، كتاب المسند (الشافعي): ١٨٨، مسند أحمد ١: ٢٥، وغيرها.

عنه، وحكمها حكمها؛ مما يعني أنه يجوز له وطؤها[1]، أي أن يعقد عليها ويتزوّجها.

أما المذاهب الإسلامية الأُخرى فيقولون: إن هذه البنت هي بنت حقيقية وإن لم تكن بنتاً شرعية، وقاعدة «**الولد للفراش**» لا تنفي الولد إذا كان لغير فراش بمعنى أن الأُبوّة الحقيقيّة موجودة وإن لم يعتبرها الشارع المقدّس أُبوّة. وبعبارة أُخرى فإنه ليس كلّ من يولد على فراش شرعي هو ولد، ومن يولد على فراش غير شرعي ليس بولد.

إذن فرواية «**الولد للفراش**» جاءت لتصحّح ما هو واقع في مقام الشك في هذا المجال، بمعنى أن الرجل الذي يعقد على امرأة ثم يجيء منها ولد، وشكّ في أن هذا الولد ابنه أم لا، فإنه يبني على أنه ولده؛ لأنه يجب أن يلتزم بمقتضى قاعدة «**الولد للفراش**». هذا مورد القاعدة، أي إذا حدث شك في نسبة الولد، فالولد حينما يولد على فراش شرعي فإنه يلحق بصاحب الفراش، أما أن يعتبر كل من يولد على فراش غير شرعي ليس ابناً فلا يمكن قبوله على الإطلاق؛ لأن هؤلاء يعتبرون أن هذا المتولّد هو ابن له متولد من مائه، فهذا ولده وهذه بنته، وإذا كانت ابنته فهي تحرم عليه. وغاية ما في الأمر أنها نشأت من الزنا وليست من العقد الصحيح.

وفي مثل هذه الحال فإن العقد على هذه الفتاة المتولدة من هذا الماء حينئذٍ يعتبر وطء شبهة؛ لأنه ليس قاطعاً بحرمته بناء على فتوى المجيزين له، وليس

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٣: ٦٠، مواهب الجليل ٥: ١٠٩، المجموع شرح المهذب ١٦: ٢١٩، ٢٢٢، المبسوط (السرخسي) ٤: ٢٠٦، المغني (ابن قدامة) ٧: ٤٨٥، الشرح الكبير (ابن قدامة) ٧: ٤٨٣، مواهب الجليل ٥: ١٠٩.

قاطعاً بحلّيته بناء على فتوى غير المجيزين له؛ بحيث إنه يبقى متردّداً بين أن يرتّب عليه آثار الزوجية أو لا يرتّب عليه تلك الآثار من جهة صحّة النسب وعدمها، وتوريث المتولّد وعدمه وما إلى ذلك. فمثل هذا المتولّد من وطء الشبهة يحكم بأنه ابن، والأب يجب عليه المهر. ويترتّب عليه أيضاً سقوط العقاب للجاهل؛ لأن الله جلّ وعلا لا يعاقب الإنسان إلّا بعد التبليغ، والجاهل لم يصله تبليغ.

إذن فهناك آثار كثيرة تترتّب على هذا الزواج، لكنه لا يشمله قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ﴾.

الثالث: الشبهة التي يكون منشؤها القابل وأقسامها

وهو النكاح الذي يكون مصدر الشبهة فيه المرأة، ونجد ذلك في عدّة أُمور، منها:

الأوّل: الأمة المملوكة مناصفة

أي أنه لو أن هناك أمة واحدة يملكها اثنان، ثم أجاز أحدهما لشريكه وطْأها، فهل إن له حينئذٍ أن يطأها؟ وهل هو حلال له؟ إن هذا إن وطئها جاهلاً فإن وطْأه لها حينئذٍ يكون وطء شبهة [1].

الثاني: مملوكة المكاتب

ومن موارد وطء الشبهة الناشئ عن القابل ما لو أن إنساناً يملك عبداً ثم طلب هذا العبد من مالكه أن يكاتبه، بمعنى أن يعمل له مقابل أن يعتقه بما يستطيع من

---

(١) لأنها حلّت له بسببين: الأول: ملك اليمين، والثاني إجازة الشريك له. ولعدم صحّة توارد أمرين على شيء واحد ولأنه مجهول، فإن هذا النكاح يصبح وطء شبهة.

عمل، فيقسط ثمنه على مولاه، أي أن يذهب إلى العمل في مكان معين ليكسب أموالاً يعطيها لسيده على أن يعتقه بعد إكمال ثمنه أو قيمته. فهذا يسمى العبد المكاتب، والفقهاء هنا يقولون: إنه بمجرد أن يدفع قسطاً، فإنه ينعتق منه بمقدار نسبة ذلك القسط إلى قيمته الحقيقية.

حكم المكاتبة

أمّا حكم المكاتبة، فالأغلب من الفقهاء يقولون: إن المستحبّ أن يكاتبه سيّده، لكن الظاهرية ـ وهم جماعة داود الظاهري ـ والخليفة عمر بن الخطاب يقولون: إنه يجب على سيده أن يكاتبه؛ بدليل قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ**﴾[1].

وعلى أية حال فهذا العبد المكاتب حينما يكون قد ملك جارية مثلاً، وقد كاتب سيده ودفع جملة من الأقساط من ثمنه، فهل يحق للسيد أن يطأ هذه الجارية بقاعدة «إن العبد وما ملك لمولاه»، أم لا يحق له ذلك باعتبار أن العبد قد أصبح جزء منه حرّاً؟ إن السيد إذا عمد إلى وطء هذه الجارية فإنه يكون قد وطئها وطء شبهة، لأنه لم يعد يملك المملوك كاملاً، كما أن المملوك ليس بحرّ كاملاً، فهنا تكون الشبهة من جهة القابل وهو المرأة.

وبناء على كل هذا فإننا نخلص إلى نتيجة هي أن الآية الكريمة أباحت ملك اليمين، وأباحت الزواج الشرعي بقسميه: الدائم والمنقطع.

المبحث الخامس: أهداف الزواج الشرعي

إن الآية الكريمة تحرص بالدرجة الأُولى على صياغة الأُسرة صياغةً قويةً

---

(١) النور: ٣٣.

متينةً مبتنية على أُسس تربوية إلهية؛ لئلّا يتسرّب إليها الشك، وبالتالي تتحوّل الأُسرة إلى لبنة منخورة لا تقوى على بناء المجتمع، ولا تصمد أمام عواصف الأوبئة الأخلاقية. ثم إن الله عز وجل يريد للأعراض أن تصان وأن تظلّ طاهرة نظيفة.

الهدف من الأديان

وهذا ما يقرّره العلماء حيث يقولون: إن الأهداف التي جاءت من أجلها الأديان السماوية خمسة هي:

الأول: حماية النفوس بالقصاص

فالله جل وعلا حينما شرع القصاص فإنما شرعه ليحمي النفوس عن أن تنساق وراء الخطيئة، أو عن أن تهوي في هاوية الحضيض؛ ولذا فإنه تعالى يقول: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[1]، وبخلافه فإن المجتمع سوف يصبح عرضةً للتأكّل وللتهاوي؛ لأنه سوف يصبح مجتمعاً خاضعاً لحالة من حالات شريعة الغاب، فيعتدي كل فرد فيه على الآخر، فيقتله ويسلب حقوقه، وبالتالي فإنه يتحول إلى غابة من الوحوش.

الثاني: حماية العقول

إن الله جلّ وعلا حمى العقول بتحريم المسكرات؛ لأن المسكرات تقوم بتغييب العقل عن أن يمارس وظيفته التي رسمها الله له. ثم إن الله تبارك وتعالى حينما أمرنا بحفظ العقول فقد أمرنا بأن نهيّئ المقدمات لذلك.

الثالث: حماية النشء الجديد

بمعنى أنه يجب على كل شخص أن يراقب نفسه، وأن يراقب ابنه، وأن يراقب

---

(١) البقرة: ١٧٩.

أخاه، وأن يراقب كل مسلم تجب عليه نصيحته له. ولا بد هنا من التأكيد على الأولاد؛ لما ورد في الحديث الشريف: **«اتقوا الله تعالى في أولادكم»**[١]، والحديث الشريف الآخر الذي يقول: **«لعن الله والداً حمل ولده على العقوق»**[٢]؛ لأن الأب إذا أهمل ابنه فإنه يكون قد حوله إلى مشروع هدّام في المجتمع لا يتقيد بقيم ولا بأخلاق ولا بآداب أو التزامات شرعية، وبالتالي فإنه سوف يعقّه ويعقّ المجتمع بأجمعه.

الرابع: حماية الأموال

ولذا فإن الشارع المقدس هنا قد أمر بقطع كفّ السارق التي تعتدي على المجتمع وتسلبه حقوقه وما متعه الله به، وهذا مع توفّر شروط القطع قطعاً.

الخامس: حماية الدين من الشبهة

إن الأديان غالباً ما تتعرض على لسان الكثير من الملحدين والزنادقة إلى كثير من الشبه الموجهة إليها وإلى العقائد الحقّة لغرض فرض العقائد الفاسدة محلها. وهذا هو الهدف الأساس الذي أنزلت من أجله الأديان.

إذن فاللّه جلّ وعلا إنما حرّم الزنا وعاقب عليه وأوجب عليه الجلد والرجم؛

---

(١) لم نعثر عليه بهذه الصورة، وما هو في كتب الفقه والحديث ممّا هو قريب منه قوله ﷺ: «اتقوا الله في الضعيفين» يعني بذلك اليتيم والنساء. الكافي ٥: ٥١١ / ٣، الخصال: ٣٦ ـ ٣٧ / ١٢.

وقوله ﷺ: «اتّقوا الله تعالى واعدلوا بين أولادكم». تذكرة الفقهاء ٢: ٤٢٤ (حجري)، صحيح مسلم ٥: ٦٦.

(٢) لم نعثر عليه بهذه الصياغة، والذي عثرنا عليه هو: «رحم اللّه والداً أعان ولده على برّه». انظر: الأمالي (الصدوق): ٣٦٣، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٦: ١٠١.

لأنه يريد أن يحمي الإنسان من أن ينزلق في طريق الرذيلة، ويريد للأُسرة أن تبنى بناء متيناً شامخاً لا يزحزحه وباء من أوبئة الأخلاق التي يحاول المنحلّون أن ينشروها بين المجتمعات الإنسانية. وعليه فحماية الأُسرة من أول الأهداف ذات الأولويّة التي تستهدفها الشريعة الإسلامية وتضعها نصب عينيها؛ ولذا فإن القرآن الكريم أمر بزرع المودّة في الأُسرة وتكريم أفرادها سيما مع الأبوين اللذين لا يمكن أن يكافأا على ما يفعلانه تجاه أبنائهما.

ثم إنه تعالى أعطى كل شخص وظيفته ومسؤولياته في حفظ هذه الأُسرة وصيانتها من توارد الأمراض والأوبئة الأخلاقية عليها؛ ولذا فإنه فرض على المرأة أن تحفظ الرجل في غيبته، فتحفظ عرضه، وتحفظ بيته، وتحفظ شرفه؛ لأن القرآن الكريم يقول: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾[1].

وهذا تعبير مهذب لحالة اللقاء بين الرجل والمرأة والتقارب بينهما؛ لأنه لا يريد أن يخدش حياء الرجل ولا حياء المرأة.

وفي الوقت نفسه أمر بحفظ الولد، وحفظه يمر بسلسلة تتكون من عدة حلقات تمثل كل حلقة منها دوراً مهماً في تحقيق الأمر بذلك الحفظ وتطبيقه، فقد أمر تعالى بأن يُتقى الله بحفظ هذا الولد عبر حفظ الماء، واختيار القناة المناسبة النظيفة له، وأن يُتقى الله جلّ وعلا في حفظ الزوجة واختيارها مؤمنةً صالحةً عفيفة، وأن يرحم مجتمعه بأن يبتعد عن الانحراف، ثم أمر بوجوب تحقيق وتطبيق علائق المودة بين المجتمع. هذه المودة التي تنطلق من أول جنين يرزق الله به الزوجين، فيأخذها من حضن أمه وحجر أبيه، وبها تكون الرابطة بين

---

(١) الممتحنة: ١٢.

الأبوين. ولذا فإننا حينما ننظر إلى القرآن الكريم نجد فيه: ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً**﴾[1].

إذن فالطفل رابطة قويّة وآصرة محكمة تربط ما بين الأبوين، وهو مصبّ العواطف التي تحكم العلاقة بين الأبوين، كما أنه السعادة التي تدرج في البيت فتنمو وتكبر ويكبر معها الحب الأُسروي؛ ولذا فإن فقده كان نكبة، لا تعدلها نكبة ولا يمكن أن يعوضه شيء؛ لأن فقده يمثل للأبوين عامة وللأم خاصة فقد الدنيا بحالها فضلاً عن السعادة فيها، وسوف لن نبالغ إذا قلنا: إن الحياة سوف تتحول إلى جحيم بعينهما. وبهذا فإننا نقرأ في كتب التاريخ أن أحد الأعراب يقول: مررت على حيّ تتجاوب جدرانه بالأنين والبكاء اللذين يدميان القلب، فسألت عنه قيل لي: هذا حي بني هاشم. وسمعت أنين امرأة سمّر قدميّ إلى الأرض، فلمّا سألت عنها وعن الدار، فقالوا: هذه دار الحسين بن علي‹عليهما السلام›، وهذه الباكية هي ليلى أُمّ علي الأكبر.

لقد كانت ليلى إذا جنها الليل لا تهدأ ولا تسكن عن النوح، فكانت تأتي إلى مضجع ولدها.. المكان الذي كان ينام فيه، فتطيل النظر إليه ودموعها جارية على خديها، وهي تتذكّر تلك الأيام التي كان بيتها عامراً بولدها فيها.

ومع هذا فإننا نقول: إن هذه اللوعة التي استولت على قلب ليلى مهما بلغت فلا نظنها تبلغ مرتبة تلك اللوعة التي استولت على قلب الإمام الحسين‹عليه السلام› حينما قصد

---

(١) الإسراء: ٢٣ ـ ٢٤.

ولده بعد أن سقط على أرض المعركة صريعاً؛ فقد بدرت منه بادرة لفتت نظر الناس والمؤرخين فيما بعد، ذلك أنه عليه السلام نزل من على ظهر جواده عندما سقط الأكبر على أرض المعركة صريعاً يخور بدمه، ورمى بنفسه الشريفة من علىٰ ظهر جواده، وامتدّ بجانبه، وأخذ يحتضنه ويعتنقه، ثم وضع خدّه علىٰ خدّه فرأى أنه قد أسلم الروح، فصاح عليه السلام بأعلى صوته: **«بني علي، علىٰ الدنيا بعدك العفا، أما أنت فقد استرحت من همّ الدنيا وغمّها، وأبقيت أباك لهمّها وغمّها. وما أسرع اللحاق بك!»**[1]. ثم جلس عنده يطيل النظر إليه:

جاورت أعدائي وجاور ربّهُ ... شتان بين جواره وجواري

يا كوكباً ما كان أقصر عمره ... وكذا تكون كواكب الأسحارِ

وبعد ذلك انحنى عليه يشبعه لثماً وتقبيلاً، ثم قام يكفكف دموعه، وحينما أراد عليه السلام أن يحمله وجد أنه لا يقوى على ذلك؛ لما أنقض ظهره من هذه الفاجعة، ولشدة تأثّره بها، فقال لأبناء عمومته من الهاشميّين: **«احملوا أخاكم، فوالله لا طاقة لي علىٰ حمله»**. فحملوه إلىٰ المخيم ورجلاه تخطّان الأرض، وطرحوه إلىٰ جانب النساء، فوقعت عليه أُمه تحتضنه:

شالفايده وياك يبني ... أنا الوالده وهيّن تذبني

ردتك عليه البيت تبني

يبني علي يا فتشة العين ... يبني صواب الضاهدك وين

* * *

يا علي يبني النوب ذلّيت ... للموت يوليدي تمنيت

---

(١) الدمعة الساكبة ٤: ٣٣١.

عـمود الوسـط يـا شـايل البـيت   آنــه بـيش اجـيت وبـيش رديت

يـا واحـدي عـنـدي شـخلّـيت

* * *

فــجثا وأقـنع للسـماء بشـيبة   مــغمورة بـــمدامـــعٍ ودمـاءِ

يــا عَـدلُ قـد قـتلوا شـبيه مـحمد   أَنــزلْ بسـاحتهم عـظيمَ بـلاءِ



﴿٢٠٨﴾

مشروعيّة قضيّة التبنّي في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (١).

مباحث الآية الكريمة

تتناول هذه الآية الكريمة مواضيع متعددة سوف أعرض لها إن شاء الله تباعاً كلّاً في مبحث مستقل:

المبحث الأول: حقيقة التبني ومشتروعيّته

تقول الآية الكريمة: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾، ويدور هذا المقطع الشريف حول عدم جواز التبني، وهو ما كان مألوفاً عند الرومان في أوروپّا والعرب في الجزيرة العربية أنهم إذا وجد شخصاً مميّزاً، بمعنى أن له مزايا جسدية أو نفسية تعطيه نوعاً من التميز عن الآخرين وتجعله بنظرهم شخصاً غير اعتيادي فإنهم كانوا

---

(١) الأحزاب: ٥.

يسارعون إلى تبنّيه وإعطائه حقوق الأبناء كافّة، وهذه الحقوق هي:

الأول: أنهم كانوا يتناصرون معه

فهؤلاء كانوا يهبّون لنصرة المتبنى كما لو أنه ابنهم الحقيقي أو الصلبي، بل كما لو أنه أحد أبنائهم دون فرق بينه وبينهم، وذلك عندما يتعرّض إلى ضيم أو اعتداء، فما إن يتعرّض لذلك حتى يهبوا للدفاع عنه، وهذا هو معنى التناصر والمناصرة بينهم.

الثاني: أنهم كانوا يتوارثون فيما بينهم

فكانوا إذا مات ورثوه، وإذا مات المتبني له ورّثه من ماله كما يورث أحد أبنائه.

الثالث: إلحاقه بالنسب

فكانوا حينما يشيرون إلى هذا المتبنّى يقولون: هو فلان ابن فلان، أي الشخص الذي تبنّاه. وقد استمرت هذه الحال حتى جاء الإسلام الذي أراد أن يصحح لهم هذا التصرف وهذا الفكر، وأن يبين لهم خطأ هذا الاعتقاد وهذه الحالة الاجتماعية؛ لما يترتب عليها من آثار اجتماعية سيئة وسلبية، فحاول أن يرفع هذا التفكير وهذا التصرف من المجتمع المسلم وذلك عبر قضية زيد بن حارثة.

المبحث الثاني: سبب النزول

يروي المؤرّخون أن سعدى بنت ثعلبة أُم زيد بن حارثة كانت تزور قومها وزيد معها، فأغارت خيل لبني القين بن جسر في الجاهلية، فمرّوا على أبيات معن رهط أُمّ زيد، فاحتملوا زيداً ـ وهو يومئذٍ غلام ـ فوافوا به سوق عكاظ، وعرضوه للبيع، فاشتراه منهم حكيم بن حزام بن خويلد، ووهبه لعمّته خديجة

بنت خويلد عليها السلام التي أهدته بدورها إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وعلى العادة التي كانت سائدة في الجزيرة العربية فإن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أعتقه، ثم تبنّاه، وكان ذلك قبل البعثة النبوية المشرّفة كما ذكرنا.

ثم بعد نزول الإسلام حجّ ناس من كلب، فرأوا زيداً فعرفهم وعرفوه، فقال: بلّغوا أهلي؛ فإني أعلم أنهم قد جزعوا علي. فانطلق الكلبيون وأعلموا أباه، فقال: ابني ورب الكعبة. فخرج حارثة وأخوه كعب ابنا شراحيل لفدائه، فقدما مكّة، فسألا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقيل: هو في المسجد. فدخلا عليه فقالا: يابن عبد الله، يابن عبد المطلب، يابن هاشم، يابن سيّد قومه، أنتم أهل الحرم وجيرانه، وعند بيته تفكّون العاني، وتطعمون الأسير، جئناك في ابننا عندك، فامنن به علينا، وأحسن إلينا في فدائه؛ فإنا سنرفع لك في الفداء. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**من هو؟**». قالوا: زيد بن حارثة. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**فهل أنتم لغير ذلك؟**». قالوا: ما هو؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**ادعوه فخيّروه؛ فإن اختاركم فهو لكما بغير فداء، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحداً**». قالا: قد زدتنا على النصف، وأحسنت.

فدعاه صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: «**هل تعرف هؤلاء؟**». قال: نعم. قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**من هما؟**». قال: هذا أبي، وهذا عمّي. قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**فأنا من قد علمت، ورأيت صحبتي لك، فاخترني أو اخترهما**». فقال زيد ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت مني بمكان الأب والأُمّ. فقالا: ويحك يا زيد، أتختار العبوديّة على الحرّية، وعلى أبيك وعمّك وأهل بيتك؟ قال: نعم؛ إني قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً.

فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك أخرجه إلى الحَجر فقال: «**يا من حضر اشهدوا**

أن زيداً ابني أرثه ويـرثني». فلما رأى ذلك أبوه وعمّه طابت أنفسهما وانـصرفا، فدعي زيد بن محمد حتى جاء الله بالإسلام فأنكر هذا التبنّي [١].

وبهذا فإن موضوع التبني قد حرمته الشريعة الإسلامية أساساً؛ لأنه تـصرف تترتب عليه قضايا شرعية واجتماعية لا يقرها الشرع، وإلّا فإنه تصرف أسـاساً يحتضن الطفل ويحميه من أن ينزلق في مهاوي الخطيئة والرذيلة، أو أن ينساق وراء أصحاب السوء أو أن يختط خط الأشرار الذين يعبثون بمقدرات المجتمع. فهو إذن تصرف مبتنٍ على عملية رعاية الطفل والعناية به واحتضانه عن أن يشذ عن المجتمع، وهو بهذا يعتبر عاملاً من العوامل التربوية، ذلك أنه يخلق نوعاً من التعاطف والتواصل بين المتبني والمتبنى بمعنى أنه سوف تكون هناك حالة مـن التقارب الاجتماعي بين هذين الشخصين، وهو أمر ضروري جداً لأنه إذا عدم بين شخصين ـ حتى إذا كانا أباً وابناً صلبيين ـ فإن هذا يعني أن هناك بوناً شاسعاً وفرقاً واسعاً بينهما لا يمكن أن يردم أو أن يصلح.

و إذا حدث مثل هذا بين الآباء والأبناء فإنه حتماً سوف يـؤدي إلى تـفكيك المجتمع. فالبنوة ليست مجرّد حالة قائمة على الانتماء الدموي بل إنها لابـد أن تكون قائمة كذلك على أساس الدين والعقيدة والتعاطف وما إلى ذلك؛ ولذا فإننا نجد أن الله جل وعلا يخاطب نبيه نوحاً ﵇ بقوله: **﴿يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾** [٢].

فهذا ابن صلبي دموي لنوح لكن القرآن الكريم ينفيه عنه لأنه لم يحقق رابطة

---

(١) الطبقات الكبرى ٣: ٤١ ـ ٤٣، الاستيعاب ٢: ٥٤٣ ـ ٥٤٦، تخريج الأحاديث والآثار ٣: ٩٥ ـ ٩٦ / ١٠٠٢، تفسير النسفي ٣: ٢٩٥ ـ ٢٩٦، المحرّر الوجيز ٤: ٣٦٨ ـ ٣٦٩، البحر المحيط ٧: ٢٠٧.

(٢) هود: ٤٦.

المبدأ والدين والعقيدة ولم يوجد هذه الوحدة المطلوبة بين الأشخاص داخل الجسد الإسلامي، أي أنه ليس هناك من تعاطف بين الأب والابن. وفي واقع الأمر فإن مجرد الانتماء بالدم لا قيمة له مالم يكن هنالك تناغم روحي، وتجانس وتقارب أخلاقيان يحكمان العلاقة التي من المفترض أن تسيطر أو تحكم علاقة الأُبوّة والبنوّة، فهذه العلاقة يجب أن يطغى عليها الطابع الروحي قبل أن يطغى عليها الطابع الجسدي. وبعبارة أخرى فإن الانتماء الجسدي في واقع الأمر لا يحقق معنى الأبوة بالشكل المطلوب.

المبحث الثالث: أسباب تحريم التبني

وعليه فالآية الكريمة حينما نزلت نزلت لتحرم التبني بالمعنى الذي كان سائداً بين المشركين زمن الجاهلية، وهذا التحريم يعود لأسباب سنمر بها من خلال هذا المبحث إن شاء الله تعالى. وبالنظر إلى وجوه الآية الكريمة فإننا نرى أن الرأي الذي يميل له كثير من المفسرين هو أن من الصعب على الإنسان بمكان أن يتخلص من الحضارة التي عاش فيها غالباً فالحضارة التي يترعرع الإنسان في كنفها حتماً سوف تترك بصماتها جليةً واضحةً على تصرفه وعلى تفكيره وعلى أخلاقياته وعاداته وتقاليده. أي أن الحضارة تؤثر وتظل عالقة على تفكير الإنسان حتى وإن انسلخت تلك الحضارة وزالت من الوجود وجاءت مكانها حضارة أُخرى.

وعلى هذا فإن الرأي الذي يقول به كثير من المفسرين هو أن الولد يجب أن يدعى إلى أبيه وليس إلى أُمّه بناء على الأفكار والقيم والعادات التي كانت تسود تلك الحضارات. وهي نظرية ناشئة من نظرة مخطوءة إلى الأم لأن هذه الحضارات ترى أن الأُم ليس لها تأثير على الولد إطلاقاً، وإنما هي مجرد وعاء يحفظ النطفة

لفترة معينة. وحضارة العرب بطبيعة الحال لم تكن لتخرج عن إطار هذا التفكير؛ ذلك أنهم درجوا على احتقار المرأة. وقد استمرت هذه النظرة إلى المرأة عندهم حتى الوقت الحاضر؛ إذ أنه في كثير من البلدان العربية لا زال هناك بعض الأشخاص حينما يحدثونك عن المرأة فإنهم يعقّبون ذكرها بالقول: (أجلّك الله).

وهذا الأمر مثار للاستغراب ومدعاة للتعجب، وإلّا فما هو الفرق بين الرجل وبين المرأة؟ فكلاهما إنسان وكلاهما شخص، فضلاً عن أن هذه المرأة هي التي حملت الأنبياء وحملت الأوصياء وحملت العباقرة. وهذا بطبيعة الحال ناتج عن سبب واضح ومحدد هو أن المجتمع البدوي لا يؤمن إلّا بالقوّة؛ لأن مجتمع البداوة لا يتوفر على حضارة ذات أبعاد واضحة المعالم، وإذا لم يكن هناك حضارة فهذا يعني أن الغريزة هي التي سوف تتحكم فيه وفي تصرفات أبنائه. ومن البيّن أن المرأة لم تكن مظهراً من مظاهر القوة في المجتمع آنذاك؛ لأنها لم تكن تحمل السيف أو الرمح وتخرج لتقاتل إلّا ماندر ـ والحالات النادرة لا يقاس عليها ـ إذ أن هناك البعض من النساء ممن يعد على الأصابع كن يشتهرن بحمل السيف والفروسية.

وبناء على هذا فإنهم يرون فيها صورة من صور الضعف ولذلك فإنهم لم يعطوها حظاً من الميراث، ولذا فإن الوحي الشريف حينما نزل على النبي محمد ﷺ بقوله تعالى: **﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾**[1]، جاء بعضهم إلى النبي ﷺ وقال له: يا رسول الله هل يعني هذا أن البنات يأخذن ميراثاً أيضاً؟ فأجاب ﷺ بالإيجاب؛

---

(١) النساء: ١١.

ذلك أن الولد بالمعنى اللغوي هو ما يولد وإن كان بالمعنى الاصطلاحي هو ما ينصرف إلى الذكر، أي أنه لغة ما يولد من الأبوين. فقالوا له: يا رسول الله؛ لكن البنت لا تطاعن برمح ولا تضارب بسيف، ونحن إنما نعطي المقاتل.

ومما يروى في هذا الصدد أنه كان لأحد الأعراب امرأتان، فولدت إحداهما جارية، وولدت الأُخرى غلاماً، فرقّصت أُمّ الغلام ابنها يوماً، وقالت معايرة لضرّتها:

الحمد لله الحميد العالي أنقذني العام من الجوالي

من كلّ شوهاء كشنّ بالي لا تدفع الضيم عن العيالِ

فسمعتها ضرّتها فأقبلت ترقّص ابنتها وتقول:

وما عليّ أن تكون جاريه تغسل رأسي وتكون الفاليه

وترفع الساقط من خماريه حتى إذا ما بلغت ثمانيه

أزّرتها بنقبة يمانيه أنكحتها مروان أو معاويه

فسمع بها مروان فتزوّجها على مئة ألف مثقال [١].

والجوالي: هي العدول التي توضع على ظهر البعير، فهذه المرأة تريد أن تقول: إن المرأة هي جولى تحمل الحمل وتلقيه، وليس لها أي مدخلية في تكوين الجنين. وموضع الشاهد من هذه القصة هو قولها:

لا تدفع الضيم عن العيالِ

يعني أنها لا تحمل سيفاً ولا رمحاً، ولا تقاتل الأعداء فتدفع الضيم والاعتداء عن القبيلة. وإذا كان الأمر بهذا الاعتبار من وجهة نظر هؤلاء فإنه ليس هناك من

---

(١) المستطرف في كلّ فن مستظرف ٢: ٢٤.

داعٍ لأن تعطى شيئاً من الميراث. ولو أننا تتبعنا سيرتهم لوجدنا أن غير المقاتل لا يجد له مكاناً مرموقاً بينهم؛ لأن حياتهم قائمة على القتل والسلب والنهب.

على أية حال فإن هذا النمط من الآراء كان متأثراً بهذه الخلفية القبلية وبهذا الفكر البدوي؛ وبه فإن هؤلاء أوجبوا أن يلحق الولد بأبيه وليس بأُمه، مع العلم بأن الأُم تؤثر على الولد أكثر من تأثير الأب عليه من حيث حمله وحضانته وتربيته وتغذيته بالعاطفة والحب والحنان. فالأُمّ هي منشأ الأجيال بلا منازع، وهذا يعني أنك إذا أردت أن ترى جيلاً سليماً فعليك أن توجد الحجر السليم والنظيف والعفيف، وإذا أردت أن تعرف هل إن هذا الجيل سوف يصبح جيلاً ملتزماً بالأخلاق والنبل، فانظر إلى المرأة التي أنشأته وإلى حالها فيما إذا كانت امرأة عفيفة أو غير عفيفة.

الآثار السلبية للتبني

وعليه فالقرآن الكريم يريد من المسلمين أن ينسبوا الأبناء إلى آبائهم، لأنهم لا يجوز لهم أن يتبنوهم؛ فالتبني تترتب عليه أُمور عدة منها:

الأول: الكذب

فالمتبنى ليس ابنا حقيقياً للمتبني، وعليه فلا يجوز له أن ينسبه إلى نفسه.

الثاني: حرمان الأولاد الحقيقيين من حقهم

فحينما يقول الإنسان: إن هذا ابني فهذا يعني أنه سوف تترتب عليه أُمور مالية كثيرة منها النفقة والميراث وما إلى ذلك، حيث إن على الإنسان أن ينفق على هذا وأن يعطيه حصة من الميراث كما يعطي أولاده الصلبيين.

الثالث: استلزامه النظر إلى ما حرم الله

إن هذا الأمر يعني أنه يحق لهذا الولد بناء على أنه ابن لهذا الرجل أن يدخل

على عائلته وعلى زوجته وعلى بناته، وأن ينظر إليهن. وهذا لا يجوز شرعاً؛ لأنه يعتبر محرّماً عليهن.

الرابع: تحريم من أحل الله عليه وتحليل من حرم الله عليه

وذلك أنه حينما ننسب المتبنى إلى شخص معين فإننا نحكم عليه بتحريم الزواج من بنات ذلك الشخص مع أنه شرعاً وفي الأساس يجوز له الزواج منهن، كما أننا نحكم عليه بحلية الزواج من أخواته الحقيقيات اللواتي بقين مثلاً على نسبتهن لأبيهن الحقيقي أو تبناهن شخص آخر، مع أن هذا حرام شرعاً، بل ومن الموبقات. إن التصرف هذا يعني أننا أعطينا للمجتمع حق التحريم والتحليل دون النظر إلى اعتبارات الشرع في هذه العملية، وهذا الحق ـ التحليل والتحريم ـ لا يملكه أحد إلّا الله جل وعلا الذي شرع الشرائع، وسن السنن، وأنزل الأديان. وعليه فإننا بهذا نكون أعطينا لأنفسنا صفة التشريك مع الله جل وعلا في هذه المسألة، وهذا أيضاً تترتب عليه مفاسد كثيرة أقلّها أننا منحنا أنفسنا وظيفة ليست من حق أحد سوى الله جل وعلا..

إذن فهذه كلّها آثار وضعية وغير وضعية تترتب على التبني؛ ولذا فإن الشارع المقدس حرمه وقال بعدم جواز اعتبار شخص ليس ابناً لأحد ابناً له؛ لأنه أمر يستلزم الوقوع في الحرمة من هذه الناحية أيضاً، وربما يؤدي إلى ارتكاب المعصية. وقد ترد بعض الاستفتاءات حول جواز تبني من قُتل آباؤهم أو توفوا، وهذا الأمر يحتاج إلى بيان؛ ذلك أنه ربما يدخل هذا الأمر في إطار المستحبات الأكيدة لأنه يصبح من المحتم على المجتمع أن يوفر الشفقة والعطف والرعاية المادية والنفسية لهؤلاء اليتامى، فالشرع يفرض على المجتمع أن يعاملهم معاملة إنسانية كريمة وأن يوفر لهم احتياجاتهم، فكل هذا لا مانع منه شرعاً، بل إن الله

جل وعلا يوصي بذلك ويؤكد عليه لكن على شرط ألّا يصل الأمر إلى حد التبني وتحديد النسب، لأن هذا يستلزم حصول الأُمور المحظورة التي ذكرناها قبل قليل. ولهذا فإن الشارع المقدس قد حرم هذا التصرف لما يترتب عليه من مفاسد اجتماعية وأخلاقية.

وكما لاحظنا فلعل من أشد أُمور التبني خطراً هو نسبة المتبنى إلى المتبني، وبالتالي فهو يجعله ابنه، ومعنى هذا أنه يبيح له الدخول على بناته، وهو غير جائز من وجهة نظر الشرع.

نسبة من لم يُعرف أبوه

ويترتب على هذا أننا لا يجوز لنا أن ننسب المتبنى إلى أحد حتى تتبين حقيقة نسبه، ويعرف من هو أبوه الحقيقي فينسب له. بمعنى أنه يبقى من غير أب ومن غير نسبة، فهو أخ في الدين حتى يتبين الأمر؛ فإن وجد له أب نسب إليه، وإلّا فهو أخ في الدين والإنسانية وليس أكثر من ذلك.

نسب زياد

وقد تكررت هذه المفارقة التاريخية أكثر من مرة في تاريخنا، ومن ذلك إلحاق معاوية بن أبي سفيان لزياد ابن أبيه بنسبه، أي بأبي سفيان. وزياد كان شخصية إدارية قديرة، وكان من ألمع عمّال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام؛ ولذا فإن معاوية عمد إلى الدهاء والحيلة حينما أراد أن يجتذبه إلى صفه.

إمامة ابن زياد للصلاة

وكان الإمام عليه السلام يعرف أن هذا الرجل ليس ابناً شرعياً، فلم يكن له أب معروف، ومع ذلك فإننا نجد أن الإمام عليه السلام قد ولّاه بعض أعماله، وجعله إماماً للصلاة

بالمسلمين، وهذا الأمر تترتب عليه مسألة هي جواز إمامة ابن الزنا في الصلاة وعدمها. وقد ظهرت بعض الآراء التي تحمل ابن الزنا مسؤولية غيره، ومن هذا ما يُذهب من أنه لا يجوز له أن يصلي بالناس، والحال أن القرآن الكريم يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[1].

ومثل هذا الكلام يصطدم مع الأُصول العامة اصطداماً مباشراً، ثم إن الأدلة عندنا أنه لا يتحمل أحد مسؤولية غيره: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[2].

وعليه فما ذنب هذا حينما يكون متولداً بهذه الطريقة غير الشرعية؟ إن أباه وأُمه قد جنيا عليه بما ارتكبا من فاحشة لكن بالنسبة له لا ذنب له في هذه المسألة. بل وحتى من الناحية الموضوعية فإن هذا الأمر يعتدى عليها فيقولون: إن الولد إذا كانت نطفته غير طاهرة فإنه لا ينجب. وهذا الأمر في علم الله، لكن لو أننا نظرنا إلى القاعدة الأصلية فإننا نجد أنه لا ذنب لهذا الولد بل إن المجتمع هو الذي يصنع الضحية ومن بعد ذلك يرقص على أشلائها. إن هذا يعني أن مجتمعاتنا مجتمعات مريضة، فهي تنظر إلى ابن الزنا على أنه إنسان مشبوه فلا يقرب ولا يزوج وما إلى ذلك.

المجتمع يخلق مقدمات الجريمة بخلق معوقات الزواج

وبما إن هذا المجتمع لم يسأل نفسه كيف أن هذا المتولد من الزنا تولّد منه، ولو نظر إلى الأمر بعين العقل والبصيرة فإنه ـ المجتمع ـ سيجد أن هذا إنما ولد بجناية منه لأنه هو الذي شجع على ارتكاب هذه الخطيئة بتعقيد أُمور الزواج المشروع

---

(١) الأنعام: ١٦٤، فاطر: ١٨. (٢) البقرة: ٢٨٦.

وما إلى ذلك، أو على أقل التقديرات بخطيئة الأبوين أنفسهما وليس بخطيئة هذا المتولد من ذلك السفاح. إن المجتمع يدفع أبناءه في بعض الحالات إلى ارتكاب هذه الخطيئة دفعاً، فهم حينما يأتيهم خاطب فإنهم يضعون أمامه ألف عائق يحول دونه ودون الزواج مع أن الشرع المقدس يقول: **«إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه»**[1].

العائق المذهبي

وهذه المعوقات لا تقتصر على الجنبة المالية والاجتماعية فقط، بل إنها تتعدّاها إلى الجنبة المذهبيّة كذلك، وقد سمعت من أحد أساتذة الجامعات ونحن في القرن العشرين قوله: إن الشيعي لا نقبل دينه، وعليه فلا نزوجه؛ لأنه يعتقد أن جبرائيل خان وبلغ الرسالة لمحمد بن عبد الله ﷺ دون أن يبلغها إلى علي بن أبي طالب ﵇[2].

ولست أدري هل إن الله جل وعلا لم يكن يعلم أن هذا الملك الذي خان الأمانة سوف يفعل هذا، أم إنه كان يعلم؟ إنه ليس من المستغرب أن يرد هذا الكلام على لسان عامي جاهل، لكن الغريب المستبشع هو أن يأتي هذا الكلام على لسان أُستاذ جامعي يحمل شهادة الدكتوراه. ولعل هذا الأُستاذ لم يسأل نفسه عن مصدر هذا الكلام، وهل إنه موجود في كتبنا أم إنه غير موجود بل إن هو إلّا من بنات مخيلات الأفكار المريضة. وفي حقيقة الأمر إن هذا بلاء عظيم قد ابتلينا به، فنحن نعيش في عصبية عمياء وفي مجتمع منتن لا يعطي الحق لأهله ولا يحترم

---

(١) الكافي ٥: ٣٤٧ / ٢ ـ ٣، الفقيه ٣: ٢٩٣ / ٤٣٨١، كنز العمّال ٦: ٤٥٩ / ٤٥٤٢٧.

(٢) وقد تناول المحاضر ﵀ هذا الأمر في إحدى المحاضرات التي تضمّنها كتابنا هذا. انظر ج ١٠ / محاضرة (الخلافة في الأرض).

آراء الآخرين وأفكارهم المبتنية على الدليل والبرهان. إن المفروض أننا جميعاً أهل «**لا إله إلّا الله**»، وأن كلمة «**لا إله إلّا الله**» هي التي تجمعنا، لكننا مع هذا نجد أن هناك نمطاً من العداء لا يمكن أن يعقل.

إذن فالمجتمع نفسه هو من يدفع الكثير من الشباب إلى ارتكاب هذه الخطيئة بغلاء المهور ووضع الفوارق المالية والاجتماعية والبدع الغريبة والعجيبة التي لا أساس لها في الإسلام، والمبتنية على أساس عصبي أو عرقي أو اجتماعي وما إلى ذلك.

العائق الثقافي

ثم إن المجتمع كذلك يشجّع على هذه الخطيئة من خلال انعدام الجانب الثقافي عنده، أو انعدام الحسّ الثقافي إزاء هذه المشكلة. وهذا يتمثّل بعدم إنشاء مؤسسات تعنى بهذا الأمر وبالشباب الراغبين في الزواج والذين لا يجدون ما ينفقون لأجل تحصيل هذا الأمر. وعليه فيجب أن يكون دور هذه المؤسسات قائماً على أساسين:

الأول: تهيئة الأجواء الصحيحة للشباب عبر ترويضهم على الزواج المبكر.

الثاني: توفير سبل الزواج، وتذليل العقبات التي يضعها المجتمع أمامهم.

العائق العلمي

ومن المشاكل التي برزت في هذا المجال هو أن هناك بدعة بدأت تشق طريقها في مجتمعاتنا وتأخذ مجالها الواسع وهي أن الشاب لا يتزوج حتى يكمل تعليمه، مع أنه سوف يقضي فترة طويلة أثناء فترة تعليمه وهو في حالة اختلاط مع الجنس الآخر. وينبغي ألّا ننسى أن هذه الفترة هي من أعنف الفترات، والفتى أو الفتاة هنا

إما أن يكونا نجيبين فيحافظا على نفسيهما، أو يجرفهما الهوى والشيطان في طريقه.

إذن فالمصيبة الطامة أننا لا نملك مؤسسات تربوية تؤدي دوراً معيناً من الأدوار التي من الممكن أن تخدم مجتمعاتنا. إن من المفروض أن يكون لكل مجتمع نمط من أنماط النشاط الاجتماعي أو الديني أو غيرهما مما يحفظ للمجتمع توازنه ووجوده وقيمه وعاداته وأخلاقياته التي درج عليها، والتي أقرّها الشرع الحنيف. إننا لا نملك مثل هذه المؤسسات مع أن غيرنا يمتلكها وينفذ من خلالها إلى الشباب وإلى الفتيات ليمرر إليهم عبر هذه المؤسسات أفكاره ونظمه وأخلاقياته. كما أن هذا الغير نجده يجيد أكثر من لغة، وهو عادة ذو خلفية ثقافية جيدة ويتوفّر على أُمور إيجابية كثيرة، فينبغي علينا أن نفعل مثل ذلك وأن نرتقي بأبنائنا وأنفسنا إلى مستوى حمل المسؤولية الإلهية.

إنني لا أريد أن أُحمّل هذه المسؤولية طرفاً واحداً؛ فالمجتمع يتحمل جزءاً من هذه المسؤولية، والدولة تتحمل الجزء الآخر منها، كما أن التدريس والتربية جانبان مهمان في حياة كل إنسان.

عامل اللغة

ثم إن اللغة لها تأثيرها الكبير في هذا المجال؛ ولذا فإنه تأتيني بين آونة وآخرى بعض المسائل من المهاجرين يشتكون فيها اللوعة، فهم يتشوّقون هناك إلى نص ديني بلغة عربية، أو إلى نص اجتماعي بهذه اللغة؛ لأن هؤلاء يشعرون بأنهم ليس عندهم إشباع ما لم يسمعوا لغتهم ويتفاعلوا معها تفاعلاً قوياً، ويتفاعلوا مع إخوانهم بها أيضاً. وهذا يعني أن هؤلاء بحاجة إلى مؤسسة ثقافيّة

تربطهم مع بعضهم، وتتحاور معهم، وتجمعهم في المناسبات الدينية وغير الدينية للتباحث والتشاور ومعرفة أحوال بعضهم البعض.

إننا نفتقر إلى مثل هذه المؤسسات، في حين أن غيرنا يمتلك مثل هذه المؤسسات وبكثافة عالية، ومن ذلك أنه بمجرد أن تتحرّر مدينة في جنوب أفريقيا مثلاً فإننا نجد أن هناك تهافتاً كبيراً واضحاً عليها من المرشدين ورجال الدين مما يؤدي ذلك إلى افتتاح المساجد وبعض المؤسسات الأُخرى فيها لجمع أبناء ذلك المذهب فيها وتوحيدهم، أما نحن فلا يتحرك لنا ساكن في مثل هذا الباب. وعليه فإن المسألة تحتاج إلى اهتمام أكبر، ونحن لابد أن نتوجه إلى هذا الأمر، وأن نلتفت إليه، وأن نتحرك على ضوء احتياجات أبنائنا الموجودين هناك، ومتابعة مشاكلهم ومشاكل أبنائهم الذين يعيشون في تلك الدول.

إذن فالمجتمع هو الذي يخلق الضحية ثم يعمد إلى أن يرقص على أشلائها، وعلى أية حال فمعاوية هذا أراد أن يجتذب زياد بن أبيه باعتباره إدارياً قديراً، فأتاه من نقطة ضعفه، وهي تسمية الناس إياه ابن زنا، ولذا فإنه فكر في أنه إن جعله ابناً لأبي سفيان فإنه سوف يقضي على هذا العار الذي لحقه أو الذي يتكلم به الناس عنه، لأنه حينئذٍ سوف يصبح أخاه، وسوف يأخذ مكانة كبيرة في المجتمع. وهكذا راح يغذي إحساسه بهذا المعنى، ويعوض خسارته التي كانت عنده عبر إلحاقه بأبي سفيان. وقد انبرى له كثير من الناس يعترضون عليه على هذا الفعل، لكنه أسكتهم، ومن ذلك قول أحدهم:

ألا أبلغ معاية بن صخر	فقد ضاقت بما تأتي اليدان
أتغضب أن يقال أبوك عفّ	وترضى أن يقال أبوك زانِ
فأشهد أن رحمك من زياد	كرحم الفيل من ولد الأتان

وأشـــهد أنـــها حـــملت زيـــاداً ... وصـــخر مـــن سمية غـير دانِ[١]

وقول الآخر:

إنّ زيـــاداً ونـــافعاً وأبـــابكـ ... ـرة عندي من أعجب العـجبِ

هـمُ رجـال ثـلاثة خـلقوا فـي ... رحـم أنـثىٰ مُـخالفو النسبِ

ذا قـــرشيّ كـــما يـــقول وذا ... مولى وهذا بزعمه عـربي[٢]

وقد عمل معاوية من أجل هذا مهرجاناً كبيراً؛ لإعلام الناس بالأمر، ولإثباته أمامهم، ولإطلاعهم عليه؛ كيلا يرجعوا إلى تسميته بابن أبيه، وليقرب هذا المعنى من أذهانهم وليجعلها تعتاده وتستأنس به؛ فلا ترجع إلى القول بأنه ابن أبيه. وقد مرَّ زياد يوماً من الأيّام في موكبه علىٰ أبي الأديان العدويّ، وكان شيخاً مكفوفاً، فسأل: ما الخبر وما هذه الجلبة؟ فقيل: هذا زياد بن أبي سفيان. فلما سمع أبـو الأديان ذلك قال: والله، ما ترك أبو سفيان إلّا يـزيد ومـعاوية وعـتبة وعـنبسة وحنظلة ومحمّداً، فمن أين جاء زياد؟

فبلغ الكلام زياداً، فأرسل إليه بمئتي دينار، ثم مرَّبه من الغد في موكبه فسلَّم عليه، فردَّ عليه السلام، وبكىٰ، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: عرفت صوت أبي سفيان في صوت زياد. وبلغ ذلك معاوية، فكتب إلىٰ أبي الأديان العدويّ:

ما ألبثتك الدنانير التـي بُـعثت ... أن لوَّنـتك أبـا الأديـان ألوانـا

أمسـىٰ إليك زيـاد فـي أرومـته ... نكراً فأصبح ما أنكـرت عـرفانا

---

(١) الأبيات لابن مفرّغ، وقيل: لعبد الرحمن بن الحكم. تاريخ الطبري ٤: ٢٣٥، الكامل في التاريخ ٣: ٥٢٣، الاستيعاب ٢: ٥٢٦ ـ ٥٢٧، ٥٢٧ ـ ٥٢٨، نيل الأوطار ٥: ١٩٤ شرح نهج البلاغة ١٦: ١٩٠.

(٢) تاريخ الطبري ٦: ٣٦٤، الاستيعاب ٢: ٥٢٨، الكامل في التاريخ ٦: ٤٨، شرح نهج البلاغة ١٦: ١٩٢.

لله درّ زيـــاد لو تـــعجّلها　　　كانت له دون ما يخشاه قربانا

فأجابه أبو الأديان بقوله :

أحدِث لنا صلة تحيا النفوسُ بها　　　قد كدت يابن أبي سفيان تنسانا

أمّا زياد فقد صحّت مناسبه　　　عندي فلا أبتغي في الحقّ بهتانا

من يسدِ خيراً يصبْه حين يفعله　　　أو يسدِ شرّاً يصبْه حيثما كانا[1]

حكم من يولد في أرض الإسلام أو في أرض المعاهَدين

والمتبنى إن كان قد ولد في بلد إسلامي أو بلد فيه معاهدون ومسلمون ففي مثل هذه الحالة نحكم على الولد بأنه حر؛ لأن الأصل في الولادة الحرية. وأُلفت النظر هنا إلى أن هذا مبدأ إسلامي ضخم، فالأصل في الإنسان من وجهة نظر المشرع الإسلامي هو الحرية لا العبودية؛ لأن العبودية إنما تحدث للإنسان لظرف طارئ تحكم به الأوضاع السياسية أو العسكرية أو ما إلى ذلك. وفي هذا رد واضح على من يدّعي أن الإسلام يتبنّى نظرية الرق.

والواقع أن الرقّ أو العبودية ما هما إلّا حالةٌ كانت قائمةً في المجتمع عند نزول الإسلام الذي وضع لها بعد ذلك حلولاً كثيرة؛ فالفقهاء يقولون بأنه إذا وجد طفل في بلد فيه مسلم وفيه معاهَد فإنه يحمل على الإسلام ويأخذ حقوق الفرد المسلم، فإن لم يكونوا يعرفون أباه فعليهم أن يعبروا عنه بأنه أخوهم في الإسلام والمعتقد؛ حتى لا يقع حرج في البين، أو يقع محذور من المحاذير التي سبق أن ذكرناها. والمتبنى اللقيط لا يجوز لأحد أن يذكره بلفظ معين يمكن أن يؤدي إلى تجريحه أو جرحه أو إيلامه؛ فهو مخلوق قد قست عليه الظروف وتهيأت له فرص غير

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٦ : ١٨٨.

صحيحة ليتولد عبرها، أما أن يذكر دائماً فيقال له: إنك ولد غير شرعي، أو إنك ابن زنا، فهذا غير مبرّر إطلاقاً، وغير جائز أبداً؛ لأن هذا يؤدي إلى حصول الألم في نفسه، وحدوث الانكسار فيها.

إذن فهذا أخ في الدين، أو هو مولى؛ لأن كلمة المولى تدل على القرب إما بالنسب أو بالمودة، وهي تطلق على المنعِم أو المنعَم عليه، أي أنها من الأضداد. فهذا من ضحايا المجتمع، وعليه فلا بد أن يرد إليه المجتمع اعتباره وان يداوي جراحه وأن يمسح على ألمه كيلا ينشأ حاقداً على المجتمع.

إذن فالآية الكريمة تقول: إن هٰؤلاء وإن كنت لا تعرفون آباءهم لكن لا يجوز لكم أن تنسبوهم إلى أنفسكم بل إنهم إخوانكم في الدين أو مواليكم؛ كيلا تقع المحذورات الشرعية أو الأخلاقية التي ذكرناها في ما مضى.

المبحث الرابع: في حكم من نسب إلى غير أبيه قبل تشريع التحريم

ثم انتقلت الآية الكريمة: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾، وهذا يعني إنه حينما تنسب أحد خطأ إلى غير أبيه فإن الله جل وعلا هنا يرفع البلاء عمن لا يعلم بالحرمة أو من عمل بذلك قبل تشريعها. وهذا يعني إنه إذا ظن إنسان إنساناً إنه ابن فلان، ثم نسبه إلى ذلك الشخص وقال: هذا فلان ابن فلان، فإنه في مثل هذه الحالة لا ضير عليه، أما الضير فإنه يأتي حينما يتعمد الإنسان نسبته أو نسبة ذلك الشخص إلى غير أبيه مع علمه بذلك، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة بقولها:. ﴿فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ فالذي يعرف أن هذه النسبة غير حقيقية وليست صحيحة، ثم يتعمد القول بها وذكرها ونشرها بين الناس، فإنه حينئذٍ يكون قد ارتكب إثماً ومعصية لله جل وعلا، فلا يجوز كما ذكرنا في المبحث السابق أن ينسب أحد إلى الآخر دون أن يكون أباه.

ومن هذا أيضاً (تحريم النسبة) أن ينسب شخص إلى الحرام مع أنه ابن حلال، فإذا كان شخص ما معروفاً بصحة نسبه وبشرعيته فإنه حينئذٍ لا يجوز لأحد أن ينسبه إلى كونه ابن فاحشة أو ما إلى ذلك؛ لأن المفروض أن اللسان يجب أن يكون عليه رقيب، والكلمة مسؤول عنها صاحبها، وأن جرحها لا يبرؤ أبداً، بخلاف جرح الآلة الحادة كالسيف والخنجر وما يشبههما، فهذه الجراح تبرؤ وتندثر، أما جرح الكلمة فلا يبرؤ أبداً، يقول أحد الشعراء:

جراحات السيوف لها التئام ... ولا يلتام ما جرح اللسانُ[1]

فجرح الكلمة يبقى وإن مضى الزمن، والكلمة تظلّ تدور وترن في ذهن من قيلت فيه. ولتقريب المعنى فإننا نذكر أن التاريخ لا زال حتى الآن يناقش عمر بن الخطّاب على كلمته التي نسبها للإمام أمير المؤمنين، حيث قال: إن فيه دعابة[2]؛ لأن هذه الكلمة فيها زور وبهتان[3] وافتراء. وقد مرّ على هذه الكلمة حتى الآن قرابة الأربعة عشر قرناً من الزمان وهي لا تزال تناقش؛ لأنها كلمة يراد منها التجريح وطمس الحقيقة وتزوير الواقع وتشويهه.

وهكذا فالآية تنص على أن غير المتعمد لا بأس عليه أن ينسب هذا الشخص إلى غير أبيه، وهذا الأمر يجري مع غير العالم أيضاً، أما من يعلم ذلك أو يتعمد ذكره فإنه سوف يقع تحت طائلة التحريم والعقوبة الإلهية. فالمتعمد فعل معصية يتعرّض للمساءلة عنها يوم القيامة والحساب عليها.

---

(١) ثمار القلوب ١: ٥٠٠ – ٣٣٤، شرح كتاب الأمثال ١: ٢٤.

(٢) نهج البلاغة / الخطبة: ٨٤.

(٣) ورد في الحديث الشريف: «من ذكر رجلا من خلفه بما هو فيه مما عرفه الناس لم يغتبه، ومن ذكره من خلفه بما هو فيه مما لا يعرفه الناس اغتابه، ومن ذكره بما ليس فيه فقد بهته». انظر: الكافي ٢: ٣٥٨ / ٦، مسند أحمد ٢: ٢٣٠، ٣٨٤، ٣٨٦، ٤٥٨.

المبحث الخامس: الآثار الوضعية للزنا

مما يرد على ألسنة بعض العلماء أنه لا يقتل نبياً أو وصياً إلّا شقي، وهذا الشقي تجده ظاهراً ابن أبيه، لكن حينما يبحث عنه فإنه سوف يتّضح أنه من الأشقياء الأدعياء. ومما ينسب إلى الحوراء زينب عليها السلام حينما نزلت يوم العاشر من المحرم إلى ساحة المعركة، ومرت تنعى إخوانها وأبناءهم وأنصار الحسين عليه السلام قولها: «يا رسول الله، هذا حسينك بالعرا، محزوز الرأس من القفا، مسلوب العمامة والردا! بأبي من هو لا جريح فيداوىٰ، ولا غائب فيرتجىٰ، بأبي من شيبته مخضوبة بالدما، يا قتيل أولاد الأدعياء»[1].

نعم لقد بقيت جثة الإمام الحسين عليه السلام ثلاثة أيام على رمضاء كربلاء تصهرها الشمس دون أن يواريها أحد.. بقي بالعراء مستقبلاً السماء وكأنه لا زال يردّد: **«لك العتبىٰ يارب، صبراً علىٰ قضائك، ياغياث المستغيثين، إن كان هذا يرضيك فخذ حتىٰ ترضىٰ»**[2].

وقد بقي كذلك حتى رجع إليه الإمام السجاد عليه السلام في اليوم الثالث عشر من المحرم الحرام؛ لكي يواريه، يقول بعض المؤرّخين: لما أقبل الإمام السجاد عليه السلام وجد بني أسد مجتمعين عند القتلى متحيّرين لا يدرون ما يصنعون، ولم يهتدوا إلى معرفتهم، وقد فرّق القوم بين رؤوسهم وأبدانهم، وربما يسألون مَن أهلهم وعشيرتهم، فسألهم الإمام عن سبب وجودهم، ولأنهم لم يعرفوه أجابوه عليه السلام بأنهم

---

(١) انظر: مثير الأحزان: ٥٩، بحار الأنوار ٤٥: ١٣٢، وفي ص ٥٩ منه: «قتيل أولاد البغايا».

(٢) انظر: شجرة طوبى ٢: ٤٠٩، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٣٥٧، ينابيع المودّة ٣: ٨٣.

قد جاؤوا لينظروا القتلى، فقال عليه السلام: **«لا، ولكن أخبروني بما انطوت عليه سرائركم»**. فقالوا: جئنا لنواري القتلى.

فأخبرهم عليه السلام عن نفسه، وعمّا جاء إليه من مواراة هذه الجسوم الطاهرة، وأوقفهم على أسمائهم، كما عرّفهم بالهاشميين من الأصحاب، فارتفع البكاء. ثم مشى الإمام زين العابدين عليه السلام إلى جسد أبيه واعتنقه وبكى بكاء عالياً، وأتى إلى موضع القبر ورفع قليلاً من التراب فبان قبر محفور، فبسط كفّيه تحت ظهره وقال: **«باسم الله وفي سبيل الله وعلى ملّة رسول الله تعالى، صدق الله ورسوله، ما شاء الله لا حول ولا قوة إلّا بالله العظيم»**. وأنزله وحده لم يشاركه بنو أسد فيه، لأنهم حينما أرادوا مساعدته، قال عليه السلام لهم: **«إن معي من يعينني»**.

ولما وضعه في لحده وضع خده على منحره الشريف قائلاً: **«طوبى لأرض تضمنت جسدك الطاهر، فإن الدنيا بعدك مظلمة، والآخرة بنورك مشرقة. أما ليلي فمسهد، وأما حزني فسرمد حتى يختار الله لأهل بيتك دارك التي أنت بها مقيم، وعليك مني السلام يابن رسول الله ورحمة الله وبركاته»**.

ثم جاء بجسد الرضيع، واحتفر له عند رجلي أبيه عليه السلام، ذلك أن الوصية كانت ترن في أُذنه الشريفة: **«بني علي، وسدّ الرضيع إلى جنبي»**. وبعد أن أتم كل ذلك كتب على القبر: **«هذا قبر الحسين بن علي بن أبي طالب، الذي قتلوه عطشاناً غريباً»**. ثم مشى إلى عمّه العباس عليه السلام، فوقع عليه يلثم نحره المقدّس قائلاً: **«على الدنيا بعدك العفا يا قمر بني هاشم، وعليك مني السلام من شهيد محتسب ورحمة الله وبركاته»**. وشق له ضريحاً وأنزله وحده كما فعل بأبيه عليه السلام. ثم عيّن لبني أسد موضعين، وأمرهم أن يحفروا حفرتين ووضع في الأُولى بني هاشم، وفي الثانية الأصحاب، وكذلك فعل للحرّ الرياحي ولحبيب بن مظاهر الأسدي

(رضوان الله تعالى عليهما) [١].

يقول المؤرخون: وكان ﵇ قد خرج أثناء ذلك منحنياً يبحث في الأرض عن شيء، ثم التقطه منها، ولما حقّقوا النظر فيه إذا به إصبع الإمام الحسين ﵇ المقطوع:

لهفي على تلك الأنامل قُطّعت ... ولَوَ انها اتّصلت لكانت أبحرا [٢]

---

(١) مقتل الحسين ﵇ (المقرّم): ٣٢٠. (٢) ديوان ابن معتوق: ٢١٣.

﴿٢٠٩﴾

فريضة الجهاد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾[١].

وقال عزّ من قائل:

﴿وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾[٢].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: في معنى الجهاد

الجهاد هو استفراغ الوسع في مدافعة العدوّ كما يعرّفه كثير من الباحثين. وهذا التعبير يستعمل للإشعار بأن الجهاد هو حرب غير دفاعيّة وليست اعتدائية، أي أنها غير مبتنية على الاعتداء. والحال أنه تارة يعتدي شخص ما أو مجموعة ما على الآخرين فتسلبهم حقوقهم، وأُخرى يكون موقف هذه المجموعة الدفاع عن نفسها وكيانها ووجودها.

وموضوع الجهاد في الواقع يرتبط بالحرب التي هي إحدى السنن الكونية في

---

(١) التوبة: ٤١.　(٢) الصف: ١١.

المجتمع. ونحن عندما نرجع إلى المجتمعات الإنسانية، بل وحتى المجتمعات الحيوانية نلاحظ أنها تمتلك غرائز حبّ البقاء، وإلى جانب هذا نجد أنها تمتلك غريزة الدفاع عن هذه الغريزة؛ فعندما نمر بأي مجتمع من هذه المجتمعات فإننا سنرى في تاريخه هذا اللون من الدفاع المتمثّل بالقتال؛ لأنه يريد أن يحمي وجوده. فالإنسان تارة يدافع عن نفسه وعن بقائه؛ منعاً للآخرين من أن يصعدوا على أكتافه أو على حسابه. وتارة أُخرى تجمح عنده الغريزة فيحاول هو أن يصعد على أكتاف الآخرين أو على حسابهم، لكن هذا في كل الأحوال يبقى نمطاً حياتياً يعوم ضمن دائرة غريزة حبّ البقاء والتسلّط.

وهذه هي السنّة المطّردة في الحياة، أما أن تكون هناك حالات نادرة؛ شاذة أو استثنائيّة ممّا ربما سنشير إليه لاحقاً في وقته، فهذا لا يعني خرقاً لهذا القانون العامّ.

القتال عند النمل

ومهما يكن فالجهاد هو مظهر من مظاهر هذه الحالة (السنة الكونية؛ سواء كانت بشريّة أو حيوانية)، أعني الحرب، والحرب كما قلنا حالة موجودة منذ أن وجد الإنسان، بل هي سمة من سمات تاريخ الإنسانية، والطبائع الحيوانية معاً. فنحن نلاحظ على سبيل المثال أن بعض الحيوانات مثل النمل تحصل بين بعضها البعض حروب عنيفة، فلقد رصد علماء الحيوان هذه الظاهرة عند النمل، وبعد دراسة مستفيضة وجدوا أن النمل يخوض معارك ويقاتل ويرجع بعبيد من النمل ليشغلهم عنده. فعندما يسترقّ أحد الفريقين أفراداً من الفريق الآخر، يقوم بتشغيلهم عنده ـ كالعبيد عند بني الإنسان ـ في إنجاز الأعمال والقيام بوظيفة

الدفاع عنه إن لزم الأمر كما يفعل الإنسان تماماً.

الحروب الإنسانية

إن الحروب الإنسانية التي اعتادها البعض كوسيلة للاعتياش، أو منهجاً حياتياً ثابتاً هي في الحقيقة تقوم على أُسس غير تلك التي يقوم عليها مبدأ الجهاد في الإسلام. وأنا لا أُريد أن أقول: إن كلّ الأُمم غير الأُمة الإسلامية لم يكن عندها في يوم من الأيام حرب مشروعة؛ إذ أن من الممكن أن يكون عندها مثل هذه الحروب المشروعة، لكن الأصل في الحروب غير الإسلامية عادة هو البغي والاعتداء، أما مفهوم الحرب في المنظور الإسلامي فهو أساساً الدفاع عن العقيدة والدين، وليس البغي أو الاعتداء، كما سيمرّ بنا إن شاء الله تعالى خلال هذا المبحث، أو المباحث التي تليه.

الحروب في أوروبّا والرقيق

ونحن لو رجعنا إلى الحروب في أوروبّا لوجدنا أنها كانت تقوم على البغي والاعتداء، واسترقاق الأفراد والشعوب، كما هو معروف من تاريخ تلك المنطقة. ومع هذا الأمر المعروف من تاريخهم وأمرهم نجد أن كتّابهم ومؤرّخيهم عندما يمرّون بتاريخ المسلمين فإنهم ينسبون هذا الدين إلى العدائية، ويصوّرون المسلمين بأنهم أُناس يبيحون الرق بل يستبيحونه لأنفسهم دون غيرهم. أي أنهم يصوّرون الإنسان المسلم كفرد جائر ليس له من همّ سوى استرقاق أخيه الإنسان وتملّكه، وأنهم أُناس تسودهم موجة من الهمجية حملت معها أشرس الغرائز الإنسانية، أُريد بها للإنسان أن يسترق أخاه الإنسان ويستعبده، وأن يبيح بيعه وشراءه.

وهذا من أعجب العجب؛ لأنه يصوّر الإسلام كأنه هو الذي أسّس نظام الرق، ويبرزه للآخرين كأنه هو الذي أنشأ استعباد العبيد واسترقاق الإنسان، لا أنه كان نظاماً قائماً عندهم وسائداً في عصورهم قبل أن يأتي الإسلام. وفي الواقع فإن التاريخ لم يعرف أُمّة أشرس ولا أشدّ من أوروپّا في هذا الجانب؛ فحروبها يوم كانت وثنية، ويوم كانت مسيحية، ويوم وصلت حضارتها المادية إلى العنان لا تزال آثارها السلبية باقية إلى الآن.. حروب لم تكن تحترم الشيخ الكبير، ولا الطفل الصغير ولا المرأة الضعيفة. فكانوا يسترقّون الإنسان بصورة فرديّة، وبصورة جماعيّة.

وهذه الأُمور لم تعد خافية، ولا يحتاج المرء إلى أن يبحث عنها، بل إنها واضحة المعالم في تاريخهم. ولو أننا دقّقنا النظر شيئاً يسيراً لوجدنا أن الشعوب غير الأوروپّية، أو من غير شعوب العالم المتحضّر لا زالت مسترقّة إلى الآن، فهؤلاء ذوو البشرة السوداء الذين لا ذنب لهم سوى أنهم خلقوا سوداً؛ وبالتالي فإنهم لا يمكن لهم أن يشتركوا مع البيض على مائدة واحدة، أو في مدرسة واحدة، أو في حافلة واحدة، بل إن الاقتراب من أحد هذه الأُمور أو فعلها يعدّ جريمة منكرة من وجهة نظر القوميّة البيضاء. وهذا يعني أننا حينما نطّلع على تاريخ دول العالم المتحضّر وحضارتهم في هذا المجال، فإننا سنجده تاريخاً مشبعاً بالجريمة.

وقد تحمّل السود ومازالوا ألوان المعاملة القاسية والتعذيب والتنكيل، مع أن مسألة الرقيق ـ كما بيّنت أكثر من مرّة ـ ليس لها أي علاقة باللون، بمعنى أن الأسود حينما يسترق لا يسترق لأنه أسود، بل إن أي شخص يقع في الأسر في ميدان الحرب يتحوّل إلى رقيق. هذا إذا كانت الحرب مشروعة كما سيمرّ بنا خلال

هذه المحاضرة إن شاء الله تعالى.

إذن فتاريخ من يدّعون أنهم أبناء العالم المتحضّر تأريخ حافل من هذه الناحية بأنواع الجريمة التي ترتكب بحق الإنسانيّة، ولكنهم على عادتهم: رمتني بدائها وانسلّت [١].

وبهذا فإننا حينما ننعم النظر في تلك المفارقات الموجودة عندهم فإننا سنجد أنها مفارقات عجيبة غريبة، ومن هذه المفارقات أن جمعيات الرفق بالحيوان وحمايته تقيم الدنيا ولا تقعدها، وتندفع في موجة غضب عارمة ـ وهي في حقيقة الأمر فارغة ـ عندما يعلن أحد العلماء عن محاولته إجراء تجارب علميّة على قرد أو كلب أو فأر، هذا في وقت تسحق كرامة الإنسان بدوافع عرقيّة أو دينية أو جغرافية. وهذا اللون القذر من النفاق المبطّن يصل عندهم إلى درجة تثير الاشمئزاز؛ فهم في الوقت الذي يفعلون ذلك إزاء الحيوانات دفاعاً عنها، نجدهم يسلطون عملاءهم على شعوب معينة فتذبح عن بكرة أبيها، دون أن تنال ضمائرهم حصة من الألم أو الاستنكار أبداً، ودون أن ينال مرتكبو هذه الجرائم البشعة عقابهم.

نعم ربما ارتفعت هنا وهناك أصوت من مصلحيهم تنادي بالكفّ عن الإنسان وظلمه، لكن:

لقد أسمعت لو ناديت حياً [٢]

وإلّا فليس هناك شيء أقسى من حروبهم.. الحروب الطاحنة التي لا تعرف

---

(١) شرح كتاب الأمثال ١: ٩٢، مجمع الأمثال ١: ١٠٢ / ٥٠٥، ٢٨٦ / ١٥٢١، جمهرة الأمثال ١: ٤٧٢، ٤٧٥ / ٥٨١.

(٢) صدر بيت لبسطام بن علي. أعيان الشيعة ٢: ٥٦٨.

الرحمة ولا الشفقة.. الحروب التي أبادت عشرات الملايين من أجل السيطرة على موارد العالم. فهؤلاء يقتلون الملايين بدم بارد وأعصاب أكثر برودة دون أن تأخذهم بالشعوب الأُخرى شفقة أو رحمة، وكأنهم يلهون أو يلعبون.

ضرورة التفريق بين تشريع الإسلام وفعل المسلمين

وهذا الأمر بطبيعة الحال لا يعنيني، وإنما ذكرته استطراداً لتصحيح مسار واقع تعمّد الآخرون تشويهه، وكل ما يعنيني هو أن أتناول الجهاد بالمفهوم الإسلامي له، لكن قبل أن ألج إلى صلب هذا الموضوع أودّ أن أُنبّه إلى شيء هامّ جداً ينبغي الالتفات إليه هوَ أننا عندنا مفهوم إسلامي للأشياء، وعندنا فهم المسلمين لها. والفرق ـ كما هو غير خافٍ ـ كبير بينهما، بمعنى أننا حينما نقول: إن الجهاد هو استفراغ الوسع في مدافعة العدو، فهذا من الناحية النظرية، أي من وجهة نظر المشرّع الإسلامي المعبّر عنها على لسان فقهاء المسلمين أو النصوص، أي إمّا أن نرجع إلى النصوص التشريعية الواردة في المقام، أو إلى فتاوى الفقهاء لتحديد مفهوم الجهاد وفق نظرية المشرّع الأقدس كما بيّنا. فإن حصلت هنا وهناك خروقات ـ وهو ما أثبته التاريخ لنا ـ فإن هذه الخروقات تحسب على أصحابها الذين قاموا بها أو ارتكبوها؛ لأنهم لا يمثّلون الإسلام مطلقاً، بل إنهم ليسوا من الإسلام في شي.

إشكال حول الفتوحات الإسلامية

وهذا التحديد للجهاد يعني أنه يجب أن يقوم على فكرة الدفاع عن النفس، وليس على فكرة الهجوم.

وهنا قد يسأل سائل فيقول: لماذا يبتدئ المسلمون بمقاتلة الكفّار إذا لم يسلموا؟

والجواب أن يقال: إن القتال في واقع الأمر ليس مع أهل الذمّة كالنصارى واليهود؛ لأننا ليس لنا عداء مع اليهودية كدين، وإنما عداؤنا لليهود أنفسهم، بل إنه عداء لفئة سياسية معيّنة منهم، هي الصهيونية. وإلاّ فاليهود بشكل عام ـ أي المسالمون منهم، وهم أهل الذمّة ـ ليس لنا أي نوع عداء معهم. ولو أننا رجعنا إلى تاريخ اليهود لوجدنا أنهم عاشوا في ظلّ الإسلام عيشة راقية في مختلف الأقطار الإسلامية، بل إن بعضهم وصل إلى مراكز حسّاسة وضخمة في دول الإسلام. وهذا يعني أنه لم تكن هناك أي حساسية إزاءهم، بل إنهم كانوا يُتعامل معهم كأُناس حملة دين.

إننا نحترم الأديان السماوية كلّها، فلا نفرق بين أحد من الأنبياء ﵈، كما يقول النص التشريعي: **﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾**[1]، ولا بين أتباعهم المسالمين؛ فكلٌّ له ديانة محترمة. وحينما يأتي الإسلام إلى بلد ليس فيه مسلمين وعندهم دين، فإنه لا يقاتلهم، وإنما كان يخيّرهم واحداً من ثلاثة أمور، هي:

الأول: الإسلام

فالإسلام يخاطبهم أول ما يخاطبهم بأن يوجه إليهم النداء للدخول في هذا الدين السماوي الجديد، أي أن يسلموا، وحينئذٍ يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم.

الثاني: دفع الجزية

وإن لم يستجيبوا لنداء الإسلام فإن عليهم أن ينتقلوا إلى الخيار الثاني، وهو

---

(١) البقرة: ٢٨٥.

أنهم إن أرادوا أن يحتفظوا بدينهم، فإن لهم الحق في ذلك، لكن شريطة أن يطبّقوا شروط المواطنة[١]، ومن جملة شروط المواطنة هي أن يدفعوا ضريبة بقائهم على دينهم ووجودهم في ظلّ حماية الدين الإسلامي. وهذه الضريبة تسمى الجزية، ويتم تقدير هذه الجزية وفرضها حسب حالة الإنسان الاقتصاديّة، وهي بكلّ الأحوال لا تتعدى بضعة دريهمات.

ضريبة المسلم أكبر من ضريبة الذمي

وهذا يعني أنها شيء رمزي يعبّر عن التزام الذمّي بآداب المواطنة ليس إلاّ، وإلّا في واقع الأمر فإن المسلم يدفع ضرائب أكثر منه؛ فهو يدفع نفقات واجبة وأُخرى مستحبّة؛ فيدفع على رأي الخمس والزكاة من ماله، وعلى رأي آخر يدفع الزكاة فقط، هذا عدا زكاة الفطرة وغيرها من الكفارات وما إلى ذلك، وليس هذا بالشيء القليل مطلقاً. في حين أن هذا الذمي لا يدفع إلّا بضعة دريهمات نعبّر عنها بأنها الجزية، وبها يأخذ الحقوق عينها التي يأخذها المسلم نفسه.

وهذا تاريخ المسلمين معروف بخصوص تعامل الإسلام مع اليهود والنصارى والمجوس، بل وكل من عنده شبهة كتاب؛ حيث إن الإسلام يعتبرهم أهل دين، فترك لهم الحقّ في البقاء على دينهم، بشرط أن يدفعوا الجزية، ويخضعوا للدولة الإسلامية.

الثالث: القتال

فإن لم يستجب أهل الكتاب للشرطين الأولين، فحينئذٍ يتوجّب قتالهم؛ لأنهم

---

(١) ومنها عدم خيانة المسلمين، وعدم التجسّس عليهم لصالح العدو وكشف عوراتهم له، أو إطلاعه عليها.

لا تتوفّر عندهم نية السلم، ولو كانوا يريدونه لقبلوا بذينك الشرطين الأولين، وإذ لم يفعلوا فقد وجب قتالهم.

قتال المشركين

أما قتال الإسلام للمشركين فهو يعتبر أيضاً حرباً دفاعية؛ ذلك أن المشرع الإسلامي حينما يأمر بقتال المشركين فلأنهم لا يؤمنون بقيم ولا بنظام ولا بمبادئ، وهذا يعني بتعبير آخر أنه عدوّ للقانون؛ لأن الكافر ليس عنده شيء ممنوع، وليس عنده شيء حرام، وليس هناك من شيء يمكن أن يقف بوجهه. أي أنه ربما يذبح الدنيا بكاملها على محراب رغباته، أو أن يعتدي على الوجود بأسره لتحقيق أهوائه؛ فهو ليس لديه أي التزام.

وهنا قد يقول قائل: إن هناك الكثير من الكفار المهذبين بشكل أكبر من الذين يدعون أن لهم ديناً.

والجواب أن يقال: إن هذا في حقيقة الأمر يعتبر من الحالات الشاذّة أو النادرة، وإن العرف المتبانى عند هؤلاء هو خلاف ذلك. ونحن في مقام لا نتكلم عن الحالات الشاذّة أو النادرة؛ فهي لا تؤسّس عليها قاعدة، بل إننا نتكلم بشكل عام، وهو أن الإنسان إذا لم يكن عنده التزام بدين، فإنه يصبح خطراً على الإنسانية. وهو إذا كان بهذه الحال فإن الإسلام يخاطبه بالقول: إما أن تسلم فيكون لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم، وإلّا ـ إن لم تسلم ـ فإنك تعرّض نفسك لخطر القتال؛ لأن الإسلام يعتبره مصدر خطر على الحياة والوجود والإنسانية، فيقاتله؛ لأن غير المسلم أو غير الكتابي ليس إلّا كافراً بالقيم والمبادئ والأخلاقيات.

ثم إن ابن الإسلام يعتقد بوجود ربّ يجازي على المعصية، ويثيب على

الطاعة، ومن هنا فإن هناك طقوساً وشعائر يؤدّيها، هي تعبير عن التزامه بهذه القيم والمبادئ، ورمز لها. وهذه هي خلاصة الإسلام، أما بالنسبة للكافر فهو يعني من وجهة نظر الإسلام أنه كائن خطر، أي أنه لا مانع يمنعه ـ إذا جمحت به رغبة من رغباته ـ من أن يحرق الدنيا من أجل تلك الرغبة؛ لأنه كائن متجرّد عن القيم والمبادئ والأخلاقيات البشرية، فضلاً عن الدينية، فهو ليس له إيمان مطلقاً، وإذا كان كذلك فهو لا يلتزم بشيء.

ثم إن المفروض بالمسلم أن عنده إيماناً بالقيم السماويّة التي أنزلها الله تعالى على رسوله الأكرم ﷺ، لكني هنا لا أنكر أن هناك أُناساً حملوا الإسلام كاسم والإسلام منهم براء. فهؤلاء اكتفوا من كلمة «**لا إله إلّا الله**» بقولها دون حملها والعمل بها؛ ولذا فإننا حينما نضع أفعالهم وتصرّفاتهم تحت مجهر الإسلام فسوف نجدها أفعال حيوان كاسر تبتعد عن الإسلام وعن روحه جملة وتفصيلاً. فهذا النمط من الناس موجود بين المسلمين لكن هذا لا يعني أن الإسلام دين اللارحمة أو دين البعد عن تطبيق القيم والمبادئ، وكذلك الأمر مع المشركين، فإن من الممكن أن يوجد إنسان مشرك وعنده التزام بمبادئ معينة وإن لم تكن سماوية، لكنها تبقى حالة شاذّة ونادرة لا يمكن أن يقاس عليها أمر الشرك كلّه، أو ما يشكّله من خطر على الآخرين.

وعليه فحاله هنا حال ذلك الشاذّ المدّعي الإسلام وهو لا يطبّق شيئاً من تعاليمه أو أخلاقياته.

فهاتان الحالان موجودتان، لكن كما قلت: هما حالان شاذّتان لا يقاس عليهما، والقياس يقع على القاعدة، والقاعدة غير هذا، ذلك أنها تنصّ على أن الإنسان إذا أصبح مسلماً ملتزماً فإنه يُخضع نفسه لضوابط السماء في تصرفاته

كافّة، لكنه إن لم يكن مسلماً، فإنه حينئذٍ سوف لن يلتزم بضوابط بعينها. وهذا هو المسوغ الذي يمنحه الإسلام لنفسه في أن يدفع هذا المشرك المتخلّي عن القيم عن طريق الإنسانية باعتبار أنه خطر عليها، فيحاول أن يزيحه عن طريقها، وإلّا فليس هناك من بغي عليه أبداً.

وبهذا فالإسلام ليس عنده قانون لاسترقاق الناس بالمعنى الذي تهرّج به أوروبا عليه. إننا نعرف أن الإنسان عندما يقرّر أن يشتري قطعة أرض في أوروبا، فإنه يشتري معها الفلّاح كذلك؛ لأن الفلاح من وجهة نظرهم قن تابع للأرض، فهو يعمل فيها من الصباح إلى الليل دون أن يكون له من عمله أو أمواله شيء، ولا يأكل منها رغيفاً من الخبز، بل إنه ينفّذ أوامر السيّد الذي يتحكّم به كيف يشاء وفي كلّ شيء وكأنه من خواصّه.

أما في الإسلام فإن مالك العبد إذا قال لعبده: أخزاك الله، فإنه يعتقه قهراً عليه. وكذلك إذا ضربه فإنه يُعتق عليه أيضاً عند بعض فقهائنا [١]. وإذا وطئ جاريته فحملت منه وولدت له طفلاً فإنها تنعتق قهراً عليه [٢] كذلك. فأين يمكن لأحد أن يجد مثل هذه الشريعة؟ وقد سبق أن شرحت هذا المعنى بصورة مفصّلة أكثر من مرّة [٣].

---

(١) كما في حديث ابن مسعود قال: كنت أضرب عبدي بالسوط فسمعت صوتاً من خلفي، وإذا هو رسول الله ﷺ يقول: «اعلم أبا مسعود، أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام». فقلت: يا رسول الله، هو حرّ لوجه الله. فقال ﷺ: «أما لو لم تفعل للفحتك النار». مسند أحمد ٥: ٢٧٣ ـ ٢٧٤، صحيح مسلم ٥: ٩١ ـ ٩٢، مسند أبي داود ٢: ٥٠١ / ٥١٥٩.

(٢) انظر: الفقيه ٤: ١٦٢ / ٥٠٩، وسائل الشيعة ١١: ٥٣، المختصر النافع: ١٦٤، كشف الرموز (الفاضل الآبي) ٢: ٧٥، قواعد الأحكام ٣: ٢٣١، ٢٥٦، إيضاح الفوائد ٣: ٥٦٩، المهذب البارع ٣: ١٠٩، مسالك الأفهام ١٣، ٥٢١.

(٣) انظر على سبيل المثال ج ٨ /محاضرة (غريب طوس) من كتابنا هذا.

إذن فنحن ليس عندنا نظام للرقيق، وإنما عندنا عملية تأديب، وهي أن من يخرج ليقاتل المسلمين ويقع أسيراً في الحرب فإنه يسترقّ بضعة أيام من قبيل التأديب. وهو يعامل في هذه الأيام خير معاملة؛ حيث شرع الإسلام له ألف طريقة لكي يعتق ويعامل معاملة الأخ [1]. كما أنه أوصى بهم خيراً حيث قال: **«ألبسوهم مما تلبسون، وأطعموهم مما تأكلون، لا تكلفوهم ما لا تطيقون؛ فإنهم لحم ودم»** [2]. فهؤلاء إخوتكم؛ إن لم يكونوا في الدين ففي الإنسانية، وقد سلطكم الله عليهم، ولو شاء لسلطهم عليكم.

ولنلاحظ أن هذا النفس ليس نفس من يريد أن يستعبد غيره، وأكثر من هذا أن هؤلاء الأرقّاء كانوا يشاركون سادتهم بكل لذائذهم وخصوصياتهم [3]. فمن في تاريخ أوروبّا من يجعل من عبده رئيس أركان جيش البلد الذي هو يحكمه؟ وهذه كلها فعلها المسلمون؛ فأُسامة بن زيد كان أبوه مملوكاً، وهو أيضا مملوك، فأُعتق وأُعطي قيادة جيوش المسلمين كافّة. وقد حشر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم تحت لوائه كل الصحابة.

---

(١) ككفارة الإفطار عمداً، والظهار، وغيرهما.

(٢) روضة الواعظين: ١٠٧، عوالي اللآلي ١: ٢٥٦ / ٢١، المصنف (الصنعاني) ٩: ٤٤٠ / ١٧٩٣٤.

(٣) فالإمام زين العابدين عليه السلام كان يجمع عبيده في وقت الإفطار ويسقيهم الماء ويجلس معهم على الطعام، وإذا أذنب أحدهم ذنباً ذكّره به، فيخاف العبيد، وفي آخر ليلة وهي ليلة العيد يجمعهم ليدعوا له حيث يقول لهم: «قولوا: اللهمّ اعفُ عن علي بن الحسين كما عفا عنّا».
بحار الأنوار ٤٦: ١٠٤، ٩٥: ١٨٧.
والإمام الرضا عليه السلام كان يأكل مع غلمانه، فقال له أحدهم: لو عزلت لهم مائدة. فقال: «الأب واحد وهو آدم، والأُم واحدة وهي حوّاء، ويجمعنا دين الإسلام». انظر الكافي ٨: ٢٣٠ / ٢٩٦.

وعلى أية حال ففي واقع الأمر أن الجهاد في عرف الشريعة الإسلامية يحمل على يديه الرحمة والإنسانية ومحاولة خلق الحياة الأفضل للإنسان ليس إلّا، وهو أينما يسِر تسِر معه الرحمة والعدل والإنسانية، ومحاولة تحرير الإنسان من رقّ أخيه الإنسان. وكلّها من خصائص الإسلام الذي ليس في عرفه اعتداء على الآخرين، ولا بغي عليهم أبداً.

المبحث الثاني: مورد الجهاد

وبهذا يتّضح أن الجهاد إذن ما هو إلّا مدافعة، وليس هجوماً أو بغياً أو اعتداء. فهو عملية دفاعية، وعندما تكون عملية دفاعية، فإنها تصحبها ضوابط خلقية؛ ولذا فإننا نجد أن القرآن الكريم يقول: ﴿**وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ**﴾، فهو جهاد في سبيل الله تعالى وليس في سبيل الرغبات. وهذا يعني أنه لو بدا لأحد من الناس أن يصبح إمبراطوراً، وكان يظنّ أن الحرب لعبة؛ فيغزو البلاد، ويهلاك العباد ويلحق الدمار بالعمران، فإن هذا اللون من الحروب لا يمكن أن يكون في حال من الأحوال في سبيل الله تعالى، وإنما هو في سبيل الأنانية وفي سبيل الرغبات. وربما يقاتل شخص آخر غيره في سبيل الطمع، ومن أجل أن ينهب الثروات، وآخر ثالث يريد أن يشن الحروبِ ليسترقّ الناس، وهذا كله بعيد كل البعد عن مفهوم الجهاد في سبيل الله.

ولا يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ، بل إنه يتعدّاه لتصبح كلّ هذه السبل سبلاً شيطانيّةً، وسبل النفس الأمّارة بالسوء. إن طريق الله هو تحرير الإنسانية من الاضطهاد والظلم والتخلف، ولمّا كان الهدف تحرير الإنسانية، وخلق المجتمع الأفضل عمد القرآن الكريم إلى القول: جنّدوا أموالكم وأنفسكم من أجل هذا الهدف الكريم.. الهدف الكبير الذي هو الجهاد: ﴿**وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي**

سَبِيلِ اللهِ﴾، أي في طريق الله وليس في طريق غيره.

ما هو سبيل الله تعالى؟

ولنا هنا أن نسأل: ما هو طريق الله؟ وكيف نحدّد معالمه؟ إن الإجابة على هذين التساؤلين بأن يقال: إن طريق الله يحدّد بمعرفة الهدف من الجهاد، وهذا يعرف بأُمور عدّة، منها:

الأول: القضاء على الجوع والعوز

وهذه المسألة واضحة من خلال ملاحظتنا لحركة الإسلام، فهو أينما يذهب نجده يحمل معه مبدأه الإنساني الرفيع، وشعاره المذهل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1]، والمفروض أن رغيف أي مؤمن يجب أن يكون رغيف أخيه المؤمن: **«أيما رجل مات جوعاً بين قوم أغنياء، فقد برئت منهم ذمّة الله وذمة رسوله»**[2].

ولهذا فإنه لم يعرف يوماً عن الإسلام أنه جاء ليسلب لقمة الفقير، بل إنه على العكس من هذا؛ لأنه جاء ليوفّر له الرغيف. والإسلام يعرف أن الإنسانية ما سُحقت كرامتها بمثل ما سحقت بالجوع؛ لأن الإنسان إذا جاع فلا يمكن لنا أن نسميه إنساناً؛ لأنه حينئذٍ يفقد بالجوع إنسانيته.

الثاني: إعادة الكرامة الإنسانية المهدورة

إن الإنسان ربما يحصل على الرغيف، لكنه غالباً يكون مغمّساً بالذلّة والهوان. ولعلّنا نستغرب أن نجد مادة في قلب الحضارة الهندية التي يقال عنها: إنها حضارة

---

(١) الحجرات: ١٠.

(٢) المبسوط (السرخسي) ٣٠: ٢٧١، وفي الكافي ٢: ٦٦٨ / ١٤ عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما آمن بي من بات شبعانَ وجاره جائع». قال: «وما من أهل قرية يبيت فيهم جائع ينظر الله إليهم يوم القيامة».

إنسانية موصوفة بالرقّة تنصّ على أن الشودري ـ أي المنبوذ ـ إذا جلس إلى أحد البراهمة فإن على الحاكم أن يكويه في إسته، وينفيه من البلد، وربما يصل الأمر إلى أن يقتل. وهذا لون من الوحشية التي لا تقف عند حد. ونجد هذا الشيء نفسه في أوروبّا أيضاً؛ حيث إن فيها أنه لا يمكن لأي طبقة دنيا أن تخترق الحاجز الذي يفصلها عن الطبقات العليا وتصل إلى الطبقة الثانية. أمّا الإسلام فقد جاء ليقضي على هذا كلّه.. جاء ليأمر بتزويج بنت عبد المطلب.. بنت سيد العرب من مملوك. وهنا لا يمكن للمرء إلّا أن يقف خاضعاً أمام مُثُل الإسلام، أو أن يخرّ ساجداً في محرابه.

فالإسلام لا يمكن لأحد أن يتصوّر أنه جاء ليسرقّ شعباً، أو ليهيمن على شعب وعلى ثرواته ومقدّراته، أو ليعتدي على كرامته. إنه جاء ليخلّص الإنسان المسحوق الذي وضعت كرامته تحت الأرجل، وليستنقذ الشعوب المستعبدة التي ترزح تحت ظلم الإنسانية واستعبادها.. جاء ليعيد لهم الشعور بالكرامة والمساواة، وليقضي على العوز والثغرات الاجتماعية. ولهذا فإننا نقول: إن الجهاد أينما سار سارت معه الرحمة والمودّة والمثل السماوية العليا.

مفهوم الجهاد

تقول الآية الكريمة: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾، ومعنى هذا أن الإسلام يأمر أتباعه بأن يوظّفوا في سبيل تحقيق هدف الجهاد أموالهم وأنفسهم؛ لكي يرفعوا كلمة الله تعالى. وبهذا يتّضح أن الجهاد في الإسلام هو إعلاء كلمة الله تعالى، ونصرة دينه؛ حتى تعود كلمة الله هي العليا. وكلمة الله هي أن الله رب العالمين، خلق العباد وأراد لهم الخير والرحمة والكرامة: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ

وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾[١] فهؤلاء عباد الله تعالى، وهو أرحم بهم من غيرهم، ولذا فقد أمرنا بالرحمة بهم والإحسان إليهم. وعليه فالمجاهد كمجاهد تظلّ مهمته نشر لواء الإسلام عالياً في كل مكان؛ لإحقاق الحق، ولتحقيق العدل والمساواة، ولاسترجاع الكرامة ورفع الحيف والظلم عن الشعوب المقهورة.

فهذا هو الهدف من الجهاد الذي تكلمنا عنه آنفاً، وهو إعلاء كلمة الله في أرضه، وتحقيق النصر لدينه وفي سبيله. وبناء على هذا فإنه يجب ألّا تدخل به أهداف رخيصة أو غايات ملوثة أو رغبات شخصية.

المبحث الثالث: متعلّق الجهاد وجزاؤه

وبعد هذه المقدمة التي ذكرنا فيها أن الغاية من الجهاد هي حمل الخير للإنسانية بغض النظر عن جنسها وانتمائها، سوف ننتقل إلى ما يقع ضمن دائرته ممّا يجب أن يجاهد فيه، تقول الآية الكريمة: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾، والجهاد ـ من غير حاجة إلى مزيد توضيح ـ يحتاج إلى وقود يمدّه كي يستمرّ ويدوم، وبهذا فهو بحاجة إلى النفوس والأموال. وهما وقودان سوف يتعرّضان للنفاد والإبادة. والإسلام هنا عندما يطلب من الإنسان أن يعرّض نفسه للقتل، وماله للتلف في سبيله، فبماذا سوف يعوّضه عن كل هذا؟ إنه حتماً سوف يعوّضه تعويضاً لا حدود له.

إننا لو أخذنا معدل الأعمار الآن لوجدنا أنه سبعون سنة، إذن فمن يقتل عند سن الخمسين أو الأربعين، فإنه سيخسر من عمره ثلاثين سنة أو أقلّ أو أكثر، فما

---

(١) الإسراء: ٧٠.

الذي سوف يعطيه إيّاه الإسلام عوضاً عنه أو مقابله؟ إن الإسلام سيعطيه مقابل هذا خلوداً بالدنيا بالذكر العطر والسيرة الحسنة، وخلوداً بالآخرة في الجنة، وهي حياة لا حدود لها.

أحمد أمين يجتهد فيما لا اجتهاد فيه

وهنا أودّ أن أُشير إلى نقطة أثارها الدكتور أحمد أمين، هو شخص غير عادي؛ فهو علّامة بارز في تاريخ مصر، شأنه في هذا شأن عباس محمود العقاد اللذين يعدّان من شريحة واعية مثقّفة في مصر لا أظن أن تتكرّر عندهم. لكن الغريب أن هذا الرجل (أحمد أمين) أحيانا يعطي نفسه الحقّ في أن يجتهد في أُمور ليست من اختصاصه مطلقاً، مع أنه عقليّة ضخمة جدّاً كما أشرت، فيقول: إن الله تعالى حينما شرع الجهاد شرعه وهو يعلم أنه سوف يقتل فيه خلق كثير من الرجال، فكيف نعوّض عن هؤلاء؟ يقول: نعوّض عنهم بنظام تعدّد الزوجات؛ ولذا فإن الله عزّ وجل حينما شرع الجهاد شرع معه نظام تعدّد الزوجات؛ لكي يعوض بالمواليد عن أولئك الذين يقتلون في الحرب. ثم قال: لكن على مرّ الأيام ذهب الجهاد وبقي تعدّد الزوجات قائماً.

وكأنه هنا يريد أن يقول: إن العلّة التي من أجلها شرع الله تعالى تعدّد الزوجات ـ وهي الحروب ـ قد ذهبت، وهذا يعني أنه يجب أن يذهب معها هذا التشريع. مع أن الحال ليس كذلك. وأنا أستغرب من صدور مثل هذا التفكير أو هذا الكلام من مثل هذا الرجل.

اجتهادات المفكّرين المصريّين

وهذا النمط من التفكير لا يقتصر عليه هو فقط، بل إنه يمتدّ ليشمل الكثير من الكتّاب المصريين، فالكثير منهم عندهم هذا اللون من الاجتهادات التي هي بحق

موضع استغراب. وهذه الحالة تنشأ في الحقيقة عند الإنسان حينما يضع نفسه في مكان غير مكانه.

نعم إن أحمد أمين كاتب وباحث وألمعي، وهذا لا يمكن إنكاره، لكن في مجال عمله وتخصّصه، أما أن يقحم نفسه في مجال ليس له، ومضمار هو ليس فيه فارساً، فلا. وهذا كما هو معلوم ليس مجال عمله، ولا مجال تخصّصه، بل إنه مجال عمل الفقهاء وتخصّصهم.

دعوى أحمد شلبي عدم عصمة النبي ﷺ من القرآن الكريم

ومن هذا أن الدكتور أحمد شلبي صاحب كتاب (منابع الفكر الإسلامي)[1] يذكر في كتابه هذا أن في القرآن الكريم أدلة على أن النبي الأكرم ﷺ غير معصوم ـ وهو ما يذهب إليه أحمد أمين كذلك ـ بدليلين:

الأول: قوله تعالى: **﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾**[2].

الثاني: مطلع سورة (التحريم)، وهو قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**[3].

الرد على هذه الدعوى

الرد على هذه الدعوى يكون ببيان أمرين:

الأول: إنكار كون سورة **﴿عَبَسَ﴾** قد نزلت بالنبي الأكرم ﷺ، كما تميل

---

(١) منابع الفكر الإسلامي: ٢٠، (منه ﷺ). (٢) عبس: ١ ـ ١٠.
(٣) التحريم: ١.

إليه بعض كتب التفسير [١].

الثاني: أنها حتى لو كانت قد نزلت في النبي ﷺ، فإنها لم تأتِ في معرض الذم وإنما جاءت بمعرض ترك الأولى [٢]. ودعني أُقرّب لك المعنى فأقول: إن مسألة ترك الأولى عندنا بالنسبة إلى الشخصية البارزة يعتبر جريمة أخلاقية، على الرغم من أنه ليس حراماً، وهذا من قبيل ما لو جاء أحد الفقهاء أو العلماء وجلس في مقهى وأخرج مسبحة ذات حبات كبيرة ملونة ليسبّح بها، والناس من حوله يلعبون الدومينو، أو أن يلبس ملابس السباحة القصيرة ويذهب إلى البحر مع

---

(١) انظر: مجمع البيان ١٠: ٢٦٦، البرهان (الزركشي) ٢: ٢٤٣، قال الزركشي: وقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾، قيل: إنه أُميّة، وهو الذي تولّى دون النبي ﷺ، ألا ترى أنه لم يقل: عبست.

قال الرازي في معرض كلامه وإجابته عن الشبه الموجهة إلى رسولنا الأكرم ﷺ: الشبهة الثامنة: تمسّكوا بقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى﴾، فعاتبه على إعراضه عن ابن أُمّ مكتوم. وجوابه: لا نسلّم أن هذا الخطاب متوجّه إلى النبي ﷺ. لا يقال: إن أهل التفسير قالوا: الخطاب مع الرسول. لأنا نقول: هذه رواية الآحاد، فلا تقبل في هذه المسألة. ثم إنها معارضة بأمور:

الأول: أنه تعالى وصفه بالعبوس، وليس هذا من صفات النبي ﷺ في قرآن ولا خبر، مع الأعداء والمعاندين فضلاً عن المؤمنين والمسترشدين.

الثاني: وصفه تعالى بأنه تصدّى للأغنياء وتلهّى عن الفقراء، وذلك غير لائق بأخلاقه ﷺ

الثالث: أنه لا يجوز أن يقال للنبي ﷺ: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى﴾؛ فإن هذا الإغراء يترك الحرص على إيمان قومه، فلا يليق بمن بعث بالدعاء والتنبيه.

[الرابع]: سلمنا أن الخطاب مع النبي ﷺ، لكن لا نسلّم كونه ذنباً. بيانه أنه تعالى وصف نبيه بحسن الخلق، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم: ٤.

عصمة الأنبياء: ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٢) قال السلمي: قال بعضهم في قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ عاتب الله نبيّه ﷺ بألطف عتاب وهو، ما عاتبه به في الفقراء الصادقين. تفسير السلمي ٢: ٣٧٣. وانظر قول الفخر الرازي في الهامش السابق.

الناس ليمارس السباحة، فمثل هذا الشخص لا يمكن أن نسميه فقيهاً أو أن نحترمه، بل إنه سيكون في معرض النقد الساخر واللاذع؛ لأن مثل هذا الجو لا يمكن أن يناسب مقامه. مع العلم أن مسألة الجلوس بهذه الكيفيّة وهذا المكان، والتسبيح بهذه الطريقة، أو سلوك الذهاب إلى البحر أُمور ليست محرمة.

نعم النظر إلى أُولئك الذين يلعبون القمار أو غيره حرام.

إذن فمثل هذا السلوك لمثل هذا الشخص يعتبر جريمة؛ لأن هذا فقيه وهذه ليست أجواؤه وهذا ليس أُفقه، بل إن أُفقه الوقار والحشمة. وهذا يعني أن مثل هذا السلوك يسمى ذنباً بالنسبة له؛ لأنه ترك الأولى وهو ممّن لا ينبغي لهم تركه؛ لأن ترك الأولى يعتبر جريمة بالنسبة إلى مثله.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن مسألة النبي الأكرم ﷺ من هذا القبيل، بل هي أشد؛ نظراً إلى مكانة النبي ﷺ. فهي هنا ترك للأولى.

جوّ الحادثة

ولو لاحظنا الجوّ الذي كان فيه نبيّنا الأكرم ﷺ، لعرفنا أنه جو يعطيه ﷺ العذر في ذلك بعد التسليم بأن السورة الكريمة قد نزلت فيه. فابن أُم مكتوم كان يمثّل نفسه، في حين أن من عوتب النبي ﷺ بسبب إقباله عليهم هم جبابرة قريش؛ وهم عتبة وشيبة والوليد الذين لم يكونوا يمثّلون أنفسهم، وإنما كانوا يمثّلون قومهم. وقد رأى الرسول الأكرم ﷺ أن مجيئهم إليه فرصة مواتية ينبغي استغلالها وعدم تضييعها لدعوتهم إلى الإسلام؛ لأنها ربما لن تتكرّر. وفعلاً بدأ النبي ﷺ يدعوهم إلى الإسلام، ويبين لهم محاسنه، فجاء ابن أم مكتوم وبدأ يسأل النبي ﷺ ويلحّ عليه حتى بدا الضيق واضحاً على وجه النبي الأكرم ﷺ كما تقول روايات القائلين بأنها نزلت فيه ﷺ.

وهنا ـ حينما بدا الضيق على وجهه ـ عاتبه الله تعالى على ذلك، وهذا يعني أنه ﷺ لم يرتكب المحرّم وإنما ترك الأولى؛ لأنه ﷺ يرى أن هؤلاء أهمّ لتقوية شوكة الإسلام؛ ولذا كان يريد أن يهديهم إليه: كي ينتصر بهم.

فالمسألة إذن لم يكن فيها حرام، وإنما هو ترك أولى، لكن الله عزّ وجلّ لما أراد للنبي أن يكون الأُنموذج الكامل في الخلق عاتبه على ترك الأولى. وهذا طبعاً بناء على أن الآية الكريمة قد نزلت في النبي ﷺ كما أسلفنا، وإلّا فإن هناك روايات تقول بأنها لم تنزل فيه، وإنما نزلت في شخص آخر.

روايات تسيء إلى نبيّنا الأكرم ﷺ

وإذا كان الأمر بهذه الكيفية فحينئذٍ لا معنى لأن يقحم أحد نفسه في غير اختصاصه، ثم يفتري على نبيّنا الأكرم ﷺ، ويقرّر بأنه غير معصوم.

وهذا الأمر بطبيعة الحال يعدّ لا شيء أمام بعض الروايات التي تسيء إلى النبي ﷺ، وهي روايات عجيبة غريبة، سيما إذا علمنا أنها من بعض صحابته ﷺ، أو من أشخاص من داخل بيته. ومن هذا رواية أنه ﷺ بقي مسحوراً سنة كاملة لا يدري ما يفعل [١]. وهذا من أعجب العجب، وإلّا ما هو دور الوحي؟ وهل إن هذا الكلام يليق بنبي؟ إننا لا نلتفت إلى مثل هذا الكلام، ولا نقيم له وزناً، وهو كلام غير طبيعي وغير مسؤول يجب أن يذاد ويبعد عن حظيرة الأنبياء عليهم السلام وأن تنزّه عنه ساحتهم [٢].

---

(١) فتح الباري ١٠: ١٨٦، عون المعبود ٧: ٢٣٤.

(٢) ومن هذا فرية إهداء الخمر إليه ﷺ، فعن عبد الرحمن بن غنم أن الداري كان يهدي لرسول الله ﷺ كل عام راوية من خمر، فلما كان عام حرّمت جاء براوية، فلما نظر إليه نبي الله ﷺ قال: «هل شعرت أنها قد حرّمت بعدك». مسند أحمد ٤: ٢٢٧.

على أية حال إن ما أردت قوله هو أن هذا الرجل يضع نفسه أحيانا في مثل هذه المواقف المحرجة التي هي ليست من اختصاصه.

زياد الأعجم والمانوية

ولأضرب مثالاً آخر، يروي المؤرخون أن أحد رؤساء العرب واسمه زياد الأعجم جاء وافداً على المهلّب، وكان المهلب وقتها أمير العراق، وكان زياد رئيس قبيلة جليل القدر ومحترماً في قومه، وكانت قبيلته كبيرة. فلما دخل على المهلب ـ وكان ابنه حبيب جالساً عنده ـ سلم عليهما وجلس، وبعد فترة من الزمن التفت المهلّب إلى ابنه حبيب قال له: إن عندي الكثير من الالتزامات والمشاكل الإدارية، وهذا رجل جليل القدر محترم، فلا تقصر بحقّ ضيافته، انقله إلى بيتك، وقم بحقّ ضيافته حتى أفرغ من مشاغلي فأنقله عندي. والذي يظهر أن إقامته ستطول عندهم، وفعلاً نقله ابنه إلى بيته، وفي أحد الأيّام بينما كانا يأكلان جاءت حمامة ووقعت على سفرة الطعام، وأخذت تلتقط الحبّ وتغني، فالتفت إليها زياد الأعجم وقال لها:

تغني أنت في ذممي وعهدي	بأن لن يذعروك ولن تطارِ
وبيتك أصلحيه ولا تخافي	على حجر المزغّبة الصغارِ
فإنك كلما غنيت بيتا	ذكرت أحبتي وذكرت داري
فإما يقتلوك طلبت ثاراً	له نبر لأنك في جواري

☚ ورووا عن نافع بن كيسان أنه قال: إن أباه كيسان أخبره أنه كان يتجر في الخمر في زمن النبي ﷺ، وإنه أقبل من الشام ومعه خمر في الزقاق يريد بها التجارة، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، جئتك بشراب جيّد. فقال رسول الله ﷺ: «يا كيسان، إنها حرّمت بعدك». مسند أحمد ٤: ٣٣٥، فتح الباري ٨: ٢٠٩، نصب الراية ٤: ٥٤٨، كنز العمّال ٥: ٤٩٥ / ٢٣٧٢٢.

وخطر في بال حبيب أن يعبث بزياد، فطلب من أحد غلمانه أن يناوله القوس، فأخذه منه وأوتره ورمى الحمامة فقتلها، فراح زياد الأعجم يرتعد من قرن إلى قدم؛ ذلك أن من أخلاق العرب أنهم يجيرون حتى الحيوانات؛ فهذا عدي بن حاتم الطائي كان يحمل فتات الخبز بثوبه، ويدور به على قرى النمل يطعمها إياه ويقول: إن هؤلاء جِواري، وأنا مسؤول عن إطعامهم(١).

وأجار آخر غيره الجراد، فقد نزل الجراد بجوار مدلج بن سويد ـ وكان أحد رؤساء العرب ـ وكان الناس في أيّام مجاعة، فجاء العرب يطاردونه ليصطادوه ويأكلوه، فقال لهم: ليس لكم ذلك، ومن يقترب من الجراد منكم قتلته. وبالفعل لم يقترب أحد منه حتى لسعته الشمس وطار، فقال مدلج: أما الآن فالحقوا به؛ فقد خرج عن جواري(٢).

ومثل هؤلاء لا يمكن أن يظن فيهم أنهم مهووسون، وإنما هم يعتبرون مثل هذه المسألة مسألة مبدأ، فهم يجيرون الحيوان كما يجيرون الإنسان. وعلى أية حال فقد راح زياد يرتعد من قرن إلى قدم، ثم التفت إلى حبيب وقال له: أتعتدي على جواري؟ ثم جاء إلى المهلب وقال له: لقد اعتدى ابنك هذا على جواري، فوالله لأُعيدن الحرب بسوساً ثانية إن لم تعطني حقوق جواري. فأرسل خلف ابنه حبيب وعنّفه، فقال: إنما كنت ألعب. فقال المهلّب: ليس مع هذا لعب، جاره جاري، بل هو أفضل. ثم جاءه بجماعة من رؤساء العرب، وبعث له بديات وأموال حتى رضي، ثم خرج وهو يقول:

فلله عيناً من رأى كقضية ... قضى ليْ بها شيخ العراق المهلّبُ

---

(١) بحار الأنوار ٦١: ٢٤٢، تاريخ مدينة دمشق ٤٠: ٨٨، ٨٩.

(٢) الكنى والألقاب ٣: ١٥٢.

رمـــاها حـــبيب بـــن المــهلب رمــية فــأقصدها والســـهم يـــخطي ويـقربُ
فـــألزمه عـــقلَ القـــتيل ابـــنُ حـــرّة وقـــال حـــبيب إنـــما كـنت ألعبُ
فـــقال زيـــاد لا يـــروّع جـــاره وجاره جاري بل مـن الجـار أقـربُ [١]

لكن أحمد أمين حينما يمرّ بهذه الرواية يقول: إن هذه الحادثة تدلّ عـلى أن الروح المانوية موجودة عند المسلمين لم تفارقهم منذ أيام الجاهلية. والمـانوية هم الذين يقولون بثنائية الضوء والظلام. ومن جملة مبادئهم عدم ذبح الحيوان، كالغنم أو الدجاج وغيره؛ لأنهم يعتبرون ذبح الحيوان جريمة. المهمّ أنه يقول: إن هذه الحادثة تدل على أن المانوية بقيت عند المسلمين حتى بعد فترة طويلة من نزول الإسلام. ولست أدري ما علاقة هذا بالمانوية، وما علاقة المانوية بالعرب، إنه يجهل أن هذا يرتبط بحضارتهم، حيث إنهم كانوا إذا اعتدى أحـد مـا عـلى جوارهم ثاروا له، وثأروا.

عبد الله بن سبأ ومسمار جحا

وأحمد أمين عنده الكثير من هذا النوع من الاستنتاجات. ومن اسـتنتاجاته هذه الشماعة التي يعلقون عليها ما عندهم من فرى على الشيعة، سيما فرية عبد الله بن سبأ، فيدّعون أن الشيعة قد أخذوا كلّ مبادئهم من عبد الله هـذا، وكـان يهودياً، وعليه فالشيعة كلهم يهود حسب هذا الاستنتاج. ولست أدري لمـاذا لم ينسب مذهب التسنن وأهله إلى اليهودية؛ لأنهم يأخذون عن جماعة من اليهود مثل كعب الأحبار ووهب بن منبّه ومقاتل بن سليمان وغيرهم الكـثير، إذا كـان الشيعة يأخذون عن يهودي واحد كما تقولون. ولكننا مع ذلك لم نقل بأنهم يهود، (أعوذ بالله من هذا)؛ فهذه ليست لغة مسلم يخشى الله تعالى ويرى أن عليه منه

---

(١) انظر: تاريخ مدينة دمشق ٦١: ٢٩٧، خزانة الأدب ١٠: ٩.

رقيباً. فما هذه الاستنتاجات التافهة؟

الرد على أُكذوبة عبد الله بن سبأ

إننا نقول إزاء هذا:

أولاً: أين هو عبد الله بن سبأ هذا؟ إن هو إلّا شخصية مخترعة [١].

ثانياً: وعلى فرض أنه يهودي، فما معنى أن تصبح الأُمّة كلّها يهوداً؟ فالآن مثلاً هناك حكومة شيوعية في أفغانستان، فهل يعني هذا أن كل المسلمين فيها هم شيوعيون؟ أي لغة هذه؟ وأي مقاييس هذه؟ وأي تفكير هذا؟ والواقع أننا يحق لنا أن نستغرب من هذه المقاييس عندما تصدر من شخصية مثل أحمد أمين.

إن هذا لا يدل إلّا على أن ثقافة هؤلاء ضحلة للأسف؛ لأنها لم تستطع أن تحرّر الإنسان من رواسبه، فالإنسان يحتاج إلى تربية عالية لكي يتحرّر من الآثار الفكرية القديمة.

رجع

إذن فالمسألة لا كما يقول أحمد أمين من أن الله قد شرع نظام تعدّد الزوجات حتى يسدّ الفراغ الذي يخلّفه الجهاد في المجتمع، أو لسدّ حاجة خلقتها ميادين القتال، فلما ذهبت هذه الميادين أصبح تعدد الزوجات حراماً. فلماذا إذن هذا الاعتداء على مقام الفقهاء، والإنسان يعرف أن هذا ليس من عمله؟

مع أننا لو طلبنا الحقيقة لوجدناها خلاف ذلك، فالواقع ليس هذا الذي يذهب إليه أحمد أمين، بل هو أن الإسلام أخذ بعين الاعتبار أن المجاهدين إذا توفّر لهم

---

(١) انظر الرد على هذه الفرية في ج ١٠ / محاضرة (خلافة الرسول ﷺ: الأزمة والحقيقة) من كتابنا هذا، وكذا في الأجزاء السابقة؛ فقد نقلنا فيها تكذيب الدكتور طه حسين لهذه الشخصية الوهمية، ورأيه في هذه الأُسطورة.

العدد الكافي والاستطاعة وجب عليهم الجهاد. فالجهاد له شروط إن لم تحصل لم يتعين، فضلاً عن كون تشريع نظام تعدّد الزوجات تشريعاً مستقلاً.

المبحث الرابع: أنصار الحسين عليه السلام على ضوء الآية الكريمة

وبعد هذه المقدمة نأتي إلى المجاهدين الذين حملوا لواء «**لا إله إلّا الله**» في ساحة الطف، هذه المجوعة التي نسميها أصحاب الحسين الذين اعتدنا على أن نحتفل بذكراهم، وأن نؤبّنهم في مثل هذه الليلة، ودعنا نرَ هؤلاء أي شريحة كانوا، وكيف حملوا ألوية الجهاد. هؤلاء السبعون لا يمكن إلّا أن نعتبرهم خلاصة العالم؛ ذلك أن سيد شباب أهل الجنة عليه السلام حمل لواء «**لا إله إلّا الله**»، وكتب إلى الأنصار يدعوهم إليه فلم يتمخّضوا إلّا عن هذه الكواكب القليلة.

وكم هو مشرّف هذا العدد وهذه المجموعة الملائكية! فهم مجموعة كانوا قمة في الأخلاق والتضحية والعطاء، جمعهم الإمام الحسين عليه السلام في ليلة العاشر من المحرّم وقال لهم: «**لقد طلقتم حلائلكم، وأعرضتم عن دنياكم، وقد شكر الله لكم هذا، فهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً... الطريق غير خطير، والليل ستير، والوقت غير هجير، وأنتم في حلّ من بيعتي. إن القوم يطلبونني، ولو ظفروا بي لذهلوا عن طلب سواي، فليضع كل واحد منكم يده بيد أحد من أهل بيتي وليرجع**»[1].

فقاموا جميعاً ليتكلموا بكلام مازال حتى الآن حلية في آذان الدهر، يقول له هلال بن نافع: والله ما كرهنا لقاء ربنا، ولا أسأنا الظن بما كتب الله لنا[2]. وقال له زهير بن القين: إن فرسي بألف، وسيفي بألف، والذي منّ عليَّ بهذا الموقف لن

---

(١) انظر: الدمعة الساكبة ٤: ٢٧٢، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٢٦٢ ـ ٢٦٥.

(٢) اللهوف في قتلى الطفوف: ٤٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣٨١.

أتركك حتى يكلّا من جري وفري[١].

وكان من بينهم العديد من البدريين والصحابة، ومن جملتهم جابر بن عـروة الغفاري، هذا الرجل الذي قاتل مع رسول الله ﷺ في بدر وحنين، وقاتل مـع الإمام علي عليه السلام في حروبه، جاء وهو شيخ كبير محني الظهر؛ لأنه أبى إلاّ أن يتبع الإمام الحسين عليه السلام، فكان يمشي وثقل السنين التي أرهقته يلوح على عاتقه؛ فقد عزّ عليه أن يرى رحل رسول الله ﷺ يعرّض للانتهاك دون أن ينصره، وعزّ عليه أن يرى الإمام الحسين عليه السلام في ساحة الشرف وقد خذله من كاتبه دون أن يقف إلى جانبه وينصره، ولذا فقد وقف بين يدي الحسين عليه السلام وقال: السلام عليك أبا عبد الله، ائذن لي حتى أُقاتل بين يديك.

فتأمل الحسين عليه السلام هذه الشيخوخة البارّة.. هـذه الشـيخوخة الكـريمة التـي جاهدت في سبيل الله مع رسول الله ﷺ ومع أمير المؤمنين عليه السلام، والتي أثـقلتها السنون والأعوام، ومع ذلك تملك كل هذه العزيمة، وتحمل هذه المبادرة، ثم قال له: «**بارك الله فيك يا شيخ**». ثم أخذ يشدّ وسطه بحزام، وأتى بعصابة فرفع بـها حاجبيه عن عينيه، وأخذ سيفه ونزل يقاتل وهو يجول جولان الأبطال، يـردي الكماة يميناً وشمالاً إلى أن سقط على الأرض، فأقبل الحسين عليه السلام إلى مصرعه، وجلس عنده، وقرأ قوله تعالى: ﴿**فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً**﴾[٢]، ثم قال: «**جزاكم الله عن أهل بيت نبيّكم خيراً**». ثم راح يمسح الدم والتراب عن وجهه.

ثم برز بين يديه أحد أنصاره عليه السلام ـ وكان غلاماً له تركياً ـ وهو يرتجز ويقول:

---

(١) الدمعة الساكبة ٤: ٢٧٢، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٢٦٢ ـ ٢٦٥.

(٢) الأحزاب: ٢٣.

البحر من طعني وضربي يصطلي   والجوّ من نبلي وسهمي يمتلي

وقاتل قتال الأقران إلى أن وقع إلى الأرض، فأقبل إليه الإمام الحسين عليه السلام، فلما رآه عليه السلام أرخى لعينيه العنان، وأخذت دموعه تتساقط على وجهه، ووضع جبينه على جبينه، ففتح الغلام عينيه وصاح: من مثلي وقد وضع ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجهه على وجهي؟

تلك الوجوه المشرقات كأنها الـ   أقمار تسبح في غدير دماءِ
خضبوا وما شابوا وكان خضابُهم   بدم من الأوداجِ لا الحنّاءِ
ومغسّلين ولا مياهَ لهم سوى   عبراتِ ثكلى حَرّةِ الأحشاءِ
أصواتُها بُحّت فهن نوائح   يندبن قتلاهن بالإيماءِ[1]

وهكذا كانت عادة الإمام الحسين عليه السلام أنه إذا سقط أحد من أصحابه؛ أتى إليه، ورفع رأسه عن التراب، ومسح الدم والتراب عنه، وترحّم عليه ودعا له وأبّنه، لكنه عليه السلام الوحيد الذي حرم من هذه السنة، فعندما سقط على الأرض لم يخرج إليه إلّا مجموعة من الأرامل واليتامى:

يادار ارد انشدچ عن أهاليچ   وعن البطل عبّاس راعيچ

* * *

منازل كانت نيّرات بأهلها   تولّى عليها غبرة وقتامُ
ألا لا تزان الدار إلّا بأهلها   على الدار من بعد الحسين سلامُ

---

(١) ديوان الشيخ صالح الكواز / العلويات / القصيدة الأُولى في رثاء الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه.

﴿٢١٠﴾

أهل الكتاب وعلمهم بالكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: الأميّة وأنواعها

تتناول هذه الآية الكريمة شريحةً من أهل الكتاب وهم اليهود، وتقرّر أن من اليهود شريحة أُميّة لا يعلمون من الكتاب شيئاً. والأمي إنما سميَّ أُمّياً؛ لأنه يبقى على ما كان عليه وهو في بطن أمّه، لا يعرف، ولا يعلم، ولا يستطيع أن يتمكنَّ من القراءة أو الكتابة أو التعلم، وما إلى ذلك: **﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾**[2] حيث إن الإنسان يخرج إلى الدنيا صفحةً خاليةً بيضاء، ليس فيها شيء البتة من العلم والمعرفة.

فهذا الأُمي هو كذلك الخارج من بطن أُمه، فهو لا يعلم ولا يعرف، ولا يتمكن

---

(١) البقرة: ٧٨. (٢) النحل: ٧٨.

من القيام بأي فعالية كتابية أو نشاط علمي.

والمعرفة إذا انحصرت بالكتابة فإن الأُمية تعتبر جنبة نقص عند الإنسان، أما إذا كان هناك طريق للمعرفة غير الكتابة فلا تعد الأُمية نقصاً. ومن هذا نجد أن أُمية النبي ﷺ ليست نقصاً في حقّه؛ لأنها أُمية أبجدية وليست أُمية حضارية.

فالآية الكريمة في هذا المجال يمكن أن يراد منها المعنيان المارّان، وهما الأُمية الحضارية والأُمية الأبجدية. وبهذا اللحاظ فإن المفسّرين إزاءها ينقسمون إلى رأيين:

الرأي الأول: أن المراد بها الأمية الحضارية

وهنا ـ بناء على هذا الرأي ـ نستطيع أن نوفق بينه وبين النظرية العلمية فنقول: متى بدأت الكتابة وبدأ الإنسان في ممارستها ومزاولتها؟ وقد تناول كثير من الكتّاب هذا المعنى، ومنهم أحد علماء الاجتماع في كتاب له اسمه (النوع الإنساني) «HUMEND KIND»، حيث تناول فيه مسيرة الإنسان الحياتية الطويلة وتكيفه مع الحياة مارّاً بتاريخ الكتابة وظهورها وتطورها. والكتابة أول ما ظهرت كانت على شكل رموز، حيث كان هنود الأنكا [1]، فكان هؤلاء الهنود يستخدمون نوعاً من الخيوط الحريرية اسمه كيوبوس ليعقدوه على عدّة عقد، وكانت كلّ عقدة تدلّ على رمز معين له معنى اتفقوا عليه وتداولوه.

ثم بدأت الكتابة برسم الصور، فكانوا يرسمون صورة البقرة للدلالة عليها، أو صورة الأفعى للدلالة عليها، ثم انتقلت إلى الرمز؛ فالشمس كان يرمز لها بدائرة. وبعد هذه المراحل انتقلوا إلى الكتابة بالحروف، أي وضعوا لكل حرف ـ وليس

---

(١) إحدى الحضارات التي سادت في أمريكا اللاتينية، ومثلها حضارة الأزدك.

لكل كلمة ـ رسماً معيّناً، وقد استغرقت هذه العملية حوالي أربعة آلاف سنة أي في حدود الألف الرابع من تاريخنا.

والكتابة بمعنى الرمز ترجع إلى حوالي (٥٥٠٠) سنة، وهذا الأمر يحدده علماء الانثروبولوجي. ولو أننا رجعنا إلى تاريخ اليهود فإننا سنجد أنه يبتدئ من زمن النبي موسى عليه السلام، فهل إن المسافة الزمنية الممتدّة بيننا وبين زمن النبي موسى عليه السلام تستوعب هذه الفترة التي رصدها علماء الانثروبولوجي؟ وهل تتلاءم معها أم لا؟ الجواب الصحيح أنه تتلاءم؛ ذلك أن القرآن الكريم لم يعبر عنهم أُميين.

أُمية بعض طوائف المسلمين

إلّا والكتابة كانت موجودة؛ لأنه ما لم يكن هنالك أثر لمعرفة القراءة والكتابة لا يمكن أن يقال: فلان أُمي إذا لم يكن يحسن الكتابة [1].

وهناك قسم من المفسرين يقول بأن هؤلاء كانوا أُميين أُمية حضارية، أي أنهم يعرفون القراءة والكتابة لكنهم محدودو المعرفة والنظر والتفكير، فلا يملكون منظوراً معيناً حول الحياة، أو حول أمر معيّن، ولا فكرة واضحة عن كل ذلك. وهذه المشكلة لم تكن لتتناول اليهود وحدهم، وإنما تشمل الكثير من المسلمين كذلك؛ فالقرآن الكريم يقول: **﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾** [2]، ونبقى جامدين لا نعرف مضمون القرآن، فنحن عندنا أُمية حضارية أيضاً على الرغم من أننا نحمل الشهادة، وندّعي أننا نحمل ما يميزنا عن غيرنا من المخلوقات. فالإنسان له مضمون ومحتوى، وهذا هو الذي يميزه عن غيره، فإذا كان خالياً من مضمونه ومحتواه فإنه حتماً سوف لن تكون هناك قيمة لما يملك من علم أو غيره.

---

(١) فثبوت شيء لشيء فرع لثبوت المثبت له.

(٢) محمد: ٢٤.

ومن هذا نعرف أن الأُمية الحضارية أخطر من الأُمية الأبجدية، فإن الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب ربما كان تحمله للمسؤولية أقلّ؛ فإنه في باب الاحتجاج يمكن أن يقول: إني لا أعرف القراءة ولا الكتابة، وعليه لم أتمكن من قراءة كتاب الله أو غيره من الكتب الفقهية أو الحديثية، أما الذي يقرأ ويكتب فهو مسؤول عن تربية نفسه وتزكيتها.

إذن فالمضمون الحضاري هو ميزة الإنسان عن باقي الحيوانات، وليس ما يملك من علم. فاليهود كانوا يقرؤون ويكتبون ولكنهم لم يكونوا يمتلكون مضموناً حضارياً؛ لأنهم قد تقوقعوا على أنفسهم، وجمدوا على أفكارٍ معينةٍ بعيدةٍ عن إصابة الواقع؛ وهذا هو الداعي الذي حدا القرآن الكريم على أن يعبر عنهم بأنهم أُميّون.

الرأي الثاني: أنها الأمية الأبجدية

والأُمية بهذا المعنى كما ذكرنا قبل قليل أن صاحبها لا يعرف القراءة والكتابة وإن كان ربما يعرف الكثير من الأُمور العلمية والتاريخية وما إلى ذلك. لكن تبقى مسألة عدم القدرة على القراءة والكتابة مسألة تشكل عائقاً دون من يتّصف بها؛ ذلك أن من لا يعرف القراءة والكتابة كالأعمى. والعمى يقسم إلى قسمين: عمى العين، وعمى القلب [1]، وعمى القلب هو عدم امتلاك صاحبه طريقاً يوصله إلى المعرفة.

موقف الإسلام من الأمية

والإسلام قد عني عناية فائقة بالقضاء على الأُمية، ودفع الناس دفعاً إلى طلب

(١) قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ الحج: ٤٦.

العلم وتعلمه: «**اطلب العلم من المهد إلى اللحد**»[١]. وبناءً على هذا الحديث وغيره من الأحاديث[٢] يجب على الإنسان ألّا يخرج من الحياة وهو لا يملك شيئاً من العلم؛ لأن طريق العلم هو الطريق الوحيد الذي يمكن أن يوصله إلى النور وإلى الهداية؛ فإن العلم نور. وبديهي أن العلم طريقه الكتاب، فمن لا يقرأ ولا يكتب فقد حجب نفسه عن الدنيا، وهذا في واقع الأمر عمى كبير.

يروي المؤرخون أن أعميين كانا يجلسان على طريق زبيدة زوجة هارون، فلمّا مرّت في يوم من ذلك الطريق واستشعرا مرورها من جلبة الخيل والخدم، قال أحدهما: اللهم ارزقني من عطاء أُمّ جعفر. وقال الآخر: اللهم ارزقني من عطائك وفضلك. فأرسلت لمن قال: «اللهم ارزقني من عطاء أُمّ جعفر» دجاجة في جوفها عشرة دنانير، وللثاني دينارين، فقال صاحب الدينارين لصاحب الدحاجة: أتبيعني دجاجتك بدينارين؟ ولم يكونا يعلمان بما في جوفها، فقبل، فلمّا أخذها إلى بيته وجد في جوفها الدنانير العشرة.

واستمرّت زبيدة على ذلك الحال معهما عشرة أيّام، فاستطمع الثاني حيث كان كل يوم يشتري من صاحبه دجاجته بذينك الدينارين اللذين تبعث بهما زبيدة إليه. وفي اليوم الحادي عشر مرت زبيدة من ذلك الطريق نفسه، فدعوَا الله بالدعاء عينه، فالتفتت زبيدة لمن طلب من الله برّها وقالت له: أما كفاك ما بعثنا به إليك؟ فقال لها: وهل هو إلّا عشر دجاجات؟ فقالت له: ويلك إن في جوف كل دجاجة منها عشرة دنانير. فلطم على رأسه وقال: واويلتاه؛ سألت غير الله

---

(١) الأمثل ٣: ٥٠٤.

(٢) كقول ﷺ: «طلب العلم فريضة على كلّ مسلم ومسلمة» انظر: مصباح الشريعة: ٢٢، مشكاة الأنوار: ٢٢٦، عوالي اللآلي ٤: ٧٠ / ٣٦، شرح مسند أبي حنيفة: ٥٢٧، المبسوط (السرخسي) ١: ٢.

فحرمني، وسأل هذا ربّه فأعطاه.

فليس هنالك شيء أشدّ عمى من الجهل، فالعلم عين ناظرة، وقوة باصرة، ونافذة تطل بصاحبها على الدنيا، والأُمية مصيبة من المصائب. هذا من جهة ومن جهة ثانية فإن الإنسان لا سبيل له إلى العطاء إلّا بالعلم والمعرفة، وهذا لا يكون ولا يتحصل إلّا عن طريق قراءة الكتاب. وفي قراءة الكتاب إضافةً إلى الفائدةِ العظيمةِ التي تمنحها القارئ هناك متعة ولذة يستشعرها الإنسان كلما أمسك بين يديه كتاباً يقرؤه.. الكتاب الذي يعدّ من أروع الأصدقاء، بل ربما أفضلهم؛ لأنه يؤنس وحشة جليسه، ولا يضره ما لم يكن أداة للتدمير، ولا يلزم صاحبه أن يقرأه في وقت معين، بل إن له أن يقرأه في أي وقت يشاء، فضلاً عن كونه مصدراً سخياً معطاءً من مصادر العلم والمعرفة، يقول أبو الطيب المتنبي:

وغير فؤادي للغواني رميته ... وغير بناني للزجاج ركابُ

تركت لأطراف القنا كلّ شهوة ... فليس لنا إلّا بهنّ لعابُ

أعزّ مكان بالدنا سرج سابح ... وخير جليس في الزمان كتابُ

وهذا يمثل العنوان المشرق الزاهر عند الإنسان، فالكتاب خير جليس، وحديثه أروع حديث، يغترف منه قارئه ما يشاء من علوم، وينهل منه ما يروم من معارف، بخلاف الأُمّي الذي يُحرَم تماماً من المعرفة. ولذا فإنه ليس هنالك تعبير أقسى من هذا النعت الذي نعتهم به القرآن الكريم حيث قال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾.

المبحث الثاني: المراد من (الأماني)

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿إِلَّا أَمَانِيَّ﴾، فهؤلاء الأُميون أُمية حضارية لا يملكون شيئاً من علمٍ أو معرفة أو غير ذلك من لوازم الثقافة، وكان كل ما

يعلمونه هو أنهم يأتون أحبارهم فيسألونهم عن كل ما يرومون معرفته، وكان هؤلاء يأتونهم بالأخبار وكان معظمها لا يلتقي مع العلم ولايكون سبيلاً للمعرفة، بل إنه كان عبارة عن خرافاتٍ وخزعبلات. وببالغ الأسف فإن أغلب هذه الخرافات قد انتقلت إلى كتب التفسير عند المسلمين؛ حيث إننا نجد فيها أنماطاً كثيرة من هذا الفكر.

أمثلة من الفكر الإسرائيلي في كتب التفسير عند المسلمين

ولتوضيح ذلك وإثباته فإننا نذكر أن هناك في كتب التفسير عند المسلمين الكثير من الأمثلة التي تؤيّد ذلك، نورد بعضاً منها:

الأول: رواية كشف عورة النبي موسى عليه السلام

تقول هذه الرواية: إن بني إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام قولاً سيئاً في عورته عليه السلام، واتّهموه بأنه آدر، فأراد الله أن يبرّئه أمامهم من هذا العيب، فوضع ثيابه مرّة على صخرة وهو يغتسل، فأوحى الله للحجر أن طِرْ، فطار فانطلق النبي موسى عليه السلام يتبعه في أثره وهو يقول: **«يا حجر، ألقِ ثيابي»**. حتى أتى به على بني إسرائيل، فرأوه مستوياً حسن الخلق، ثم قال أبو هريرة راوي الحديث: فوالذي نفس أبي هريرة بيده، لو كنت نظرت لرأيت لجبات موسى فيه [1].

الثاني: رواية إيناس وحشة النبي آدم عليه السلام

تقول الرواية: إن الله تعالى لمّا أراد أن يؤنس وحشة آدم عليه السلام ـ فقد كان عليه السلام يطوف في الجنّة فاستوحش؛ ذلك أن الإنسان في أصل تركيبه بطبيعة الحال يحتاج إلى نصفه الآخر.. إلى من يؤنسه، كما أن المرأة كذلك؛ ليشكّلا معاً كياناً

---

(١) مسند أحمد ٢: ٣٢٤، تفسير مجاهد ٢: ٥٢١، جامع البيان ٢٢: ٦٣ / ٢١٨٨٢.

موحّداً، ولكي تتمّ إرادة الله تعالى عبرهما ـ فتركه حتى نام، فعمد إلى ضلع من أضلاعه فاقتلعه وخلق منه حوّاء؛ ولذا فإن المرأة أصبحت عوجاء، ولأنها من الرجل كانت على امتداد المسيرة الإنسانيّة فقيرة إلى الرجل، ومحتاجة إليه وتابعة له [1].

نقد الرواية

إن لنا عدّة مؤاخذات على هذه الرواية منها:

الأولى: قدرة الله على خلق حواء كما خلق آدم

وهنا نقول: ما هو الأمر الذي يدعو لأن يترك الله جل وعلا آدم حتى ينام ثم يسلبه ضلعاً من أضلاعه؟ وهل هناك حكمة من هذا؟ إن الله جل وعلا قد خلق آدم ﷺ من تراب، وكما أنه قادر على هذا، فكذلك هو قادر على أن يخلق له حواء من تراب أيضاً.

الثانية: الحكم على المرأة بالاعوجاج

هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فلماذا نحكم على المرأة بأنها سوف تصبح معوجة إن تُركت استمتعت بها وإن قومتها كسرتها؟ ونحن لا ندري من أين جاءت مثل هذه الفكرة الغريبة على أذواق العقلاء.

الثالثة: أنها لو كانت كذلك لأخذت خواصّه

ثم إنها لو كانت جزءاً منه بهذه الكيفية لكان المفروض أنها تأخذ بعضاً من

---

(١) انظر: مجمع البيان ٣: ٨، ٤: ١٢٠، ٨: ٣٨٦ ـ ٣٨٧، جامع البيان ١: ٣٢٩، ٤: ٢٩٧ ـ ٢٩٨، ٩: ١٩١، ٢١: ٣٨، ٢٣: ٢٣٠ ـ ٢٣١، تفسير القرطبي ٧: ١٦٨، ١٦: ٣٤٢، تفسير البيضاوي ٢: ١٣٨.

خواصّه، وكمثال حي على ذلك فإن العلماء يقولون: إن الأرض بنت الشمس؛ ذلك أن العناصر الموجودة في كوكب الأرض هي عينها تلك العناصر الموجودة في الشمس، ومعنى هذا أن الأرض قد انفصلت عن الشمس.

ونحن هنا لا نريد أن نثبت أن هذه النظرية صائبة أو مخطوءة، لكن المعروف الذي لا ينكره عاقل أن الجزء يأخذ خواصّ الكل. وعليه فلو كانت المرأة جزءاً من الرجل لأخذت خواصّه، ومنها الانسجام؛ ذلك أن الإنسان لا يختصم مع نفسه ولا ينازعها، في حين أننا نجد أن الشجار والخصام قائمين على قدم وساق بين الرجل والمرأة في البيوت عامة.

وعليه فإن هذه الرواية جاءت من كعب الأحبار ومقاتل بن سليمان ومجموعة أُخرى من اليهود الذين أسلموا، وقد بقيت فيهم رواسبهم اليهودية التي نقلوها إلى كتب التفسير، حيث جعلوا ركائز في طرق نقل الروايات.

الثالث: النظريات في تزويج أولاد آدم عليه السلام

وهؤلاء قد دسّوا كذلك حول هذه المسألة ـ زواج أبناء آدم عليه السلام ـ بعض الروايات التي تركّز فكرة زواجهم من أخواتهم. وعليه فإن عندنا أربع نظريات حول زواج أبناء آدم عليه السلام:

الأولى: زواجهم من أخواتهم

فهم يذكرون رواية في هذا المضمار تقول: إن آدم عليه السلام عندما أراد أن يزوج أولاده انتظر حتى تلد حواء حيث إنها كانت تضع عند كل ولادة توأماً، وكان التوأم ذكراً وأنثى ثم عمد إلى هؤلاء التوائم فزوجهم من بعضهم.

نقد الرواية

ولنا هنا إشكالات عدة على هذه الرواية منها:

الإشكال الأول: أنه زواج ينافي أُساسيات الشرائع السماوية

ففي كل شريعة سماوية هناك أساسيات ثابتة تشترك فيها مع غيرها من الشرائع الأُخرى، وهذه الأساسيات كثيرة منها عدم صحة زواج الرجال بأخواتهم من النساء، وهو مايعبر عنه بالزواج من المحارم. وهذا الأمر حُرْمته ذاتية ومطّردة، وعلّته كذلك ذاتية ومطّردة؛ لأن علته الحقيقية هي القرب الشديد الذي تنتج عنه آثار سلبية سيئة؛ ولهذا فإن الله جل وعلا حرّم البنت والأم والأخت وما إلى ذلك.

وهذه العلة كما قلنا علة مطّردة، بمعنى أنها ساريةٌ سيالةٌ تشتمل عليها جميع الأديان السماوية. وإذا كان الأمر كذلك فهل من العسير على الله جل وعلا أن يخلق لأولاد آدمعليه السلام زوجات من تراب كما خلق حواء مثلاً، أو أن ينزل عليهم حوريات من الجنة؟

الإشكال الثاني: أن هناك مخلوقات آدميّة قبل آدمنا

فالنظرية العلمية تثبت أن للإنسانية وجوداً قبل آدمعليه السلام، فآدمعليه السلام بالنسبة لنا هو أول البشر، وهو أبو البشرية بالنسبة لهذه المنطقة، فكل منطقة لها آدم كما تذهب إليه بعض الآراء العلمية.

الثانية: أنهعليه السلام زوّج أحدهم من جنّية والآخر من حوريّة

فهناك رواية أُخرى تقول: إن الله جل وعلا قد زوّج أحدهم بجنية، والآخر بحورية؛ فنشب الخلاف بينهما على الحورية حتى قتل قابيل هابيل. وهذا الكلام عجيب وغريب، وهو موجود في كتب التفسير حتى عند الشيعة.

الثالثة: أنهعليه السلام زوّجهم من بنات الأرض

وهذه النظريّة تذهب إلى أنهعليه السلام قد خطب لأولاده وزوّجهم من بنات القارات الأُخرى.

الرابعة: أن أزواجهما من خلق الله

وهذه النظريّة تذهب إلى أن الله تعالى قد خلق لكلّ رجل منهما زوجة، وأن الصراع بينهما إنما وقع لأن إحداهما كانت أكثر جمالاً من الأخرى، فحسده أخوه فقتله. وهذا الرأي هو الأصح عند العلماء.

نظرة حول الروايات

وبالرجوع إلى الروايات فإننا نجدها تعتمد على الجانب الخرافي كما قلنا، وليس على الجانب العلمي، ومثل هذه الروايات التي تعتمد هذا الاعتماد لا يمكنها أن تصمد أمام النقد؛ لأنها روايات لاتلتقي والخطوط العامة للشرائع؛ ولذا القرآن الكريم يعبر عنها بكلمة ﴿أمانِيَّ﴾. ونحن نريد أن نلفت نظر الشباب هنا إلى أنه ليس كل ما ورد في كتب التفسير صحيحاً؛ فلكل رواية حساب كما هو معلوم، فعلينا مع كلّ رواية أن نلاحظ أُموراً منها:

الأول: هل إن هذه الرواية تلتقي مع الخطوط العامّة للإسلام، أو بقية الديانات الأُخرى، أو إنها لا تلتقي؟

الثاني: أن نعرف الراوي، والمروي عنه، وظروف الرواية، ومصداقية كل ذلك؛ لكي يتسنّى لنا أن نأخذ بالرواية ونحن واثقون منها. فاليهود تركوا بصماتهم واضحةً بيّنةً على تاريخنا وكتب تفسيرنا وما إلى ذلك؛ ولهذا فإننا نجد أن تفسير الطبري ـ كمثال على هذا ـ فيه ألوان كثيرة من هذه الروايات، وكذلك الكثير من كتب التاريخ.

ولابدّ من الإشارة هنا إلى أن التاريخ الحديث إنما يلتمس أدلّته من مجموعة الآثار التي يجدها في الأرض، فيعتمدها مصدراً لما يذكره ولما يرويه، أو أنه

يلتمسها في ثنايا بعض الوثائق المدوّنة التي حُفظت لنا على مرّ التاريخ. وهذا التاريخ ـ بطبيعة الحال ـ بعد إثبات صحّة هذه المدونات وترجمتها، يعطينا قناعة بأن هذا الذي يذكره شيء صحيح.

هذا شأن التاريخ العلمي في حين أن كتب التاريخ عندنا لا تمتلك إلّا دليل (روى فلان عن فلان) ثم يسكت عن ذكر ظروفها وملابساتها وحقيقة الراوي والمروي عنه، مع أن الأُمور المحيطة بالرواية أُمور يجب معرفتها في عملية الحكم على صحّة الرواية وعدمها؛ لأن القضايا النفسية لها أثر كبير في صياغة الرواية وإثباتها وعدم إثباتها، وذكرها وعدم ذكرها عند البعض. ولذلك فإن القرآن الكريم عبر عن كل ذلك بأنه أماني.

المبحث الثالث: الظنّ واعتبار حجّيّته وعدمها

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلّا يَظُنُّونَ﴾ إن مطلق الظن لا يمكن لأحد أن يعتمد عليه، فالظن مطلقاً لا يمكن أن يؤخذ عن طريقه حكم شرعي أبداً، وإنما يؤخذ الحكم الشرعي عن طريق الظن فيما إذا جاءنا دليلٌ يقيني صادق يقول: إن هذا الظن قد اعتبره الله جل وعلا طريقاً؛ وبالتالي فإنه يمكنكم أن تأخذوا به. وعليه فإن الشارع المقدّس قد سوّغ لنا الأخذ بالظن في حالتين هما:

الأولى: حجّيّة خبر الواحد والخبر المتواتر

إذن فكيف نخرج ﴿وَإِنْ هُمْ إِلّا يَظُنُّونَ﴾، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئَاً﴾[١] من هذا الحكم؟ إننا لا نخرج من هاتين الآيتين وأمثالهما من الكتاب والسنة شيئاً من الظن فنعتبره طريقاً شرعياً إلّا إذا

(١) يونس: ٣٦.

اعتبره الشارع كذلك، واعتمد عليه. ومن ذلك الحجية الممنوحة لخبر الواحد أو للخبر المتواتر، والخبر المتواتر هو ما ترويه جماعة معتبرة عن جماعة معتبرة بحيث يمتنع تواطؤهم على الكذب في كل طبقة، أي أن كل طبقة تروي هذا الخبر هم مجموعة معتبرة ويمتنع تواطؤهم على على الكذب، بمعنى اتّفاقهم عليه. وعليه فإن مثل هذا الخبر حتماً يأخذ صفة التواتر والمشروعية والطريقية إلى الحكم الشرعي.

فالشارع هنا يعتبره طريقاً إلى الحكم الشرعي، وقناة موصلة إليه، فهو هنا طريق بنفسه وليس طريقاً ظنياً؛ لأنه قد تواتر عن جماعة عن جماعة.

أما خبر الواحد ـ والمقصود هو الخبر الذي يرويه واحد أو اثنان لكن لا يصل حد التواتر، بمعنى أنه لا يقصد به أن راويه شخص واحد ـ فهو طريق ظني؛ لأنه لا يفيد القطع، بل غاية مايفيده الظن روايته بشكل سلسلة عن شخص واحد عن شخص واحد عن شخص واحد لا يفيد اليقين والقطع تماماً، بل إنه يوقع في النفس شيئاً، وبالتالي فإنه يصبح طريقاً ظنّياً إلى الحكم الشرعي.

وعليه فهذا الخبر قد اعتبره الشارع المقدس طريقاً صحيحاً في عملية الوصول إلى الحكم الشرعي (الاستنباط) وإن كان طريقاً ظنياً؛ لأن بإلغائه حجية هذا الخبر ومنع إعطائه هذه الصبغة المشروعة في استنباط الحكم الشرعي والوصول إليه، فإنه حينئذٍ سوف يلغي جميع الأحكام الشرعية أو أغلبها؛ لأننا إنما نأخذ النسبة الغالبة أو العظمى من الأحكام الشرعية عن طريق خبر الواحد.

إذن معنى عدم الأخذ بخبر الواحد وعدم جعله طريقاً للوصول إلى الحكم الشرعي أننا سوف نقع في حرج واضح بيّن؛ لأن الأحكام الشرعية سوف يكون متعسراً إن لم يكن متعذراً الوصول إليها. وهذا ما لا يريده الله جل وعلا الذي

يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[1].

الثانية: المسائل والقضايا الدنيوية

فالأمر الدنيوي قد سوّغ لنا الشارع المقدس أخذه عن الطريق الظني. ذلك أن كل أوضاعنا قائمة على الظن؛ فالفلاح مثلاً حينما يُهيئ أرضه وينثر فيها الحبوب فإنه يكون قد أهدر ماله مالم يكن هنالك أخذٌ بالظن؛ فالحبوب هي في حقيقتها مال أي أن لها صفة مالية، ولها قيمة وثمن، وعليه فإن إبذار الفلاح لها في الأرض مع عدم تيقّنه من إنباتها يعد تبذيراً مالم يكن هنالك أخذ بالظن.

إذن بهذا الظن ساغ له أن يضع الحبوب ذات الصفة المالية في الأرض، وان كان يتوقع أنها سوف لا تنبت، فمجرّد حصول الظن عنده بأن هذه الحبوب سوف تنبت فإنه يكفي في حصول مشروعية وضع البذور في الأرض وعدم اعتباره تبذيراً أو إتلافاً للمال. وهذا يعني أنه يخرج من صفة العبثية إلى صفة العمل العقلائي، بمعنى أن العقلاء حينما يرونه يفعل هذا فإنهم سوف لن يذمّوه أو يخطئوا فعله؛ لأنهم يقعون تحت طائلة هذا الظن المشروع، وهو أنهم سوف يظنّون أنّ هذه الحبّة ستعطي نباتاً أو سبعمئة حبة.

وبناءً على هذا فإن مثل هذا الفلاح حينما يعمد إلى بذر بذوره، فإنه إنما يتوكّل على الله ويفعل ذلك وإن لم يكن متيقّناً من حصول الإنبات، دخل رجل على أحد الفقهاء وقال له: أصلح الله مولانا الفقيه، إني قد نذرت نذراً وقد جعلته للمتوكّلين على الله، وقد حقق الله لي ما نذرت لأجله، فلمن أُعطي هذا النذر؟ فقال الفقيه: أعطه للزرّاع؛ ذلك أن الفلاح يتوكّل على الله ويزرع، وينتظر منه تعالى أن يعطيه ما ينتج من نثر هذه الحبوب. بمعنى أنه يعتمد على الظنّ في أمر زراعته، مضيفاً

---

(١) الحج: ٧٨.

إليه توكّله على الله جلّ وعلا.

فهذا ظن معتبر، وقد وجّه الشارع المقدّس المسلمين إلى الأخذ به. كما أن هنالك أُموراً أُخرى يقدم عليها الإنسان في حياته أو في عبادته اعتماداً على الظن. وبهذا نخرج بنتيجة مؤدّاها أنه ليس كلّ ظنٍ منهياً عنه بعد أن عرفنا أن هناك أنواعاً من الظن يعتبرها الشارع ويعطيها قيمة ومشروعية.

الظن غير المشروع

وإزاء هذا الظن المشروع هناك ظن غير مبرَّر وغير مشروع، وهو الظن الذي حمل عليه القرآن الكريم واستنكره، وذكره في آية المقام في قوله: **﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾**[1]، أي أن هؤلاء ليس لديهم في معارفهم واختباراتهم إلّا الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً؛ لأنه لا يوصل إلى الحقيقة، وبالتالي فهو ليس الظن المعتبر من قبل الشارع، أو الظن الذي يوصل إلى الحكم الواقعي.

فهؤلاء قد وصل بهم الأمر إلى أنّهم اعتمدوا على الظن في كل أُمورهم الدينية، وقد وصل بهم الأمر إلى أن أصبحوا كما وصفهم به الشاعر:

عشرون كفّاً حرّة ما أوقفت ... مهوى يد مغلولة إذ تصفعُ

ويح التعدّد ما أعزّ ركابنا ... لو كانت الأيدي يداً لا تشفعُ

الشوط تغرقه السروج وإنه ... دون السروج لفارس يتطلّعُ

كنّا نهبّ على الزعيق ومذ طغى ... صرنا ننام على الزعيق ونهجعُ

دور اليهود المعاصرين في تشويه الأخلاق

ولهذا فإننا نرى اليهود كانوا ومازالوا يعبثون بمقدساتنا وبفكرنا وبكتبنا

---

(١) البقرة: ٧٨، الجاثية: ٢٤.

ورواياتنا وما إلى ذلك، متّخذين بهذا شتّى الوسائل لإبادتنا والقضاء علينا، حتى عمدوا إلى طباعة نسخٍ محرّفة من القرآن الكريم. كما أنهم عبثوا بالنظريّات العلمية ذات العلاقة بالدين والتشريع الإسلاميّين، محاولين بذلك تذويب مجتمعنا، وتذويب قيمنا وعاداتنا الإسلامية؛ تمهيداً للقضاء عليها.

وبعد هذا فإننا يجب ألّا نستغرب فيما إذا عرفنا أنّ أغلب النظريات الهدّامة التي حاولت تشويه الأخلاق وتذويبها كان منشؤها اليهود، أو أن أصحابها من اليهود.

نظريّة العامل الجنسي عند فرويد

ومن هذا أنهم حاولوا تشويه حتى العلاقة البريئة الإنسانية التي وضعها الله تعالى بين الأبناء وآبائهم، وتفسيرها تفسيراً جنسياً؛ فهم على لسان عالمهم ومفكّرهم فرويد يرون أن الطفل الرضيع حينما يرضع من أُمّه فإنه لا يرضع منها لأجل أن يغتذي، بل إنه يلتقم صدرها ويلتصق به لما يسمونه بعقدة أوديب[1]، ويفسرون هذا الميل من الطفل إلى أمه تفسيراً جنسياً. كما أنهم يفسرون في الوقت نفسه ميل البنت إلى أبيها كذلك مبتعدين عن العاطفة الكريمة والحنان البريء والشفقة والرأفة التي وضعها الله عند الأبوين لأبنائهم كلّ البعد؛ ليفسدوا شرف هذه العلاقة الكريمة، وليخربوا هذه الأُسرة التي أراد الله لها بناءً متيناً شامخاً وسليماً وصحيحاً.

وهم بتشويههم هذه العلاقة الطاهرة إنما يكشفون عن أنهم رجس في الأرض؛ فالولد يرى أو يشم في أُمّه رائحة الرحمة والجنّة، والأُم تشمّ في ولدها رائحة الرحمة والحنان، وترى وجودها مجسداً في ولدها.

---

(١) الطفل بين الوراثة والتربية ١: ٢٨٩.

وهذا ما نراه في حال نساء الأرض كافة؛ فإن إحداهن إذا رزقت بولد نجدها تكاد تطير فرحاً، بل لا يمكن لأحد أن يصف فرحتها أو يحدّها، وإن هي فقدت ولدها فإنها حينئذٍ تعيش حياتها مصيبة ولوعة لا يمكن لأحدٍ أن يصفها أو يسبر غورها. والدمع حينئذٍ يصبح أكثر دلالة من اللفظ. يروي المؤرخون فيقولون: إن المدينة بعد واقعة الطفّ قد تحولت إلى دار مآتم، ويروون عن أحدهم قوله: مررت على حيّ تتجاوب جدرانه بالأنين والبكاء اللذين يدميان القلب، فسألت عنه قيل لي: هذا حي بني هاشم. وسمعت أنين امرأة سمّر قدميّ إلى الأرض، فسألت عنها وعن الدار، فقالوا: هذه دار الحسين بن علي عليه السلام، وهذه الباكية هي ليلى أُمّ عليّ الأكبر:

يبني لو تشوف الليل	عگب عينك اشلون اگطيه
نص بالدمع والحسره	ونص احلم واشوفك بيه
أگول اترد ليالينه	وزماني الراح نرجع ليه
واصحى وتصحه اعيوني	ولن ما شفت حلم وراح

كان هذا حال ليلى، أمّا حال الإمام الحسين عليه السلام، فقد كانت الساعة التي مرت به في ساحة الحرب لم تمرّ بغيره أبداً، فمصرع علي الأكبر هدّ الإمام الحسين عليه السلام، ولم يتحدّث المؤرّخون أن الإمام الحسين عليه السلام قد فعل مع أحد مثل ما فعل مع علي الأكبر عندما سقط على أرض المعركة صريعاً يخور بدمه، فقد رمى عليه السلام بنفسه الشريفة من على ظهر جواده، وامتدّ بجانبه، وأخذ يحتضنه ويعتنقه، ثم وضع خدّه على خدّه فرأى أنه قد أسلم الروح، فصاح بأعلى صوته: **«بني علي، على الدنيا بعدك العفا، أما أنت فقد استرحت من همّ الدنيا وغمّها، وأبقيت أباك لهمّها**

وغمّها. وما أسرع اللحاق بك!»[١].

ثم انحنى عليه يشبعه لثماً وتقبيلاً، ثم قام يكفكف دموعه، وقال للهاشميّين: **«احملوا أخاكم، فوالله لا طاقة لي علىٰ حمله»**. فحملوه إلىٰ المخيم ورجلاه تخطّان الأرض، وطرحوه إلىٰ جانب النساء، فوقعت عليه أُمه تحتضنه:

جاورت أعدائي وجاور ربّهُ	**شتان بين جواره وجواري**
يا كوكباً ما كان أقصر عمره	**وكذا تكون كواكب الأسحار**

---

(١) الدمعة الساكبة ٤: ٣٣١.

«٢١١»

مشروع الزواج في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ﴾[١].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: قانون الزوجية العامة

تقول الآية الكريمة: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾، ومن خلال هذا المقطع الشريف من هذه الآية الكريمة نستطيع أن نخرج بما يمكن أن يسمى «القانون الكوني»، الأمر الذي يوحي بأن الكون كأنما يبتني على قانون عامّ شامل، هو «قانون الزوجية»، وهذا القانون قد أشار إليه القرآن الكريم مجرّد إشارة، كما هي عادته عندما يمرّ بحقيقة علميّة. فمن المعلوم أن القرآن الكريم عادة يشير إلى الحقائق العلميّة إشارة يمكن أن نعبّر عنها بأنها عابرة دون أن يخوض في تفاصيلها؛ لأن القرآن ليس من شأنه أن يخوض في دقائق المسائل العلميّة وتفاصيلها، بل إن فيه إشارات إليها؛ باعتبار أنه كتاب دستوري بالدرجة الأُولى.

---

(١) يس: ٣٦.

ونحن يجب ألّا نغفل أمراً هو أن التفاصيل العلميّة يُترك تقديرها إلى الزمن وإلى العلماء المختصّين؛ لأن القرآن الكريم لم يأتِ ككتاب علمي مختصّ في الفلك والهيئة أو الكيمياء أو الفيزياء، ولم يأتِ ككتاب علمي في هذه الأُمور عامّة، بل إنه في واقع الأمر دستور للحياة الدينية والتشريعية والسياسية وما يدور في هذا الفلك؛ ولذا فإنه حينما يمرّ بالقاعدة العلميّة فإنه يكتفي بالإشارة إليها دون الولوج بذكر تفاصيلها.

إن قانون الزوجية العام كحقيقة لم يكن معروفاً آنذاك؛ لأن العلم لم يكتشفه إلّا في وقت متأخّر، فلم يكن هنالك من العلماء وغيرهم من يعلم أن بقانون الزوجيّة العامّ ينتظم الكون كلّه. ومن خلال هذه الآية وأمثالها التي تتناول بعض الحقائق العلميّة بشكل عامّ نتعرّف على عبقرية المفسرين، وعلى قدرتهم على التعامل العلمي مع النصّ القرآني الشريف، وما إذا كان تعاملاً ينمّ عن معرفة وأُفق واسعين أم لا. ومن هذا التقريب فإننا نذكر هنا أن للمفسرين في معنى مفردة ﴿الأَزْوَاج﴾ الواردة في الآية الكريمة رأيين هما:

الأول: أنها الأشياء المتقابلة

ويريدون بها كلّ ما يمكن أن يطلق عليه لفظ المتقابلين، مثل (الليل والنهار)، و(النور والظلمة)، و(الحرارة والبرودة)، وهكذا إلى آخر المتضادّات أو المتقابلات التي يكثر وجودها في هذا الكون. وهذا الوجه ليس غريباً عن أن تحتمله الآية الكريمة، وليس هو ببعيد بعداً كبيراً عن جوّها؛ لكن القرآن الكريم في واقع الأمر ليس بهذا الصدد، كما سنرى في الرأي الثاني.

الثاني: أنها الزوجيّة البايلوجيّة

ومن هذا التقريب نعلم أن مراد القرآن الكريم هنا هو الزوجية العضوية.

والواقع أن هذا الموضوع يمشي مع الإنسانية في كلّ يوم وكلّ زمان وكلّ مكان، ذلك أنها لا يمكن أن يمرّ عليها وقت تستغني فية عن هذه العلاقة؛ لأن امتداد النوع يتوقّف عليها. ونظراً لأهمية الزواج فمن الضروري أن يبحثه ذوو الاختصاص بشكل مفصّل لوضع حدوده وقوانينه، ومسوّغاته ومحرّماته والمبيحات له. ولذا فإننا نجد أن في كتب الفقه باباً خاصّاً في هذا المجال يغطّي احتياجات الإنسان فيه، والتساؤلات والإشكالات ذات العلاقة بهذا الموضوع كافّة.

والعلماء أو الفقهاء إنما يستفيدون أحكامهم بالدرجة الأُولى من القرآن الكريم والسنة النبويّة أو المعصومية المطهّرة، وهما منجمان غنيّان بالتشريعات والقوانين والنظم؛ وهو الأمر الذي يعطيهم مساحة واسعة للتحرّك في مضمار التشريع حينما يتناولون هذا الموضوع، فيعطونه حقّه من ذكر محلّلاته ومحرّماته وبقيّة جزئيّاته تحت مجهر الأحكام التكليفيّة الخمسة، وسائر متعلّقاته بناء على ما يستفيدونه من هذين المصدرين المقدّسين.

المسلمون القرآن

إننا كمسلمين نعيش مشاكل يومية متعدّدة متكرّرة دون هوادة، ومن ضمنها مشكلة الزواج، فعندما نتابع الصحف نجد أن هناك أعمدة مختصّة تتناول جوانب معيّنة من مشاكل الزواج؛ فهناك بعض المواضيع التي تتناول جانب غلاء المهور، وهناك مواضيع أُخرى تتناول مشكلة التفاوت الطبقي، وثالثة تتناول الموضوع من مشكلة أُخرى ومن زاوية أُخرى، وهي مشكلة الكسبيّات أي أن هذا الطالب يدَ الفتاة هل هو مثقّف أم غير مثقّف؟ وهل هذا غني أم غير غني؟ ورابع يتناوله من وجهة نظر السلوك، أي من جهة ما يتعلّق بحقوق الزوجين وواجباتهما؛ سواء كانت داخل البيت، أو خارجه.

وفي الحقيقة إن هذه المشكلة نتجت أو تفرّعت عن مسألة عدم التقيد بالقواعد التي رسمتها الشريعة المقدّسة، فبحكم كوننا مسلمين يجب على كلّ واحد منا أن يخضع علاقاته الشخصية لمصادر التشريع الإسلامي، وأن يقنّنها على ضوئها، وأن يتعامل مع الآخرين وفق ما توحي به هذا الشريعة المقدّسة أو تقنّنه له. فمصادر التشريع الإسلامي هي التي تحدّد لنا معالم الطريق الذي رسمه الله تبارك وتعالى لنا. وعليه فلا بد من ولوج موضوع الزواج عبر معالجة هذه الأُمور وفق تسلسلها، فنقول: إن هذا الأمر تتمّ معالجته وفق بيان حقيقتين ذاتي علاقة به.. حقيقتين لابدّ من أخذها بنظر الاعتبار في عملية المعالجة، وهما:

الأولى: أنه غريزة متأصّلة في النفوس

فقضيّة الزواج قد أودعها الله جلّ وعلا في نفس الإنسان كغريزة منذ بدء خلقه، والإنسان لا يمكن في أي حال من الأحوال أن يتجرّد من غريزته.

الثانية: أن الله تعالى لم يخلق الغريزة عبثاً

ثم إننا يجب أن نلتفت إلى أن الله تبارك وتعالى حينما وضع الغريزة عند الإنسان لم يضعها عبثاً، بل إنه جلّ وعلا وضعها عنده لهدف نبيل وغاية سامية هي حفظ النوع من الانقراض والإبقاء عليه. لكن شريطة أن يتمّ هذا التعامل معها لتحقيق هذا الهدف السامي على ضوء نظم الشريعة المقدّسة ومرتأياتها وقوانينها، وليس استجابة للاندفاع الأهوج وراء الغريزة، الناجم عن الابتعاد عن الله تبارك وتعالى، وعن الانقياد للنفس والهوى والشيطان.

وبهذا البيان يتّضح خطأ من يذهب إلى أن الإنسان إذا لم يتزوّج فإنه يكون أفضل حالاً مما لو أنه تزوّج. وهؤلاء الذين يذهبون إلى هذا الرأي يفلسفونه بالقول: إن الزواج حالة بهيميّة تعتري الإنسان الذي يجب عليه أن يكون أسمى

وأعلى وأرفع من أن ينزل إلى مستواها، وتعتريه فتحوّله إلى مثلها. وهذه المدرسة السلبيّة تجاه مسألة الزواج موجودة في تاريخ الأُمم كافّة، وفي الأزمان كـافّة، فهي من المدارس الفكرية التي ترى أن الزواج هو نوع من ممارسة الغرائز البهيميّة التي يشترك بها الإنسان مع الحيوان، وينزل بها عن مستوى إنسانيته التي رفعه الله تعالى إليها. وعليه فإنه بهذا إنما يقضي على إنسانيته.

وفي واقع الأمر إن الله جلّ وعلا عندما استخلف الإنسان في الأرض أراد منه أن يعمرها، وإعمار الأرض لا يكون إلّا باستمرار وجود الإنسان فيها؛ لأن هذا الاستمرار يعدّ ضماناً لذلك الاستعمار والاستخلاف الذي أراده الله جـل وعـلا للأرض، وأن يكون من الإنسان. وهذا الاستمرار لا يكـون كـما هـو مـعروف ومألوف وغني عن الإشارة إلّا عن طريق الأبوين، أي عن طريق الزواج الذي يحقّق لنا هذا الهدف.

وهذه العلاقة ليست حالة مشينة بحال من الأحوال حتى ندعو الإنسـان إلى الابتعاد عنها؛ فإننا نعرف أن الأنبياء عليهم السلام جميعاً قد تزوّجوا، مع أن البعض قد أنكر على الأنبياء عليهم السلام أن يتزوّجوا شأنهم في ذلك شأن بقية بني الإنسـان؛ لأنـهم عليهم السلام أرفع شأناً، وأفضل خلقاً وأشرف وجوداً ممّن خلق الله تبارك وتعالى؛ ولذا فإنه من باب أولى أن عليهم أن يترفّعوا عن هذه الحالة الحيوانية التي يمارسها الحيوان والإنسان المتشبّه به، وألّا يتزوّجوا.

ومما يذكر من هذا الباب أن أحد الفقهاء كان كلّما مر بطريقه وجـد أن أحـد الأشخاص يمشي خلفه ويطيل النظر إليه، فناداه وسأله عن شأنه وعن الأمر الذي دعاه إلى أن يطيل النظر إليه في كلّ مرة يمر بها من قربه، فأجابه بأنه يفكّر فـي مسألة هي هل إن هذا العالم الربّاني الوقور، والمجتهد الورع ـ يعنيه هو نـفسه ـ حينما يأتي بيته يمارس هذه العادة البهيمية مع أهله شأنه فـي ذلك شأن النـاس

جميعاً؟ فقال له: هكذا كان جدّنا رسول الله ﷺ يفعل.

فالمشكلة إذن هي أن تتّخذ هذا المنحى من التفكير عند البعض، أي أن يشكّكوا بأن الأنبياء والأوصياء عليهم السلام والعلماء والعاملين مثلهم من وجهة نظرهم لا يمكن أن يلجوا هذا المجال، أو أن يمارسوه؛ لأنه طريق حيواني، وهم لا يريدون لهم أن ينزلوا عن مستواهم الإنساني إليه، أو أن ينزلوهم هم عنه. فهؤلاء في تصوّرهم وفي ظنّهم أنهم بهذا التوجيه إنما يرفعونهم عن الحالة البهيمية إلى الحالة الإنسانيّة التي خلقهم الله عليها.

وهذا الأمر ينطوي على مغالطة واضحة؛ ذلك أن الإنسان بشكل عام ـ حتى الأنبياء والمرسلين عليهم السلام وغيرهم ـ عنده حاجات نفسية وحاجات جسدية وحاجات روحية:

فالحاجات الروحية هي الإيمان بوجود إله، والعلم والمعرفة، وما يدور في نطاقها ونطاق الروح ممّا يغذّيها ويشبعها.

أما الحاجات النفسية فهي الأمان والاستقرار وما هو في فلك هذا السياق.

أما الحاجات الجسدية فهي الطعام والجنس وغيرهما.

وكلّ حاجات الإنسان قد وضعها الله جلّ وعلا عنده لحكمة ولغاية يرتئيها هو تعالى، والحكمة من الزواج هو امتداد النوع الإنساني، كما أن الحكمة من ممارسة الحيوانات لهذه الحالة هي عملية امتداد لنوعها وبقائها والحيلولة دون انقراضها. فبالزواج يتحقّق استمرار النوع البشري كلّه على سطح الأرض. أما أن يأتي من يقول: إن ترك الزواج أفضل؛ لأن الله تبارك وتعالى قد مدح أحد أنبيائه، وهو يحيى بن زكريا عليه السلام بقوله: ﴿وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[1]، فهذا

---

(١) آل عمران: ٣٩.

ينطوي على مغالطة؛ فصحيح أننا نعلم أن الحصور هو الذي لا يتزوّج، لكن هذا لا يعني أن الذي لا يتزوّج أفضل من غيره.

ولو أردنا أن نتناول هذه الآية من وجهة نظر علماء الأُصول فإننا نقول: إن هذا هو مفهوم الوصف الذي لا تقوم له حجّية كما هو معروف في علم الأُصول [١]. وكدليل على ما نقول ما يروى من أن الأرض تشكو من بول الأعزب. وعليه فإذا كان الشخص ذا مال وصحة وقوّة ومقدرة على الزواج فعليه أن يفعل ذلك، وإلّا فما هو المانع من أن يلجه، أو يحول دون تحقيقه، وقد منحه الله الصحّة والطاقة والقابلية على إتيانه؟ فالإنسان عبر الزواج يطمئن إلى أنه سوف لن يقع في محذور ولن يرتكب محرّماً أبداً.

إن الله جلّ وعلا عندما ينعم على عبد بنعمة منه فإنه يريد منه أن يستعمل تلك النعمة فيما أُحلّ له، وليس هناك من شكّ في أن الزواج من الأُمور المستحبّة، وربما يصل الأمر به إلى أن يدخل في دائرة الوجوب لمن لا يستطيع أن يسيطر على غريزته وعلى نفسه. وعليه فإن من يستطِع أن يصبر عنه فإنه يبقى على استحبابه؛ لأن النبي ﷺ ندب إليه فقال: « **تناكحوا تكاثروا، فاني أُباهي بكم الأُمم يوم القيامة** » [٢].

وقد ندب إليه القرآن الكريم من قبلُ فقال: ﴿ **وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [٣].

---

(١) انظر أُصول الفقه (المظفّر) ١: ١٦٩ ـ ١٧٤.

(٢) الخرائج والجرائح ٢: ٩٢٠، عوالي اللآلي ١: ٢٥٩ / ٣٤، مستدرك وسائل الشيعة ١٤: ١٥٣ / ١٦٣٤٦، المصنف (الصنعاني) ٦: ١٧٣ / ١٠٣٩١، معرفة السنن والآثار ٥: ٢١٩ ـ ٢٢٠ / ٤٠٥٠، كنز العمّال ١٦: ٢٧٦ / ٤٤٤٤٢.

(٣) النور: ٣٢.

وعليه فإن الزواج واجب على من لا يتمكن من أن يتغلّب على غرائزه ورغباته؛ لأن الشرع والعقل حينئذٍ يقضيان بأن عليه أن يعف نفسه وأن يصونها؛ لأنه بهذا السلوك إنما يحترم المجتمع، ويحترم القيم، ويحترم الدين والرسالات؛ لأن ما يترتّب على هذا الأمر هو أنه سوف لن ينجرف وراء الغريزة والرغبات والأهواء، وبالتالي سوف لن يقع في دائرة المعصية والمحذور. إن من لم يستطع أن يسيطر على غريزته ولم يتزوّج فإنه حتماً سوف يعتدي على المجتمع؛ لأن المرأة التي يعمد إلى ممارسة الرذيلة معها هي ابنة لهذا المجتمع، كما أنه هو نفسه ابن لهذا المجتمع. وبهذا فإنه حينما يعتدي على هذه المرأة، فإنه يكون قد اعتدى على المجتمع مرّتين: مرة لأن المرأة ابنة المجتمع، وأُخرى لأنه ابن لهذا المجتمع أيضاً وقد عمد إلى إفساده.

وهكذا فإننا نجد أن هذا الذي يمتنع أو يبتعد عن الزواج وهو لا يملك قابلية على حفظ نفسه، وفي المقابل يمتلك مقوّمات الوصول إلى الزواج، فإنه إنما يعرض المجتمع إلى الانهيار. وهذا يعني أنه يتحمل إثم المجتمع؛ سواء من حيث إفساده، أو من حيث اعتداؤه عليه. وهذه هي إحدى الحِكم التي من أجلها حرّم الله تبارك وتعالى هذا السلوك، وشدّد في التنكير عليه.

ومن هذا نخلص إلى أن الأصل في الزواج هو الاستحباب، حتى يطرأ عليه طارئ، أو يعرض عليه عارض؛ فإنه حينئذٍ يتحول إلى زواج واجب. مع أن النزعة إلى الزواج هي نزعة عميقة في نفس الإنسان؛ ولهذا فإن الأديان السماوية جاءت لتهذّب هذه النزعة، ولتضع لها قوانين ونظماً؛ كي تسير بها في المجرى الصحيح، ولتكبح تلك الرغبة الجامحة فيها من غير أن تؤدي إلى إفساد المجتمع وإلى تدميره، وبخلافه ـ ولوج طريق الحرام ـ فإن الأمر سوف ينتهي إلى

الانحراف والرذيلة، وسقوط المجتمع.

المبحث الثاني: معالجات الإسلام لمعوّقات الزواج

وقد جاء الإسلام بعد ذلك ليزيل كلّ تلك الحواجز التي تقف في طريق الإنسان دون الزواج، أو التي تحول دونه، وقد عمد الإسلام إلى أن يدفع الإنسان نحو تحقيق هذا الهدف؛ لأنه هدف نبيل يُبتغى من ورائه إدامة هذا النوع واستمراريته[1]. وقد استعمل الإسلام طرقاً عديدة للقضاء على المعوّقات التي تحول دون ولوج الإنسان طريق الزواج، ومنها:

العقبة الأولى: القضاء على الشعور العرقي (الشعور بالذات)

إننا حينما نتلمّس تاريخنا فإننا نجد أن هناك ميراثاً اجتماعيّاً ثقيلاً كان ولا زال يحكم بعض أبناء هذا المجتمع، وهي تتمثّل بالنزعة إلى التفاخر على الآخرين، والترفّع عنهم، والرغبة عن الاختلاط معهم[2]. ونحن حينما ننظر في تاريخ قبيلة

---

(١) كما أن في الزواج أيضاً أُموراً أُخرى، منها إعلاء كلمة «لا إله إلّا الله»، كما نصّ الرسول ﷺ، وقد مرّ قبل قليل، ومنها توفير الكادر العسكري للدفاع عن الإسلام، كما مرّ ذكره في إحدى المحاضرات التي طبعت ضمن هذا الكتاب.

(٢) كما يروى عن جبلة بن الأيهم، فبعد أن أسلم جاء يريد الحجّ، وأثناء الطواف وطئ رجل من فزارة على إزاره فانحلّ الإزار، فالتفت إليه جبلة وقال له: يابن اللخناء، أتطأ على ردائي؟ ثم ضربه بكفّه على وجهه ضربة هشم بها أنفه، فأقبل الفزاري إلى عمر بن الخطاب ـ وكان يومئذٍ معهم في الحجّ ـ ودمه يسيل من أنفه، فأخبره بقصّته مع جبلة، فبعث عمر إلى جبلة فأحضره، ثم قال له: أرضِ الرجل في حقّه وإلّا أقدته منك. فاستكثر جبلة هذا وقال: أو تفعل هذا؟ قال: نعم والله أفعله. قال جبلة: إنه رجل من السوقة وأنا ملك ابن ملك، والله لقد ظننت أن أكون في الإسلام أعزّ مني في الجاهليّة. فقال له عمر: إن لم ترضه أمرته أن يهشم أنفك كما هشمت أنفه قصاصاً؛ فإن الإسلام جمعك وإياه.

فلما رأى جبلة أن عمر يأبى إلّا القصاص قال: نعم، غير أني ناظر في أمري ليلتي هذه. فقال عمر: ذلك إليك. فانصرف جبلة يومه ذلك مفكّراً، حتى إذا نامت العيون خرج في قومه

تميم نجد فيها من يقول معبّراً عن لسان حالها:

إذا غضبت عليك بنو تميم رأيت الناس كلّهُمُ غضابا [(١)]

وحينما نأتي إلى الخزرج نجد أن شاعرهم يقول:

لنا الجفنات الغرّ يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما [(٢)]

وبالذهاب إلى القبائل الأُخرى نجد أنها لا تخرج عن هذا الإطار، ولا تنحرف عن هذا اللون من التفكير وعن هذا المسار. وهنا بناءً على هذا التفاخر بالأموال والأولاد وبالنفس فإنه تبدأ سلسلة حينئذٍ من التساؤلات لا حدود لها حول هذا الذي يتقدّم للزواج إلى إحدى بنات هذه القبائل، فيثار تساؤل مثلاً هو: هل إن هذا الشخص مناسب أم إنه غير مناسب؟ وهل يناسبنا نحن أن نتزوّج من القبيلة الفلانية أم لا؟

إذن فهذه عقبة من العقبات الكأداء التي تقف في طريق الزواج، وهي العقبة العرقية، بل هي من ألعن العقبات التي تعترض هذا المشروع على امتداد تاريخ البشريّة. وقد سعى القرآن الكريم جاهداً إلى تذليلها وإذابتها، وإلى مخاطبة معتنقيها بتركها؛ لأنه ليس هناك من شخص قد جاء من ماء من ذهب وآخر جاء من ماء من خزف، بل إن الناس كلّهم على حدّ سواء: **«كلّكم لآدم وآدم من تراب»**[(٣)].

☚ الذين قدموا معه إلى بلاد الروم، ثم أقبل قاصداً إلى القسطنطينية، ودخل على هرقل ملكهم، فتنصّر هو وجميع من كان معه، ففرح به هرقل ورأى أنه فتح فتحاً عظيماً. الفتوح ١: ٢٣٢ - ٢٣٤، خزانة الأدب ٤: ٣٦٢ - ٣٦٤.

(١) البيت لجرير، وهو من قصيدة يهجو بها الراعي النميري. ديوان جرير: ٦٢، وانظر: إعجاز القرآن: ٢٣٥، تاريخ مدينة دمشق ٣٨: ١٩٢.

(٢) ديوان حسّان: ٦٩.

(٣) تحف العقول: ٢٤، شرح نهج البلاغة ١: ١٢٨، الدرّ المنثور ٦: ٩٨.

وبهذا فإن على هؤلاء أن يتركوا هذا النمط من التفكير، وهذه العقلية المتخلّفة، وهي عقلية أنهم أفضل من غيرهم، أو أنهم من قبيلة هي أشرف من القبائل الأُخرى أو أنهم من معدن غير المعدن الذي خلق منه الآخرون.

تزويج العلوية من غير العلوي

ومن هذا ما أُثير في زماننا الحالي حول الارتباط بين العلوية وغير العلوي، فالبعض يذهب إلى أن الرجل عندما يتزوج من هي أدنى منه شرفاً فإن هذا ليس فيه عيب، كما لو أن علوياً يتزوّج من غير العلوية، لكن أن تتزوج المرأة من هو أدنى منها شرفاً فهذا غير جائز عندهم كما لو أن علويةً أرادت أن تتزوج من غير العلوي. فهؤلاء بهذا التقدير لا يتحقّق عندهم معنى الكفاءة.

وقد حارب الفقهاء هذا التطرف في التفكير، وصرحوا بأنه يصطدم اصطداماً مباشراً بالنصّ؛ فليس في الإسلام من علوية وغير علوية، أو علوي وغير علوي، بل إنهم جميعاً من وجهة نظر الإسلام على حد سواء: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾**[1].

وعليه فسواء كانت المرأة علوية أو غير علوية فإن الإنسان هو ندّ للإنسان ما داما على ديانة واحدة.

وهذا المبدأ قد أعلنه الإسلام منذ نزوله، وإذا كانت الحضارات الأُخرى تخالف الإسلام في هذا المبدأ، فإن هذا يعدّ شرفاً للإسلام، وسبقاً له في تحقيق الأُخوّة

---

(١) الحجرات: ١٣، وقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، إن العربية ليست بأب والد، وإنما هي لسان ناطق، فمن تكلم به فهو عربي، ألا إنكم ولد آدم، وآدم من تراب. والله لعبد حبشي أطاع الله خير من سيد قرشي عاصٍ لله، و﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾...». تفسير القمّي ٢: ٩٤، بحار الأنوار ٧: ٢٣٩.

الإنسانية، والمساواة، والعدالة بين أبناء الإنسان.

إن الحضارات الأُخرى غارقة في بحر العرقية والطائفيّة إلى أُنوفها، وليس من أحد إلّا ويسمع عن المذابح العرقية التي تمارس ضد السود مثلاً، أو التي تمارس ضدّ المسلمين في بعض البلاد [١]، ومع كلّ هذا نجد أن الدول الكبرى تقف موقف المتفرّج من ذلك دون أن تحرّك ساكناً؛ لأنها لا تريد أن تجرح عواطف أصدقائها كما هو الحال مع الأقلّية البيضاء في جنوب أفريقيا، فتسكت عن تلك المذابح والمجازر، وسيل الإهانات الذي يتعرض له المسلمون على أيدي جلّاديهم، والسود على أيدي الأقلّية البيضاء هناك، وليس من جريمة لأولئك سوى أنهم خلقوا سوداً، أو أنهم مسلمون.

إذن أين العامل الإنساني الذي يجب أن يتحكّم في تصرفاتنا وعواطفنا، فضلاً عن العامل الديني؟ وأين الجمعيّات الإنسانيّة التي تدّعي أنها تحافظ على حقوق الإنسان؟ إن جمعيات الرفق بالحيوان تحارب من أجل حيوان يضرب أو يقتل، وطالما تباكت من أجل حيوان أُرسل إلى القمر، فألا يخجلون من أنفسهم ومن هذا

---

(١) في حين أن الإسلام يعلن على لسان صاحبه الكريم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوصي بهم خيراً حتى في أحلك الساعات، وهي الحرب؛ فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يوصي قائد كل سريّة يبعثها بقوله: «اغزوا باسم الله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله، لا تقاتلوا القوم حتى تحتجّوا عليهم بأن تدعوهم إلى شهادة أن لا إله إلّا الله، وأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جئت به من عند الله، فإن أجابوكم فإخوانكم في الدين. ثم ادعوهم حينئذٍ إلى النقلة من دارهم إلى دار المهاجرين؛ فإن فعلوا، وإلّا فأخبروهم أنهم كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المسلمين، وليس لهم في الفيء ولا في الغنيمة نصيب، فإن أبوا من الإسلام فادعوهم إلى إعطاء الجزية عن يد وهم صاغرون، فإن أجابوا إلى ذلك فاقبلوا منهم وكفّوا عنهم، وإن أبوا فاستعينوا بالله عليهم وقاتلوهم، ولا تقتلوا وليداً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تمثّلوا ولا تغلّوا ولا تغدروا». دعائم الإسلام ١: ٣٦٩، منتهى المطلب ٢: ٩١١ (حجري)، السنن الكبرى (البيهقي) ٩: ٩٠ ـ ٩١.

الدجل الذي هم فيه؛ حيث إنهم يرون الآلاف من بني الإنسان يقتلون ويذبحون كل يوم وهم لا يحرّكون ساكناً مع أنهم يتباكون من أجل حيوان؟ إنهم يبكون على الكلاب ولا يقدّرون الإنسان، وهذا لا يعني إلّا شيئاً واحداً هو أن الحيوان في نظرهم أفضل من الإنسان الأسود الذي ليس له من ذنب سوى أن الله خلقه بهذا اللون.

وهكذا نجد أن شعوباً تباد بأسرها، وأن أقواماً يُقضى عليها عن بكرة أبيها بسبب العرق وما إلى ذلك دون أن تحرّك هذه الجمعيات ساكناً.

والواقع أن الإسلام حينما أعلن عن مبدأ المساواة بين الإنسانية فإنه قد طبقها قولاً وفعلاً، أما حالات الشذوذ التي حدثت في تاريخ الإسلام، فهي موجودة فعلاً لكنها لا يقاس عليها، ولا تمثّل رأي الإسلام، وإنما تمثّل رأي أصحابها الذين ارتكبوها. وهم بهذا يبتعدون عن الإسلام الحنيف، وعن روحه وعن جوهره، بل حتى عن اعتناقه؛ لأنهم بهذا يخالفون نظمه الصريحة، وقوانينه الواضحة، وتشريعاته المشرقة المشرّفة التي تحرّم الاعتداء على الآخرين بأي شكل من الأشكال، ويقتلون النفس التي حرّم الله تعالى، ويعتدون على بني الإنسان. وهذا محرم، وربما يخرجهم من ربقة الإسلام، يقول تبارك وتعالى: **﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾**[١].

فليس في الإسلام أو معه عنصرية أبداً، بل إنه يرى الناس كلّهم لآدم وآدم من تراب، كما هو صريح الحديث النبوي الشريف الذي مرّ قبل قليل. ومن هذا المنطلق ذكرت أن من يذهب إلى انعدام الكفاءة بين العلوي وغير العلوي في

---

(١) الأنعام: ١٥١، وقال عزّ من قائل: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ النساء: ٩٣.

مسألة الزواج يصطدم بأكثر من دليل؛ لأن الإنسان ندّ للإنسان، وهذا الأمر لا يقدح بالكفاءة.

وهذا أول جانب هدمه الإسلام ممّا يحول دون ولوج طريق الزواج، وكما ذكرنا في محاضرات سابقة فإن الرسول الأكرم ﷺ قد أمر أُسرة من أضخم الأُسر بالمدينة من الأنصار من حيث الشرف والخلفيّة الحضارية، والمال والتجارة، وصراحة النسب وعدم اللبس والغموض فيه أن تزوّج إحدى بناتها من جويبر، وهو أحد الموالي الذين كانوا يعيشون في مسجد رسول الله ﷺ. تلك هي قبيلة بني بياضة التي كانت تعدّ من أكبر الأُسر وأشرفها وأعرقها آنذاك. وهؤلاء حينما جاءهم أمر رسول الله ﷺ هذا قالوا: أنزوّج بناتنا لموالينا؟ ولمّا تردّد جويبر في أمر رسولنا الأكرم ﷺ إيّاه بالزواج؛ لفقره ونسبه ووضعه الاجتماعي كمولى، قال له الرسول الأكرم ﷺ: **«يا جويبر، إن الله قد وضع بالإسلام من كان في الجاهلية شريفاً، وشرّف بالإسلام من كان في الجاهليّة وضيعاً، وأعزّ بالإسلام من كان في الجاهليّة ذليلاً»**.

وفعلاً نزلوا عند رغبة الرسول الأكرم ﷺ وزوجوه[١].

وهناك حوادث أُخرى زوّج فيها الرسول ﷺ بنات عائلات كبيرة معروفة ومشهورة من مساكين أو من موالٍ؛ ليكسر بذلك هذه العادة، بل إنه ﷺ نفسه قد زوج ابنة عمته من زيد بن حارثة. ولو رجعنا إلى زيجات الرسول ﷺ نفسها وإلى زيجات الأئمة (عليهم أفضل الصلاة والسلام) لوجدنا أن بعضها كانت من الإماء، بل إن الأغلب منها كان كذلك[٢]. وكلّ هذه خطوات عمليّة لتذليل هذه

---

(١) الكافي ٥: ٢٤١ / ١، بحار الأنوار ٢٢: ١١٨.

(٢) وهو ما احتجّ به الإمام السجّاد ﵇ في حديثه مع عبد الملك بن مروان، حيث إنه ﵇ كان قد تزوج سرّية، فبلغ ذلك عبد الملك، فكتب إليه في ذلك كتاباً: إنك صرت بعل الإماء.

العقبة التي وضعها المجتمع الجاهلي في طريق الزواج؛ لأن الشعور بالعرقيّة له نتائجه السلبية التي سوف تظهر فيما بعد على كل ما يتعلّق بالمجتمع حوله، والتي سوف تخلق عقبة في طريق بناء المجتمع، وسوف تؤدّي إلى نتائج لا تحمد عقباها على امتداد الخط.

وبهذا فإن الرسول الأكرم ﷺ يريد أن يجعل من الإنسان كائناً يشعر بأنه أخو الإنسان، لا فرق بينه وبينه إلّا بما فضّل الله وهو التقوى. وفي هذا المجال نقرأ روايةً شريفةً تنصّ على ضرورة عدم احتقار أي إنسان من أي طبقة كان، فعن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «**إن الله تعالى خبّأ ثلاثة في ثلاثة: خبّأ رضاه في طاعته، فلا تحقرنّ من الطاعة شيئاً؛ فلعلّ رضاه فيه. وخبّأ سخطه في معصيته، فلا تحقرنّ من المعصية شيئاً؛ فلعلّ سخطه فيه. وخبّأ أولياءه في خلقه، فلا تحقرنّ أحداً، فلعله الولي**»[١].

وقد ورد في هذا الحديث الشريف ثلاثة أُمور هي:

الأول: خبّأ «رضاه في طاعته»

ذلك أن البعض ربّما يتساءل عن الأثر المترتّب على رفع مسمار مثلاً عن طريق المسلمين، وزمّ الأذى عنهم، ظانّاً أن هذا العمل صغير ليس ذا قيمة، ولا أثر

☚ فكتب عليه السلام إليه: «إن الله رفع بالإسلام الخسيسة، وأتمّ به الناقصة، فأكرم به من اللؤم فلا لؤم على مسلم، إنما اللؤم لؤم الجاهلية. إن رسول الله ﷺ أنكح عبده ونكح أمته».
فلمّا انتهى الكتاب إلى عبد الملك قال لمن عنده: خبّروني عن رجل إذا أتى ما يضع الناس لم يزده إلّا شرفاً؟ قالوا: ذاك أمير المؤمنين. قال: لا والله ما هو ذاك. قالوا: ما نعرف إلّا أمير المؤمنين. فقال: فلا والله، ما هو بأمير المؤمنين، ولكنه علي بن الحسين. الكافي ٥: ٣٤٥ ـ ٣٤٦ / ٦.

(١) الدرة الباهرة من الأصداف الطاهرة: ٥ / ١، بحار الأنوار ٧٥: ١٨٨ / ٣٤.

له، ولا يمكن أن يكون ذا أثر عند الله جلّ وعلا. وهذا تفكير سطحي ساذج وغير صحيح؛ لأن الإنسان لا يعلم أن رضوان الله جلّ وعلا ربما يكون مخبّأً في ذلك العمل الذي استصغره [١].

الثاني: خبّأ «سخطه في معصيته»

وكذلك الحال مع المعاصي، حيث إن الإنسان ربما يظنّ أن هذه المعصية أو هذا التطاول على حدود الله تبارك وتعالى هي معصية صغيرة لا يمكن لها أن تدخله النار أو تحرمه الجنة، مع أن واقع الحال يفرض على الإنسان أن يعتقد بأن الله جلّ وعلا ربما يكون قد خبّأ سخطه في هذه المعصية المحتقرة، وأنه سوف يعاقب عليها بنار جهنم [٢].

إننا يجب أن نعلم أن مقاييسنا لم نضعها على وفق مقاييس الله جلّ وعلا؛ وعليه فما نظنّه ليس بمعصية ذات أهمية عند الله جلّ وعلا ربما كانت معصية كبيرة يحاسب الله عليها، ويعاقب بأشدّ أنواع العقوبات. وعليه فإن على الإنسان ألّا يركن إلى هذا النوع من التفكير السطحي، ويتهاون في بعض المعاصي بانياً هذا التهاون على أنها معاصٍ بسيطة، ولا أثر لها في حياة الإنسان أو على سلوكه في الدنيا، أو في تحديد نمط جزائه وعقابه وحسابه، أو في تحديد فئته التي

---

(١) قال الشاعر:

كلّ الحوادث مبداها من النظرِ ومعظم النار من مستصغر الشررِ

إعانة الطالبين ٣: ٣٠٠، تفسير الآلوسي ١٨: ١٣٩.

(٢) ورد عن رسول الله ﷺ قوله: «إياكم ومحقَّرات الذنوب؛ فإنما مثل محقَّرات الذنوب كمثل قوم نزلوا في بطن وادٍ فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود، حتى حملوا ما أنضجوا به خبزهم. وإن محقَّرات الذنوب متى يؤخذْ بها صاحبها تهلكْه». انظر: مسند أحمد ٥: ٣٣١، المصنّف (عبد الرزاق) ١١: ١٨٣ ـ ١٨٤ / ٢٠٢٧٧، المعجم الأوسط ٧: ٢١٩ـ ٢٢٠.

سيكون عليها يوم القيامة.

وبهذا فإنها تعتبر معصية عظيمة عند الله تبارك وتعالى، مع أن الإنسان ينظر إليها على أنها معصية يسيرة. ومن هذا أن البعض يعرّض أخاه المؤمن إلى الإهانة، أو أنه يعتدي على كرامة إنسان غيره، أو ربما يقوم بعمل فيه ضرر وأذى ولو جزئي، ظانّاً أنه عمل هيّن، ولا يدخل في نطاق إثارة سخط الله عليه، وهو في واقع الأمر داخل في تلك الدائرة.

الثالث: خبّأ «أولياءه في خلقه»

ومن هذا فإن البعض قد يحتقر فئةً معينةً من الناس احتقاراً مبتنياً على التفاوت العرقي أو الطبقي، أو من حيث الغنى والثروة والفقر، أو لاعتبارات اجتماعية أُخرى وضعها الإنسان نفسه، ولم يضعها الله جلّ وعلا. وهكذا فإننا نجد أن الإسلام قد أزال هذه العقبة. وهذه هي الجنبة ذات العلاقة بموضوعنا الذي نحن بصدد الحديث عنه.

العقبة الثانية: حرية الاختيار

إن البعض من الآباء يعمد إلى وضع عقبة جديدة في طريق هذا المشروع، وهي عقبة الاختيار؛ حيث إنهم لا يعطون المرأة حقّ اختيار الزوج بناءً على موافقتها، بل إنهم يجبرونها على الزواج ممّن يريدون. وهذه مسألة مهمّة جداً، وولاية الأب الممنوحة له هي عامل أدبي وليس عاملَ تحكّمٍ. إن البعض من الآباء يتحكّمون بالمرأة، ويسلبونها حرية الاختيار، وكأنها أمة أو جارية مملوكة، فيحولونها بذلك إلى متاع يباع ويشترى. وهؤلاء الآباء كأنهم هم الذين يريدون أن يتزوّجوا، لا بناتهم أو حتى أخواتهم كما عند البعض، فيحقّقوا عامل رضاهم هم عن الزوج،

دون عامل رضاها هي بما أنها صاحبة الشأن.

ونحن لا نريد أن ننكر دور الأب في هذه المسألة أو نحجّمه نهائياً، بل إننا لابدّ أن نقر أن بعض الآباء إنما يتدخّلون في هذه المسألة بناءً على تفكيرهم الناضج، وتحكيمهم العقل فيها. فبعض الآباء الذين يتّصفون بالنضج والعقل ينظرون إلى ما هو أبعد من الزمان الذي هم فيه، أو من الحالة التي هم عليها، فيقولون بأننا لا نريد أن نضع بناتنا في مكان قد يسبّب لهن الأذى. وهذا الأمر طبعاً داخل في نطاق الشريعة الإسلامية التي تنهى عن تزويج البنت من شارب الخمر مثلاً أو من إنسان غير ملتزم؛ لأنه سوف يمنعها عن ممارسة عباداتها وطقوسها الدينية، أو سوف يؤثّر عليها فيجرفها في تياره بعيداً عن الدين والالتزام[١].

وهنا فإننا نجد أن منع الأب إن كان من هذه الناحية، فهو أمر محمود ولا بأس به، لكن هناك آباء كما نعرف جميعاً ليسوا من هذا النوع أو هذا النمط من التفكير والتخطيط، ومثل هؤلاء يتقدّم إليهم الشاب الذي تتوفّر فيه مقوّمات الزواج الشرعيّة كافّة، بالإضافة إلى نضجه والتزامه، لكنه يرفضه ويردّه، ولا يعطيه غايته؛ لأمر بسيط كأن يكون فقيراً مثلاً، أو ابن عائلة من مستوى أدنى من مستوى عائلته.

الوأد قسمان

وبهذا يتّضح لنا أن وأد البنات قد بدأ يتّخذ منحى آخر غير ذلك المنحى الذي درج عليه العرب آنذاك، ومن هنا فإننا نرى أن الوأد قد أصبح مفهوماً يقع على معنيين:

---

(١) ففي الحديث الشريف: «من زوّج ابنته شارب الخمر فكأنما قادها إلى الزنا، ومن زوّج ابنته مخالفاً له على دينه فقد قطع رحمها». الفقيه ٤: ٥٨ / ٥٠٩١.

الأول: الوأد في التراب

فقد قرأنا في التاريخ وسير العرب أن كندة وربيعة وتميماً كانوا يئدون البنات؛ لأنهم يقولون: إن البنت ربما تسبى فيصيبها الذلّ، أو ربما يتقدّم إليها شخص لا يناسبها طالباً يدها إلى الزواج. ولذا فإنهم عمدوا إلى وأدها؛ كي يتخلّصوا من ذلك العار الذي يرونه فيها، وهو أمر قد تسالموا عليه جميعاً. وبذا فقد تعرّضت هذه القبائل الثلاث وغيرها ممّن ينتهج عملية الوأد إلى كبير نقد، وإلى كثير تشنيع بسبب هذه السيرة السيئة التي اختطّوها (١).

الثاني: إيصال الفتاة إلى العنوسة

ففي وقتنا هذا أصبح الآباء يئدون بناتهم، لكنه ليس وأداً خارج الحياة أو وأداً تحت التراب، وإنما هو وأد في الحياة؛ وذلك حينما يعمدون إلى أن يئدونهن في بيوتهن عن طريق منعهن من الزواج بحجّة أن هذا الشخص المتقدّم

---

(١) كان قيس بن عاصم يحدّث رسول الله ﷺ فقال له: كنت أخاف سوء الأُحدوثة والفضيحة في البنات، فما ولدت لي بنت قطّ إلّا وأدتها، وما رحمت منهنّ موءودة قط إلّا بنية لي ولدتها أُمها وأنا في سفر، فدفعتها إلى أخوالها، فكانت فيهم، وقدمت فسألت عن الحمل فأخبرتني المرأة أنها ولدت ولداً ميتاً. ومضت على ذلك سنون حتى كبرت الصبية ويفعت فزارت أُمها ذات يوم، فدخلت فرأيتها وقد ضفرت شعرها، وجعلت في قرونها شيئاً من خلوق، ونظمت عليها ودعاً، وألبستها قلادة جزع، وجعلت في عنقها مخنقة بلح، فقلت: من هذه الصبية، فقد أعجبني جمالها وكَيسها؟ فبكت ثم قالت: هذه ابنتك كنت خبّرتك أني ولدت ولداً ميتاً، وجعلتها عند أخوالها حتى بلغت هذا المبلغ. فأمسكت عنها حتى انشغلت عنها، ثم أخرجتها يوماً فحفرت لها حفيرة، فجعلتها فيها، وهي تقول: يا أبت ما تصنع بي؟ وجعلت أقذف عليها التراب وهي تقول: يا أبت أمغطّيّ أنت بالتراب؟ أتاركي أنت وحدي ومنصرف عني؟ وجعلت أقذف عليها التراب ذلك حتى واريتها وانقطع صوتها، فما رحمت أحداً ممن واريته غيرها. فدمعت عينا النبي ﷺ ثم قال: «إن هذه لقسوة، وإن من لا يَرحم لا يُرحم». الأغاني ١١: ٧٠ ـ ٧١.

لا يصلح لهن، أو أنه غير كفء لهن؛ لأنه من مرتبة أدنى، أو لأنه فقير الحال أو متوسّطه، وما إلى هناك من أعذار تصبّ في هذا المضمار. ولعل هؤلاء الآباء يتجاهلون أن تأخير الفتاة عن الزواج بعد أن تتجاوز السن المناسبة له، وأن التحكم بإرادتها، بل مسخ إرادتها وكيانها ربما يؤدّي إلى نتائج غير سليمة.

ومن هنا فإننا نقول: إنه يجب على الأب وجوباً شرعياً أن يعطي ابنته حقّ اختيار الزوج، على أن يكون ذلك الحقّ في حدود معينة من تشريعات السماء، وضمن نطاق محدّد منها؛ كيلا تحصل حالة من حالات التعدّي على الحدود الشرعية.

إذن ولاية الأب ولاية أدبية، ونحن عندنا أن البنت البالغة البكر الرشيدة ليس لأحد عليها ولاية، وهذا ما عليه الفقه الإمامي [(١)] والفقه الحنفي [(٢)]. أما بقية المذاهب الإسلامية فلهم آراء تختلف عن المذهبين الإمامي والحنفي في هذه

---

(١) قال المحقّق: «والثيّب تزوّج نفسها، ولا ولاية عليها لأب ولا لغيره. ولو زوّجها من غير إذنها وقف على إجازتها، أما البكر البالغة الرشيدة فأمرها بيدها». المختصر النافع: ١٧٣.
وقال العلّامة: «الأب تثبت له الولاية على الصغيرين الحرّين؛ الذكر والأُنثى، وعلى المجنون كذلك، ولا يثبت له ولاية على غيرهما؛ فلا ولاية له على الذكر البالغ الرشيد، ولا على البالغة الرشيدة. وقد سبق الخلاف في ثبوت ولايته على البكر البالغة الرشيدة، وبينّا بطلان إثباتها في طرقها». تذكرة الفقهاء ٢: ٥٨٦ (حجري).

(٢) نقل عن أبي حنيفة قوله: إذا بلغت المرأة الرشيدة فقد زالت ولاية الولي عنها، كما زالت عن مالها، ولا يفتقر نكاحها إلى إذنه، بل لها أن تتزوّج وتقعد على نفسها. فإذا تزوّجت نظرت؛ فإن وضعت نفسها في كفء لزم، وليس للولي سبيل إليها، وإن وضعت نفسها في غير كفء كان للولي أن يفسخ. انظر الوجيز ٢: ٥، المجموع شرح المهذّب ١٦: ١٤٩، أحكام القرآن ١: ٤٠١، المبسوط ٥: ١٠، اللباب ٢: ١٨٩، ١٩٣، عمدة القاري ٢٠: ١٢٨، البحر الزخّار ٤: ٢٤، الميزان الكبرى ٢: ١٠٩، رحمة الأُمّة ٢: ٢٧، سبل السلام ٣: ٩٨٨، ٩٩٢.

المسألة [١]. وعليه فما أُريد بيانه هنا هو أن المرأة كيان مستقلّ، شأنها في ذلك شأن الرجل.

وقد لا نلوم الأب حينما يقول: إن ابنتي ما زالت صبيّة قليلة التجارب في هذه الحياة المعقّدة المشارب والمآخذ، مضافاً إلى ذلك كونها ـ كما هو حال جنس المرأة عامّ ـ عاطفية، وربما أدّت بها عاطفتها إلى أن تنساق وراء مسار عاطفي، لكن هذا لا يعني أن الأب له الحقّ في أن يتعدّى حدود الله تبارك وتعالى التي وضعها لنا، ويتطاول على تشريعاته، ويتجاوز على حرّيات الآخرين، ولو كان هؤلاء الآخرون أبناءه.

نعم إن الأب ربما لا يلام في مثل هذه الحال كما ذكرنا، وذلك من باب أنه يريد أن يختار لابنته المكان الصحيح أو الفراش المناسب، لكن على أن يكون هذا الأمر مبتنياً على أساس إسلامي أو شرعي؛ فإن كان كذلك، فإن من واجب الأب أن يفعله، كما لو أرادت الفتاة أن تتزوّج من شارب خمر مثلاً، كما مرّ بيانه، أمّا أن يكون الأمر تحكّماً بمصير الفتاة لمجرّد أن هذا المتقدّم لخطبتها غير كفء للزواج منها وفق مقاييسه، فإن هذا لا يجوز، بل إنه في واقع أمره يعتبر وأداً بمفهومه الجديد الذي أشرنا إليه.

ومن هنا فإنه لابدّ أن أُشير إلى أن بعض الآباء ربما أوصل الأمر في خصوص هذه المسألة التي نحن بصدد الحديث عنها إلى أن يحقّق في الجيل الخامس صعوداً للعريس الذي يريد أن يتقدّم لطلب يد ابنته. وهذا النمط من الناس موجود

---

(١) انظر: الأم ٥: ١٩، الوجيز ٢: ٥، السراج الوهّاج: ٣٦٤، المجموع شرح المهذّب ١٦: ١٤٨ ـ ١٥٠، المبسوط ٥: ١٠، عمدة القاري ٢٠: ١٢٨، المغني ٧: ٣٣٧، أحكام القرآن ١: ٤٠١، الشرح الكبير ٧: ٣٨٧، رحمة الأُمّة ٢: ٢٧، الميزان الكبرى ٢: ١٠٩، سبل السلام ٣: ٩٩٢، الجامع لأحكام القرآن ٣: ٧٢.

في كل زمان؛ لأنه نمط يعتمد قاعدة هي أن هذا الذي يتقدّم لخطبة ابنته لابدّ أن يكون من عائلة معروفة بالثراء أو الجاه وما إلى ذلك. ومن هنا فإننا نلاحظ أن هذا الجانب قد ألغاه الإسلام، وسعى جاهداً إلى تحقيق ذلك، وجعل الإرادة بالنسبة للمرأة إرادة كاملة، وأعطاها حرية الاختيار المغلّفة بلون من ألوان التوجيه الأدبي للأب أو الجد وفق نظام الولاية الممنوح لهما عليها.

القبيلة وضرورة الزواج من ابن العم

وتبرز لدينا هنا ظاهرة أُخرى هي من مظاهر الميراث الاجتماعي الذي وصلنا عبر الزمن، فقد توارث الناس ظاهرة ضرورة تزويج الفتاة من ابن عمّها، بل حتمية ذلك، فابن العم له الحق في أن يمنعها من أن تتزوّج من أي شخص ترتضيه، ما دام هو يريدها زوجة له. وهذا أمر غير مقبول ولا معقول، بل هو خارج نطاق الشريعة؛ لأن ابن العم ليس له حقّ شرعي أو حتى قانوني عليها، بل ولا ولاية له عليها. وبهذا فإن هذا الحقّ الذي أعطته إيّاه القبيلة لا يجوز له أن يستعمله؛ لأنه يتعارض مع الشريعة الإسلامية ومع قانون السماء.

إن هذه الزيجة يمكن أن تتمّ فيما لو كانت الفتاة نفسها راضية راغبة، أما أن تكون غير ذلك فلا يد لابن عمّها أو لغير ابن عمّها عليها لإجبارها على الزواج منه ولو كان أباها. ونحن لا ننكر أن هناك عوامل نفسية منشؤها ترعرع الولد والفتاة في بيت واحد كما هو الحال في البيوت التي ترتئي ضرورة أن تكون العائلة في بيت واحد يضمّها.. بيت كبير يحتوي جميع أفراد العائلة كما هو الشأن الغالب في بيوت الريف، وبهذا فقد تبرز عوامل نفسية تؤدّي إلى النفرة بالطباع لحصول ذلك الاختلاط أو التعايش في بيت واحد، وهو الأمر الذي سوف ينعكس سلباً على حياة الأُسرة ممثّلة بالزوجين أولاً، ثم بالأبناء ثانياً.

سلبيّات الزواج من الأقرباء

وفوق هذا كلّه فقد ثبت علميّاً ـ بعد أن أثبت الشرع ذلك قبل أربعة عشر قرناً ـ أن الزواج بهذه الطريقة له مضارّ كثيرة. يروى أن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب مرّ في يوم من الأيام، فرأى جماعة من قريش كلّهم قصار القامة، فسألهم عن السبب، فأجابوه أنه الزواج من بنات الأعمام.

وفي هذا المضمار نذكر حديثاً نبويّاً شريفاً يقول: «**اغتربوا لا تضووا**»[1]. ومعنى «**اغتربوا**»: تزوّجوا الغرائب دون القرائب، و«**لا تضووا**»: حتى لا يولد لكم أولاد ضوايا، والضاوي هو النحيف وضئيل الجسم ودقيقه.

وعليه فإن على الإنسان إذا أراد أن يتزوّج أن يبتعد قليلاً عن قريباته؛ كيلا تتلاقح الدماء والخواصّ الوراثية القريبة؛ ممّا يؤدي إلى توريث الأمراض بنسبة أكبر. إن العلم الحديث قد أثبت أن الزواج من الأقارب غالباً يعطي نتائج سلبية بسبب ارتفاع نسبة احتمال حدوث الأمراض الوراثية.

إذن فالعادات الموروثة التي تفرض على ابن العم أن يتزوّج من ابنة عمه، أو تفرض على ابنة العمّ أن تتزوج من ابن عمها ليس لها أي علاقة بالدين، ولا بالسماء؛ لأنه تزويج بالإكراه، وما كان عن إكراه فهو باطل؛ لعدم تحصيل رضا أحد الطرفين أو ربما كليهما. وهذا ميراث اجتماعي باطل يجب اجتنابه، ونحن يجب أن نعترف بأن تقاليدنا ليست جميعها صحيحة؛ ففيها الشيء الصواب، وفيها الشيء المخطوء.

ومن هنا فإننا لابدّ أن ننوّه إلى أنه ليس عندنا كبشر منهج صحيح مستقلّ،

---

(١) المجازات النبوية: ٩٢ / ٥٩، القواعد والفوائد ٢: ٣٧٥، المغني ٧: ٤٦٩، الفائق في غريب الحديث والأثر ٢: ٢٩٣ ـ ضوي.

أو قانون منظّم يدير لنا دقّة حياتنا، كما هو الحال في قانون السماء الذي أنـزله الله تبارك وتعالى عبر قنواته التي هي الأنبياء﵈. فالله تبارك وتعالى قد وضع لنا هذا القانون لنستثمره، ولنعيش على ضوئه في مسيرة حياتنا؛ كي تكـون حـياة سليمة مستقيمة خالية من الأمراض والأخطاء. وهـذا القـانون يـنصّ عـلى أن الإنسان حرّ في عقيدته، وفي سلوكه، وفي تصرّفاته، وفي تعاقداته كافّة عـلى ألّا تتجاوز حريّته حرّيات الآخرين.

مفهوم الحرية في الإسلام

وليعلم بأنه ليس هناك شيء في الوجود أغلى من الحرية في الإسلام، لكن لابدّ من التنبيه إلى أن هناك فرقاً بين الحرية والفوضى، والإنسان في كثير من الأحيان يسيء إلى مفهوم الحرية حيث ينسب إليه تصرّفات فوضوية كثيرة. فهذه الكلمة الجليلة يجب ألّا تُخلط مع مفهوم الفوضى، وذلك كأن يقول قائل: أنا حر أشتري ما أُريد، وأفعل ما أُريد دون أن يكون لأحد الحقّ في منعي عن شيء من ذلك، كأن يشتري سيارة ويعطيها إلى ولد له مراهق غير ناضج، فيرتكب بسببها حوادث عبر السير بسرعات جنونية في الشوارع المكتظّة، أو يعتدي بـها عـلى النـاس أو على أعراضهم.

وهذه الحال واقعاً ليست بحرية أبداً، وإنما هي الحالة القصوى مـن الفـوضى التي يسيء البعض فهم الحـرية عـبر مـمارستها، أو يسـيء إلى الحـرية نـفسها بممارستها. ومن موارد التصرّفات الفوضوية التي تنسب إلى الحرية مـا يـعطيه البعض لبناتهم من مساحة للتحرّك واسـعة، فـيفسحون لهـن مـجالاً كـبيراً فـي التصرف دون رقابة أو دون متابعة إلى حدّ يـصل بـه الأمـر إلى الانـفلات عـن القواعد الأخلاقية أو الأدبية، أو الأعراف فضلاً عن القوانين الشرعية أو الدينية.

وهذه ليست حريةً أبداً، بل إنها تدمير للأخلاق، وفوضى، بل هي غاية في الفوضى.

وعليه فيجب أن تكون هناك مقاييس نعتمدها في حياتنا وفي كلّ تصرّف من تصرّفاتنا، وهذه المقاييس لا تكون إلّا مقاييس السماء التي ترشدنا إلى المحجّة والطريق الصحيح، وتبعدنا عن الخطأ. وهذه المقاييس ليست شيئاً معوّماً، أو شيئاً معلّقاً في الفضاء حتى يمكن أن يدّعى بأنها لا يمكن الاعتماد عليها أو انتهاجها، وإنما هي دستور مكتوب ومحدّد يبيّن حدود الحرّيات الشخصيّة، والحقوق والواجبات، وطبيعة قانون الأُسرة. وهذا القانون الذي رسمه الإسلام ووضعه قد أبدع في تحديد معالمه، وفي تصويره وفي تخطيطه.

إذن في واقع الأمر لابدّ من الرجوع إلى ما رسمه الإسلام في تحديد معنى الحرية، وهي أن المرأة لها إرادتها ولها حريتها على ألّا تتعدّى فيها ما رسمه الله تبارك وتعالى لها، وفي المقابل على ألّا يتعدى الإشرافُ الأدبيُّ الذي منحه الإسلام لأبيها عليها حدوده. فبهذا التصرّف سوف تتحول الوصاية إلى حالة من القسر والإكراه على الزواج من شخص معين، أو إلى وأدها وهي حية بين جدران المنزل تعاني العنوسة وما يترتّب عليها من آثار سلبيّة، ومن مضاعفات نفسيّة خطرة ربما تؤدّي بهذه المرأة إلى الانجراف في تيار الخطيئة والانحراف، أو إلى حالة من حالات الكبت والمرض النفسي.

إذن فالمرأة لها إرادتها ولها حريتها المضمّخة بالإشراف الأدبي لأبيها عليها، والولد كذلك له إرادته وله حريته في تصرفاته وفي تعاقداته وللأب أيضاً حقّ الإشراف الأدبي عليه. وهذا هو الأمر الطبيعي والمعقول في مسيرة حياة الأُسرة المستقرّة، أما أن تتحول الحالة إلى نهج من التحكم في الأولاد، وقسرهم

وإكراههم على أن يتزوجوا ممّن لا يريدون ولا يـرغبون؛ لأن الأب يـريد ذلك ويرغب فيه، أو إلى منع الفتاة من الزواج لأن الأب لا يرغب في ذلك الشخص، أو أنه لا يناسبه؛ لأنه من مستوى مالي معين، أو من مستوى اجتماعي معين، يراه منحطّاً عن مستواه، فهذه عقبة يضعها الأب في طريق ابـنه أو ابـنته لولوج هـذا المشروع الإلهي المقدس.

ثم إنه ما ذنب المرأة أو الولد إذا لم يولدا في بيت موسر أو غني، أو من طبقة غنية راقية؟ إن الغنى ليس شيئاً يولد مع الإنسان، فالإنسان المكافح إنما هو ذلك الذي يبني نفسه بنفسه. وفي هذا كـلّ الفـخر؛ لأن الفـقير الذي يـجاهد الحـياة ويكابدها ليكوّن نفسه، ويكون عائلته، وليرسم حدود بـيته لهـو إنسـان جـدير بالاحترام؛ ذلك أنه إنسان عصامي وليس إنساناً عظاميّاً [١].

وعليه فمن يبنِ نفسه مبتدئاً في حياته من الصفر لهو الإنسـان العـظيم الذي يستحقّ التقدير والاحترام، وهو الإنسان الجدير بأن يكرّم وأن يزوج وإن كان من أصل فقير أو من طبقة أدنى لا أن يردّ طلبه، أما ذلك الخامل الذي يرث الثروة من غير تعب أو كد أو كفاح في الحياة أو نضال فيها فلا يمكن أن نعتبره إنساناً يتفاعل مع الحياة تفاعلاً صحيحاً.

---

(١) كانت العرب تقول لمن يفخر بآبائه: هو عظامي، ولمن يفخر بنفسه: هو عصامي، وفي هذا إشارة إلى قول النابغة في عصام بن سهل حاجب النعمان:

نفس عصام سـوّدت عـصاما   وعـلّمته الكـرّ والإقـداما
وجـعلـتـه مـلـكـاً هـمـامـا

وقال غيره:

إذا ما الحيّ عاش بعظم ميت   فذاك العظم حـيّ وهـو مـيتُ

انظر: حقائق التأويل: ٨١، شرح نهج البلاغة ٢٠: ١٩٢.

ومن هذا فإننا نرى أن من الخطأ أن نتحكّم بالأبناء بناء على أن المستوى الاجتماعي لبعض دون مستوى الآخر، أو أن المستوى المالي لهم ليس كمستوى الطرف الثاني وهكذا؛ لأن هذا مما لم ينظر إليه الإسلام ولم يقره. وفي حقيقة الأمر فإنه لا الغنى فخر لصاحبه، ولا الفقر عيب له، وليس من إنسان يولد موصوماً بالفقر أو موصوفاً بالغنى. ولذا فالواجب تزويج الإنسان لا على أساس حالته الماليّة، أو وضعه الاجتماعي، وهذا ما تؤكّد عليه الرواية الشريفة الواردة عن الرسول الأكرم ﷺ، حيث تقول: «**إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه، إلّا تفعلوا تكن فتنة**»[1].

إذن فالقاعدة التي ينبغي العمل عليها في مشروع الزواج هي أن المسلم كفء المسلم، لا ينبغي ردّه أو دفعه بدعوى أنه فقير أو ما إلى ذلك.

الزواج من غير المسلمة

وهنا لابدّ من الإشارة إلى أمر هو أنه ربما يقع أحد المسلمين في شراك الرغبة في الزواج من امرأة غير مسلمة؛ لأنها تقع من قلبه موقعاً لا يمكن له أن يتخلّص منها معه. وفي مثل هذه الحالة ينظر إلى المرأة؛ فإن كانت غير ذات دين، كأن تكون مشركة أو ملحدة فإنه حينئذٍ لا يجوز للرجل الزواج منها، أما إذا كانت كتابية فالأمر يختلف حينئذٍ، ولا يجوز لأحد أن يمنع هذا الإنسان من الزواج منها، ولا يجوز له أن يحجر عليه في ذلك. فالإسلام قد أذن للمسلم أن يتزوّج امرأة غير مسلمة شريطة أن تكون ذات دين، أي أن تكون كتابية كاليهودية والمسيحية.

---

(١) الكافي ٥: ٣٤٧ / ٢ ـ ٣، الفقيه ٣: ٢٩٣ / ٤٣٨١، كنز العمّال ٦: ٤٥٩ / ٤٥٤٢٧.

والمرأة التي حرّم الإسلام الزواج منها هي الكافرة؛ ولذا فإننا نجد أن القرآن الكريم يقول: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾[١]. والقصد هو الكافر الذي ليس له د ين، أما الكتابية فيجوز الزواج منها. وقد كان الفقهاء فيما مضى يفتون بجواز الزواج منها زواجاً منقطعاً، أمّا الفقهاء المعاصرون منهم فإنهم يفتون بجواز حتى الزواج الدائم منها[٢].

مفهوم الكفاءة والتشيّع

ونحن إذ نقول: إن المرأة المسلمة هي كفء للرجل المسلم، فما الذي نعنيه بالرجل المسلم؟ إننا لا زلنا حتى اليوم نُبتلى بشريحة لا تريد أن تفهم الأُمور فهماً حقيقيّاً صحيحاً. وسنرى كيف أن هذا الأُفق الضيّق الذي حصرت به هذه الشريحة نفسها قد قادها إلى تكفير طائفة كبيرة من المسلمين.

إننا حينما نقرأ آراء فقهيّة لفقيه عاش قبل ألف سنة أو أكثر أو أقل في مكان ضيّق وأُفق محدود مملوء بالعصبية، فإن من الممكن أن نجد له مبرراً حينما نرى أنه لا يفهم شيئاً من أفكار الآخرين أو من عقائدهم لصعوبة الوصول إلى المعلومة في ذلك الوقت وإن كان هذا ليس مبرراً لحصول مثل هذا. لكن على أية حال فإن الكتاب في ذلك الوقت كان عزيزاً ومحدوداً جداً، وليس من السهل الوصول إلى المعرفة؛ لأن وسائط المعرفة كانت محدودة، ووسائل انتشارها كانت أكثر محدودية.

وبناءً على هذا فإننا إذا قرأنا شيئاً من كتابات ابن عابدين مثلاً، أو لفقهاء غيره

(١) الممتحنة: ١٠.

(٢) انظر حول هذا الموضوع، واختلاف آراء الفقهاء حوله فقه الجنس: ٢٤٥ ـ ٢٥٠.

عاشوا قبل قرون عديدة، ووجدنا فيها آراء أو معلومات مغلوطة فإننا يمكن أن نلتمس لهم العذر إلى حدّ ما، لكن عندما يعيش شخص في القرن العشرين حيث المكتبات تملأ الدنيا، ووسائل الإعلام يصل صوتها إلى أبعد نقطة في المعمورة، وحيث أصبح العالم قرية صغيرة بل عائلة واحدة بحكم التطوّر التكنولوجي والتقدّم في مجالي المعلوماتية والاتصالات، وانتشار وسائل نشر العلم ووسائط إيصال الأفكار والعلوم إلى كلّ شخص موجود على هذه المعمورة إن أراد هو ذلك، وفوق هذا فإن هذا الشخص يحمل شهادة عليا ومع ذلك نجده يقول: إن المسلم كفء المسلم، والمسلم لا يجوز له أن يتزوّج من غير المسلمة، ثم يعمد إلى أن يعدّد مجموعة من الفرق هي في نظره كافرة لا يجوز تزويج أبنائها، أو الزواج منها، ويعدّ من ضمنها فرقة الشيعة، فهذا ما لا يمكن قبوله بحال من الأحوال، ولا يمكن معه التماس أي عذر أو مبرّر لقائله الذي يقول: إن الشيعة فرقة كافرة لسببين، هما.

الأول: قولهم بفرية (خان الأمين)

فهو يعلّل كفر الشيعة وأنهم لا يجوز الزواج منهم ولا تزويجهم بأنهم يقولون بأن الله تبارك وتعالى قد أمر جبرائيل عليه السلام بأن ينزل بدين الإسلام وبالقرآن الكريم على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ولكنه لم يفعل، بل إنه أعطاهما لنبيّنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني: مخالفتهم القرآن الكريم

ثم إن الشيعة من وجهة نظره يخالفون صريح القرآن الكريم؛ لأنهم يرمون عائشة بارتكاب المحذور والعياذ بالله.

ومثل هذا من أين يمكن أن يلتمس له العذر، كما التُمس لابن عابدين ومن سبقه أو عاصره أو جاء بعده من فقهاء القرون الماضية؟ ألم يكن بإمكانه أن يكلّف نفسه ليبحث في كتب الشيعة عن مثل هذه التشنيعات التي رماهم بها؟ ولكننا لا نعتب على هذا الإنسان؛ لأنه لا يحترم نفسه، ولو كان يحترم نفسه لعمد إلى انتهاج طريقة البحث العلمي والمنهجية العلميّة في اتّهاماته للآخرين قبل أن يكيلها لهم، ولعمد إلى استقصاء ذلك في كتبهم قبل أن يرميهم بمثل هذه الافتراءات. ولكنه لمّا لم يحترم نفسه لم نجد للعتب عليه مكاناً عندنا، لكننا نعتب على ذلك الأُستاذ الذي ناقشه ومنحه شهادة الدكتوراه؛ لأن هذا الأخير لم يكلف نفسه كذلك في أن يسأله عن مصادره التي جاء منها بهذا الرأي الذي اتّهم به ما يربو على مئتي مليون نسمة.

جواب الإشكال الأول

كما أننا نطالب هذا الأُستاذ بأن يأتينا بكتاب يروي فيه أحد الشيعة أن جبرائيل﵇ قد مال بالرسالة إلى النبي الأكرم ﷺ، ولن يجد. إن على هذا الشخص الذي يحمل لقباً طويلاً عريضاً في العلم أن يخجل من نفسه على لقبه هذا. وأنا أقصد به أمير عبد العزيز رئيس قسم الشريعة الإسلامية في جامعة الفلاح في نابلس، وهو خرّيج إحدى الجامعات الأردنية، وله كتاب اسمه (الأنكحة الفاسدة المنهي عنها في الشرع)، والثاني عبد الرحمن الزبيري صاحب كتاب (الفقه على المذاهب الأربعة).

إن مما يثير العجب والاستغراب أن ينسب هذا البلاء إلى أُمّة مسلمة، مع أنه كفر، ولسنا ندري من أين جاء به. إن عندنا أن علي بن أبي طالب﵇ يفتخر

بكونه عبداً لرسول الله ﷺ [١]. ثم إن هناك الآلاف من المساجد والحسينيات عند الشيعة تنادي كلّ يوم ثلاث مرّات: «**أشهد أن محمداً رسول الله**»، فألا يكفي هذا في إثبات أن الشيعة يؤمنون بنبوّة محمد ﷺ، وأنه رسول الله دون غيره؟ والله إن هذا لهو البلاء الحقيقي، ومنشأ البلاء هذا هو أن أبناء تلك الطائفة التي ينتسب إليها هذا الدكتور حينما يقرؤون في كتابه هذا ما ينقله من معلومات كهذه عن الشيعة، فإنهم سيأخذونها أخذ المسلّمات، وسيصدقونها؛ لأنهم يستبعدون أن مثل هذا الدكتور يقول كذباً، أو يفتري على غيره من الناس؛ فهو رئيس قسم الشريعة، ويحمل شهادة عليا، فليس من المعقول أن ينقل معلومة غير صحيحة.

ولكن إنا لله وإنا إليه راجعون [٢]. وكما ذكرت سابقاً فنحن لا نعتب على هذا، بل إننا نعتب على ذاك الذي ناقشه في رسالته تلك، ومنحه هذه الشهادة العليا دون أن يسأله عن المصدر الذي استقى منه هذه المعلومات، وهل إنه من كتب الشيعة أنفسهم، أم من غير كتبهم. إن هذا التصرف بعينه هو تصرّف بعيد عن روح العلم وعن انتهاج الطريقة العلمية الصحيحة المبتنية على إقامة الدليل، وعلى أُسلوب البحث العلمي الأصيل القائم على البرهان. إن هذا الدكتور وذلك الذي ناقشه

---

(١) وكتب السنة والشيعة تروي أنه عليه السلام خاصف نعل رسول الله ﷺ، فلو كان هو صاحب النبوّة لما رضي لنفسه أن يخصف نعل النبي الكريم ﷺ، بل ولحمل حقداً عليه؛ لأخذه النبوّة منه، كما بيّنه المحاضر فيما سبق من محاضرات عندما تناول هذا الموضوع. وقد مرّ ذكر مصادر هذا الحديث في ج ١٠ / محاضرة: (الخلافة في الأرض) من كتابنا هذا.

(٢) قال الشاعر:

وما من كاتبٍ إلّا ستبقىٰ ... كتابتُه وإن فَنِيَت يَداهُ
فلا تكتُبْ بكفِّكَ غيرَ شيءٍ ... يَسُرُّكَ في القيامة أن تَراهُ

تأويل مختلف الحديث ١: ٥٩، كتاب الغرباء: ١٦.

ومنحه هذه الشهادة كأنهما لم يقرأا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[١]. مع أن الواجب عليهما أن يتّقيا الله تبارك وتعالى في وحدة المسلمين، وأن يتقياه في الفكر الإسلامي، وفي مراعاة عدم تكفير المسلمين وعدم تفريق شملهم وتمزيق اجتماعهم. فوالله إن هذا الشيء ليبكي ويؤلم.

جواب الإشكال الثاني

كما أن المفروض بهذا الأُستاذ أن يسأله عن مصدر هذا الكلام ـ قضيّة الإفك ـ من كتب الشيعة أنفسهم، ولو أنه سأله لما استطاع أن يجيب؛ لأنه لم يكلّف نفسه ليبحث، ولو أنه بحث لما كان ليجد من مثل هذه الفرى في كتب الشيعة ومدوّناتهم شيئاً؛ فهذه مدوناتهم مبثوثة في كلّ مكتبات العالم[٢]، ويستطيع أي إنسان أن يمدّ يده ويأخذ منها ما يريد، ليتأكّد من صحّة ما نقول نحن أو ما يقول هذا المفتري. ولو أن هذا المفتري مدّ يده إلى كتب الحديث أو كتب التفاسير عندنا لوجد أنها حينما تمرّ بأُم المؤمنين عائشة وتتناول قضية الإفك فإنها تدافع عنها دفاع المستميت، وتقرر أن من المستحيل أن يعرض الله تبارك وتعالى عِرض نبيه ﷺ إلى أن يلوّث (معاذ الله من ذلك).

إذن فلا يوجد مسلم يقول بهذا، وقطعاً إن من يقلّ[٣] بهذا فهو معاند للقرآن الكريم، وبالنتيجة فهو كافر. وعليه فإن على هذا الأُستاذ أن يجيئنا بكتاب واحد ولو لمخرّف من كتبنا يقول صاحبه بهذا القول، وينسبه لأُم المؤمنين عائشة[٤].

---

(١) الإسراء: ٣٦.

(٢) بل وحتى على الشبكة العنكبوتيّة في عصرنا الحالي.

(٣) أي يعتقد به.

(٤) وقد مر كيف أن كتب الشيعة تنزّه عائشة عن هذا، انظر: التبيان ٧: ٤٠٨، فقه القرآن ٢:

تزويج النواصب والزواج منهم

إن عندنا طائفةً من العلماء تقول بعدم جواز تزويج الناصب من الشيعية؛ لأن الناصبي معاند للقرآن. والناصبي هو الذي يكره آل محمد ﷺ، وكره آل محمد ﷺ مقابلة للقرآن ومعاندة لصريحه؛ ذلك أننا نقرأ في القرآن الكريم قوله تبارك وتعالى: **﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾**[1]. ولهذا فإن هذه الطائفة من العلماء لا تجوّز تزويج الناصبي، أما إذا كان طالب يد الفتاة غير ناصبي، فإنهم لا يفتون بحرمة تزويجه أبداً، بل إنهم يزوّجونه وإن كان من أبناء المذاهب الإسلامية الأُخرى؛ لأنهم يرونه مسلماً كفئاً، وهذا خلاف ما عليه غيرنا.

إذن فالكفاءة هي اعتبار الدين فقط، وليست كما يذهب إليها البعض من أنها كفاءة في النسب أو في المذهب أو في الحرفة؛ فالمسلم كفء المسلم وهذا هو

☚ ٣٨٨، مجمع البيان ٤: ١٥١، الكاشف ٥: ٤٠٩، الميزان ١٥: ٩٦، بحار الأنوار ٢٠: ٣١٥، وإن كان ذكر بعد ذلك أن الأقرب أنها في ماريّة القبطيّة زوجة رسولنا الأكرم ﷺ. وقد ذكرنا فيما مضى من هذا الكتاب أنه حتى من يرى من علمائنا أن آية الإفك ـ وهي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ النور: ٢٢ ـ ليست في عائشة خاصّة، وأنها في نساء رسولنا الأكرم ﷺ عامّة، فإنهم يُدخلون عائشة ضمن المجموع. ثم نقلنا قول الشيخ الطوسي، وهو: «قال سعيد بن جبير: هذه الآية نزلت في عائشة. وقال الضحاك في نساء المؤمنين. وهو الأولى؛ لأنه أعمّ فائدة وإن كان يجوز أن يكون سبب نزولها في عائشة، فلا تقصر الآية على سببها». التبيان ٧: ٨٠٤. ثم ذكرنا أنه يلاحظ على هذا الكلام أمران، هما:

الأول قوله: «وهو الأولى؛ لأنه أعمّ فائدة». وهذا معناه تنزيه لكل نساء النبي الأكرم ﷺ.

الثاني قوله: «وإن كان يجوز أن يكون سبب نزولها في عائشة»، وهو قول صريح بعدم نفيه عنها.

(١) الشورى: ٢٣.

الذي عليه علماؤنا. ثم إن جميع الأُمور التي يمكن أن تعتبر عوائق في طريق الزواج قد ألغاها الإسلام؛ فقد ألغى المهر ولم يعتبره ركناً في العقد، وقرّر ضرورة أن يكون المهر شيئاً يسيراً، حتى ولو كان تعليم آية من القرآن[١]، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: **«أفضل نساء أُمّتي أصبحهن وجهاً، وأقلّهن مهراً»**[٢].

كما أن الإسلام قد ألغى الاعتبارات النفسيّة، وندب إلى الزواج المبكر؛ ولهذا فإننا نجد في أحاديث أهل البيت عليهم السلام قول الإمام الصادق عليه السلام: **«من سعادة المرء ألّا تطمث ابنته في بيته»**[٣].

ونحن نتمنى أن تكون تلك المؤسسات التي تتصدّى لإثارة الفتن والخلافات بين المسلمين أن توجّه جهودها لمثل هذه الأُمور. وهذا يعني أن الفتاة متى ما جاءها عريسها، فإن على الأب ألّا يضع المعوّقات أو المعرقلات التي تحول دون إكمال زواجها، وعليه أن يعمد إلى أي عقبة تقف في هذا الطريق فيزيلها أو يرفعها عنه؛ كي يسهل أمر هذا المشروع السماوي. ونحن إذا كنا مسلمين حقّاً فعلينا أن نتّبع قواعد الإسلام الحنيف، ونظمه وقوانينه في جميع مسائل

---

(١) روي أنه جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فعرضت نفسها عليه، فقال لها: «اجلسي بارك اللّه فيك، أما نحن فلا حاجة لنا فيك، ولكن تملّكيننا أمرك؟». قالت: نعم. فنظر صلى الله عليه وآله وسلم في وجوه القوم، فدعا رجلاً منهم، ثم قال لها: «إني أُريد أن أُزوّجك هذا إن رضيت». فقالت: ما رضيت لي يا رسول الله فقد رضيت. ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم للرجل: «هل عندك من شيء؟». قال: لا والله يا رسول الله. قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما تحفظ من القرآن؟». قال: سورة البقرة والتي تليها. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «قم فعلّمها عشرين آية، وهي امرأتك». المجموع شرح المهذّب ١٥: ٢٧، السنن الكبرى (البيهقي) ٧: ٢٤٢، تلخيص الحبير ١٢: ٣١١، تنوير الحوالك: ٤٢٩ - ٤٢٧ / ١١٠١.

(٢) الكافي ٥: ٣٢٤ / ٤، تذكرة الفقهاء ٢: ٥٦٩ (حجري)، مسند الشهاب ٢: ١٨٣ / ١١٤٥.

(٣) الكافي ٥: ٣٣٧ / ١.

حياتنا، ومنها هذه المسألة.

وإني لآمل من هذه المؤسّسات التي تسمي نفسها مؤسّسات إسلامية أن تلتفت إلى هذا الأمر، وإلى هذا الوضع بدلاً من أن تضيّع وقتها كلّه، أو أن تشبعه في الشتم والتكفير والسبّ لطوائف إسلامية أُخرى. وعليه فبدلاً من كل هذا السبّ والقذف والشتم كان ينبغي على هذه المؤسّسات أن تفتح مراكز علميّة توعويّة لتثقيف الشباب وتوعيتهم بأُمور الحياة التي لها علاقة مباشرة بحاجاتهم على اختلافها، وبرغباتهم وتطلّعاتهم وطموحاتهم، وبأُمور الدين، والسياسة، وأوضاع المسلمين وما إلى ذلك.

فمثل هذا الدور التوجيهي أو التربوي أو التثقيفي ضروري جدّاً سيّما مع الشباب المقبلين على الزواج، فتمارس دور توعيتهم حول هذه المرحلة الخطرة القادمة من حياتهم؛ لأنها مرحلة ينتقل فيها الإنسان من عالم له خصائصه ومزاياه إلى عالم آخر له غير تلك الخصائص والمزايا، فتوضّح له طبيعة الحياة الزوجية، وما يراد منها وما يراد لها، وما هي حقوقها وواجباتها.

وكذلك توجيه الشباب الراغبين في الدراسة في الدول الغربيّة إلى طبيعة الحياة والعلاقات والأوضاع وحقيقتها في تلك الدول، وتبيّن له بأن هذه الدول تعيش حالات من الإباحيّة بشكل غير طبيعي وإن كان أمراً طبيعيّاً عندهم، وأن عليهم أن يتحصّنوا ضدّ هذا الداء؛ كيلا يهووا معهم في بؤرة الرذيلة ومستنقع الخطيئة، وكيلا يتركوا دينهم وينسوا عقيدتهم وعاداتهم وتقاليدهم، وينساقوا وراء الهوى والرغبات التي توفّرها كافةً تلك الدول التي يزمعون السفر إليها للدراسة، أو ربما العمل كما شأن شريحة عريضة من شبابنا.

ولذا فإن من واجب هذه المؤسسات أن تدعو هؤلاء الشباب إلى تحصين أنفسهم بالزواج، وأن تبيّن لهم بأنها على استعداد لأن تيسّر لهم أمر الزواج وتكاليفه، وأن توفّر لهم معدّاته ومستلزماته؛ كي تشجّعهم على أن يتحصّنوا به ضدّ هذا المرض قبل أن يذهبوا إلى تلك الدول التي تساعد على نشره. وبهذا الإطار (تذليل العقبات) يصبح لوجود هذه المؤسسات معنىً حقيقي، أو يصبح هناك هدف واضح يمكن أن يبرّر من أجله وجود مثل هذه الجمعيّات.

وفي حقيقة الأمر فإن هناك الكثير من الصيحات التي تتعالى من هؤلاء الشباب الراغبين في السفر حول ارتفاع المهور وغلائها، مع أن الحقّ أن هذه الصيحات ليست كلّها صادقةً، أونابعة عن حاجة فعليّة أو تصوير صحيح للواقع، بل إن الأغلب منها هي صيحات كاذبة سيما في هذا الزمان. وإلّا فإن القليل من الآباء في هذا الوقت من يفكّر بهذا النحو، فالأغلب منهم حينما يرى من ابنه شابّاً مهذّباً قادراً على إعالة نفسه وزوجته، فإنه يقدم على تزويجه.

نعم، ربما يبقى الكلام في التكاليف الاجتماعية التي تكون باهضة الثمن والتي تكلّف الزوج أو أباه الكثير من الأموال من أجل تحقيقها؛ ولهذا فإننا نقول: إنه ليس من الضروري أن تكون هناك مثل هذه التكاليف، كأن يكون الزواج في أمكنة راقية تدفع إزاءها أُجور عالية من أجل مراعاة الوضع الاجتماعي، أو ما يشابه ذلك. وتحقيق مثل هذا الأمر يحتاج إلى تضافر الأيدي، وإلى تكاتف المجتمع من أجل القضاء على هذه العوائق، ومنها هذه العقبة؛ لكي يسهل طريق الرجل المسلم إلى المرأة المسلمة. وبالتالي فإننا نحفظ للمجتمع عفّته وقيمته وقدره.

المبحث الثالث: حقيقة زواج القاسم يوم الطف

وبما أننا في مقام الحديث عن الزواج ، فإننا نودّ أن نطرح تساؤلاً هو: هل حصل يوم الطفّ زواج أم لا؟ ونحن إذ نطرح هذا السؤال مستعلمين لابدّ أن نذكر أن هناك من يؤكّد هذا ويذهب إليه، ويرى وقوعه، لكن في الحقيقة أنه ليس هناك من زواج يوم الطف. لأننا حينما ننظر إليه بعين الفاحص نجد أنه محض وهم، وذلك يعود إلى أسباب عدّة، نذكر منها سببين هما:

الأول: أن سكينة كانت متزوجة قبل تلك الفترة

فالمرأة التي نصبت علماً للزواج في هذه الواقعة ـ وهي السيدة سكينة بنت الإمام الحسين عليه السلام ـ كانت متزوجة من عبد الله بن الحسن عليه السلام قبل واقعة الطف، وحينما وقعت معركة كربلاء كانت على ذمّة زوجها. وهناك البعض من المؤرخين يقولون: إن عبد الله بن الحسن كان قد عقد عليها ولم يدخل بها حتى معركة الطف، أي أنه لم يتزوجها، بل إنه عقد عليها فقط [1]. وممّن يذهب إلى هذا الرأي ابن عساكر في تاريخه، أما المؤرّخون الآخرون فإنهم يخالفون أُولئك الرأي في هذا، ويذهبون إلى أن عبد الله كان زوجاً لها وقد دخل بها. وكانوا يعبّرون عنه بالقول: إنه كان أبا عذرها، وقد مات عنها [2].

الثاني: صغر سنّ القاسم

فالقاسم يوم الطف كان صغير السنّ لا يتجاوز عمره الثالثة عشرة على رواية،

---

(١) شرح الأخبار ٣: ١٨٠ ـ ١٨٢ / ١١٢٤، إعلام الورى بأعلام الهدى ١: ٤١٨ ـ ٤١٩، سير أعلام النبلاء ٥: ٢٦٢ ـ ٢٦٣ / ١٢٢، .

(٢) أنساب الأشراف: ١٩٥، المحبّر: ٤٣٨، المترادفات (المدائني): ٦٤.

وعلى رواية أُخرى أن عمره كان إحدى عشرة سنة.

نعم ربما يقال: إنه كان قد عُقد له على إحدى بنات الإمام الحسين عليه السلام غير سكينة، فهذا ليس في الإمكان إنكاره، كما أنه ليس بالإمكان إثباته، لكنه يبقى احتمالاً قائماً سيما إذا أخذنا بنظر الاعتبار إن هذا الأمر كان رغبة قائمةً في نفس الإمام الحسن عليه السلام؛ حيث تقول بعض الروايات بأن الإمام الحسن عليه السلام قد أوصى في آخر أيامه الإمام الحسين عليه السلام بالقاسم خيراً وطلب منه أن يجعله موضع عطفه وشفقته، وأن يزوجه إحدى بناته. فبعض الروايات ربما فيها إشارة أو تنويه إلى هذا المعنى، لكن أن يكون هناك زواج قد حصل بالفعل في يوم الطف فهذا ما لا يمكن قبوله، وما لم يكن قد حصل أبداً.

وكذلك فإن هذا الأمر كان رغبة في نفس أُمّه (رضي الله عنها)؛ حيث إن كل أُمّ تود أن ترى ولدها وقد بلغ سنّ رشده وتزوج، فهذا أمل كل أُمّ في ولدها. فهذه الرغبة كانت قائمة في نفس رملة، وهي رغبة في الوقت نفسه كانت عند الإمام الحسين عليه السلام؛ لأنه أراد أن ينفّذ وصية أخيه الحسن عليه السلام، وأن يتعامل مع القاسم كما لو كان يتعامل مع أحد أبنائه.

وعلى أية حال فقد خرج القاسم يوم العاشر من المحرم، وجاء حتى وقف بين يدي الإمام الحسين عليه السلام وقال له: والله ياعم، لا صبر لي على السكوت وأنا أسمعك تنادي: «**هل من ناصر ينصرنا؟**» فلا يجيبك أحد، فائذن لي حتىٰ أطلب بثأري من هؤلاء القوم. فيطلب منه الإمام الحسين عليه السلام الرجوع؛ لأن عنده أُمّه وعمّاته وابن عمّه. فرجع القاسم، ثم عاد إليه مرة ثانية وقال له: والله ياعم، لقد ضاق صدري، وسئمت الحياة وأنا أراك وحيدا، فائذن لي لألحق بآبائي، وأن اختطّ درب الشهادة الذي اختطّه أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله. فلما ألحّ على الإمام عليه السلام بالخروج ـ كما

ذكره المؤرّخون ـ دخل الإمام الحسين عليه السلام إلى خيمته فأخرج صندوقاً، وأخرج منه عمّة الإمام الحسن عليه السلام فألبسه إياها، وأخرج سيفه فقلده إياه، ثم أخرج درعاً فأفرغه عليه، ثم احتضنه طويلاً، وشخص ببصره الشريف إلى السماء وقال: **«اللهم اشدد وطأتك على هؤلاء القوم؛ إنهم دعونا لينصرونا، فوثبوا علينا فقاتلونا»**[1]. فنزل القاسم عليه السلام يقارع الكتائب ويواجه الأبطال، وهو يرتجز ويقول:

إن تنكروني فأنا نجلُ الحسن ... سبط النبيّ المصطفى والمؤتمن

هذا حسين كالأسير المرتهن ... بين أُناسٍ لا سقوا صوب المزن[2]

يقول عمر الأزدي: لئن مرّ بي وهو يفعل ما يفعل، فوالله لأُثكلنّ به أُمّه. فقال له حميد بن مسلم: أتمدّ يدك إلى هذا الصبي؟ والله لو ضربني ما ضربته. قال: والله لأُثكلنّ به أُمّه. وفي أثناء ذلك انقطع شراك نعله فأهوى إليه ليصلحه، فلمّا نظر إليه عمرو الأزدي، رفع سيفه وضربه على رأسه، فسقط إلى الأرض يتخبّط بدمه، وصاح: أدركني يا عماه. فامتطى الإمام الحسين عليه السلام جواده وأقبل إليه يذود الخيل عنه يميناً وشمالاً، إلى أن وصل مصرعه، فجلس عنده يمسح الدم والتراب عن وجهه وهو يقول: **«صبراً بني إخوتي، صبراً بني عمومتي، لا رأيتم هواناً بعد هذا اليوم»**.

اهنا يمغسّل الشبّان بهداي ... ابهيده من تصبّ عليهم الماي

أريد اوگف وغسّلهم بيمناي

---

(١) انظر: الإرشاد ٢: ١١١، بحار الأنوار ٤٥: ٤٢، وفيهما أنه عليه السلام قالها حين نزل علي الأكبر عليه السلام إلى المعركة، تاريخ الطبري ٤: ٢٩٣، ٣٤٥، تهذيب التهذيب ٢: ٣٠٤، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٠٩، وفيها وفي غيرها أنه عليه السلام قالها حين قتل صبي له، باختلاف في اللفظ في الجميع.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٥، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (الخورزمي) ٢: ٢٩.

يقول أحد المؤرّخين: ثم حمله الحسين ووضعه على صدره يريد به خيمة النساء؛ لأنه عليه السلام كان يعرف أن أُمه وعمّاته سوف يخرجن إليه، فأراد أن يحافظ على خدر عائلته. وكانت رجلاه تخطّان الأرض، ثم طرحه في الخيمة. فكانت أُمه بعد ذلك لا تهدأ الليل ولا النهار:

يشبيض بعدها للمسه بنفسه ... يا مضروب يا مونّس هله بحسّه

* * *

تلك الوجوه المشرقات كأنها الـ ... أقمار تسبح في غدير دماءِ[1]

---

(١) ديوان الشيخ صالح الكواز / العلويات / القصيدة الأُولى فى رثاء الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، ومنها:

رقدوا وما مرّت بهم سِنةُ الكرى ... وغفت جفونهُمُ بلا إغفاءِ

متوسّدين من الصعيدِ صخورَه ... متمهّدين خشونةَ الحصباءِ

مدّثّرين بكربلا سلب القنا ... مزّمّلين على الرّبى بدماءِ

أطفالُهم بلغوا الحلومَ بقربهم ... شوقاً إلى الهيجاءِ لا الحسناءِ

﴿٢١٢﴾

الشهداء هم الأحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

تتضمّن هذه الآية الكريمة جملة من المضامين العالية، سوف أعرض لها تباعاً كلاًّ في مبحث مستقلّ إن شاء الله تعالى:

المبحث الأول: الظاهر القرآني

إن المفسرين والعلماء الذين يتعاملون مع القرآن الكريم يجدون أنفسهم إزاء اللفظ القرآني أمام خيارين:

الأول: إبقاء اللفظ القرآني على ظاهره، والتعامل معه على هذا الضوء.

الثاني: تأويل اللفظ القرآني، والعدول عن الظاهر إلى باطن اللفظ بما يتطلّبه الحال، وبما تقتضيه القواعد الشرعية أو العقلية، أو عند اصطدامه بما يمنع من بقاء اللفظ على ظاهره مهما كان ذلك المانع.

---

(١) البقرة: ١٥٤.

ونحن لا نبقي كلّ الألفاظ القرآنية على ظاهرها ـ وهـذا هـو الذي يـنبغي أن يكون ـ؛ لأننا نعرف أن البعض من الظواهر يصطدم مع العقل ويصطدم مع الثوابت والمسلمات الشرعية أو الدينية، ومن هذا أننا حينما نقرأ قوله تعالى: **﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾**[1] فإننا لا نستطيع أن نفسّر اليد هنا بكونها الأداة الجارحة التي يمتلكها الإنسان؛ لأن تفسيرها بهذا الشيء يستلزم التجسيم، أي أننا نجعل من الله تبارك وتعالى جسماً محجّماً ومحيّزاً. وهذا يصدم مع آية قرآنية أُخرى هي قوله تعالى: **﴿وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً﴾**[2]، فالكون كـلّه بـقبضته، والسـماوات مـطويات بيمينه. إذن فالحقّ هنا أن يمال من التفسير حسب الظاهر إلى التأويل والنظر إلى باطن الآيات الكريمة.

الرد على الطائفة الأولى

أما الطائفة الأُولى من المسلمين، والتي تقول: إننا لا نستطيع أن نتعامل مـع النص القرآني بهذا اللون من التعامل، ولا نستطيع أن نـتصرّف بـظواهـر القـرآن فنؤوّلها أو نحوّلها عن مسارها الذي وضعت فيه، بل إن علينا أن نبقيها كما هي، وأن نتعامل معها على هذا الضوء، فنحن نعتقد بها على نحو الإجمال. وبهذا فإنهم يجمدون على النصوص وظواهرها.

ونحن نقول: إن هذا الكلام غير منطقي، وليس كلاماً معقولاً؛ لأن الله جل وعلا قد تعبدنا بالعقول، ونحن نعرف أن القواعد العقلية تحكم بالشرع؛ فـإذا ازدحـم المهم والأهم. فإننا نقدم الأهم، وهذه قاعدة عقلية يقرنا الشارع المقدس عليها، ومثال هذا ما لو أن شخصاً قد تضيق وقت الصلاة عنده فلم يبقَ منه إلّا مقدار ما يتّسع لها، لكنه مع ذلك رأى شخصاً يغرق أو طفلاً يكاد يقع في بئر مثلاً؛ فإنه هنا

---

(١) الفتح: ١٠. (٢) النساء: ١٢٦.

يكون مردّداً بين الإتيان بالصلاة التي هي الواجب المضيق، وبين إنقاذ هذا الإنسان الغريق أو الطفل فيضيع وقت الصلاة.

والشارع المقدس هنا يأمره بإنقاذ الإنسان أو الطفل؛ لأن حياة الإنسان من وجهة نظر المشرع الأقدس أهم من الصلاة التي هي تعتبر مهمةً هنا في هذا الترتيب. ولما كانت مهمةً، وكان إنقاذ الإنسان أو حفظ نفسه أهم فإنه حينئذٍ يُقدم على الصلاة؛ أخذاً بقاعدة تقديم الأهم على المهم. وكل هذا الترتيب مبتنٍ على قاعدة أن الصلاة لها بديل؛ فهي من الممكن أن يؤتى بها قضاءً إن لم يتمكن المصلي من الإتيان بها أداءً، أما حياة الإنسان فإنها ليس لها بديل، بل إنها إذا ذهبت فلا يمكن حينئذٍ إرجاعها، وهذه قاعدة عقلية أُخرى.

المبحث الثاني: توجيه الآية الكريمة بناءً على المبحث الأول

تقول الآية الكريمة: ﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ**﴾، وهذا يعني أن الذي يقتل في ساحة الجهاد دفاعاً عن الله جل وعلا وعن دينه وعن رسالته ونبيه لا يمكن أن يسمى ميتاً بل إنه حي، ولو نظرنا إلى هؤلاء المستشهدين في سبيل الله لوجدنا أن أرواحهم قد فارقت أبدانهم وأنهم قد جرى عليهم ما يجري على غيرهم عن الموت من سكون الحركة وبرودة الجسم وخمود الأعضاء وما إلى ذلك، ومع هذا فإننا نجد أن القرآن الكريم يسميهم أحياء، إذن لابد من أن نحمل الحياة هنا على معنى آخر غير ذلك الذي يوحي به ظاهر الآية الكريمة أو ظاهر هذه الكلمة من الآية الكريمة، أي أننا لا بد أن نؤوّل معنى الحياة هنا كيلا نصطدم مع الواقع الذي يقول إن هذا قد مات فعلاً[1].

---

(١) وهو المسمى بالموت البايلوجي.

المراد من الحياة في الآية الكريمة

إن الحياة يكن أن تتصور على وجوه عدة، منها:

الأول : أنها حياة الروح وليست حياة البدن

فالآية الكريمة بناءً على هذا الرأي تخاطب الناس وتقول لهم : إنكم تعبرون عمّن ينتقل إلى الله جل وعلا بأنه ميت، وهذا في حقيقة الأمر لم يمت؛ لأنه إنما فارقت روحه بدنه، والروح باقية، غير أنكم تعودتم أنكم حينما ترون جسم الإنسان يتحرك ويأكل ويشرب ويقوم بكل فعالياته الحيوية فإنكم تسمونه حياً، حتى إذا ما فارقت روحه ذلك الجسد فإنه سيتحول من وجهة نظركم إلى ميت؛ لأنكم ترون منه خشبة يابسة لا حركة فيها. فالواقع أن هذا لم يمت؛ لأن روحه حية باقية، وما تلك الفعاليات التي افتقدتموها عنده بعد خروج روحه إلّا أثر من آثار الروح نفسها، وليست أثر من آثار ذلك البدن.

وهذا واضح؛ فالعين مثلاً هي عضو الإبصار، والأُذن هي عضو السمع، ولكنهما لا تقومان بوظيفتيهما عند خروج الروح من البدن؛ لأن الروح هي التي تؤثر وتعطي هذين العضوين أو الأعضاء الأُخرى في بدن الإنسان حركتها التي تقوم بها، وكذلك الحالات الأُخرى من الفعاليات الحياتية.

الثاني : أنها الحياة الخالدة عند الله جل وعلا

وبناءً على هذا التصور فإن حياة الشهداء يراد بها الحياة المتكاملة الموجودة عند الله جلّ وعلا؛ لأنها هي الحياة التي تتوفر على جميع مقتضيات الخلود والنعيم، أما حياتنا الدنيوية فإننا لا يمكن لنا أن نعطيها صفات الحياة المتكاملة؛ لما يعتريها من مشاكل وأمراض وأحزان وعذابات ومآس وما إلى ذلك مما يقضّ

مضجع الإنسان ويمنعه لذيذ رقاده والتمتع بحياته.

ولا يُغرنّ البعض بما يرى من حياة مرفّهة عند غيره؛ لأن هذه الرفاهية التي يعيش فيها البعض هي رفاهية مادية يمكن أن تزول بزوال مسببها فلو كان المال سببها لزالت بزواله، ولو كان السلطان سببها لزالت بزواله كذلك. وعليه فإن هذه الرفاهية لا يمكن أن تعتبر متكاملةً أو خالدة؛ لأنها لا بد أن تقارن الإنسان في يوم من الأيام بمرض أو بموت وما إلى ذلك[1]. وهذا يعني أن الإنسان حتى لو كان ذا مال أو سلطان وقد أصابه المرض فإنه لا يمكن له أن يعيش حياة مرفهة، بل إنه سيظل أسيراً لمرضه)

إذن فالحياة الصحيحة هي الحياة التي تكون عند الله جل وعلا؛ ولذا فإننا نجد التعبير القرآني واضحاً وصريحاً حيث يقول: **﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾**[2] فهناك لا نجد منغّصات العيش، ولا نرى مناظر مؤلمة، ولا نسبح في خضم المشاكل والمعاناة والمآسي التي تثير اشمئزاز الإنسان وسأمه من الحياة.

الثالث: المعنى المبتني على أن الجزاء من نوع العمل

وهذا يعني أن الآية الكريمة تقرر أن كل جزاء يكون من نوع العمل الذي عمل من أجله. وبناءً على هذا فإن الشهيد الذي يقتل في سبيل الله سوف يجازى بنوع عمله، أي إنه حينما يفقد حياته مضحياً بها في سبيل الله جل وعلا فإن الله جل وعلا سوف يجازيه ويكافئه بأن يرجع له الحياة، لكن ليست حياةً بجسمه بل بجسم المجتمع الذي قتل من أجله. فقوله تعالى: **﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ**

---

(١) ولذا فإننا نجد أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «رب أكلة منعت أكلات». مطالب السؤول: ٢٧٨.

(٢) العنكبوت: ٦٤.

اللهِ﴾ أي في طريق الله، وهو حفظ الأساسيات التي يتوقف المجتمع عليها، وهذه الأساسيات هي: حفظ النفس، وحفظ المال، وحفظ العقل، وحفظ العرض، وحفظ الدين والعقيدة. فإذا فقد واحد منها فإن الحياة حينئذٍ لا تعد حياة بل هي حياة ناقصة كما لو أن إنساناً فقد عضواً من أعضائه أو جزءاً من أجزائه، فمثل هذا يمكن له أن يعيش لكنه يعيش ناقصاً كأن يكون أعرج أو أعمى أو مبتور اليد أو الساق وما إليها.

إذن فالله جل وعلا إنما يعطيه حياةً خالدة متكاملة إزاء حياته التي ضحّى بها من أجل هذه الأمور الخمسة.

المبحث الثالث : ما يجب الجهاد من أجله

وبناءً على ما مر فإننا سوف نتناول هذه الأمور الخمسة التي يجب على الإنسان أن يجاهد من أجلها، وهي :

الأول : حفظ النفوس

فالإنسان إنما يجاهد من أجل حفظ نفسه أو من أجل الإبقاء عليها. وهذا يعني أن له الحق في أن يدفع عدوه عن نفسه ولو أدى ذلك إلى قتل عدوه أو إلى قتله هو. وقد حرم الله جل وعلا سفك الدماء بغير وجه حق؛ ولذا فإننا نجد في كتابه الكريم يقول: **﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسَاً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعَاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعَاً﴾**[1]؛ لأن الإنسان إذا ما عود الناس على سفك الدم فإن الفوضى سوف تعمّ الحياة، وسوف تصبح حياة بهيمية قائمةً على أساس نظرية الغاب وسيطرة الوحوش عليها.

---

(١) المائدة: ٣٢.

فالإسلام يحرص على حفظ النفوس، وإنه إنما أباح لنا قتل الحيوانات أو ذبحها فلأن حياتنا وسعادتنا متوقفتان عليه؛ ذلك أن الإنسان أشرف المخلوقات، وسعادته متوقفة على لحوم الحيوانات ومنتجاتها؛ ومن هنا فإننا نجد أن الله جل وعلا قد أباح لنا ذبح الحيوان وأكله. ولا تعني هذه العملية ـ تذكية الحيوان ـ أن الحيوان لا يحسّ بالألم، بل على العكس من ذلك؛ فالحيوانات حينما تذكى فإنها ترتجف من شدة الألم وممّا يصيبه، لكن هذا الإحساس بالألم الذي يصيب الحيوان يكون عادة داخلاً في نطاق الحلية الشرعية ما دام الغرض منه هو تغذية الإنسان وإمداده بمقومات الحياة.

وبناءً على حالات الألم التي تنتاب الحيوان حينما يذبح فإننا نجد أن البعض من الناس قد انتحوا منحى نباتياً، فلا يأكلون اللحم ولا مشتقاته؛ لأنهم يرون في ذلك قتلاً للحيوان أو سلباً لشيء مشتقّ منه هو بحاجة إليه لصغاره، أو أنه يألم لأخذه كما في حالة البيض. ولذا فإن النباتيّين يصورون المسألة على أنهم غير مستعدين لأن يروا منظر الحيوان وهو يتألم في سبيل ملء بطونهم وإشباعها. فهذا هو الذي يحدو بهم لأن يعيشوا على النباتات فقط.

إذن فالجانب الإنساني مراعى في عملية التشريع؛ ولذا فإن علماء الأخلاق يقولون: إن الحيوان الذي يتألم في الدنيا سيحشره الله تبارك وتعالى يوم القيامة ويعوّضه عما أصابه من ألم. ومن هذا المنطلق حرم علينا صيد الحيوانات لأجل اللهو دون الصيد للاعتياش أو للأكل؛ فإنه جائز شرعاً[١].

وعلى أية حال فالمجتمع الإسلامي يدعو إلى حفظ الدم إلّا في حالات معينة

---

(١) ولذا فإن الذي يخرج للصيد من أجل اللهو يعتبر سفره سفر معصية؛ فلا يقصّر في صلاته إن كان يصلّي، ولا يفطر إن كان يصوم.

داخلة في إطار التشريع نفسه، حيث إنّه يبيح لنا هنا إراقة الدم بالحق، ويصبح الدم مهدوراً، أي لا يحق لأحد بالمطالبة به؛ لأنه دم قد اعتدى على حرمات الآخرين وعلى خصوصياتهم. ومن هذا نخلص إلى أنه إذا ما هدد شخص أمن المجتمع، فإنه يجوز للمجتمع أن يدافع عن نفسه حتى وإن أدى الأمر إلى قتله لو لم يندفع عنه.

ولعلنا من هنا نكون قد التفتنا إلى الحكمة التي من أجلها وضع الله قانون حفظ النفوس؛ لأن النفس يجب عدم إيذائها وإن كان المباشر للإيذاء صاحبها، أي أن الإنسان مسلط على نفسه في كل شيء لكن شريطة ألّا يصل الأمر إلى حد الإيذاء؛ فإنه حينئذٍ محرم، أي أنه لا يحق للإنسان أن يلحق الأذى بنفسه ولو بمقدار يسير. ومن مصاديق أذى النفس إلحاق الإهانة بها، فالإنسان له كرامة، وقد أمرنا الله تعالى بأن نراعي هذه الكرامة التي منحنا إياها. إن الإنسان محترم ويجب احترامه، لكننا إنما نعيش تقاليد الجاهلية على الرغم من كوننا مسلمين؛ ولذا فإننا لا نراعي هذه الجنبة التي أخذها الإسلام المقدس في نظر الاعتبار، وأراد أن يحافظ من خلالها على هوية الإنسان وكرامته ومنزلته ومكانته.

الأثر السلبي لعدم التفريق بين الإسلام والمسلمين

وهذه المسألة لها أثر سلبي كبير؛ ذلك أن الناس عادة يأخذون الإسلام ويدرسون قوانينه وتشريعاته، ويحكمون عليه من خلال تصرفات المسلمين وليس من خلال تشريعات الإسلام نفسها. وبناءً عليه فإنهم يحكمون على الإسلام بأنه دين ليس إنسانياً؛ لأنهم يرون المسلم يتصرف تصرفات غير إنسانية.

الإسلام والمسلمون

فالإسلام شيء والمسلمون شيء آخر.. الإسلام هو الدستور والنظم

والتشريعات والقوانين الموجودة في القرآن الكريم وفي السنة النبوية أو المعصومية المطهرة، وفي التعاليم الدينية الصحيحة التي أنزلها الله جل وعلا، وما عدا هذا من التطبيقات غير السليمة التي نجد مجتمعاتنا وأسواقنا تعجّ بها بعيداً عن العمل بالنظام الإسلامي فهي أمور ليست من الإسلام بشيء. ومن هذه الأُمور التعامل داخل الأُسرة، حيث إنه يتم بعيداً عن منظومة الضوابط الإسلامية التي تقنن العلاقات داخل الأُسرة بين الأفراد؛ فنمط التعامل داخل الأُسرة الذي يتم السير على ضوئه أو على وفقه هو غالباً مأخوذ عن الموروثات، وليس عن تعاليم الإسلام.. تلك الموروثات التي لا تزال تعيش حتى الآن. إن قليلاً من الناس من يطبق التعاليم الإسلامية الصحيحة مع أهله وجيرانه ومجتمعه.

وبناءً على هذا فمن الظلم أن نأخذ الإسلام بتصرفات المسلمين، وأن نقيسه على ضوء سلوكهم وأخلاقياتهم؛ لأن قواعد الإسلام وأخلاقياته تختلف عن تلك التي يطبقها من يدّعون أنهم ينتمون إليه؛ وبهذا فلا ينبغي أن ننسب الإسلام إلى سلوك المسلمين.

الثاني: حفظ الأموال

لقد وضع الله تبارك وتعالى جملة من القوانين التي تحافظ للإنسان على أمواله؛ لينفقها بالشكل الصحيح، ومنها تحريم سلوك الطرق غير المشروعة في الكسب والاكتناز.

موارد تحريم التصرف بالأموال

ولذا فإنه تبارك وتعالى حرّم جملة من موارد التصرف بالأموال بشكل خارج عن المشروع أو المألوف، وهي التصرّفات المالية غير الصحيحة التي تعود بالضرر

على الشخص المتصرف نفسه أو على المجتمع ككل، ومن هذه الموارد:

المورد الأول: السرقة

ومن هذا فإننا نجده قد حرم الإسراف والسرقة وأخذ مال الناس بغير حق، وكل ذلك حفظاً للمال وللجنبة المالية الضرورية للمجتمع. وعليه فالسرقة مثلاً قد وضع الله إزاءها عقاباً وإن كانت سرقة صغيرة بل ولو كانت من حق الله جل وعلا حيث يقول الحديث الشريف: «**من منع قيراطاً من الزكاة فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً**»[1]، وكذلك حق البشر حتى ولو كان شيئاً بسيطاً؛ لأنه مملوك للغير، فما لم يجز صاحبه التصرف فيه فإن تصرف الغير فيه حينئذٍ يكون باطلاً، وعلى خلاف شرع الله جل وعلا؛ مما يؤدي إلى الوقوع تحت طائلة حسابه تبارك وتعالى وعقابه.

وقد ورد في الرواية الشريفة أن النبي ﷺ وُضعت أمامه جنازة ليصلّي عليها، فسأل: «**هل علىٰ صاحبكم دَين؟**». قالوا: نعم، عليه ديناران. فتنحّىٰ عنه وقال: «**صلّوا علىٰ صاحبكم**». فقال أمير المؤمنين ﵇: «**أنا أقضيها عنه يا رسول الله**». فقال ﷺ: «**أمّا الآن فنعم**»[2].

ومن هذه الرواية نخلص إلى نتيجة هي أن حق الناس محفوظ عند المشرع الأقدس، وكذا حق الله تبارك وتعالى، وكلاهما محاسب عليه الإنسان ومطالب به في الدنيا وفي الآخرة.

---

(١) المحاسن ٢: ٨٧ / ٢٨، الكافي ٣: ٥٠٥ / ١٤، وسائل الشيعة ٩: ٣٣ / ١١٤٥٣.

(٢) الكافي ٥: ٩٢ / ٢، مسند أحمد ٣: ٢٩٦، وفيه بعد ذكر الحديث: فلما فتح الله تعالىٰ علىٰ رسوله ﷺ قال: «أنا أولىٰ بكل مؤمن من نفسه؛ فمن ترك ديناً فعليّ، ومن ترك مالاً فلورثته».

وبناءً على هذا فإن علينا المدافعة عن الأموال التي أوجب الله تبارك وتعالى حفظها ووضع إزاء التصرف فيها بشكل غير مشروع أو الاعتداء عليها منظومة من العقوبات.

مفهوم المال

ونحن حينما نقول: يجب على الإنسان أن يدافع عن ماله، فإننا لا نقصد بالمال النقد فقط، بل إننا نقصد به جميع ما يمكن أن يؤدي إلى حصول عملية امتلاك النقد؛ ولذا فإن المال يشمل الأرض ويشمل العقار ويشمل الحيوانات التي يمتلكها الإنسان وكل **ما له** صفة مالية أو يمكن أن يتمول به، كما يعبر عنه. وعليه فإن الأرض التي يعيش عليها الإنسان هي أرضه وعليه أن يحافظ عليها ويدافع عنها؛ لأن الدفاع عن الأرض جهاد كما ينص الحديث الشريف الذي يقول: **«من مات دون شبر من أرض مات شهيداً»**.

وكذلك نجد في حديث شريف آخر: **«حبّ الوطن من الإيمان»** [1]. وذلك يعود إلى سببين هما:

الأول: أنها أمّه، وقد ولدته مرتين:

الأولى: أن الأرض أُم له؛ فهي التي تلده أولاً؛ فقد خرج من رحمها قبل أن يخرج من رحم أُمّه.

الثانية: أن النطفة التي يتكون منها الإنسان جاءت من النبات واللحم، والنبات قد نما وتغذى من الأرض، وهي طعام للإنسان نفسه بشكل مباشر، أو بواسطة كونها غذاء وطعاماً للحيوانات التي هي طعام للإنسان. وبهذا فإنها تكون قد

(١) مستدرك سفينة البحار ١٠: ٣٧٥. تفسير ابن عربي ٢: ٣١٠.

ولدت الإنسان مرة ثانية.

الثاني: أنها هي التي تضم الإنسان غداً عندما يدفن فيها. والإنسان بما أنه ـ كما يقول الحديث الشريف ـ: «**ما لابن آدم والعجب؛ وأوله نطفة مذرة، وآخره جيفة قذرة، وهو بين ذلك يحمل العذرة؟**»[1]، فإن هذه الجيفة لابد من أن يحتويها شيء يحول دون انتشارها، وليس ذلك الشيء إلّا الأرض التي تحنو عليه بعد موته، وتضمه فتمنع من انتشار رائحته. وبهذا فإن الأرض تكون قد استردّت وديعتها من الإنسان:

صدقت وقد سلخ ابتسامتَها الأسى	صدق الذي قال الحياة غرورُ
أكذا نموت وتنتهي أحلامنا	في لحظة وإلى التراب نصيرُ
وتموج ديدان الثرى في أكبدٍ	كانت تموج بها المنى وتمورُ

فهذه هي نتيجة الإنسان، ولذا فإنه يجب عليه أن يدافع عن أمواله وعن أرضه وعن ممتلكاته وإن كلّفه ذلك حياته؛ فلابدّ له من المصير إلى الموت، فإن كان ولابدّ فليمت دون ما أمر الله تبارك وتعالى بحفظه والدفاع عنه.

المورد الثاني: الإسراف

وبهذا اللحاظ فإننا نجد أن الإسلام قد حرم الإسراف في الإنفاق، وأمر الإنسان بأن يأكل ويشرب بالنطاق المألوف أو المعروف دون أن يصل إلى حد الإسراف والتبذير المنهي عنه في الشريعة المقدسة[2]. ولعل الحكمة من هذا هو أن الإنسان يجب أن يشعر بحاجة أخيه الإنسان وأن يتحسس آلامه وجوعه، فإذا

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٤٧٩.

(٢) قال تبارك وتعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ الأعراف: ٣١.

كان جاره جائعاً لا يجد رغيف الخبز الذي يأكله وهو يأكل شتى أصناف الطعام ومختلف ألوانه فإن هذا لا يجيزه الإسلام ولا يرتضيه ولا يقرّه [١].

فالملكية الفردية محترمة من وجهة نظر الإسلام وليس لأحد أن يتصرف بأموال الآخرين إلّا بإذنهم؛ وحفظاً للأموال وصيانة لها عن أن تضيّع.

المورد الثالث: وضع المال في غير موضعه

فهذا الأمر يعتبر إضاعة للمالية التي وضعها الله جل وعلا في هذا المال ليستفيد منه الإنسان وليسيّر به أُمور حياته ويقضي شؤونه. وعليه فحينما يعمد إلى أن يتصرف بهذه الأموال تصرفاً غير عقلائي، كأن يضعه في لعبة اليانصيب أو القمار أو المراهنات التي لا تستند إلى أساس شرعي، فهذا مما يعتبر خارج نطاق دائرة التشريع الإسلامي التي سمح بها المشرع بالتصرف بهذه الأموال. والشرع المقدس بهذا اللحاظ إنما يعمد إلى تحريم مثل هذه التصرفات لأنه يرى أن الأموال وإن كان لصاحبها فيها حق فردي فإنها في واقع الأمر فيها حق للمجتمع. وهذا الحق الخاص بالمجتمع هو عدم تضييع هذه الأموال بتصرفات غير مشروعة، ووجوب التصرف فيها على ضوء الشرع فيما يعود بالنفع على الشخص نفسه وعلى المجتمع كذلك؛ كأن يتاجر بها أو أن يفتتح بها مشروعاً يقضي بها على البطالة؛ حيث يوفر الأيدي العاملة لتسد احتياجات هذا المشروع؛ كأن يكون مصنعاً أو ما يشبهه من الأشياء التي لا بد أن تعود على المجتمع بنمط من أنماط الفائدة التي يجب أن يتوخاها الإنسان وهو يفكر كيف يمكن أن يتصرف بهذه الأموال وكيف يمكن أن

---

(١) وقد مر بنا حديث رسول الله ﷺ: «ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره جائع». الكافي ٢: ٦٦٨ / ١٤.

ينفقها أو يفعل بها أي شيء يريد أن يفعله.

فالمسألة إذن هي أن هذه الجنبة المالية لها علاقة مباشرة باقتصاد الأُمة، وما دامت كذلك فإنه يجب على كل فرد في المجتمع أن يرعى اقتصاد الأُمة وأن يحافظ عليه من الضياع؛ لأنه فرد من هذه الأُمة، وبالتالي فإن الحفاظ على أموال الأُمة وعلى اقتصاد الأمة قوياً متيناً سوف يعود عليه هو نفسه بالنفع والمصلحة؛ لأنه فرد لا يستطيع أن ينفك بحال من الأحوال عن الأُمة أو المجتمع اللذين يعيش ضمنها.

وبهذا فإننا نجد بهذا التقريب أن الأموال مما يجب أن يدافع عنه الإنسان؛ لأنها لا تخصه وحده بل هي تخص المجتمع ككل، وتتعلق بكيان الأُمة الاقتصادي أو المالي، فإن لم يدافع عنها فإنه يعتبر مفرطاً وغير ملتزم بالقواعد الشرعية التي توجب على الإنسان أن يدافع عن ماله.

الأمر الثالث: حفظ العقول

إننا نعرف أن التكاليف الشرعية كلها مبتنية على شرط حصول العقل، فالفقهاء جميعاً يقررون أن من شروط التكليف هو العقل، فلو كان الإنسان غير عاقل فإنه حينئذٍ لا يعتبر مخاطباً بالخطابات الشرعية المقدسة؛ وهذا يعني أن العقل هو مناط التكليف وملاكه. وبهذا أيضاً نعرف أن الصبي غير مكلف؛ سواءً كان تكليفاً بمسؤولية عبادية أو مسؤولية جنائية أو ما يصب في هذا المصب؛ لأن عملية الإدراك عند الصبي تعتبر غير مكتملة وهي مرتبطة بالبلوغ الذي هو شرط آخر من شروط التكليف، فمدارك الطفل وقواه العقلية لا تكتمل قبل هذا السن عادة؛ ولذا فإننا نوّهنا سابقاً إلى أن المراد به البلوغ العقلي لا البايلوجي، والمجنون كما أسلفنا كذلك فإنه لا تتوجب إليه الخطابات الشرعية، ومثلهما الأبله.

كل ذلك لأن مناط التكليف هو العقل كما ذكرنا؛ ولذا فإننا نجد في الحديث الشريف عن الباقرعليه السلام أنه قال: **«لمّا خلق الله العقل استنطقه ثم قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر. ثم قال له: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحبّ إليّ منك، ولا أُكملك إلّا فيمن أُحب. أما إني إيّاك آمر وإيّاك أنهى، وإيّاك أُعاقب وإيّاك أُثيب»**(١).

وهذا هو الذي يجعل الإنسان الذي يفقد عقله إنساناً لا قيمة له من وجهة نظر المجتمع؛ فالإنسان يتميز بعقله وفكره، والدفاع عن العقل يتم بالامتناع عن ما يسبب له ضرراً أو عن ما يؤثر عليه أو يغيبه عن أداء وظيفته كالخمر مثلاً والمخدرات وما يدور في فلكهما.

مفارقة اجتماعية

ومن الغريب إننا نجد أن الإنسان يفرق بين الشيء ومثله إن لم نقل بين الشيء ونفسه، وذلك أننا نجده يرتعد من كلمة المخدر في حين أنه يقبل إقبالاً منقطع النظير على الخمرة فيكرع منها كما يكرع الإنسان المنقطع به الطريق والذي بلغ به الظمأ حداً لا يطاق من ماء معين بارد. وهذا ما نراه واضحاً بوجود شريحة عريضة وكبيرة تقبل على احتساء الخمرة دون تردد أو دون خوف من الله جل وعلا، أو دون أدنى تفكير بأن هذا فيه معصية له تبارك وتعالى.

كل هذا مع أننا نجد في الأحاديث الشريفة أن الخمر هي أم الخبائث، وهي داء لا فرق بينه وبين المخدرات التي يتعاطاها الكثير من الناس كذلك، غاية الأمر أن فتكها بجسم الإنسان وعقله فتكاً تدريجياً وليس دفعياً ومباشراً ومفاجئاً وبوقت

---

(١) المحاسن ١: ١٩٢ / ٦، الكافي ١: ١٠ / ١.

قصير كما هو فتك المخدرات في جسم الإنسان وفي عقله. إن الخمرة تسطو على العقل فتذهب به وهو الجوهرة التي تعد أثمن شيء عند الإنسان. فالإنسان من الواجب عليه أن يحافظ على هذه الجوهرة لا أن يضيعها لأسباب تافهة يبرر بها إقدامه على ارتكاب المعصية وشرب المحرم، ـ مع أن الله جل وعلا قد نهاه عنها ـ بأعذار واهية لا يقرّها العقل نفسه أساساً كأن يقول: إنني أُريد أن أتخلص من مشاكلي الحياتية وآلامي وضغوط المعيشة والحياة وما إلى ذلك فأنساها فترة معينة؛ لأن الخمر تعزلني عن التفكير بهذه الأمور التي ربما لو استمرت فإنها سوف تؤدي إلى ازدياد الضغط وبالتالي إلى حصول نكسة صحيّة أو الموت. إن هؤلاء بهذا التفكير السطحي الضحل يريدون أن يغيبوا العقول بناءً على هذا التبرير الواهي، وكأنهم ينظرون إلى قول الشاعر:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله ... وأخو الجهالة في الشقاء ينعَمُ(١)

فالعقل عند هؤلاء يطلِع العاقل على مفارقات الحياة، وعلى الظلم الذي يواجهه الإنسان في حياته، وعلى المعاناة التي يقاسيها في مسيرته الحياتية؛ ولذا فإنه بحاجة إلى ما يغيّبه، وإلى ما يجعله عاجزاً عن إيصال جميع هذه الأفكار أو المفاهيم إلى الإنسان، وبالتالي فإنه سوف يستشعر بلحظات من اللذة والسعادة ولو كانت لحظات قليلة.

وفي هذا الأمر مفارقة أيضاً؛ ذلك أن الله جل وعلا حينما وهبنا العقل فقد وهبنا إياه لنواجه به مشاكل الحياة، ولنضع على ضوئه ومن خلال ما يمدنا به من قواعد وقوانين حلولاً لكثير من هذه المشاكل التي تعترض الإنسانية خلال مسيرتها، أما

---

(١) البيت للمتنبي. أعيان الشيعة ٢: ٥٥٨، الجامع لأحكام القرآن ١١: ١٦٨.

أن نعمد إلى أن نواجه هذه المشاكل بالهرب منها وتغييب العقل عن أداء دوره فيها فهذا طبعاً أمر غير طبيعي وغير مقبول البتة من أي إنسان كان؛ لأنه يعني النكوص عن مواجهة المشكلة، وهو أمر ينم على جبن صاحبه وعدم تحلّيه بالشجاعة لممارسة عملية مواجهة المشاكل التي تعترضه.

وعليه فهذا تهرب من الواقع، وكلام كاذب خدّاع يريد الإنسان من خلاله التخلي عن حالة الوعي والشعور بالمسؤولية التي يجب أن يكون عليها في مواجهة الحياة بخيرها وشرها؛ فيتعامل مع جميع ما في الحياة من حلو ومر وفاسد وصالح. إن الله تعالى قد رسم لنا طريقاً فعلينا أن نتبع ما رسمه لنا، وأن نسير على هديه لا أن نعمد إلى أن نشرب هذا الداء الذي يفقد الإنسان اتزانه وسلوكه القويم، ويجعله كالبهيمة من الأنعام. يروى أن قيس بن عاصم المنقري كان يكثر من معاقرة الخمرة وشربها، وقد شرب مرّة حتى ثمل، فلمّا أصبح الصباح وجد نفسه بأسوأ حال، فسأل عمّا جرى له، فأُخبر بأنه وهو سكران حاول الاعتداء على ابنته، فلمّا فرّت منه، سبّ أبويها، ثم صعد على سطح داره فرأى القمر فتكلّم معه، وأعطى الخمّار مالاً كثيراً. فلما سمع منهم ما سمع حرّمها على نفسه، وأصبح من أعدائها [١].

وفعلاً فإن على الإنسان أن يمتنع عن شرب الخمر وأن يتنبه إلى مضارّها ومخاطرها، وإلى ما تفعله بالإنسان بحيث إنها تصيّره كالبهيمة التي لا تعي من أمرها أو من دنياها شيئاً، بل إنها تساق إلى الذبح وهي راضية مطمئنة. إن الكثير من المجتمعات الإسلامية غاصة بهذا الأمر؛ فهي تشرب الخمر دون رادع أو دون

---

(١) الاستيعاب ٣: ١٢٩٥، أُسد الغابة ٤: ٢٢٠: تهذيب الكمال ٢٤: ٦٣ - ٦٤، السيرة الحلبيّة ٣: ٢٤٥.

وازع يردعها أو يمنعها عن فعل المعصية وعن مواجهة الله جل وعلا بـارتكاب المحرم وعدم التفكير بعواقب ذلك.

إن على هذه المجتمعات أن تحترم نفوسها وعقولها، كما أن عـليها أن تـخلع الشعور بالنقص، وأن تعرف أن طرق المجد التي ينبغي عليها سلوكها ـ كي تضاهي الأُمم الأُخرى التي بلغت عنان الثريا في مجال التطور العلمي في مستوياته كافة ـ ليس بشرب الخمر مطلقاً، بل هو بتوظيف ما عندها من ثروات فكرية أو عـقلية ومادية للارتفاع بمستواها إلى ما يوصلها إلى جادة الصواب وإلى مضمار التطور، وإلى ركن وثيق تستطيع أن تعتصم به عندما تنزل بها شدة أو مصيبة. إن هذا يعني أنها يجب عليها أن تواجه المشاكل بسلاح العلم والعقل، لا أن تهرب منها بشرب الخمر.

الأمر الرابع : حفظ الأديان

ويراد به بالدرجة الأولى حفظ العقائد؛ ذلك أن الإنسان إذا جُرد من عـقيدته فإنه سوف يعيش في فراغ قاتل، وسوف يستشعر بأنه قد مات؛ ذلك بأنه سوف يحس حينئذٍ بأن حياته قد أصبحت فارغة جوفاء لا معنى لها ومن غير روح؛ لأن العقيدة روح ونظام [1].

وحفظ العقائد يكون بمنع تطرّق الخرافات أو الأساطير إليها، أو تسرّبها إلى عقول الناس عبرها؛ ولذا فإننا نحمد الله جل وعلا أن عقيدتنا ليس فيها خرافة أبداً، بل إن عقائد الغير هي التي تمتلئ بالخرافات والأساطير، ومن ذلك أننا نقرأ مثلاً في الكتاب المقدس، العهد الجديد منه (باسم الأب والابن والروح القدس)

---

(١) وهو قول غاندي: إنك لتسمل عيني فلا تميتني، وتجدع أنفي فـلا تـميتني، ولكـنك إن انتزعت مني الإيمان بالله قتلتني بالحال.

ثم نعود بعد ذلك لنجد أن الله إله واحد. وهذا تناقض فإننا قد ابتدأنا بثلاثة أقانيم هي الأب والابن والروح القدس، فهذه ثلاثة فكيف يمكن أن يقال بعدُ حينئذٍ: إن الإله واحد وليس ثلاثة ؟ ولو اعترض عليهم معترض لطالبوه بالسكوت وعدم الاعتراض لأن الدين لا يجوز الاعتراض عليه.

الحيود بالدين إلى العاطفة

وربما يقول قائل: إن عدم تجويز الاعتراض موجود حتى في الدين الإسلامي، فالمعروف أنه لا يجوز انتقاد أحد الصحابة لأن عنده صحبة مع رسول الله ﷺ، ولا يجوز الاعتراض عليهم مع أن بعضهم قد فعل ما فعل، وقتل وسفك دماء المسلمين، واعتدى على مقدساتهم وحرماتهم كما هو الحال مع مروان الذي تسلط على الناس مع إنه كانت له صحبة مع رسول الله ﷺ.

والجواب أن يقال: إن الواقع الذي لابد من أن نبيّنه للناس، وأن نوضّحه لهم هو أن عندنا مبادئ ومقاييس نختطها في حياتنا اليومية، وهي مبادئ ومقاييس من وضع الإسلام الحنيف وتشريع السماء وليست من وضعنا نحن أو من تشريعنا. فكل إنسان لابد أن نُخضعه لهذه المقاييس السماوية حتى نرى هل إنه يصح أن يقال فيه قدح أو يصح أن يقال فيه مدح. ثم إن ديننا ليس فيه مفارقات أبداً، فالله تبارك وتعالى رب الكمال وهو الذي قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً﴾[1].

وإكمال الدين يعني أنه سوف لن يعتريه نقص أبداً في هذا الزمان أو فيما يأتي من الأزمان، ونحن الآن نجد أن التشريعات كافة بأطيافها المختلفة سواء كانت

---

(١) المائدة: ٣.

اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية إلى آخره لا تخلو من نقص، بل من تناقضٍ في كثير من موادّها الأساسية، أما الدين الإسلامي فهو خلاف ذلك؛ وبهذا يتّضح لنا أنه ثروة ضخمة وكبيرة. ولذا فإننا نقول: إن الفقهاء حينما يفتون بحكم أو مسألة فإنهم لا يفتون بها اعتباطاً أو تحكماً بل إنهم ينتزعونها من النصوص، فيعالجون المسائل الاجتماعية وغير الاجتماعية لتحقيق العدل والمساواة والرفاهية في المجتمع.

والخلاصة أن الدين رفيق الإنسان في كل مكان؛ سواء كان البيت، أو المعمل، أو الشارع، أو المدرسة، كما أنه يعمل في الخفاء والعلن؛ ولذا فنحن مأمورون بالتمسك به والدفاع عنه، وهذا يتم عبر أمرين:

الأول: عدم ولوج طريق الشبهات

أي بالجهاد دون أن يفتح أمام الدين شبهات لا يستطيع الإنسان ردها وذلك مثل أن يقول: ما معنى أن يمشي المرء على صراط؟ وما فلسفة رمي الحصوات في الحج؟ وهنا نقول له: إن الإنسان بطبيعته محدود العقل والتفكير والقابلية على تحليل الأشياء وترتيبها وتنظيمها، وكذلك ليس له القدرة على معالجة الموضوعات والخروج منها بنتائج إلّا في إطار العقل الذي قلنا: إنه محدود، وهذا يعني أن الإنسان لا يستطيع أن يوجد التبريرات أو التعليلات للأحكام الشرعية كافة، أو أن يعترض على حكم شرعي؛ لأنه لم يقع تحت طائلة تفكيره أو ضمن دائرة تعقّله. إنّ على الإنسان بما أنه في مثل هذه الحال أن يطلب العلم ثم بعد ذلك عليه أن يعالج الامور.

ومثل هذا الإنسان القاصر العقل مثل المريض الذي يصف له طبيبٌ حاذقٌ عارف علاجاً معيّناً، ثمّ يحقنه به كلّ يوم، أو يأمره بأن يشربه في أوقات معينة تتكرّر لفترة طويلة؛ فإن هذا المريض ليس من حقه أن يعترض على الطبيب وأن

يقول له: قد آذيتني بهذا العلاج وأنا أرى ألّا آخذه؛لأنه لا نفع فيه لي، وعليه فلابد أن أتركه أو أن تمتنع عن إعطائه لي ؛ لأن المريض جاهل بأُمور الطبّ، وجاهل بعلم الأمراض ومسبّباتها ومضاعفاتها وعلاجاتها،وهذا طبيب حاذق متمكّن من مهنته، وهنا يكون اعتراضه على الطبيب اعتراض جاهل غير متّزن ولا يستطيع أن يضع كلامه في موضعه.

وكذلك الإنسان هنا لأنه حينما يعترض على الله جل وعلا، فهو إنما يعترض على شيء لا يعرفه، فعليه أن يعرف أنه بعقله القاصر لا يستطيع أن يدرك الحكمة من هذه التشريعات المبتنية أساساً على المصالح والمفاسد. فكل مأمور به مستحباً كان أو واجباً هو أمر فيه مصلحة للإنسان وكل منهي عنه سواء كان حراماً أو مكروهاً فالنهي فيه نهي مبتنٍ على وجود مفسدة للإنسان فيه؛ ذلك أن الاستحباب والوجوب فيهما عين المحبوبية لذلك الأمر لكنها تتفاوت شدة فما كانت محبوبيته قليلة كان داخلاً ضمن دائرة الاستحباب وما كانت محبوبيّته كبيرة كان داخلاً ضمن دائرة الوجوب.

وكذلك الأمر مع المنهيّات التي هي أساساً قائمة على المبغوضية من الشارع المقدّس لها فهي تترواح أيضاً شدةً، فما كانت مبغوضيته قليلة كان داخلاً ضمن دائرة المكروه، وما كانت مبغوضيته شديدةً كان داخلاً ضمن دائرة الحرام.

وبهذا فاننا نقول: إن الإنسان لا يمكن له بهذا العقل غير الكامل أن يدرك تشريعات ربّ العزة والكمال وهو الله جل وعلا؛ لأنها كلها تشريعات مبتنية على المصلحة والمفسدة لهذا الإنسان وان لم يكن يعرف تلك المصلحة.

الثاني: عدم مصاحبة قرناء السوء

ثم إن هذه الشبهات غالباً تنشأ من مصاحبة قرناء السوء وأصدقاء الشر، وعليه

فإنه ينبغي على الإنسان ألّا يصاحب هؤلاء وألّا ينغمس معهم في أُمورهم الحياتيّة أو في تفكيرهم أو في معالجاتهم العقليّة؛ لأنّ ذلك يؤدّي به إلى أن يعالج الأُمور بسطحيّة وبسذاجة، وهو ما لا يريده الإسلام له.

نحن ملزمون بحفظ عقائدنا، وكذلك ملزمون بأن نربّي أبناءنا على عقائدنا حيث إننا يتوجّب علينا أن نوضّح لهم حقيقة العقائد وحقيقة الإسلام، وأن نشرح لهم الغامض منه، وأن نتحاور معهم وأن نتواصل معهم في هذا المجال، وأن نسألهم عمّا لا يعلمونه منه فنعلمهم إياه، وأن نضخّ عقولهم بمبادئ دينية وبقيم سماوية.

الأمر الخامس: حفظ الأعراض

وكما هو معلوم فإنها تختصّ بالدفاع عن شرف الإنسان، وعن كرامته، وعن أهله، وعن جميع ما يتعلّق به من ناحية النسب.

المبحث الرابع: موقف الأمويين من هذه الأساسيات الخمس

هذه هي الأساسيات الخمس التي فرض الإسلام علينا مراعاتها، والدّفاع عنها، والاستشهاد في سبيلها، وهي سبيل الله جل وعلا والسبيل إليه تبارك وتعالى. لكن لنرَ الآن ما هي الطريقة التي تعامل بها الأُمويون مع هذه الأساسيّات؛ كي نخلص إلى الأسباب الحقيقية التي دفعت بالإمام الحسين عليه السلام إلى مجاهدتهم والخروج عليهم. إن الإمام الحسين عليه السلام قد دافع عن الأعراض والدماء والعقول والأموال والأديان والعقائد؛ لأنها جميعاً قد تعرّضت إلى خطر جسيم؛ وهو ما سنتناوله بالتالي:

الأمر الأول: موقفهم من حفظ العقول

ولذا فإننا نألم كثيراً حينما نرى البعض يبتعد عن الحقائق فيكتب كتاباً يسميه

«أمير المؤمنين يزيد المفترى عليه». إننا نرى أن مثل هذا الكاتب لا يحترم عقله أو تاريخه لأن التاريخ بين أيدينا واضح وهو يرسم لنا صورة بيّنة واضحة عن هذا الرجل وعن سلوكيّاته وتصرّفاتها إزاء الإسلام وإزاء المسلمين. إننا حينما نتصفّح كتب التاريخ فإننا سوف لن نجد له (وهو الذي يدعى أمير المؤمنين) كلمة وعظ أو إرشاد واحدة، وإنما نسمعه يقول:

اسقنا يازبير بالقرقاره ... قد ظمينا وحنّت الزمّاره (١)

اسقني اسقني فإن ذنوبي ... قد أحاطت ومالها كفّاره (٢)

وكل مسلم حينما يسمع أمير المؤمنين يقول هذا القول وأمثاله فما هو الانطباع الذي يمكن أن يأخذه عن هذا الخليفة؟

ومن هذا النمط أيضاً نجد إبراهيم بن المهدي وهو أحد المغنين من بني العبّاس وقد أصبح لفترة خليفةً على المسلمين، وكان شغله كما ذكرنا الغناء ولم يكن يملك رواتب الجند الذين بدأ التذمّر يدبّ فيهم بعد أن وصل استحقاق رواتبهم فلم يعطوها، ولذا فإننا نجد أنّ دعبل بن علي الخزاعي ﷺ يقول مخاطباً الجند:

يا معشر الأجناد لا تقنطوا ... وارضوا بما كان ولا تسخطوا

فسوف تعطون حنينيّة ... يلتذّها الأمرد والأشمطُ

والمعبديات لقوّادكم ... لا تدخل الكيس ولا تربطُ

وهكذا يرزق أصحابه ... خليفة مصحفه البربطُ

قد ختم الصكّ بأرزاقكم ... وصحّح العزم فلم تغمطوا

---

(١) القرقارة: إناء من زجاج طويل العنق؛ سميت بذلك لقرقرتها. لسان العرب ٥: ٨٧ ـ قرقر، تاج العروس ٣: ٤٨٩ ـ القرقار.

(٢) البيتان للوليد. البيان والتبيين ١: ٤٢١.

بـيعة إبـراهـيم مشؤومة   تقتل فيها الخلق أو تقحطُ[(١)]

والمعبديّات هي الأغاني؛ نسبةً إلى معبد المغنّي المشـهور. أمـا البـربط فـهو المزمار أو الربابة التي يُعزف عليها. فدعبل هنا يقول للجُند: إن مصحف خليفتكم مزمار وربابة، فلا تنتظروا منه رواتب غير الحنينيّات والمعبديات.

وهكذا نجد أن الأمر يصل بأمير المؤمنين إلى أن يشرب الخمر عـلناً، أو أن يتجاهر بالمعاصي التي تترتّب على شرب الخمر ومقارفة جميع التصرّفات السيّئة والسلوكيّات الشائنة مما لا أستطيع أن أذكره هنا؛ تنزيهاً لهذا المنبر الشريف عن ذكر هذه الرذائل التي كانوا ينغمسون بها مما حدثنا عنها التاريخ.

وهذا الأمر لم يكن ليختصّ بالأُمويين فقط بل إنه تعدّاهم إلى العباسيين الذين وصل الأمر بخليفتهم المتوكّل ـ بعد أن سُعي بالإمام الهادي﵇ إليه، وقيل له: إن في منزله كتباً وسلاحاً من شيعته من أهل قمّ، وإنه عازم على الوثوب على الدولة ـ أن يطلب من جلاوزته أن يحضروا له الإمام الهادي﵇، وأن يدخلوه عليه على هيئته التي يجدونه عليها، مع أن الوقت كان متأخّراً جداً؛ فقد كـان قُـبيل الفـجر بقليل.

وهنا نجد المفارقة الواضحة؛ ففي حين أن المتوكل حينما طلب من جلاوزته ذلك كان يعاقر الخمر وكان يسمع القيان وهنّ يغنين، كان الإمام الهادي﵇ جالساً على الرمل والحصى، مفترشاً قطعة من حصير، وعليه مدرعة من صـوف وهـو متوجه إلى الله تعالى يتلو آيات من القرآن الكريم، ويناجي ربّه ويبكي؛ خـوفاً منه، وتعظيماً وإكراماً له تبارك وتعالى. ومع كل هذا نجد أن التاريخ يعطي المتوكّل

---

(١) ديوان دعبل الخزاعي: ١٢٣، وانظر: تاريخ بغداد ٦: ١٤٢، البداية والنهاية ١٠: ٣١٨ـ ٣١٩، تاريخ مدينة دمشق ٧: ١٦٩ـ ١٧٠.

صفّة محيي السنّة ومميت البدعة، وما ذلك إلّا لأنه كان يصرّ على شتم علي بن أبي طالب عليه السلام. لكن الحقيقة تبقى حقيقة ولن تموت[1].

وبعد أن أُدخل الإمام الهادي عليه السلام على المتوكّل التفت إلى الساقي وقال له: ناوله كأساً. فقال عليه السلام: «**والله ما خامر لحمي ودمي قط، فاعفني**». فأعفاه، ثم قال: أنشدني شعراً. فقال عليه السلام: «**إنـي قليل الرواية للشعر**». فقال: لابدّ من ذلك. فأنشده عليه السلام:

« باتوا على قلل الأجبال تحرسهم	**غُلْب الرجال فلم تنفعهم القللُ**
واستنزلوا بعد عز من معاقلهم	**وأُسكنوا حفراً يا بئسما نزلوا**
ناداهُمُ صارخ من بعد دفنهِمُ	**أين الأساور والتيجان والحللُ**
أين الوجوه التي كانت منعّمة	**من دونها تضرب الأستار والكللُ**
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم	**تلك الوجوه عليها الدود يقتتلُ**
قد طالما أكلوا دهراً وقد شربوا	**وأصبحوا اليوم بعد الأكل قد أُكلوا »**

فبكى المتوكل حتى بلت لحيته دموع عينيه، وبكى الحاضرون، ودفع له عليه السلام أربعة آلاف دينار، ثم رده إلى منزله مكرماً[2].

وبهذا فإنّنا نجد أنّ الاعتداء على النّاس أصبح أمراً طبيعيّاً؛ لأنّ الخمر قد أصبح الشراب العادي للخلفاء فضلاً عن الناس، فكيف يمكن لهؤلاء أن تُحفظ عقولهم وهم يشربون ما يسلبها منهم، وما يسرق منها إدراكها بمثل هذه التصرفات الماجنة الخليعة؟ وهذا الأمر كما هو معروف في كتب التاريخ مشتهر عنهم ومنتشر على

---

(١) ﴿وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ التوبة: ٣٢.

(٢) كنز الفوائد: ١٥٩، بحار الأنوار ٥٠: ٢١١ ـ ٢١٢، تاريخ الإسلام ١٨: ١٩٩ ـ ٢٠٠، الوافي بالوفيات ٢٢: ٤٨ ـ ٤٨.

امتداد خطّ مسيرتهم، ومن هؤلاء هشام بن عبد الملك صاحب القوراء ـ ومن أحبّ أن يطّلع على قوراء هشام وما فيها من خمر وما كان يُبذل من أجل ذلك من أموال فليطّلع على كتاب (حياة الحيوان الكبرى) للدميري فإنّ فيها وصفاً مفصّلاً ورائعاً لذلك ـ فهشام بن عبد الملك هذا كان يبذل أموالاً طائلة من أجل بيت من الشعر يغنّى عنده، يقول حمّاد: استدعاني هشام بن عبد الملك، فنزلت على بابه واستأذنت، فأذن لي، فدخلت عليه في دار قوراء مفروشة بالرخام وبين كل رخامتين قضيب ذهب وحيطانه كذلك، وهشام جالس على طنفسة حمراء وعليه ثياب خز حمر وقد تضمخ بالمسك والعنبر، وبين يديه مسك مفتوت في أواني ذهب يقلبه بيده فتفوح رائحته، فسلمت عليه فرد علي السلام واستدناني فدنوت حتى قبلت رجله، فإذا جاريتان لم أرَ مثلهما قط، في أُذن كل جارية حلقتان فيهما لؤلؤتان تتقدان، فقال: كيف أنت يا حماد؟ وكيف حالك؟ فقلت: بخير فقال: أتدري فيم بعثت إليك؟ قلت: لا. قال: بعثت بسبب بيت خطر ببالي لا أعرف قائله. قلت: وما هو؟ قال:

ودعوا بالصبوح يوماً فجاءت ... قينة في يمينها إبريقُ

فقلت: يقوله عدي بن زيد العبادي في قصيدة. قال: أنشدنيها. فأنشدته:

بكر العاذلون في وضح الصبـ ... ـح يقولون لي أما تستفيقُ

ويلومون فيك يا ابنة عبد الـ ... ـله والقلب عندكم موهوقُ

لست أدري إذ أكثروا العذل فيها ... أعدوّ يلومني أم صديقُ

حتى انتهيت فيها إلى قوله:

ودعوا بالصبوح يوماً فجاءت ... قينة في يمينها إبريقُ

قدّمته على عقار كعين الـ ... ـديك صفّى سلافها الراووقُ

مــزّة قــبل مــزجــها فــإذا مــا   مــزجت لذّ طــعمها مــن يــذوقُ
وطـــفا فــوقها فــقاقيع كــاليا   قــوت حــمر يــزينها التــصفيقُ
ثــم كــان المــزاج مــاء سـحاب   لاصـــرى آجــن ولا مــطروقُ

فطرب هشام، ثم قال: أحسنت يا حماد، ثم قال: اسقيه يا جارية. فسقتني شربتين فذهب ثلثا عقلي، فقلت: إن سقيت الثالثة افتضحت. ثم قال: سل حوائجك كائنة ما كانت. قلت: إحدى الجاريتين. قال: هما لك بما عليهما من حلي وحلل.

ثم قال للأُولى: اسقيه. فسقتني شربة سقطت معها، فلم أعقل حتى أصبحت فإذا أنا بالجاريتين عند رأسي وإذا خادم يقدم عشرة خدم مع كل واحد بدرة، فقال: أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ويقول لك: خذ هذه فانتفع بها في شأنك. فأخذتها والجاريتين ،وأقمت عنده مدة فوصلني بمئة ألف درهم، فانصرفت من عنده وأنا أيسر خلق الله تعالى[1].

الأمر الثاني: موقفهم من حفظ الدماء

فهؤلاء يصل بهم الأمر إلى أن يعتدوا على النّفس التي حرّم الله الاعتداء عليها، وأن يقتلوا النفس التي حرّم الله من غير وجه حقّ، وأن يسفكوا الدماء التي كرّمها الله جل وعلا بالإسلام كما حدث في وقائع عدّة منها واقعة الطّف ومنها واقعة الحرّة ومنها الاعتداء على بيت الله الحرام وما إلى ذلك مما يضيق المجال عن عدّه

---

(١) حياة الحيوان الكبرى ١: ٤٩٤ ـ ٤٩٦، وانظر: الأغاني ٦: ٨٥، ٨٦، ١٠١، الفرج بعد الشدّة ٢: ٣٥٣ ـ ٣٥٥، تاريخ مدينة دمشق ١٥: ١٥١ ـ ١٥٢، وفيات الأعيان ٢: ٢٠٧ ـ ٢٠٩، الوافي بالوفيات ١٣: ٨٥ ـ ٨٧.

وحصره. وفي مجال تعاملهم مع الدماء والنفوس فإننا نجد أنّ بسر بن أرطاة قد قتل ثلاثين ألفاً في ذهابه ومجيئه إلى المناطق التي أمره معاوية بالإغارة عليها، وهي المناطق التي كانت خاضعة لحكم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﵇[١]. فهؤلاء من الطبيعي عندهم ارتكاب مثل هذه المجازر التي لا يعلم عدد ما ذهب فيها إلّا الله تبارك وتعالى.

الأمر الثالث: موقفهم من الأموال

إن التاريخ يحدّثنا أن خمس أفريقيا قد أُعطي إلى مروان بن الحكم، ولذا فإن أحد الشعراء يخاطب عثمان بن عفّان بالقول:

وأُقسم بالله ربّ العبا	**د ما خلق الله شيئاً سدى**
ولكن خلقت لنا فتنة	**لكي نبتلي بك أو تبتلى**
دعوت الطريد فأدنيته	**خلافاً لما سنّه المصطفى**
ومالا أتاك به الأشعري	**من الفيء أعطيته من دنا**
وإن الأمينين قد بيّنا	**منار الطريق عليه الهدى**
وأعطيت مروان خمس البلاد	**فهيهات سعيك ممّن سعى**[٢]

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ١٠٦ ـ ١٠٧، الكامل في التأريخ ٣: ٣٨٤ ـ ٣٨٥، مروج الذهب ٣: ٣١ ـ ٣٢. وكذلك فعل سمرة بن جندب الذي قتل في يوم واحد ثمانية آلاف شخص، ولم يفرّق ويميّز بين الخارجي والمسلم، وحينما اعتُرض عليه في قتل المسلمين قال: الخارجي يعجّل به إلى النار، والمسلم يعجّل به إلى الجنة. تاريخ الطبري ٤: ١٧٦، تاريخ ابن خلدون ٣: ١٠، النصائح الكافية: ٧٦.

(٢) الأبيات لعبد الرحمن بن الحنبل. أُسد الغابة ٣: ٢٨٨ ـ ٢٨٩، ولم ينقلها كاملة، الإصابة ٤: ٢٥٢ / ٥١٢٢، وفيه أن عثمان أمر به فحبس بخيبر، كما أنه لم ينقل البيت الأخير، شرح نهج البلاغة ١: ١٩٨، المعارف (ابن قتيبة): ١٩٥.

الأمر الرابع: موقفهم من الأعراض

وهو موقفٌ أُريد أن أُنزّه المنبر الحسيني الشريف عن ذكره والخوض في تفاصيله وما كان يدور في حوار المغنيات والجواري. ويكفي في هذا المقام مطالعة كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الاصفهاني، وكتاب (تاريخ الخميس) للديار بكري، وكتاب (تاريخ الخلفاء) للسيوطي لنعرف ما كان يدور في قصور الخلفاء والأُمراء[1].

الأمر الخامس: موقفهم من الأديان

وهنا نقول: لو كان عند هؤلاء دين لما حدثت كلّ هذه المنكرات ولا ارتكبت كل هذه الأفعال الشائنة التي كانت تدور سراً وعلناً في قصورهم وأمام الناس، فإن الدين هو الأصل الذي يمنع عن كلّ قبيح أو فعل شائن، فالدين يمنع من الاعتداء على الأعراض وعلى الأموال وعلى النفوس وعلى كل ما حرم الله جلّ وعلا وأعطاه صفة الشيء المحترم. ولذا فإن هؤلاء لانعدام الدين في نفوسهم، ولعدم خضوعهم إلى تعاليمه وتشريعاته، فإنهم كانوا يرتكبون كل محرم، بل يعتدون على الدين نفسه. ومما يروى في هذا المجال أنّ أحدهم قام لعبد الملك وهو يخطب حتىٰ غابت الشمس، فقال له: أصلحك الله، الوقت لا ينتظرك، والرب لا يعذرك. فقال له الحجاج: ما تقوله صحيح، لكن مثلك لا يأمر مثلي. ثم أمر به فسجن[2].

---

(١) وهل بعد موقف يزيد من مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وإباحة أعراضها ـ كما مرّ بنا في محاضرة (النشاط الثقافي للإمام السجّاد عليه السلام) من هذا المجلّد ـ كلام حول حفظ الأعراض عندهم؟

(٢) البيان والتبيين ١: ٣٦٠، المستطرف من كل فن مستظرف ٢: ١٦، محاضرات الأُدباء ١: ٢٣٩، وفيها أنها مع الحجاج.

ولهذه الأسباب كلها نجد أن الإمام الحسين عليه السلام قد خرج وجاهد في سبيل الله من أجل حفظ هذا الدين، ومن أجل حفظ الأعراض والأموال والدماء والنفوس والعقول، ومن أجل حمايتها. وغير خفي أنه عليه السلام قد أُستشهد هو وأهل بيته وأصحابه من أجل هذه المقدّسات التي كان عليه السلام يرى أنّها فوق كلّ اعتبار، يقول عليه السلام: **«إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي صلى الله عليه وآله وسلم، وأن أسير فيهم بسيرة الحقّ؛ فمن قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بقبول الحقّ، ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتى يحكم الله وهو أحكم الحاكمين»**[١].

ولذا فإننا نقول: إن الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه قد قُتل من أجل المجتمع الإسلامي، ومن أجل الله جلّ وعلا، ومن أجل إعلاء كلمته؛ ولذا فإنهم أحياء في جسم المجتمع الإسلامي حيث إن شهداء الطف لا زالوا حتى يومنا هذا يعيشون في نفوسنا وفي مشاعرنا وفي عواطفنا وفي ثوراتنا.

ونحن هنا مع كل ما ذكرنا لا نستطيع أن نتخلّف عن الجانب العاطفي والجانب المأساوي لهذه الواقعة العظيمة التي راح ضحيّتها امتداد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته وأصحابه.. هذه الثلة الطيبة والكوكبة النيّرة التي مرّت عليهم ليلة الحادي عشر من المحرم الحرام وهم صرعى على وجه الصعيد بعد انتهاء المعركة. وكانت هي الأجساد الوحيدة التي بقيت كذلك بعد أن أمر عمر بن سعد الجيش بأن يحفر حفراً كبيرة لدفن قتلى الجيش الأُموي وترك قتلى أهل البيت عليهم السلام وأصحابهم في العراء تصهرهم الشمس وتسفي عليهم الذاريات.

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

وتحاول عائلة الإمام الحسين عليه السلام أن تخرج، لكن وصيّته (صلوات الله وسلامه عليه) ترنّ في آذانها خصوصاً أُذني أُخته الحوراء زينب الكبرى عليها السلام حيث قال لها: **«أُخية، تعزَّي بعزاء الله، لايذهبن بحلمك الشيطان ولا تُشمتي بنا الأعداء»**[١].

ولذا فانها عليها السلام قد امتنعت عن الخروج إليه نهاراً، ولكنها خرجت بعدما انسحب الجيش وهدأ الليل وسكنت النفوس والأصوات، وخرجت من وراءها أكثر من عشرين امرأة وصبياً وصبية، وقد تعلّقوا بأطراف ثيابها؛ فهذا يقول: عمة أين أبي؟ وهذا يقول: عمة أين أخي؟ وهي تقوم ويقعدها الألم والحزن ما بين جثث الضحايا إلى أن وصلت إلى جسد أبي عبد الله الحسين عليه السلام:

ومجرّح ما غيّرت منه القنا	حسناً ولا أخلقن منه جديدا
قد كان بدراً فاغتدى شمس الضحى	مذ ألبسته يد الدماء لبودا
نادَت فَقطّعت القلوبَ بشجوِها	لكنما انتظَمَ البيانُ فريدا
إنسانَ عيني يا حسينُ أُخَيُّ يا	أملي وعِقدَ جُماني المَنضودا
ما لي دعوتُ فلا تجيبُ ولم تَكنْ	عَوَّدتَني من قبلِ ذاكَ صُدودا
أَلِمِحنَةٍ شغَلتكَ عنِّيَ أم قِلىً	حاشاك إنك ما بَرِحتَ وَدُودا
حَنَّتْ فَلم تَرَ مثلَهُنَّ نَوائحاً	إذْ ليسَ مثلُ فقيدِهِنَّ فقيدا
وثواكل بالنوح تسعد مثلها	أرأيت ذا ثكل يكون سعيدا[٢]

---

١) الأمالي (الصدوق): ٢٢١، الإرشاد ٢: ٩١ ٩٢، روضة الواعظين: ١٨٣، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، اللهوف في قتلى الطفوف: ٨٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣٩١، تاريخ الطبري ٤: ٣١٤ ٣١٩، الكامل في التاريخ ٢: ٥٥٨، البداية والنهاية ٨: ١٩٠ ١٩٢، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٤٤، مقتل الحسين (الخوارزمي) ١: ٣٤٩، وقد مرّ مفصّلاً في ج ٢ ص٩١ من كتابنا هذا.

(٢) ديوان الشيخ هاشم الكعبي: ٣٩.

وهكذا فإن الحوراء زينب عليها السلام قد أفرغت كلّ ما في نفسها من حزن وألم وحسرة في مثل هذه الليلة عند جسد أبي عبد الله الحسين عليه السلام:

منهو انصدع يا بين صدعي		لهدات تسعر تحت ضلعي

أخبي عن الشمّات دمعي		واضمّ ونّتي حتى على سمعي

واذكرك بنصّ الليل والعِي



﴿٢١٣﴾

المنهجية العلميّة مسؤوليّة شرعية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

تتضمّن هذه السلسلة من الآيات المباركة مجموعة من المواضيع التي سوف أعرض لها تباعاً إن شاء الله تعالى كلاًّ في مبحثٍ مستقل.

توطئة: منهج القرآن الكريم في القسم

إن القرآن الكريم قد اعتاد في أُسلوبه الخطابي، وفي منهجه التربوي والتعليمي على أن يطرح القضايا المهمّة ذات الأثر الكبير في حياة المجتمع أو الصّلة البالغة به مسبوقة بالقسم، أي أنّها واقعة في سياق القسم وفي معرضه. فما يُرد الله جل وعلا أن يلفت النظر اليه يُقسم به. وهو تبارك وتعالى غالباً ما يمهّد للقسم مع أنّه تبارك وتعالى أحياناً يدخل على القسم مباشرةً جرياً على منهج العرب، وهذه الآية جاءت جرياً على منهج القرآن الكريم. والشيء المهم الذي تريد الآية الكريمة أن تلفت النظر إليه وأن تؤكّد عليه هو أهمية الفكر والعلم؛ ولذا فإنها

---

(١) القلم: ١ ـ ٢.

وضعت في صدر الآية عبارة: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾.

المبحث الأول: في معنى الحروف المقطّعة في أوائل السور

وقبل أن ألج في تفسير هذه الآية الكريمة أودّ أن أُنبه إلى أنّ هناك نمطاً من التّفسير يدخل فيه العنصر النفسي، ومن هذا اختلاف المفسّرين في معنى الحروف المقطّعة والموضوعة في أوائل السور مثل ﴿نٓ﴾، ﴿قٓ﴾، ﴿حمٓ * عٓسٓقٓ﴾[1]، على آراء عدّة نذكر منها:

الرأي الأول: أنها حروف يُقصد بها لفت النظر

أي أن القرآن الكريم يعلم النبي الأكرم ﷺ أن يبدأ بهذه الألفاظ المبهمة كي يلفت نظر الناس إلى هذا القرآن وإلى الإسلام، فإذا ما لفت نظرهم أو إذا ما التفتوا إليه فإنه حينذاك يبدأ بقراءة القرآن. فالعمليّة هذه هي أشبه شيء بقرعة التنبيه على الباب حينما يريد أحدٌ أن يدخل إلى مكتب أحد أو بيت أحد غيره فانه يطرق الباب قبل الدخول تنبيهاً لصاحب المكان بأنّه يريد أن يدخل عليه.

الرأي الثاني: أنها أسماء لبعض السور

ويذهب أصحاب هذا الرأي إلى أنّ المراد بهذه الحروف هي أن بعضها أسماء للسور الواقعة فيها كسورة ﴿قٓ﴾، وسورة ﴿صٓ﴾. فهي هنا عناوين للسور بمثابة العناوين التي توضع للشركات أو للمحال أو ما إلى ذلك.

الرأي الثالث: أنها من مكنون علم الله

أي أنها ممّا استأثر الله تبارك وتعالى به نفسه، ولم يطلع عليها أحداً من خلقه، فهي حروف تبقى في مجال الإعجاز القرآني الذي لا يستطيع أن يصل إليه

---

(١) الشورى: ١ ـ ٢.

عقل الإنسان مهما بلغ.

والواقع أننا لا يمكن أن نقبل هذه الآراء لأن ورودها في القرآن الكريم أكبر من هذه المعاني التي يُنص على أنها ألفاظٌ مبهمة، وأن الغرض منها لفت نظر الناس إلى القرآن الكريم، أو أنها ممّا اختصّ الله تبارك وتعالى به نفسه؛ لأن القرآن الكريم قد أنزله الله جل وعلا علينا لنتدبر آياته وأحكامه؛ ولذا فإنه تعالىٰ يقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[١]. فالقرآن الكريم يجب أن يُتدبر، ولما كان موضعاً للتدبر فإنه ينبغي ألّا يكون منه شيء مبهماً أو غامضاً، أو أنّ الله جلّ وعلا قد استأثر به لعلمه. كما أنّ هناك آراء كثيرة أُخرى غير هذه الآراء الثلاثة التي ذكرناها حول معنى فواتح السور هذه، لا داعي لاستعراضها.

المبحث الثاني: في معنى قوله تعالى: ﴿نٓ﴾

تقول الآية الكريمة: ﴿نٓ﴾، إننا حينما ننظر في كتب التفسير حول هذه الآية الكريمة فإننا نجد فيها بعض الآراء الغريبة في بابها؛ ذلك أنها آراء تعتمد على الروايات الواردة في التفكير الإسرائيلي. ومن ذلك تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿نٓ﴾، فالمفسّرون فيه على آراء عدّة منها:

الرأي الأول: أنها البقرة التي تحمل الأرض

ومن هؤلاء الطبري الذي يُطلقون عليه لقب شيخ المفسرين في تفسيره[٢] وغيره[٣] يرون أن المقصود بقوله تعالى: ﴿نٓ﴾ هو الحوت أو البقرة التي تقف الأرضون عليها؛ أي أن اسمها نون. وحينما يبدؤون بشرح هذا الموضوع يأتون

---

(١) محمد: ٢٤.

(٢) جامع البيان ٢١: ٨٨ / ٢١٤٠٧، ٢٩: ١٨ / ٢٦٧٦٥.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان ٣: ٣٨٦.

بشرح عجيب غريب حيث يثبتون أن هذه البقرة المسماة بـ« نون » هي بقرة كبيرة تستقر الأرضون على ظهرها، أو على قرنيها.

إن هذا اللون من التفكير في واقع الأمر هو نتاج للتأثّر بالفكر الإسرائيلي الذي غزا كتب التفسير عند بعض المسلمين وطغى عليها طغياناً عجيباً، فأدخل فيها خرافاته كلّها، ووضعها في كتب التفسير. وهذا التغلغل الفكري الإسرائيلي في كتب التفسير تارة يكون عن قصد وعمد؛ لتخريب الفكر الإسلامي الصحيح، ولحرف المسار التفسيري عند المسلمين عن طريقه السليم، وأُخرى لا يكون كذلك كأن يكون إنساناً أبله لا يمتلك مقوّمات عمليّة التفكير، فلا يذهب به تفكيره إلى ما هو أبعد ممّا تحت قدميه.

ومن هذا فإننا نجد مثلاً في باب النملة من يقول: إن النبي هو موسى بن عمران ﷺ قال: **« يا ربّ، تعذّب أهل قرية بمعاصيهم، وفيهم الطائع؟ »**. فأحبّ الله تبارك وتعالى أن يريه ذلك من عنده، فسلّط عليه الحرّ حتى التجأ إلى شجرة ليستريح إلى ظلّها، وكان تحتها قرية نمل، فغلبه النوم فلما وجد لذّته لدغته نملة، فدلكهن بقدمه فأهلكهن وهدم مسكنهن، فأراه الله تعالى الآية في ذلك، والعبرة منه لمّا لدغته نملة، وكيف أنه ﷺ أهلك النمل الباقي بعقوبتها. أي أن الله تبارك وتعالى يريد أن ينبّهه إلى أن العقوبة من الله تبارك وتعالى تعمّ الطائع والعاصي؛ لأنها سوف تصبح رحمة وطهارة وبركة على المطيع، وسوءاً ونقمة وعذاباً على العاصي [١].

وهذا تفكير عجيبٌ ينمّ عن جهلٍ وعن عدم تنزيه لله جل وعلا؛ ذلك أن الله جل وعلا حينما يقيس تعذيبه لقرية من البشر بسبب شخص أو أكثر بقتل النبي

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٣ : ١٧٣، عون المعبود ١٤ : ١١٨.

موسى عليه السلام لكمية كبيرة من النمل بسبب نملة واحدة فإن هذا يعني أن الله جل وعلا لم يقتل هذه القرية لهدف، بل إنه تبارك وتعالى قد قتلها بشكل لا شعوري، كما أن النبي موسى عليه السلام قد قتل تلك الطائفة الكبيرة من النمل بشكل لا شعوري. وهذا في واقع الأمر نوع من التفكير الأبله الذي يبتعد عن مسحة تنزيه ساحة الله جلّ وعلا عن كل ما يمكن أن يقال فيه: إنه نقص، كما أنه تفسير مشوّه يلوث الفكر الاسلامي كله. مع العلم أن الفكر الإسلامي يقوم على أُسس عقلية علمية ومنهجية أكاديمية، وليس على أساس عنصر الخرافة أوالأُسطورة كما توحي به كتب التـفسير عـند فرق المسلمين.

منهجية التفسير عند المسلمين

إن تفسير كتاب الله العزيز يجب أن يكون مبتنياً على أساس علمي أو عـقلي أكاديمي، وليس على أساس من الخرافة، والدين الاسلامي حينما جاء، فإنه جاء وقد وضع أمامه جملة من الأهداف التي من ضمنها تمجيد العلم. وهذا ما سعى إليه في أول سورة منه حيث يقول: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[1]، فهو أول ما جاء جاء مبشراً بالعلم وبالفكر، ثم حملهما منهجاً وطريق تفكيرٍ، ومسلكاً في جـميع الأُمور الحياتية، والقضايا والمشاكل الاجتماعية التي يعالجها. وبناءً على هـذا فإننا نقول: إن الدين لا يمكن أن يسمح بحدوث مثل هذا اللون من التخبّط فـي التفسير أو في غيره من علوم الشريعة.

وبناء على هذا الانغماس في الأساطير والإسرائيليّات التي تغلغلت في كتب التفسير عند المسلمين كما قلنا، فإننا نجد أن هذه التفاسير تسلط الأضواء عـلى

---

(١) العلق: ١.

مسائل فرعية لا قيمة لها ولا تُسمن ولا تُغني من جوع وتهتم بها اهتماماً كبيراً. ومن ذلك أن أحدهم يشغل نفسه في تحديد اسم النملة التي كلمت النبي سليمان عليه السلام، فيقول: هي مرددة بين اسمين فبعضهم يقول: اسمها الخارمية، وبعضهم يقول: إن اسمها حزوى. ولا أدري من أين جاء بهذين الاسمين اللذين لا تُسمن معرفتهما، ولا يضرّ الجّهل بهما، وهو حتماً لابدّ أن يكون قد أخذهما من المندسّين اليهود مثل وهب بن منبّه ومقاتل بن سليمان وأمثالهما.

رمتني بدائها وانسلّت

والمصيبة أنهم يرمون الفكر الشيعي بأنه ينتسب إلى الفكر اليهودي والحال أن الفكر الشيعي جميعه بين أيدينا ليس فيه مثل هذه الآراء التي تغلغلت في كتبهم من اليهود أو عن طريقهم. أما أُسطورة عبد الله بن سبأ الذي يدعون أنه مؤسس الفكر الشيعي أو المذهب الشيعي فالواقع أنه شخصيّة وهمية خياليّة [(١)].

ثم على فرض أن عبد الله بن سبأ شخصية حقيقيّة وليس شخصيّة وهمية، فهل من المعقول أنه يؤثر على طائفة بكاملها وعلى أُمة كلها فيجعل منها يهودية سبئية دون أن يؤثر أُولئك اليهود جميعهم الذين تغلغلوا في كتب الخصم، ودون أن يكونوا يهوداً؟

إن من غير المعقول أن تؤثر شخصية واحدة على فكر بأكمله دون أن تؤثر خمسون شخصية يهودية على فكر أُولئك الذين يزعمون بأن الشيعة هم يهود، إن هذا الكلام في واقع الأمر كلام غريب، ويتوفّر على مغالطات جمّة، وهذا ما تمتلئ به كتب التاريخ الذي لا يكاد الإنسان يتمالك نفسه معه، وهو يقرأ ما فيه من ألوان

---

(١) وقد تناول المحاضر هذا الموضوع أكثر من مرّة فيما طُبع ونُشر خلال هذه الموسوعة المباركة، وكان آخرها ما مرّ في المجلدين العاشر والحادي عشر.

الدسّ والتزوير، والتشويه والتحريف، والمهاترات، ونسبة الكفر إلى طائفة من المسلمين بأكملها دون الالتفات إلى عيوب كتّابها، أو إلى نقائصهم التي تملأ الدنيا [(١)].

إن هناك رواية تقول: إن قتادة دخل الكوفة فالتف عليه الناس، فخطب فيهم وقال: سلوا عمّا شئتم. فقال له أبو حنيفة ـ وكان شابّاً ـ: إني أسألك عن نملة سليمان عليه السلام؛ أكانت ذكراً أم أنثى؟ فأُفحم وقال: والله لا أدري أذكر هي أم أُنثى [(٢)].

وحينما نأتي إلى المتصدّين إلى الروايات فإننا لا نجد فيها من يقول: إن هذه خرافة، أو إن راويها ضعيف، لكننا حينما نأتي إلى رواية قصة الطائر المشوي، وهي ما يرويه أنس بن مالك الذي كان مريضاً، فأتاه محمد بن الحجّاج يعوده في أصحاب له، فجرى الحديث حتى ذكروا أمير المؤمنين عليه السلام، فانتقص منه محمد بن الحجاج، فقال أنس: من هذا؟ أقعدوني.

فلمّا أقعدوه، فقال: يابن الحجاج، أراك تنتقص من علي بن أبي طالب، فوالذي بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالحقّ، لقد كنت خادم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين يديه، وكان كلّ يوم يخدم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غلام من أبناء الأنصار، فكان ذلك اليوم يومي، فجاءت أُم أيمن بطير، فوضعته بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«اللهم جئني بأحبّ خلقك إليك وإلي يأكل معي من هذا الطائر»**.

فضرب الباب، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«يا أنس انظرمن على الباب»**. فقلت: اللهم اجعله رجلاً من الأنصار. فذهبت فإذا علي بالباب، فقلت: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على حاجة، فجئت حتى قمت مقامي، فلم ألبث أن ضرب الباب، فقال

---

(١) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس». نهج البلاغة / الخطبة: ١٧٦. ورواه في مسند الشهاب ١: ٣٥٨ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(٢) تفسير النسفي ٣: ٢٠٧، التفسير الكبير ٢٤: ١٨٧، البحر المحيط ٧: ٥٩.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : **«يا أنس انظر من على الباب»**. فقلت: اللهم اجعله رجلاً من الأنصار. فذهبت فإذا عليٌّ بالباب، فقلت: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على حاجة، فجئت حتى قمت مقامي، فلم ألبث أن ضرب الباب، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : **«يا أنس اذهب فأدخله؛ فلست أول رجل أحبَّ قومه، ليس هو من الأنصار»**.

فذهبت فأدخلته، فقال: **«يا أنس، قرّب إليه الطير»**. فوضعته بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأكلا جميعاً. فقال محمد بن الحجاج: يا أنس، كان هذا بمحضر منك؟ فقال: نعم. قال أُعطي الله عهداً ألّا أنتقص عليّاً بعد مقامي هذا، ولا أعلم أحداً ينتقصه إلّا أشنت له وجهه [1].

وهي رواية معروفة مشهورة، وتُسمى برواية الطائر المشوي كما ذكرنا، كما

---

(١) قد روي هذا الحديث الشريف بصورتين: إحداهما ما أُثبت في المتن، والأُخرى أن أحد المسلمين أهداه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . انظر: الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٠٠، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٣١، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، أُسد الغابة ٤: ٣٠، وغيرهم كثير.

وقد نظم هذا بعضهم فقال:

في قصة الطائر المشوي حين دعا ... محمد ربه دعوات مبتهلِ
أدخل إلي أحبَّ الخلق كلّهُمُ ... طرّاً إليك فمنه واجعلنه ولي
فجاء من بعده خير الورى رجل ... عليه يقرع باب البيت في مهلِ
فقال مختبراً من ذا له أنس ... فقال جاء علي جد بفتحك لي
فقال ترجع ولا تصغَر أبا حسن ... فإن عنك رسول الله في شغل
فانحاز غير بعيد ثم أعطفه ... دعا النبي فدق الباب في رسلِ
فقال أحمد من هذا تحاوره ... بالباب أدخله لا بوركت من رجل
فقام مبتدراً للباب يفتحه ... وحيدر قائم بالباب لم يزلِ
حتى إذا ما رأته عين أحمده ... حيّا وقرّبه تقريب محتفلِ
فقال ما بك قل لي يا أبا حسن ... اجلس فداك أبي يا مؤنسي فكلِ

مناقب آل أبي طالب ٢: ١١٧.

أنها مروية في عشرات المصادر عند السنة والشيعة ومع ذلك يأتي الذهبي ليتعقبها ويقرّر بأن كل رواتها مجهولون وضعفاء [١].

وهو في ذلك شأنه شأن غيره من بعض رواتهم ومحدثيهم الذين تتبعوا الرواية وحكموا بضعفها أو عدم صحتها [٢].

وغريبٌ أمر هؤلاء القوم الذين إذا مروا بمنقبة للإمامعليه‌السلام فقدوا توازنهم وحاولوا بشتى الوسائل أن يضعّفوا سند تلك المنقبة، أو أن يعملوا كل شيء من أجل نفيها عنه.

وعلى أية حال فإن هذا اللون من الروايات التي تغلغلت في تفاسير المسلمين هو لون لا يمكن قبوله؛ لأنه أساساً لا يمكن تعقله؛ فإن من يقل: إن نون هي عبارة عن البقرة أو الثور الذي يحمل الأرض فهو يبتعد ابتعاداً كبيراً عن الجانب العقلاني في الدين الإسلامي الحنيف الذي يبتعد عن الخرافات، وليس فيه ما يخالف أي حقيقة علمية ثابتة سواء كانت قد اكتشفت في الأزمان الماضية أو في الزمن الحالي. وهذه الظاهرة قد استخدمها الخيّام في إحدى رباعياته ليسخر منها سخرية لاذعة في إشارته إلى برج الثور الموجود في السماء وإلى هذا الثور المذكور في هذه الروايات والذي يحمل الأرض حيث يقول:

حلّى السما ثور وثور غدا ... يحتمل الأرض بقرنينِ
انظر بعين العقل كيما ترى ... قطيع حُمرٍ بين ثورينِ

---

(١) انظر ميزان الاعتدال ٢: ١٤.

(٢) انظر: التاريخ الكبير ٢: ٢ ـ ٣ / ١٤٨٨، ضعفاء العقيلي ١: ٤٦ / ٣٣، ٤: ٨٢ ـ ٨٣ / ١٦٣٨، ١٨٨ ـ ١٨٩ / ١٧٦٥، الكامل في الضعفاء ٢: ٢٥١ ـ ٢٥٢ / ٤٢٩، ٤: ٢٦٦، لسان الميزان ١، ٣٧، ٢: ٣٥٤.

عبد الله بن سبأ بين الحقيقة والخيال

وهكذا فإن هذا الشاعر الفيلسوف يسخر من هذا الفكر؛ لأنه مدعاة للسخرية. والغريب في الأمر أننا نجد أن كتب التفسير عند المسلمين كلها ملغومة بهذا الفكر، ولا يوجد من ينتقده، ومع ذلك هم ينتقدون غيرهم لمجرد رواية واحدة هي في أصلها أُكذوبة، كما أثبت ذلك المحقّقون، لكن كما قيل في المثل المشهور: رمتني بدائها وانسلّت [١].

إننا نُتهم بأن أفكارنا يهودية المنشأ، وهم ينسبونها إلى عبد الله بن سبأ الذي لا أظن أن في الدنيا في مثل سرعته على ما يصورونه في الروايات التي يروونها فيه؛ فهم يصورونه في مصر وبعد أقل من ساعة نجدهم يذكرون أنه ينتقل إلى العراق وأُخرى في مثل ذلك الوقت يذهب إلى الشام، وهكذا حتى قتل الخليفة الثالث ويقولون: إنه هو الذي بدّل عقائد الناس، وهو الذي افترى حديث الرجعة وقضية البداء، وغير ذلك ممّا أفسد عقائد المسلسمين به.

وبهذا فإن المؤرخين يصورونه على أنه عملاق فظيع، والحال أنه شخصية وهميّة ليس لها أي وجود إطلاقاً. ومن يستغرب من هذا الكلام فإن استغرابه سوف يزول حينما يعرف أنّ الباحثين المنصفين يقرّون بأنه شخصية وهميّة منتحلة وليس لها وجود على أرض الواقع، بل إنه منحوت من مقلع أوهام القوم الذين افتروه، ومن وحي خيالاتهم.

وهذه ليست المسألة الأُولى ولا الأخيرة التي يتعرض فيها الشيعة للافتراء، ومن هذا ما يجنح إليه بعض الكتّاب، ومنهم محمد أبو زهرة الذي انتقل إلى ربه؛

---

(١) شرح كتاب الأمثال ١: ٩٢، جمهرة الأمثال ١: ٤٧٥ / ٨٥١، مجمع الأمثال ١: ١٠٢ / ٥٠٥، ٢٨٦ / ١٥٢١.

فإنه يذكر في كتابه (الأحوال الشخصية) عن الشيعة أنهم يجيزون الزواج من تسع نساء في وقت واحد، ولا أدري من أين أتى بهذا الكلام عدا ما هو مذكور في كتبهم. إن هؤلاء أليس لديهم شعور بمسؤولية الكلمة حتى يكتبوا ما يحلو لهم وما يريدونه دون وازع من ضمير أو رادع من خوف الله جل وعلا؟ وأليس لديهم إيمان بالله تبارك وتعالى؟ فلماذا إذن يدسّون هذه السموم في زاد الأجيال التي سوف يتحملون مسؤولية تضليلها وحملها العداء والكره لطائفة محقّة بسبب ما يحاولون دسه من أفكار مزيفة ومن سموم قاتلة عنهم؟ فلا حول ولا قوّة إلّا بالله العلي الظيم، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الرأي الثاني: أنها الدواة

وهذا الرأي هو أفضل ما ورد في تفسير هذه الآية الشريفة وبيان معناها، وتوضيح المراد منها، فالقرآن الكريم يقسم بالدواة والقلم لأهميتهما، ولما لهما من دور في مجال الحركة العلمية. ومن لم يمتلك خلفيةً ثقافيةً، أو ليس لديه اطلاع على خصائص اللغة وأسرارها فإنه لا يستطيع أن يلتفت إلى هذا، أو يستكنه النكتة التي فيه. ومثل هذا ما نقرؤه في قوله تعالى: **﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾**[1]، إذ ربما يستغرب من لا اطّلاع له على اللغة أو أسرارها وجه عطف الأشجار على الكواكب أو النجوم، مع أن الحقيقة ليست كذلك، بل هي خلافها؛ لأن المراد من النجم هنا ليس ذلك الجرم السماوي النيّر، وإنما المراد منه النبات الذي لا ساق له، أي الذي يمتد على الأرض، وينمو عليها دون أن يكون له ساق يرفعه عن وجهها.

---

(١) الرحمن: ٦.

إذن فليس كلّ ما يمكن أن يستغربه الإنسان مما يرد في اللغة يكون موضع تقديرٍ؛ لأنّ ذلك الشخص ربّما لا يكون ذا خلفيةٍ مناسبةٍ أو معرفةٍ واسعةٍ واطّلاع كبير حول أسرار اللغة واستخدامها وأساليبها واستعمالاتها. وكذلك هنا فإنه لو كان المراد من قوله تعالى: ﴿نٓ﴾ هو الثور، فحينئذٍ يمكن أن يستغرب الإنسان من وجه العطف هنا، لكنه حينما يعلم أن المراد من النون هو الدواة فإن وجه الاستغراب حينئذٍ سيزول لأنه يكون قد ذكر معنى مناسباً للعطف هنا كما هو المعنى المناسب للنجم في الآية المذكورة سابقاً، وهذا ما نسميه مناسبة الحكم والموضوع كما يقول علماء الأُصول.

لماذا القسم بالدواة؟

والقرآن الكريم حينما يقسم بالدواة وبالقلم وبالكتابة، فإنه إنما يريد أن يشير إلى أشياء على أهمية كبيرة، وهذا يعني أن للقلم والدواة، أو للكتابة بشكل عام دوراً كبيراً وهامّاً يتمثّل بالتالي:

الأول: دور الكتابة في تثبيت الحقائق العلمية

إن القرآن الكريم حينما يذكر هذا الشيء فلأنه يريد أن يركز على دور الكتابة الهام والبالغ في عملية ضبط الحقائق العلمية وتثبيتها، وبالتالي عدم التلاعب بها أو عدم تزويرها وتزييفها. هذا من ناحية ومن ناحية ثانية بما أن الإنسان معرض للنسيان ولانمحاء الذاكرة، ولأنه أيضاً معرض للموت والفناء والهلاك فإن الله تبارك وتعالى يأمره بأن يحافظ على المعلومات العلمية التي لديه، وأن يورّثه للأجيال من بعده عن طريق الكتابة.

إن الناس في هذه الدنيا يمكن أن يتصوّر مرورهم بها على نحوين:

فبعض منهم يمر بهذه الحياة مروراً تافهاً عابراً وكأنه لم يكن، فلا يذكره من بعده ذاكر، ولا يخلد له فيها أثر.

وبعض غيرهم يتركون خلفهم عطراً طيّباً يضوع ألقاً في دنيا المعرفة، وهؤلاء هم العلماء الذين إذا ماتوا تركوا لنا الشيء الكثير من التراث العلمي أو الفكري الذي يرقى بالإنسانية إلى أعلى درجات الكمال والسمو[1]. فإذا سُجّل هذا الأثر الفكري، فإن صاحبه يعيش به، والمجتمع كذلك؛ لأنه سوف يستفيد من تراثه.

فالقرآن الكريم كأنما يريد أن يقول للناس: إنكم قد رأيتم الحياة وهي تلتهم كل شيء يمر بها وتحوّله إلى تراب، وعليه فدعوا السطور تعش من بعدكم لتحمل أفكاركم وعلومكم فتضيء بأنوارها أفكار الآخرين ودروبهم وحياتهم كي يعيشوا بها حياة سعيدة. أي أن من كان عنده شيء من علم فليكتبه، ومن توصل إلى نظرية علمية فليسطرها على ورق فإن ذلك خير له وللمجتمع:

فهو خير له: لأنه سوف تخلد ذكراه مدى الدنيا بما قدم وما عمل.

وهو خير للمجتمع لأنه سوف ينتفع بها سواء كان في حياته أو بعد موته، بما أنه سوف يستغلها في تطوير حياته والرقيّ بها.

فهذه الكتابة سوف تساهم في تشييد صرح الفكر وفي إعلائه وفي بنائه بناء كاملاً، وعليه فإن على كل إنسان يتوصل إلى شيء فيه خدمة لهذا الفكر أن يضع لبنة في صرحه، وهذه اللبنة لا تكون إلّا عن طريق الكتابة. فالواقع هذا هو الذي سوف يخلّد الإنسان، أما أعضاؤه كلّها فإنها سوف تتحول إلى تراب، يقول الأديب:

---

(١) يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «هلك خُزّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة». نهج البلاغة / الكلام: ١٤٧.

وما من كاتبٍ إلّا ستبقىٰ كتابتُه وإن فَنِيَت يَداهُ
فلا تكتُبْ بكفِّكَ غيرَ شيء يَسُرُّكَ في القيامة أن تَراهُ [(١)]

فهذه الأشياء في واقع الأمر هي التي تخلّد الإنسان، أما الجسد وما يتعلق به فينتهي بموته كما هو معروف. فالسطور هي عبارة عن ألق وروح حيٍّ ما بين كلماتها، وهذا هو واقع العلماء أو المفكرين الذين يثرون الحياة بأفكارهم، ويشيدون صرح العلم بنتاجاتهم وبأقلامهم، يقول الشاعر:

أرىٰ الموتَ يحييكم وبعضُ الذي مشوا علىٰ الأرضِ لو عاينت يمشي بهم قبرُ
تَشدّ بهم للطينِ سودُ فعالِهم وتسمو بكم للنورِ أمثلةٌ غرُّ
كرائمُ أعمالٍ وزادٌ من التقىٰ وفيضٌ من الإصلاحِ هذا هو العمرُ
رأيت الغنىٰ فكراً يعيش وغيره وإن ملأ الآفاق من ذهب فقرُ
فما مات عيسىٰ وهو يفترش الثرىٰ ولا عاش قارونٌ وأبوابه تبرُ
تهاوىٰ رماداً ألف صرح مُمَرَّدٍ وعاش علىٰ البرديِّ في ألقٍ سطرُ

إذ لعلّ في حياة سطر كتب على ورقة من البردي قبل آلاف السنين حتى الآن أكبر دليل على ما نقول، فقد ذهبت الصروح العظيمة الممردة والقصور، ووسائل التدمير والإرهاب وكل ما شيّد من عمران على مر الزمان وعلى مر الدهور مما بنته يد العماليق والفراعنة والقيصارة والأكاسرة ولم يبقَ سوى بضع كلمات كُتبت على ورق من البردي أو نقشت على رُقم من حجر. وهكذا نجد أن الذي يعيش هو الفكر الإنساني والروح التي يكون نتاجها النظريات العلمية التي تساهم في بناء الدنيا.

(١) تأويل مختلف الحديث ١: ٥٩، كتاب الغرباء: ١٦.

إذن فهذا هو السبب الأول الذي أشاد القرآن من أجله بالكتابة وبفضل القلم؛ فهما الوسيلة الوحيدة لحفظ النظريات والأفكار والعلوم كما أنها تسجّل الحياة بكل تفاصيلها وجزئياتها، وهذا ما دفع بالقرآن الكريم إلى أن يقسم بها لكي يلفت أنظارنا إلى أهميّتها.

الثاني: أنهما وسيلة العلم

فالله جلّ وعلا حينما أقسم بالقلم والدواة أقسم بهما باعتبارهما وسيلة للعلم والعلم مقدّس من وجهة نظر السماء، تقول الرواية: ذكر لرسول الله ﷺ رجلان أحدهما عابد والآخر عالم، فقال رسول الله ﷺ: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**». ثم قال: «**إن الله تعالى وملائكته وأهل الأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلّون على معلّمي الناس الخير**»[1].

ذلك أن العالم ينتفع بعلمه وفكره ونظرياته كلّ من في الوجود، أما العابد فليس له إلّا قضيّته الشخصيّة التي تخصه؛ فهو يصلي لنفع نفسه، ويصوم لنفعه، ويتهجد لنفع نفسه وكلّ ما يؤدّيه من عبادات إنما هو يعود بالنفع عليه هو دون أن يعود بالنفع على غيره[2].

وهذا بخلاف العالم الذي يجنّد نفسه لخدمة الحياة ولخدمة المجتمع، ويروي

---

(١) بحار الأنوار ٦١: ٢٤٤ ـ ٢٤٥، سنن الدارمي ١: ٨٨، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٤: ١٥٤ـ١٥٥ / ٢٨٢٦.

(٢) هذا بالشكل المباشر وإن كان يعود بالنفع على المجتمع بشكل غير مباشر، لكنه نفع عدمي كما يُسميه علماء الأخلاق؛ ذلك أن العابد الذي يعبد الله جلّ وعلا ويخافه ويتّقيه فإنه حتماً سوف يكفّ يده ولسانه عن أن يُلحق الأذى بالمجتمع. وهكذا فإن المجتمع سوف ينتفع بعبادته، لكن كما قلنا هو نفع عدمي، وليس نفعاً وجودياً. ومثاله من العبادات الصوم الذي يعدّ عبادة عدمية بخلاف الصلاة والحجّ وغيرهما، التي تعد عبادات وجوديّة.

عطش الأُمة إلى المعرفة، ويزوّدها بزاد الفكر؛ فيبني الحياة، ويشيّد الحضارة، ويُعلي صرح العلم في كل زمان ومكان. وعلى كل حال فالعلم في العادة أساساً فيه خدمة للإنسانية التي لا يمكن أن تستغني في يوم من الأيام في حياتها عن مفرداته، أما العبادة فهي وسيلة لتهذيب النفس خاصة بخلاف العلم الذي يتّسم بأن فيه نفعاً للجميع. وهذا هو السبب الذي من أجله جعل الله جل وعلا مقياس الحياة هو العلم فقال: **﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو الأَلْبَابِ﴾**[1]. ونحن حينما نتناول تاريخ الأُمم السابقة فإننا نجد أن تلك الأُمم تنقسم إلى قسمين:

الأوّل: الأمم الحية

وهي الأُمم التي تعيش من زاد أفكار علمائها، فترتقي بقدر ما فيها من مفكّرين وعلماء. وهذه الأُمم هي أُمم حية، وستظل حيّة حتى بعد انتقال أُولئك العلماء إلى التراب.

الثاني: الأمم الميّتة

وهي الأُمم التي يسودها الجهل. فهذه الأُمم هي عبارة عن كم مهمل لا قيمة له ولا أثر، ولا يذكره ذاكرٌ إلّا بالذمّ.

وهكذا يبقى العلم هو الحياة، والإنسان لا يمكن أن تتكامل إنسانيته ما لم تكن إنسانية مبتنية على العلم ومؤسّسة على البعد المعرفي.. إنسانية عالمة، فإن تخلت عن العلم والمعرفة، فإن حياتها سوف تتحول إلى حياة هي أقرب ما تكون إلى حياة البهائم.

---

(١) الزمر: ٩.

المسلمون والعلوم الحديثة

لكن مع كلّ هذا التطوّر هل سألنا أنفسنا: أين نحن اليوم منه؟ إننا نرى أنفسنا اليوم أننا نستهلك علم غيرنا دون أن تكون لنا يدٌ في تطوير هذا العلم أو في إيجاده. وهذا يعني بلغة الاقتصاد أننا جماعة مستهلكة وليست جماعة منتجة؛ فنحن نعيش على طعام العلماء من غيرنا وعلى عواتقهم وعلى فُتات عطاءاتهم ونتاجاتهم العلمية. وهذا مع الأسف غاية في الانحدار، مع أننا لم نكن في يوم من الأيام بهذه الصورة أو بهذه الشاكلة؛ فتاريخ المسلمين كلّه ألق وكله عطاء وكله تنوّرٌ، وهو ألقٌ وعطاءٌ وتنوّرٌ غريب في بابه في مختلف الأبعاد الحياتية، وفي مختلف الجوانب العلمية؛ سواء كان على مستوى الفلسفة العلمية أو الفلسفة الأخلاقية أو علوم الطّب أو الفلك أو البصريات أو ما إلى ذلك.

وبعد امتداد الزمن بنا بقينا نجتر ما تركه لنا الأوائل من آثار علمية دون أن نزيد فيها أو أن نضيف اليها، ودون أن نطورها. في حين أن الآخرين قد استفادوا منها وطوروها، وبعد ذلك بدؤوا يوظّفون طاقاتهم في خدمة هذا العلم وفي ولوج أبواب جديدة منه؛ لكشف مجاهيل الحياة والكون وأسرار الوجود بشكل عام. وهكذا بقينا نعيش في فقر معرفي وثقافي غريب في بابه. والذي يؤلم أكثر أن الإسلام كان ولا زال يتفجّر معرفة وحركة وتحرراً وعلماً وفكراً وينابيع للمعرفة، لكنِ المسلمون تركوا ذلك وتناسوه، وإذا بهم يتحوّلون إلى أدوات ومرادّ جامدة، لا يصفهم حقّ وصفهم، ولا يليق بهم إلّا ما عبّر به النبي الأكرمﷺ عن حالهم بقوله: «**يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون**

من الدين كما يمرق السهم من الرمية» (١).

فهؤلاء لا يعرفون من النص إلّا هذه الألفاظ، فتسمعهم يصرخون كل عام، بل كلّما سنحت لهم الفرصة راحوا يردّدون: أن زيارة القبور كفرٌ وشرك (٢). إن هؤلاء لا يعنيهم شيء من القرآن إلّا كلمتين، ومثل هذا الأمر يُعتبر رزية بالنسبة للإسلام؛ لأنهم لا يرون من السنة إلّا حديث: «لا تشد الرحال إلّا إلى مسجدي»، مع أن المنتظر من الإسلام أن ينزل إلى الشارع لينظمنا، وأن ينزل إلى المعمل لينظم العلاقات بين رب العمل والعمّال وأن ينزل إلى أفكارنا ليرتّبها وليعيد تنظيمها؛ كي تتناسب مع القرآن والسنّة.

المبحث الثالث: فضل العلم

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ والواو هنا بطبيعة الحال للقسم، وهذا يعني أن الله جل وعلا يُقسم بالقلم وبالكتابة التي تُكتب به. وأنا أُقسم أنّ هذا ميراث مضيء تركه لنا القرآن الكريم، فكل ميراثٍ يتمزق ويتبعثر ويذهب أدراج الرياح عدا الميراث الحق فهو ميراث يبقى خالداً ويعيش أبد الدهر: **«من مات وميراثه المحابر والأقلام دخل الجنة»** (٣). فمثل هذا الإنسان في واقع الأمر قد ترك جنة على الأرض قبل أن ينتقل إلى جنة السماء.. خلّف لنا

---

(١) شرح الأخبار ٢: ٤٣، مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ٢: ٣٢٦، وقريب منه في صحيح مسلم ٣: ١١٥، سنن أبي داود ٢: ٤٢٩.

(٢) قد مرّ تحقيق مسألة زيارة القبور فيما سبق من هذا الكتاب، انظر ج ١ / محاضرة: (فلسفة زيارة الحسين)، ج ٢ / محاضرة: (من مسائل فقه الصيد)، ج ٣ / محاضرة: (حقيقة الموت في المنظور القرآني).

(٣) مكاتيب الرسول ١: ٣٧١، عن معادن الجواهر ١: ٩.

جنة؛ لأن العلم الذي خلّفه لنا في حقيقة الأمر هو جنة وحياةٌ عامرة باللذائذ بالنسبة إلى من يعترف بالعلم وإلى من يجد فيه ضالته ويرى أنه حقيقة الحياة وسعادة الدنيا.

وهكذا فإن الكهرباء مثلاً ـ وهي من نتاج العلماء ـ هي في حقيقة الأمر نتاج تجاربهم وأفكارهم العلمية، فهي أثر ونتيجة علميّة حوّلت الحياة إلى جنة بالنسبة إلى ما كانت عليه الحياة فيما مضى. وكذلك العلوم كافّة وفي الميادين كافّة؛ لأن العلوم بطبيعتها تسلّط الأضواء على ظلمات النفس ومجاهلها؛ لتنير حوالكها، ولتضيء دروبها.

إشكال حول إثابة العالم الكافر

وربّما يقول قائل: إن هؤلاء العلماء هم علماء كفّار، فكيف يمكن أن يثابوا، أو أن يحصلوا على الجنّة؟

والجواب أن يقال: لو كان هنالك عالم في الاجتماع مثلاً أو في علم النفس أو في الطب وهو كافر، لكنه خدم الإنسانيّة، فهل يقدّر الله تبارك وتعالى له عمله أو جل وعلا لا يقدّره له؟ وبطبيعة الحال فإنّ الجواب هو بالإيجاب؛ ذلك أنّ الله تبارك وتعالى يقول في محكم كتابه العزيز: **﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾**(١). لكن يبقى هنا أن نوضّح أن عدم إضاعة عمل العامل هل هو مقيّد بالإسلام، أم إنه ليس مقيّداً بذلك؟ إن الروايات الشريفة الواردة في هذا المجال تؤكد على أن مثل هذا سيأخذ جزاءه في الدنيا؛ بأن يرفع الله له ذكره فيها، أو يعطيه الأموال، أو يعوّضه بتعويض دنيوي.

---

(١) آل عمران: ١٩٥.

ولعل أبرز ما يعوض به هؤلاء هو الذكر الحسن في الدنيا، فنحن لا نزال نذكر حتى الآن نظريات نيوتن وغاليلو ومن سبقهما ومن جاء بعدهما.

وكما ذكرنا فإن هذا ما هو موجود في الروايات، ولو أننا نسأل: ما هي مقاييس الله جل وعلا في هذا الباب؟ لكان الجواب على نحو التفصيل أننا لا نعلم ولا ندري ما هي تلك المقاييس، لكن على نحو الاجمال يمكننا أن نقول: إن مقاييس الله جل وعلا بطبيعة الحال أكبر من مقاييسنا وأعظم، وأشمل وأعمّ؛ لأن مقاييسنا عادةً تكون مقاييس ضيّقة مبتنية على العصبية والإحن والأحقاد والأضغان، وعلى الدوافع الشخصية، وفوق كل ذلك هي من نتائج عقل الإنسان القاصر والناقص. يروى أن رسول الله ﷺ قام إلى الصلاة، فقال أعرابي وهو في الصلاة: اللهم ارحمني ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً. فلما سلم رسول الله ﷺ قال للأعرابي: «**لقد حجّرت واسعاً**». يريد رحمة الله تبارك وتعالى، أي لم تبخل جواداً[(١)]؟

على أية حال فالروايات تنصّ على أنّ هؤلاء سوف يعوّضهم الله تبارك وتعالى في الحياة الدنيا؛ لأنهم لم يقصدوا بعملهم هذا وجه الله سبحانه وتعالى، ولأنه حتى يكون ذا أثر في الآخرة فلابد أن يكون صاحبه مسلماً؛ لأن قبول الأعمال والثواب عليها مشروطان بالإسلام. وبهذا فإن الله جل وعلا يعوض هؤلاء بالعمر المديد مثلاً أو بالشهرة أو بالأموال أو بالذكر الحسن أو بالصحة والمكانة، وما يدور في هذا الفلك أو المدار. أما إذا قصد هذا العالم وجه الله تبارك

---

(١) صحيح البخاري ٧: ٧٧، سنن أبي داود ١: ٩٤ / ٣٨٠، ٢٠٢ / ٨٨٢، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ١: ٩٩ / ١٤٧، السنن الكبرى (النسائي) ٣: ١٤، مسند الشاميّين ٤: ١٧٤ / ٣٠٣٥، الجامع لأحكام القرآن ٧: ٣٣٢.

وتعالى فلا شك أن الموازين حينئذٍ سوف تتغيّر.

المبحث الرابع: الإسلام ومصالح المشركين

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾، إن الإنسان طالما لم يصطدم أحدٌ بمصالحه الشخصية فإنه بمأمن منه ومن غائلته، ومن ظلمه وشرّه، أما إذا اصطدم بمصالحه وتقاطع معها، وأدّى ذلك إلى الإضرار بها حتى ولو كان بوجه حقّ فإنه سوف يرى منه الويل والثبور. وهذا دليل آخر على أن الإنسان عادة كائن غير موضوعي، وعلى أن مقاييسه ليست مقاييس علميّة أو مقاييس موضوعية أو شمولية؛ لأنه ينظر إلى الأشياء من زاويته الخاصة التي تخدم مصالحه الشخصية وتنمّيها.

وإني إذ أقول هذا فإنني لا أستطيع أن أُعمّم هذا الحكم على الناس كافّة؛ ففيهم الأنبياء والأيمة والأولياء؈، وفيهم غيرهم من ذوي النبل، لكنّ هؤلاء ذوي النبل من غير الأنبياء والأيمة والأولياء؈ قليلون جداً، ومما يروى في هذا المجال أن أبا جعفر المنصور كان يبحث عن شيخ من أهل الشام كان بطانة لهشام بن الحكم ونديماً له؛ لأنه كانت له بقايا حساب مع الأُمويّين، فكان يلاحقهم في كلّ مكان، فوجّه إلى ذلك الشيخ وأحضره عنده، ثم سأله عن تدبير هشام في بعض حروبه للخوارج ـ وكان هشام معروفاً ببراعته الحربية في معاركه وغزواته ـ وقال له: إني أُريد أن أستفيد من تجارب هشام هذا.

فراح الشيخ يصف له ما دبّر هشام في حربهم، وكان كلما ذكر هشاماً قال: (رحمه الله) فكان يقول: فعل هشام (رحمه الله) كذا، وصنع (رحمه الله) كذا، إلى آخره. فقال له المنصور: يابن اللخناء، قم عليك لعنة الله؛ تطأ بساطي وتترحّم

على عدوي؟ فازبأرّ الرجل في وجه المنصور ولم يضعف أمامه مع ما كان عليه المنصور من عنف وقسوة وظلم، ثم قال له: إن نعمة عدوّك لقلادة في عنقي لا ينزعها عني إلّا غاسلي.

ثم خرج، فناداه المنصور وقال له: ارجع يا شيخ. فرجع فقال له: أشهد أنك نهيض حرّ وغراس شريف، عد إلى حديثك لله أنت، فلو لم يكن لقومك غيرك كنت قد أبقيت لهم مجداً مخلّداً وذكراً باقياً[1].

وهكذا فإن هذا الرجل علّم المنصور أنّ عداوته يجب أن تكون نبيلة؛ فأن تختلف معه شيء وأن تُلغي كلّ محاسنه شيء آخر، فإن اختلافك مع شخص أو عداءك له لا يعني أنه يسوغ لك أو يجوز لك أن تُلغي كل محاسنه، وأن تمحوها من تاريخه أو سيرته. وكشاهد على هذا أن عبد الملك بن مروان قال كلمة مدح في حقّ مصعب بن الزبير ـ مع أنه كان عدوّه؛ لأنه كان في حرب معه ـ فقد قيل له: ما تقول في مصعب، فقد شرب الشراب؟ فقال: مصعب يشرب الشراب؟ والله لو علم مصعب أن الماء يُنقص من مروءته ما روي منه[2].

وهذا المعنى قد نظم فيه أحد الأدباء، وهو القاضي هبة الله بن سناء الملك حيث يقول:

وأظمأُ إن أَبدىٰ لي الماءُ مِنَّةً ... ولو كان لي نَهرُ المَجَرَّة مَورِداً

ولَو مَدَّ نحوي حادثُ الدَّهرِ كَفَّهُ ... لَحَدَّثتُ نَفسي أنْ أَمُدَّ له يَداً[3]

فهذا لون من ألوان العداوة النبيلة التي لا يجوز معها تزييف الحقائق وتزويرها،

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ٦٨: ٢٠٩، المستطرف في كل فن مستظرف ١: ٤٣٩.

(٢) تاريخ بغداد ١٣: ١٠٧، تاريخ مدينة دمشق ٨٥: ٢٢٧، ٢٢٨.

(٣) خزانة الأدب وغاية الأرب (الحموي) ١: ١٤٢.

وقلب محاسن العدوّ مساوئ أو سلبه إيّاها.

وبالرجوع إلى موضوعنا فإننا نجد أن عداوة قريش للرسول ﷺ لم تكن عداوةً نبيلةً، فالإسلام حينما جاء، وأعلنه الرسول الأكرم ﷺ وصدع بأمر ربّه به، اصطدم بمصالح الكثير من القرشيّين وغيرهم من العرب سيما الأثرياء منهم وذوي الجاه والسلطة. وهؤلاء حينما أحسوا بتقاطع هذا الدين الجديد مع مصالحهم الشخصية ومع رغباتهم وأهوائهم، راحوا يحاربونه بكل ما أُوتوا من قوة، وبكل ما تمكنوا من الوصول اليه.

وليس هذا فقط بل إن الحقائق قد انقلبت عندهم ـ وهذا هو موضوع بحثنا ـ فقريش كانت تُسمي رسول الله ﷺ بالصادق والأمين وسيد قريش وحليمهم، لكنه حينما جاء بهذا الدين الجديد وتقاطع مع مصالحهم كما ذكرنا ونزلت آيات تحرّم الربا مثلاً [1]، ونزلت آيات أُخرى تلغي عبادة الأصنام وتدعو إلى عبادة إله واحد [2]، حيث إنهم كان عندهم ثلاثمئة وستون صنماً يعيشون من صدقاتها

---

(١) قال الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ البقرة: ٢٧٥ ـ ٢٧٩، وقال عزّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ آل عمران: ١٣٠، وقال تبارك اسمه: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ النساء: ١٦١.

(٢) قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ البقرة: ١٦٣، وقال: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾

وندورها، وكان عندهم إلى جانب هذا مصالح أُخرى ألغاها النبي ﷺ جميعاً[(١)]، انقلبت الآية عليه ﷺ وراحت النعوت النبيلة التي كانوا ينعتونه بها تتحوّل إلى أضدادها، فأصبح ﷺ من وجهة نظرهم ساحراً وكذاباً ومجنوناً (تنزّه ﷺ عن ذلك).

وكان النبي ﷺ إذا نزل عليه الوحي، تفصّد عرقاً كالمغمى عليه، فكانت قريش تقول: انظروا إلى هذا الرجل يغمى عليه كالمجنون أو كالمصروع، يريدون بذلك إسقاط حجيّة قوله؛ لكيلا يبقى له في نفوس سامعيه قيمة أو أثر؛ ولهذا فإنهم راحوا يعبرون عنه بأنه مجنون. وقد واجه القرآن هذه التهم مواجهة شديدة حيث نزل قوله تعالى: ﴿**مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ**﴾ أي أنك على العكس مما يدعون ومما يتهمونك به؛ لأنك إنما تهدي العالم، وتنير الدنيا، وتضيء القلوب، وتكمل عقول الناس ومعارفهم. فالرسول الأكرم ﷺ بما أنعم الله عليه من معارف ومن عطاء ومن قابلية لا يمكن إلّا أن يكون رحمة، وإلّا أن يكون نوراً يضيء دروب الناس وعقولهم فيهتدي به الضالّون والتائهون. وفي هذا المعنى يقول أحد الشعراء:

غمر الأرض بأنوار النبوّه	**كوكب لم تدرك الأرض علوّه**
لم يكد يطلع حتى أصبحت	**ترقب الدنيا بمن فيها دنوّه**
بينما الكون ظلام دامس	**فُتحت في مكة للنور كوّه**

فهذا الشاعر يريد أن يقول بأن من هو في مثل عطاء النبي ﷺ فيما يحمل من

☚ النحل: ٢٢، وقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ الكهف: ١١٠، وقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ الأنبياء: ١٠٨، وغيرها كثير.

(١) كتجارة الخمر.

عقل ونور وهداية لا يمكن أن يكون مجنوناً أبداً.

أكاذيب المستشرقين

وهذه النقطة ـ دعوى أن النبي مجنون أو أنه ﷺ يصرع ـ لم تتفرّد بها قريش وحدها، بل إن المستشرقين وعلماء الاجتماع منهم خاصة لا زالوا حتى الآن يقولون: إن الأنبياء: إذا نزل عليهم الوحي فإنهم يُصرعون. وهذا في واقع الأمر دسّ منهم، وهم بهذا يعطون السموم التي يدسونها في الحقائق صفة النظرية وصبغتها مع أنها لم تكن بحال من الأحوال نظرية، وإنما هي سم قاتل يُنفث في زاد الأجيال، وفي ثنايا التاريخ لتشويه الحقائق، ولتزييفها وتزويرها، ولحرف التاريخ عن مساره الطبيعي. وهذا لون من العداء غير النبيل الذي ينتهجه المستشرقون الحاقدون.

وعلى أية حال فالنبي ﷺ حينما جاء بهذا الدين الجديد رأت قريش أنه يصطدم اصطداماً تاماً ويتقاطع تقاطعاً كاملاً مع مصالحهم المبتنية على الأساليب غير الشرعية والطرق غير الإنسانية كالربا وعبادة الأصنام والمتاجرة بالأعراض [1]، ولذا فإن النبي الأكرم ﷺ قد لاقى الأمرّين منهم، وكان مع كل ذلك على عادته كريماً معهم يدعو لهم بالهداية دون أن يتلكّأ في أن يصدع بما أُمر فيه. ومن هذا أنه ﷺ خرج يوماً لدعوة الناس إلى الإسلام، فرمته قريش بالحجارة حتى أدمته وأبعدته إلى وادٍ من الأودية، وبقي حتى الغروب، وقد أظلّه جبرائيل عليه السلام عن الشمس كما يقول المفسّرون.

---

(١) قال عزّ من قائل: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ النور: ٣٣.

فجاءت خديجة إلى الإمام علي عليه السلام، فقالت له: لم أرَ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم منذ الصباح، والذي يبدو لي أن أعداء الله قد أخرجوه، وأنا حاملة معي شيئاً من الطعام له، فاصحبني لنبحث عنه. فأقبلا يبحثان عنه صلى الله عليه وآله وسلم، فيما راحت الصدّيقة الكبرى تنادي: أين أنت يا رسول الله؟ أين أنت يا ثمال اليتامى؟ وأخذت تجول في الوادي، وأمير المؤمنين عليه السلام معها واضعاً يده على قائم سيفه، حتى وجداه طريحاً قد أخذته الحجارة، فأخذت خديجة عليها السلام تضمّد جراحه، وتمسح عنه الدم والتراب، ثم سقته ماء وأطعمته شيئاً من الطعام الذي كان معها، ثم رجعا به صلى الله عليه وآله وسلم، وهو يتّكئ بيد على كتف أمير المؤمنين عليه السلام، وبالأُخرى على أُم المؤمنين خديجة عليها السلام. ومع كل هذا نجده صلى الله عليه وآله وسلم يدعو لهم بقوله: «**اللهم اغفر لقومي؛ إنهم لا يعلمون**»[1].

فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم منجم الأخلاق الحميدة ومنبعها، بل هو منبع النبل والكرم ودماثة الأخلاق، ورقّة الطباع[2]. يقول أحد الأعراب: كنا في واقعة حنين، فدست على رجل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ وكان بالقرب مني ـ فخفقني خفقة خفيفة بمخصرته. وبعد أن انصرفنا منها إلى المدينة لم أستطع النوم ليلتي؛ لأن نفسي أخذت تلومني وتؤنّبني على ما فعلت برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ولما أصبحت جاء رسول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فطرق الباب وقال لي: أجب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فخشيت أن أكون قد أغضبته صلى الله عليه وآله وسلم بما حدث مني يوم أمسِ، فلما قدمت عليه، التفت إلي، وهشّ في وجهي وبشّ، ثم قال لي: «**لقد وطئت على قدمي يوم أمسِ، فخفقتك بمخصرتي**

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ٣٨٤، بحار الأنوار ٩٥: ١٦٧.

(٢) وقد أثبت الله تبارك وتعالى هذا بقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ آل عمران: ١٥٩.

هذه، وقد أعددت لك ثمانين شاة هي حصّتي من الغنيمة، فخذها إليك عوض ما ضربتك، واجعلني في حل منها».

والحقيقة أن هذا لوناً من الخلق العالي الذي لا يمكن إلّا أن يكون عند الرسل أو الأنبياء أو الأيمة:، فالنبي ﷺ مع كل ما كان يلاقيه منه نجده يرفع رأسه إلى السماء ويقول: **«اللهم اغفر لقومي؛ إنهم لا يعلمون»**.

ومثل هذا الموقف الذي خرجت فيه خديجة (رضوان الله عليها) باحثة عن الرسول الأكرم ﷺ موقف حفيدتها زينب الكبرى عليها السلام حينما خرجت تبحث عن امتداد النبي ﷺ .. عن أبي عبد الله الحسين عليه السلام ، لكن كيف كان حالها وأين وجدته؟ كانت تقوم وتقع ما بين المصارع وهي تجترّ حسرتها وألمها والحزن يعتري قلبها الشريف، فكانت تقوم من مصرع إلى مصرع، ومن قتيل إلى قتيل، حتى انتهت إلى أخيها أبي عبد الله الحسين عليه السلام ، فجلست عنده وملء نفسها العزيمة، وملء روحها الصبر والإيمان والرضا بقضاء اللّه والتّسليم لقدره، فأطالت النظر إلى ذلك الوجه الكريم الذي طالما كانت تتمتع برؤياه، وجلست عنده تحدّق فيه، فسبقتها دمعة لم تستطع أن تغالبها:

عمر ما فارگيتك بيه ... تذكر يوم واحنه صغار

من حضن امي الزهره ... الجِوانح حيدر الكرار

عيني اتبحّر بوجهك ... وروحي وياك ليل انهار

ثم قامت من عنده ورجعت إلى الخيمة والحزن يملأ نفسها فأهاج وجدها يتيمة للحسين عليه السلام تعلّقت بثيابها وهي تقول لها: عمّة، لقد حضر وقت الصلاة، فما لي لا أرى أبي؟ وكانت هذه الطفلة قد اعتادت أن تعدّ مصلّى أبيها الحسين عليه السلام عند كل

صلاة، فقالت لها عمتها زينب: عمّة وأين أبوك؟ ثم أخذت اليتيمة في حـجرها، وراحت تعلّلها:

مـــالي گـــلب يـحسين فـرگاك ... انـــا اتـــمرمرت والله بـيتاماك

* * *

وإن يـــبكِ الـيـتيمُ أبـاهُ شَـجواً ... قَــرَعْنَ سِـياطُهم رأسَ اليَـتيمِ

﴿٢١٤﴾

بين الوادي المقدّس والغري

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَامُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

توطئة

تتناول هذه الآية الكريمة مسير النبي موسى عليه السلام بأهله في وقت كان شاتياً شديد البرودة، وكذلك تتناول قضية الوحي والنبوّة إليه عليه السلام. وهذا هو النداء الأول الذي نودي به نبي الله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام حينما كان عائداً من مدين إلى مصر، وكما قلنا فإن الجو كان شاتياً قاسياً شديد البرودة، وكانت أهله في حالة طلق، ولذا فإنه عليه السلام راح يلتمس لها ناراً للتدفئة. وأثناء بحثه تراءت له نارٌ من بعيد، فخفّ إليها ليقتبس منها قبساً لأهله يدفّئهم به، لكنه حينما اقترب من النار سمع صوت الله جل وعلا يخاطبه بآية المقام.

---

(١) طه: ١١ ـ ١٣.

فالآية الكريمة تدور في هذا الإطار، وهي تحتوي على مضامين عدّة سوف أعرض لها إن شاء الله تعالى كلّ مضمونٍ في مبحث مستقل:

المبحث الأول: وجه استعمال كلمة ﴿نُوْدِيَ﴾

تقول الآية الكريمة: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ﴾ وفي هذا المقطع الشريف من الآية الكريمة نكتتان ينبغي التنبيه إليهما، وهما:

النكتة الأولى: وجه استعمال كلمة ﴿نُودِيَ﴾ مع أنها للبعيد

فأول ما يُلفت النظر في هذا التعبير القرآني الشريف هو كلمة ﴿نُودِيَ﴾؛ ذلك أن مدلول هذه الكلمة يُستعمل للمنادى البعيد، في حين أن النبي موسىعليه السلام كان قريباً من الله جل وعلا بنوعين من القرب، هما:

الأول: القرب المعنوي. فالنبي موسىعليه السلام كان في كنف الله تبارك وتعالى ورعايته، وتحت عينه وكلاءته.

الثاني: القرب المكاني. فهوعليه السلام كان إلى جانب النار التي خرج منها صوت الخطاب المقدّس إليه، أي قريباً منها.

وبناء عليه ما هو الوجه في اللجوء إلى كلمة ﴿نُودِيَ﴾، وهي لمن يُكلّم أو يخاطب من بعيد؟ وما هو وجه البعد الذي وُضعت له كلمة النداء المشار إليها؟

الظاهر من بعض الآراء أن وجه البعد هو بين المنزلتين؛ منزلة الإله، ومنزلة العبد. فمنزلة العبودية فيها بُعد واسع وبون شاسع عن منزلة الأُلوهية التي لا يمكن أن يرقى إليها شيء. وهذا هو المعنى الذي أراد القرآن الكريم التنبيه إليه بهذه الإشارة اللطيفة. وإلّا في واقع الأمر أن النبي موسىعليه السلام لم يكن ببعيد عن الله جل وعلا في لحظة من لحظات حياته.

النكتة الثانية: جذبة صوفية حول الآية الكريمة

وهي عدم التذاذ النبي موسى عليه السلام بصوت غير صوت النداء المقدّس، يقول بعض المفسّرين: إن النبي موسى عليه السلام بعد أن سمع ذلك النداء الإلهي المقدّس وهو عند النار المقدّسة وفي ذلك الوادي المقدس لم يعد يلذّ له سماع أي صوت آخر غير ذلك الصوت؛ فالنغمة التي وصلته عبر ذلك الصوت ـ وهو صوت الحق ـ جعلته لا يستأنس ولا يلتذّ بأي صوت آخر سواه. ولعل في هذا الأمر جذبة من جذبات الصوفية. وتحديد هذه الجذبة ربما يكون من المفسّرين أنفسهم، وربما يكون لها واقع موضوعي. لكن على أية حال مهما يكن الأمر فإن ذلك الصوت حتماً له وقْع لا يمكن أن يكون إلا من صوت الحق، ولا يمكن لصوت آخر غيره أن يكون له ذلك الوقع نفسه.

المبحث الثاني: في معنى الربوبيّة

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿ يَامُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ﴾، وهنا يتساءل البعض عن وجه التأكيد في قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا﴾، فكان من الممكن أن يُكتفى بالقول: أنا ربك، أو: إني ربك دون الجمع بينهما. إذن فلابدّ من وجود أمر أو نكتة ينبغي الالتفات إليها في هذا التعبير القرآني الشريف، وهنا نقطتان يذكرهما المفسّرون سبباً لهذا النداء الذي نودي به كليم الله عليه السلام، هما:

النقطة الأولى: التأكيد على أنّ هذا الخطاب من الله جل وعلا

ذلك أن النبي موسى عليه السلام لم يكن ليدور في خلده أو ليظن أن صوت السماء سوف ينبعث مخاطباً إياه من نار؛ ولهذا فإن التأكيد هنا جاء ليؤكّد هذا الشيء عنده، وليحوّله من ظن إلى يقين. أي أن الصوت الذي سمعته يا موسى هو صوت

الحق تبارك وتعالى، وليس صوتاً غيره.. هو صوت الخالق وصوت القدرة الإلهية المبدعة وليس صوت شيء غيره.

نشوء الصوت وحدوثه

إننا نعرف أن الصوت هو عبارة عن انحباس الهواء بين أعضاء الصوت وهي الحبال الصوتية داخل الحنجرة، وهي حبال تقطع الهواء عندما يمرّ بها؛ مما يصدر عنها هذا الصوت. والصوت بهذا المعنى لا يمكن أن يصح بحال من الأحوال على الله تبارك وتعالى؛ لأنه جل وعلا ليس بجسم ولا بمادة حتى يمكن أن يقال: إن عنده حنجرة وحبالاً صوتية يضطرب الهواء فيها فتقطعه وتحبسه، ثم يخرج منها على هيئة الصوت.

إذن فلابدّ من الصيرورة إلى القول بأن ما حدث هو أنه تعالى قد أظهر الصوت الذي يريده عن طريق بعض مخلوقاته وهي النار، فغاية ما في الأمر أنه تعالى قد أظهر الصوت عن طريق مخلوقاته. وهنا نلتفت إلى أن التأكيد المار إنما هو لهذا الهدف، وإلا فإن التعبير بأحدهما كافٍ عن التعبير بكليهما.

النقطة الثانية: تهدئة اضطراب موسى عليه السلام

فالنبي موسى عليه السلام حينما سمع الصوت اضطرب وداخله شيء من الخوف، وهنا أراد الله جل وعلا أن يطمئنه، ويُزيل عنه اضطرابه؛ ولذا فإنه عقّبه بقوله: ﴿رَبُّكَ﴾، ذلك أن التربية تُعطي معنى الدفء العاطفي والطمأنينة. والمربي عادة هو الأبوان، فهما غالباً من يقوم بدور التربية، والأب أو الأم لا يمكن أن يحملا تجاه ابنهما إلا المودة والعاطفة والحنان والدفء؛ ولذا فإن الإنسان يحمل في أعماقه للمربي صورة مملوءة بالحنان والاحترام والإكبار. وعندما نتعامل مع علاقتنا بالأم فإننا

نجد أننا نحمل في ذكرياتنا صورة مملوءة رحمةً وعطفاً وعطاء، كما أن في ذكرياتنا أيضاً تصوّراً واضحاً وكبيراً لحجر الأب عبر صورة مملوءة بالشفقة والرحمة والرأفة والمودة.

لماذا اختار الله تعالى كلمة ﴿رَبُّكَ﴾؟

وهنا فإننا نلفت النظر إلى النكتة في التعبير القرآني الشريف: ﴿رَبُّكَ﴾؛ دون (إلهك)، وهما جنبتان:

الجنبة الأولى: انتزاع الرهبة من نفس موسى عليه السلام

ذلك أنه تبارك وتعالى أراد أن ينتزع من نفس موسى عليه السلام الشعور بالرهبة والخوف والاضطراب، وهذا لا يكون مع التعبير بلفظ العبودية أو الأُلوهية، لأنها مناط الخوف من الله تعالى، بل إن الذي يناسبه هو لفظ الربوبية التي تعني الرحمة والتربية. فالخطاب المتوجّه إلى النبي موسى بن عمران عليه السلام يقول له: لا تضطرب؛ فأنا ربّك الذي خلقتك، وأفضت عليك الوجود والحياة، وغمرتك بالنعم، وشملتك بالرحمة في كل أبعادك؛ فأنا ربّك ومربّيك، وأنا الذي أفيض عليك رحمةً وحناناً ومودةً.

إذن فالآية الكريمة في مقام إعطائه عليه السلام لوناً من ألوان الطمأنينة والاستقرار بعد أن استشعر في قرارة نفسه تلك الرهبة وذلك الاضطراب نتيجة الموقف الذي كان فيه. إن الإنسان حينما يضطرب أو يرتجف من نداء يسمعه فإنّه في تلك اللحظة يكون أحوج ما يكون عليه هو أن يُمد بالشعور بالطمأنينة، ولذا فإن الله جل وعلا عبّر لنبيه موسى عليه السلام بهذا التعبير الذي هو في حقيقته كله طمأنينة وإيحاء بالمودة والشفقة.

الجنبة الثانية: أن الله تعالى هو الربّ والمربي

وتربيته تبارك وتعالى للإنسان تُتصور على نمطين:

النمط الأول: التربية التكوينية.

النمط الثاني: التربية التشريعية.

ولو أننا تتبعنا تعريف مفهوم التربية من وجهة نظر فلسفية، ورجعنا في هذا الأمر إلى فلاسفة اليونان لوجدنا أنهم يعرّفون التربية على أنها إمداد العقل والجسم بكل ما يمكنهما تقبله. أي أنك حينما تربي أحداً فإنك إنما تمد جسمه وعقله بما يستطيعان أن يستوعباه أو أن يتقبلاه. وبتعبير آخر يعني هذا تأمين حاجات الإنسان الروحية والجسدية. والتربية الروحية أو التربية التشريعية هي التربية التي تأتي على رأس قائمة أنماط التربية التي يتلقاها الإنسان وبالدرجة الأُولى منها؛ لأنها إمداد للعقل والروح، في حين أنّ الأنماط الأُخرى هي عبارة عن إمداد للجسم وتأمين احتياجاته كافة وتوفيرها له.

وكما هو معلوم فإن الجسم يأتي بالدرجة الثانية بعد الروح؛ لأنها هي الباقية وهو الفاني.

هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فإن إمداد الجسم يشاركنا به حتى الحيوان فكما أنّ الإنسان يأكل ليتغذّى ويشرب ويتزوج وعنده خلايا تتجد يومياً فكذلك الحيوان شأنه شأننا في هذه الناحية، فهو بحاجة إلى المأكل والمشرب والمأوى والعلاقات الجنسية التي تمدّ نوعه، كما أنه يمتاز بعين ما نمتاز به نحن من موت الخلايا اليومي وتجدّدها. وبشكل مجمل فإنّ العمليات الأيضية[1] كافّة التي

---

(١) أي عمليتي البناء والهدم الحيويتين.

تحدث في جسم الإنسان تحدث في جسم الحيوان بشكل عام من غير فرق، أو من غير اختلاف بينهما. أي أن هذا الشيء تشاركنا فيه حتى أدنى الحيوانات في سلم الرقي والتطوّر.

وعليه فمسألة إمداد الجسم تأتي بالمرتبة الثانية؛ لأن الإنسان لا يشاركه حيوان أو مخلوق آخر مما هو تحت مجال حواسنا في احتياجاته العقلية. فالإنسان متفرد بهذه الجنبة والحيوان لا يشاركه فيها أبداً.

متلازمة الروح والجسد

وربما يقول قائل: إن الروح لا يمكنها أن تمارس فعالياتها بشكل مستقل عن الجسم، فمالم يأخذ الجسم حقه من الإمداد فان الروح سوف لا تستطيع أن تأخذ حقها من الإمداد، وبالتالي من تأمين حاجاتها.

والجواب أن يقال: إن الواقع الذي لابدّ من التنبيه إليه هو أن المقصود من إمداد الجسم ليس الرغيف الذي يأكله الإنسان، وإنما هو عبارة عن وضع قابلية للجسم في الاستمرار في الحياة. أما إمداد الروح الذي هو أهم، فلأنه يعني بناء الشخصية الإنسانية المتكاملة؛ ولأنه يعني تحقيق الوجود الإنساني وليس الوجود الحيواني.

وقد ذكرت أكثر من مرة أن أرسطو كان معلّم الإسكندر، وكان الإسكندر في أيام حكمه اذا دخل عليه أرسطو قام له ويحترمه ويجله غاية الاحترام والإجلال ويقدره غاية التقدير، لكنه إذا دخل عليه أبوه فهو يحترمه لكنه احترام دون احترامه لمعلمه، وقد سئل ذات يوم عن السبب الذي من أجله يجلّ أُستاذه ومعلمه ويبجله أكثر من إجلاله وتبجيله لأبيه، فقال: إن أُستاذي أخرجني من كون الظلمة

إلى كون النور، وأنشأني فكراً، والإنسان إنما يكون إنساناً بفكره لا بدمه ولحمه، وهذا بخلاف حال أبي.

فهو يريد أن يقول: إن الإنسان إذا تعلّم وتثقّف ووعىٰ أصبح يمتلك ما يضيء له طريق روحه، أما أبي فقد أخرجني من كون الموت إلى كون الفساد والشيخوخة والآلام والمآسي والمصائب، ثم بالتالي يُسلمني إلى القبر. وشتّان بين شخص يُخرج غيره من عالم الظلمات إلى النور، وبين شخص يخرجه من عالم النور إلى الظلمات.

فكأنه يقرّر أن دور الأب ليس أكثر من إخراج الوليد من بطن الأُم إلى رحم الدنيا، فيعرضه بذلك إلى الآلام والمشاكل.

وهذه النظرة في حقيقة الحال موجودة عند جماعة كبيرة من الناس، وهي أن الإنسان حينما يدخل إلى هذه الدنيا فإنه يلج عالماً مليئاً بالآلام والمشاكل والمصائب ونحن نرى في حياتنا اليومية وما تمتلئ به من مشاكل وآلام أن الكثير من الناس حينما يلج هذه الدنيا فإنه لا يكاد يخرج من ألم حتى يدخل في ألم غيره، ولا يكاد ينجو من مشكلة حتى يقع في مشكلة أُخرى، حتى إن البعض يصل به الأمر إلى أن يتمنى لو أنه لم يولد، أو أنه يتمنى الموت لعِظم ما هو فيه من مصائب ومآسٍ وآلام؛ لأن ولادته أدّت به إلى هذا اللون من التعب والرزايا في هذه الحياة، وولوج عالم مليء بالمصائب والمصاعب والمعاناة، وكل ما يتلبّس بهذه الصفات.

إذن في واقع الامر أن الله تبارك وتعالى يمد كلّاً من العقل والجسم بكل ما يمكنهما تقبله، وأنه جل وعلا حينما عبر بهذا التعبير فلأنه يريد أن يقول لموسى عليه السلام: إن الذي يخاطبك ربّك، أي من خلقك وأفاض عليك الوجود والرحمة

والشفقة والمودة، ولم يخاطبه بلفظ العبودية؛ لأن فيه معنى التخويف والترهيب وما يدور في هذا المدار.

إذن يتجلى لنا من خلال هذا أن المعنى المقصود في هذه الآية الشريفة هو بعث الطمأنينة في نفس موسى عليه السلام وعدم استمرار حالة الخوف والرهبة والاضطراب لحظة سماعه الصوت؛ لأنه عليه السلام لم يكن ليتصور أن صوت السماء.. صوت الرحمة والوحي سوف يخرج إليه من خلال هذه النار المتّقدة.

المبحث الثالث: في معنى تعظيم الله جلّ وعلا

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾، وهنا يتبادر إلى الأذهان سؤال هو: لماذا أمر الله تبارك وتعالى نبيه موسى عليه السلام بأن يخلع نعليه وهو مقبل على هذا الوادي؟ إن للمفسرين للجواب على هذا السؤال عدة آراء، نذكر منها:

الرأي الأول: أنها عادة العظماء

فهؤلاء المفسرون يرون أن الله جل وعلا إنما أمر النبى موسى عليه السلام بأن يخلع نعليه؛ لأن من عادة العظماء أنه إذا دخل عليه شخص فانهم يأمرونه بأن يخلع نعليه عند الباب ويدخل حافياً إعظاماً لهم؛ فلا يدخل إنسان على عظيم وفي رجله نعل.

وقد يقول قائل: ما علاقة هذا بالله تبارك وتعالى، وهو الرب العظيم الكبير، الذي لا يتعامل مع عباده كما يتعامل الجبابرة والسلاطين المتكبرون مع رعاياهم؟

والجواب أن يقال: إن الله جل وعلا أحياناً يأخذنا بالعرف الموجود أو السائد عندنا في مجتمعاتنا، فكما أن الإنسان حينما يريد أن يعبّر عن عدم احترامه أو

تقديره لإنسان ما فإنه يدخل عليه بنعله دون أن يخلعه فإنه هنا ربما ينظر إلى هذه الجنبة النفسية عند الإنسان، وهي جنبة عرفية نظر إليها رب العزة تبارك وتعالى في تعامله مع هذه الواقعة.

إنه ليس من الاحترام في شيء أن يدخل أحد على إنسان مثله وإن كان أرفع منه منزلة بالعلم أو السلطان، وهو ينتعل حذاءه؛ وهنا فإنه لابد أن يبادر إلى خلع نعله ثم الدخول عليه. وهذه علامة من علامات التقدير والاحترام السائدة في المجتمعات. ونحن هنا إنما نتكلّم عن المجتمع الذي نزلت فيه الآية الكريمة، الذي يمثّل جوّها، وعليه فهذا المفسر يقول: إنه كان من عادة العظماء ألّا يدخل عليهم أحد وهو منتعل.

مشروعية الصلاة بالنعل أو بالخف

ومما يروى هنا عن عبد الله بن السائب أنه قال: كان النبي ﷺ إذا أراد أن يدخل إلى الصلاة فإنه يخلع نعليه[1].

وهذه المسألة يثيرها الفقهاء، وهي: هل يجوز للإنسان أن يصلي وهو منتعل أو لا يجوز له ذلك؟ والفقهاء يجوزون ذلك إذا لم يكن في نعل الإنسان قذر، وكان من جلد حيوان مأكول اللحم ومذكى[2]. لكن الذي ينبغي أن يكون هو ألّا يصلي الإنسان بنعله مراعاة للأدب مع الله جل وعلا؛ لأنه ليس من اللياقة أن يقف بين يدي الله وفي رجليه نعلان.

إذن فلبس الخف ما دام من حيوان مأكول اللحم ومذكى وليس فيه قذر فإن

---

(١) مسند أحمد ٣: ٤١١، سنن ابن ماجة ١: ٤٦٠/١٤٣١، سنن أبي داود ١: ١٥٤/٦٤٨، ٦٥٠، السنن الكبرى (النسائي) ٢: ٧٤، ١٧٦.

(٢) سنن أبي داود ١: ١٥٤/٦٥٠.

الصلاة فيه جائزة وإن كانت عملية مراعاة الأدب مع الله جل وعلا تستلزم عدم فعل ذلك. ولتقريب المعنى نضرب على ذلك مثالاً هو أن الواجب في الصلاة هو ستر العورة فقط كما يذهب إليه عامة الفقهاء، لكن هل من الأدب أن يقوم الإنسان إلى الصلاة وهو عريان لا يستر إلّا عورته الشرعية؟

إن هذا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[1]، والزينة هي أن يلبس الإنسان أفخر لباسه وأن يتطيّب قبل أن يذهب إلى المسجد. وهذا الأمر يراعيه الإنسان حينما يريد أن يدخل على إنسان مثله أو حينما يزوره إنسان فإنه يأخذ أحسن ملابسه ويلبسها ثم يزور ذلك الرجل أو يستقبل ضيفه. وهذا التصرّف مع الله من باب أولى؛ لأن الله جل وعلا هو ملك الملوك ورب الأرباب، وهو الخالق المقتدر العزيز؛ لأن في هذا التصرف نوعاً من إخفاء لون من ألوان التقدير الذي يريد أن يُبرزه ذلك الإنسان تجاه ضيفه، أو تجاه الإنسان الذي يريد أن يدخل عليه، والله تبارك وتعالى أحقّ وأولى بهذا التقدير والاحترام؛ لأنه الإله المطلق.

إذن فعلى المرء حينما يقف إلى الصّلاة وهو يعرف أنّه بين يدي الله جلّ وعلا أن يأخذ زينته لذلك، يروى أن هشام بن عبد الملك حجّ بيت الله في إحدى السنين، فلما دخل الحرم قال: ايتوني برجل من الصحابة. فقيل له: قد تفانوا. قال: فمن التابعين. قالوا: نعم. ثم أُتي بطاووس اليماني، فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه، ولم يسلم عليه بإمرة المؤمنين، ولم يكنّه، وجلس إلى جانبه بغير إذنه، ثم قال له: كيف أنت يا هشام؟

فغضب من ذلك غضباً شديداً، حتى همّ بقتله، فقيل له: أنت في حرم الله وحرم

---

(١) الأعراف: ٣١.

رسوله ﷺ، ولا يمكن ذلك. فقال له: يا طاوس ما حملك على ما صنعت؟ قال: وما صنعت؟ فاشتدّ غضبه وغيظه، وقال: خلعت نعليك بحاشية بساطي، ولم تسلّم علي بإمرة المؤمنين، ولم تكنّني، وجلست بإزائي بغير إذني، وقلت: يا هشام كيف أنت؟ فقال طاووس:

أما خلع نعلي بحاشية بساطك، فإني أخلعهما بين يدي رب العزّة كلّ يوم خمس مرات، فلا يعاتبني، ولا يغضب علي.

وأما ما قلت: لم تسلم علي بإمرة المؤمنين، فليس كل المؤمنين راضين بإمرتك، فخفت أن أكون كاذباً.

وأما ما قلت: لم تكنني، فإن الله عزّ وجلّ سمّى أنبياءه، فقال: **﴿يَا دَاوُدُ﴾**[١]، **﴿يَا يَحْيَى﴾**[٢] **﴿يَا عِيسَى﴾**[٣]، وكنّى أعداءه فقال: **﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾**[٤].

وأما قولك: جلست بإزائي، فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: «**إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار، فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام**».

وهذا ليس غريباً عن خلق علي بن أبي طالب عليه السلام، فهو غني عن التعريف، وهو الشخصية التي مثّلت خلق الإسلام، بل هو الإسلام عينه مجسّداً على الأرض. يروى أن النبي الأكرم ﷺ كان قد دخل عليه رجل فأصابته من هيبته رعدة، فقال ﷺ له «**هوّن عليك؛ فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد**»[٥].

---

(١) ص: ٢٦. (٢) مريم: ١٢.

(٣) آل عمران: ٥٥، المائدة: ١١٠. (٤) المسد: ١.

(٥) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١: ١٣٣، كنز العمّال ٦: ٨٨ / ١٤٩٦٥، السيرة النبويّة (ابن كثير) ٣: ٥٥٦.

وهذا لون من الخلق النبيل الطاهر، البعيد عن التكلّف، وهو الخلق الذي أخذه علي بن أبي طالبعليه السلام من رسول اللهصلى الله عليه وآله، وهذا ما يفسّر لنا قولهعليه السلام: **«إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار، فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام»**.

وشخصية أمير المؤمنينعليه السلام لا يمكن بحال من الأحوال أن يحيط بها وصف أو أن يبلغ مداها إنسان، فهذا الرجل بمقدار ما يملك من عظمة وتميّز ونبوغ نجده يتواضع حتى يلتصق بالأرض. فتواضعه في الطرف الثاني من المعادلة يوازي عظمته وتميزه في الطرف الأول منها.

فقال له هشام: عظني. قال: إني سمعت أمير المؤمنينعليه السلام يقول: **«إن في جهنم حيات كالقلال**[1]**، وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته»**. ثم قام وخرج [2]

وموضع الشاهد في روايتنا هذه هو خلع النعلين حيث قال له: «فإني أخلعهما بين يدي رب العزّة كلّ يوم خمس مرات، فلا يعاتبني، ولا يغضب علي».

رجـع

إذن فالله جل وعلا إنما أمر النبي موسىعليه السلام بأن يخلع نعليه؛ لأنه تعالى راعى هذه الجنبة الاجتماعية في تصرفاتنا كما تذهب إليه هذه الطائفة من المفسّرين.

الرأي الثاني: أن في نعليه قذراً

وتذهب هذه الطائفة من المفسّرين إلى أنّ الله تبارك وتعالى إنما أمر موسى بأن يخلع نعليه لأن فيهما قذراً من الأرض قد علق فيهما، وهو تعالى لا يريد

---

(١) في الكنى والألقاب: كالتلال.

(٢) الكنى والألقاب ٢: ٤٤١، وفيات الأعيان ٢: ٥١٠.

لإنسان أن يمشي على هذه الأرض الطاهرة وفي نعليه قذر.

نقد الرأي الثاني

وهذا الرأي طبعاً لا سبيل إلى قبوله أو إلى الأخذ به؛ لأنه يفترض أن الأنبياءﷺ لا يلتفتون إلى هذه الناحية وهي أنّ في نعالهم قذراً قد وطئوه على الأرض.

الرأي الثالث: أن تمسّ الأرض باطن قدميهﷺ

وهذه الطائفة الثالثة من المفسرين ترى أن العلّة التي من أجلها أمر الله تبارك وتعالى نبيه موسىﷺ بأن يخلع نعليه؛ لأنه أراد لباطن قدميهﷺ أن يمسّا هذه الأرض المقدّسة الطاهرة، فالقرآن الكريم يعبّر عنها بأنها مقدسة بقوله: ﴿**إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ**﴾، أي يا موسى، فلتلامس بقدميك هذه الأرض الطاهرة حتى تمسّك بركة هذا الوادي المقدّس.

المبحث الرابع: في تحديد موقع الوادي المقدّس

وهنا يطرح سؤال نفسه في البين حول هوية هذا الوادي المقدّس الذي ذكره القرآن الكريم، وحول موقعه الجغرافي، وفي واقع الأمر فإن للمفسرين آراء ثلاثة حول الإجابة على هذا التساؤل:

الرأي الأوّل: أنه في بلاد الشام

وهؤلاء المفسرون حينما يذكرون موقعه فإنهم يطلقون الأمر دون أن يذكروا موقعه على وجه التحديد.

الرأي الثاني: أنه في القدس

ذلك أن القدس الشريف هو إحدى البقاع المقدسة منذ الأزل عند الأنبياءﷺ

وأتباعهم؛ فهو أُولى القبلتين وثالث الحرمين.

الرأي الثالث: أنه الغري

أي النجف الأشرف. وهذا الأمر يحتاج إلى وقفة بمقدار ما يقتضيه المقام. ثم إن هذا المعنى قد تناوله الأدب والفكر والمأثورات الدينية؛ ولذا فإن الكثير من الآراء تميل إلى أن الغري الأشرف هو الوادي المقدس؛ لأنه منطقة قديمة معروفة بحضارتها ومدنيّتها. فالذي يرجع إلى تاريخ هذه المنطقة يجدها مصبّاً للحضارات.

التاريخ الحضاري لمنطقة الغري

ولعلّ كثيراً من الناس يظنّ أن النجف قد وُلدت مع دفن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فيها، مع أن الواقع خلاف ذلك؛ فتاريخ هذه المنطقة تاريخ بعيد جداً؛ فقد كان مصبّ جداول حضارية متعدّدة؛ ذلك أنها كانت منطقة مسيحيةً، وكانت بيوت الرهبان وأديرتهم منتشرة فيها، كما أنها كانت مركزاً من مراكز الدين والأدب والفكر في العالم آنذاك. وبالإضافة إلى ذلك كلّه نجد أنها كانت المركز الذي يُجلب إليه الأسرى منذ أيام الإسكندر، وقد كانت معسكرات الأسرى ومعتقلاتهم تموج بالحركة الفكرية والعلمية؛ حيث إن أصحاب هذه المعسكرات كانوا يروّضون الأسرى الذين يأتون بهم على قبول أفكارهم ومعتقداتهم ومبادئهم؛ فكانت بهذا مصباً لجداول كثيرة من المعرفة.

الغري محطّ الأنبياء عليهم السلام

وفوق ذلك كله فإن النجف أو الغري هي محطّ الأنبياء عليهم السلام، وآثارهم فيها كثيرة، ومن الآثار النبوية فيها ما هو معروف من أن النبي ابراهيم عليه السلام قد مرّ بهذه

المنطقة حينما خرج عليه السلام من بابل، وكان أهلها يُزَلزلون في كل ليلة، فلما بات النبي إبراهيم عليه السلام عندهم لم يزلزلوا تلك الليلة، بل توقّف الزلزال، فراح أهلها يتساءلون عن السبب الذي من أجله توقف الزلزال في منطقتهم، فقال لهم شيخ بات عنده النبي إبراهيم عليه السلام: والله ما دفع عنكم إلّا بشيخ بات عندي؛ فإني رأيته كثير الصلاة. فجاؤوه وعرضوا عليه المقام عندهم، وطلبوا منه أن يبقى بين ظهرانيهم؛ لأن الله تبارك وتعالى قد منع عنهم الزلزال ببركته، وبذلوا له، فقال عليه السلام: «**إنما خرجت مهاجراً إلى ربّي**».

وخرج حتى أتى النجف، فلما رآه رجع أدراجه، فتباشروا وظنّوا أنه رغب فيما بذلوا له، فقال لهم: «**لمن تلك الأرض؟**». يعني النجف، قالوا: هي لنا. فقال عليه السلام: «**فتبيعونيها؟**». قالوا: هي لك، فوالله ما تنبت شيئاً. فقال عليه السلام: «**لا أحبّها إلّا شراء**». ثم دفع إليهم مئة شاة كانت معه بها، والغنم يقال لها بالنبطية «نقيا»، وقال عليه السلام: «**أكره أن آخذها بغير ثمن**». فسميت «بانقيا»[١].

وعندنا الكثير من المأثورات التي تُروى عن الأنبياء عليهم السلام الذين مروا بهذه المنطقة وأقاموا بها. ومعلوم أن كل نبي يمر بمنطقة فإنه يترك بصماته الخيّرة والنبيلة عليها مادام قد أقام فيها.

قدسيّة أرض الغري

وأود أن الفت النظر إلى نقطة هامة هي أن فقهاء المسلمين عامة يقولون: إن أرض المدينة أشرف من مكة، معلّلين ذلك بأنّ تراب المدينة قد لامس جسد

(١) انظر: السرائر ١: ٤٧٩، عنه في بحار الأنوار ٤١: ١٢٩، معجم البلدان ١: ٣٣١، وفي (معجم البلدان) أن النبي إبراهيم عليه السلام ذكر أنه يحشر من ولده من ذلك الموضع سبعون ألف شهيد.

الرسول ﷺ والرسول ﷺ أشرف من مكة المكرمة؛ وما لامس الأشرف فهو أشرف. وبناءً على هذا فإننا نقول: إن الغري أشرف من مكة، بدليل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[١].

وبإجماع المسلمين أن النبي ﷺ ما دعا إلّا أمير المؤمنين علياً عليه السلام فاطمة عليها السلام والحسن والحسين عليهما السلام، ذلك أن علي بن أبي طالب هو نفس الرسول ﷺ، فإن ﴿أَبْنَاءَنَا﴾ يراد بها الحسن والحسين عليهما السلام، و﴿نِسَاءَنَا﴾ يراد بها فاطمة الزهراء عليها السلام، و﴿أَنْفُسَنَا﴾ يراد بها علي بن أبي طالب عليه السلام. وبما أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام هو نفس الرسول الأكرم ﷺ، والرسول ﷺ أشرف من مكّة؛ إذن فإننا نخرج من هذا بنتيجة هي أن علي بن أبي طالب عليه السلام أشرف من مكّة.

وهذا الأمر يذهب إليه عدد ضخم من المفسرين؛ ولذا فإن أحد الشعراء يخاطبه بقوله:

وهو في آية التباهل نفس الـ ... ـمصطفي ليس غيره إيّاها

وعلى العموم فالمراد من الوادي المقدس في الآية الكريمة هو الأرض المندسة في الغري، وهذا المعنى قد تناوله الشاعر عبد الباقي العمري رحمه الله في قصيدته الرائعة حيث يقول:

إذا نحن زرناها وجدنا نسيمها ... يفوح لنا كالعنبر المتنفِّسِ

ونمشي حفاةً في ثراها تَقَدُّساً ... نَرى أننا نمشي بوادٍ مُقدسِ[٢]

---

(١) آل عمران: ٦١.

(٢) لم نعثر عليهما لعبد الباقي العمري، بل هما للبهاء زهير في ديوانه: ١٧٧.

كما أن عنده بيتين رائعين جداً في هذا المعنى يقول فيهما:

ولمّا سرينا للغريّ عشيّةً ... لمن قد ثوىٰ فيه احتراماً وتبجيلا

ربطنا بأخفافِ المطيّ ثغورَنا ... فأوسعت الصحراءَ لثماً وتقبيلا

ولهذا فإن المؤرخين يذكرون أن السلطان العثماني سليمان القانوني حينما عزم على زيارة المشهد العلوي المقدّس في النجف الأشرف، ومعه كثير من وزرائه وقوّاده وعساكره، ولاحت لهم القبّة المباركة ترجّل بعض وزرائه الموالين باطناً من مسافة أربعة فراسخ، فسأله السلطان عن سبب ترجّله، فقال: هو أحد الخلفاء الراشدين، وقد نزلت تعظيماً له. فترجّل السلطان أيضاً، فقال له أحد وزرائه من الناصبين العداء لأمير المؤمنين ﷺ: إن كلّاً منكما خليفة، واحترام الحي أولى من احترام الميت.

قياس مع الفارق

ولو أننا نظرنا إلى هذا القياس الذي حاول أن يقيس به ذلك الوزير أو الشخص غير الميّال لأهل البيت ﷺ لوجدنا أنه قياس عجيب، فنحن نسأل: هل إن هذا القياس ينطبق على علي بن أبي طالب ﷺ فقط أم إنه يسري على غيره؟[1] إننا نفهم كمسلمين أن الإنسان حينما يموت فإنه لا يموت منه إلّا ذلك البدن، أما روحه فهي باقية لأنها لا يطرأ عليها شيء سوى أنها تفارق ذلك البدن الترابي الظلماني الفاني. ومفارقة الروح للبدن لا يعني أن الروح تفقد قيمتها وقدسيّتها. وهذا القياس طبعاً هو قياس الحجاج وقياس خالد بن عبد الله القسري؛ حيث كان الحجاج يقول: إن المسلمين مخدوعون حين يطوفون بقبر محمد ﷺ، وقد تحوّل

---

(١) مقولة الحجّاج حول قصر عبد الملك وقبر النبي.

صاحب القبر عظام بالية، ألا يطوفون بقصر عبد الملك[1]؟

على أيّة حال تردّد السلطان في الركوب، ثم لجأ إلى الاستفتاح بالقرآن المجيد، فخرجت هذه الآية الشريفة: **﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾**. وعندها أمر السلطان بضرب عنق الناصبي الذي عذله على ترجّله، ثم قال: قررت أن أترجّل عن ظهر جوادي وأنا منتعل، والآن لا أترجّل إلّا وأنا حافٍ[2].

---

(١) الكامل في الأدب ١: ٢٢٢، وقال المبرد فيه: إن ذلك ممّا كفّرت به الفقهاء الحجّاج، شرح نهج البلاغة ١٥: ٢٤٢.

(٢) الأنوار العلوية: ٤٢٤ ـ ٤٢٦. وفيها استشهد مؤدّب السلطان ببيتي الشاعر أبي الحسن التهامي، وهما:

تزاحم تيجان الملوك ببابه ... ويكثر عند الاستلام ازدحامها
إذا ما رأته من بعيد ترجّلت ... وإن هي لم تفعل ترجّل هامها

وهما بيتان مشهوران، لهما تخميس وتشطير للكثير من الشعراء، نذكر منها:

١ ـ تخميس السيد مهدي بحر العلوم، حيث قال:

تطوف ملوك الأرض حوله جنابه ... وتسعى لكي تحظى بلثم ترابه
فكان كبيت الله بيت علا به ... (تزاحم تيجان الملوك ببابه
ويكثر عند الاستلام ازدحامها)

أتته ملوك الأرض طوعاً وأمّلت ... مليكاً سحاب الأرض منه تهلّلت
ومهما دنت زادت خضوعاً به علت ... (إذا ما رأته من بعيد ترجّلت
وإن هي لم تفعل ترجّل هامها)

٢ ـ وله ﷺ مشطّراً لهما:

(تزاحم تيجان الملوك ببابه) ... ليبلغ من قرب إليه سلامها
ويستلم الأركان عند طوافها ... (ويكثر عند الاستلام ازدحامها)
(إذا ما رأته من بعيد ترجّلت ... ليعلو فوق الفرقدين مقامها
(فإن فعلت هاماً على هامها علت ... وإن هي لم تفعل ترجّل هامها)

أعيان الشيعة ١٠: ١٦١.

٢ـ وخمّسهما السيد زين العابدين البعلبكي فقال:

علي هو المولى فلذ بجنابِهِ ... وضع حرّ وجه فوق زاكي ترابِهِ

....

☚ متى أشرقت أنواره من قبابِهِ (تزاحم تيجان الملوك ببابِهِ
ويكثر عند الاستلام ازدحامها)
به الشرعة الغراء رتبتها علت وظلمة ديجور الضلال به انجلت
لديه ملوك الأرض طرّاً تذلّلت (إذا ما رأته من بعيد ترجّلت
وإن هي لم تفعل ترجّل هامها)

أعيان الشيعة ٧: ١٦٢ ـ ١٦٣ / ٥٠٥.

٤ ـ وخمّسهما السيد محمد بن أحمد بن الطيّب فقال:

علي تذلّ الأُسد في عزّ غابِهِ وتخضع أملاك السما لجنابِهِ
فزر ترَ في أعتابه وقبابِهِ تزاحم تيجان الملوك ببابِهِ
ويكثر عند الاستلام ازدحامها
لميقاته لبّت وحجّت وولولت وفي طور ناديه سعت ثم هرولت
له علم للناس أنواره انجلت إذا ما رأته من بعيد ترجّلت
وإن هي لم تفعل ترجّل هامها

٥ ـ وله مشطّراً لهما:

(تزاحم تيجان الملوك ببابه) وتخضع في مثوى ثراه أنامها
وتستلم الأعتاب منه ذليلة (ويكثر عند الاستلام ازدحامها)
(إذا ما رأته من بعيد ترجّلت) ونادى مناديها عليك سلامها
وقد علمت إن أذعنت جلّ قدرها (وإن هي لم تفعل ترجّل هامها)

أعيان الشيعة ٩: ٦٤ / ١٨٠.

٦ ـ وخمسهما الشيخ كاظم الأُزري، فقال:

وذي مرقد شمس العلا كقبابِهِ وجبهة دار الملك دون ترابِهِ
ألم ترَه معْ عظم وسع رحابِهِ تزاحم تيجان الملوك ببابِهِ
ويكثر عند الاستلام ازدحامها
بباطنه آيات وحي تنزّلت ورسل وأملاك به قد توسّلت
لذاك سلاطين لديه تذلّلت إذا ما رأته من بعيد ترجّلت
وإن هي لم تفعل ترجّل هامها

ديوان الأُزري الكبير: ٥١٥ ـ ٥١٧.

المبحث الخامس: تربة الغري تربة مقدّسة

إذن فقوله تعالى: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ إنما يعني على ضوء الرأي الثالث أن على النبي موسى عليه السلام أن يخلع نعليه ليمسّ باطن قدميه تراب تلك الأرض الطاهرة المقدسة كي يلتمس البركة من خلال ذلك، فحينما يلامس بدن شخص ما أرضاً مقدسة فإنه سوف تحل فيه بركتها.

وهذا مظهر من مظاهر التقدير والاحترام لهذه التربة المقدسة، وكذلك هو مظهر من مظاهر التكريم وعرفان الجميل لها، كما أن هناك نمطاً آخر من أنماط التكريم وعرفان الجميل للأرض هو لثم ثرى تلك الأرض وتمريغ الخد عليها وتعفير الجبين على ترابها، وهذا ما كان يفعله الرواد الأوائل ممن زار الإمام الحسين وممن كان يتردد عليه فهؤلاء لا يكتفون بأن يخلعوا نعالهم؛ ليلامس باطن أقدامهم تلك الأرض الطاهرة المقدسة، بل إنهم يهوون على تلك التربة الطاهرة الزكية؛ ليعفّروا جباههم بها، وليلامسوها بخدوهم وشفاههم، يقول أحد الأُدباء مصوراً ذلك الحال:

دأبتُ أزورُك في كلِّ عامٍ	وألثمُ تربكَ يابنَ النبي
ويابنَ عليٍّ ويابنَ البتولِ	ويابنَ ذُرا المجدِ في يثربِ
أُترّبُ خدّي بعفْرِ ثَراكَ	بحيثُ دماؤكَ لم تنضُبِ
بحيثُ يُلَعلِعُ ثغرٌ أبى	بأن يحتسي الذُّلَّ في مشرَبِ
وهامٌ أبى للطغاةِ الرُّكوعَ	وإن فَلَقُوا منه بالمضربِ[1]

وبالفعل كانت تلك الخدود تتقلّب على تراب أبي عبد الله الحسين عليه السلام لتحظى بدعاء الإمام الصادق عليه السلام لها، يقول معاوية بن وهب: استأذنت على الإمام أبي

---

(١) ديوان المحاضر ٢: ٢٥.

عبد الله الصادق عليه السلام، فقيل لي: ادخل.

يقول: فلمّا دخلت عليه وجدته في مصلّاه في بيته، فجلست قربه حتى قضى صلاته، فسمعته وهو يناجي ربه تبارك وتعالى في سجوده ويقول: **«اللهم إن أعداءنا عابوا عليهم خروجهم فلم ينههم ذلك عن الشخوص إلينا وخلافاً منهم على من خالفنا، فارحم تلك الوجوه التي قد غيرتها الشمس، وارحم تلك الخدود التي تقلّبت على حفرة أبي عبد الله عليه السلام، وارحم تلك الأعين التي جرت دموعها رحمة لنا، وارحم تلك القلوب التي جزعت واحترقت لنا، وارحم الصرخة التي كانت لنا. اللهم إني أستودعك تلك الأنفس وتلك الأبدان حتى نوافيهم على الحوض يوم العطش»** [1].

وكان أول خد تقلب على قبر أبي عبد الله الحسين عليه السلام هو خد أُخته الحوراء زينب وخد ولده الإمام السجاد عليه السلام، ثم تتالت بعد ذلك خدود مسبيات أهل البيت عليهم السلام والأيمة الطاهرين من بعد ذلك. وكانت السبايا تحن إلى زيارات ذلك القبر فلم تهدأ حتى لاحت لهم أعلام كربلاء، وما إن وصلوا إلى أرض المعركة حتى راحوا يقومون من قبر ويجلسون عند قبر:

يا نازلين بكربلا هل عندكم ... خبر بقتلانا وما أعلامُها

ما حالُ جثةِ ميتٍ في أرضِكم ... بقيت ثلاثاً لا يزار مقامُها

باللهِ هل واريتموها في الثرى ... وهل استقرّت في اللحودِ رمامُها [2]

* * *

ما غسّلوه ولا لفّوه في كفن ... يوم الطفوف ولا مدّوا عليه غطا

---

(١) الكافي ٤: ٥٨٢ ـ ٥٨٣ / ١١، ثواب الأعمال: ٩٥ ـ ٩٦.

(٢) وفيات الأئمة: ١٦٧.

﴿٢١٥﴾

الموروث الأخلاقي عند العرب
الإيثار أُنموذجاً

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: أقسام الملكيّة

تعالج هاتان الآيتان الكريمتان مشكلة يبدو أنها كانت ولا زالت متأصّلة عند سكّان جزيرة العرب، بل حتىٰ في أوروبّا. وقبل بيان هذا لابدّ من الإشارة إلى معنى كلمة ﴿مَلَكُوتُ﴾ الوردة في قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ﴾، أن كلمة الملكوت هي صيغة مبالغة في الملك أو الملكيّة. والملكيّة مفهوم يقع على معنيين، هما:

---

(١) المؤمنون: ٨٨ ـ ٨٩.

الأول: الملكيّة الاعتباريّة

أو هي الملكيّة الجعليّة، وهي الملكيّة التي تبقىٰ مع صاحبها أو مالكها فترة، ثم تذهب عنه. وذلك كأن يقول الإنسان: هذه داري، وهذا كتابي، وهذا مالي. لكنه عندما يموت فإن كلّ شيء سوف ينسلخ عنه ويذهب.

الثاني: الملكيّة الحقيقيّة

وهي الملكيّة المتأصّلة التي لا تذهب عن صاحبها بأي حال من الأحوال. وهذه هي ملكية الله تبارك وتعالى؛ فهو مالك كلّ شيء؛ حيث إنه خالق كل شيء. ولا يملك الانتفاع الكامل بكلّ شيء إلّا المالك الحقيقي.

وعليه فلو أن الإنسان لو أُعطي الدنيا وما فيها، وهو لا يملك القدرة على الانتفاع منها؛ لكونه مريضاً أو ممنوعاً من التصرّف فيها؛ فملكيته لها حينئذٍ تعدّ ملكيّة تافهة.

المحيط والتربية

وبهذا فإن الملكوت صيغة مبالغة من الملك وفيه، وهي مفردة تعني أن المالك لا تنفكّ عنه الملكية بحال من الاحوال أبداً، في حين أن ملكيّاتنا جميعاً متزلزلة ومؤقّتة. وهي بهذا مثل (رحموت) صيغة مبالغة في الرحمة، و(رهبوت) صيغة مبالغة في الرهبة والخوف، أي رحمة كثيفة ورهبة كثيفة وملكلية كثيفة. ولهذا فإن العرب يقولون في أمثالهم: «رهبوت أفضل من رحموت»[1]. أي أن الرهبة في الحياة أفضل من الرحمة، ومعنى هذا: كن ذئباً، ولا تكن ليّناً. يقول شاعرهم:

---

(١) شرح كتاب الأمثال ١: ١٠٦، مجمع الأمثال ١: ٢٨٨ / ١٥٤٧، ٢٩٨ / ١٥٧٦، ٢: ٧٦ / ٢٧٨٥، المستصفى في أمثال العرب ٢: ١٠٧ / ٣٨٣.

إذا لم تكن ذئباً على الأرض أجرداً كثير الأذىٰ بالت عليك الثعالبُ

وهذه النظرة لم تولد معهم، وليست هي موجودة في طباعهم، لكن الإنسان يتعلّمها من خلال البيئة المحيطة به، وبهذا تصبح متأصّلة عنده. فهو حينما يفطن علىٰ الدنيا يفطن وهو يرىٰ من حوله كلّ هذه الأشياء التي اتّخذتها قبيلته شعاراً لها من قتل وسلب ونهب واعتداء على حريّات الآخرين وخصوصيّاتهم وممتلكاتهم. وهذا هو الأمر الذي يوجد عنده التطبّع على شيء، ومعنى هذا أنه لو وضع في بيئة أُخرىٰ مغايرة لبيئته هذه لكان شيئاً آخر غير ما هو عليه حينها. وهذا الأمر يبحثه علماء الاجتماع في نظرية (التوائم المتماثلة).

ووفق هذه النظرية لو أننا وضعنا أحد التوأمين في بلد عربي أو شرقي، والآخر في أوروبّا، فإن الذي يعيش في أوروبّا سوف يتطبّع بعادات أهلها والمحيط الذي يعيش فيه؛ فهو إمّا أن يشتغل بمعادلة رياضيّة أو طبّيّة، أو يشتغل بعمل إنساني، أمّا ذلك الذي يوضع في البلد العربي أو الشرقي فإنه سوف يقتني بندقية من أجل السلب أو القتل.

فالمحيط إذن يوجّه الإنسان، وهذا هو تقرير حالهم حينما يقولون: «رهبوت خير من رحموت». فكلٌّ من هؤلاء يفتح عينيه في بلد ليس فيه رحمة.. بلدٍ القويُّ فيه يأكل الضعيف.

وهؤلاء قد عانىٰ الإسلام كثيراً في سبيل تربيتهم تربية صحيحة، وبذل جهداً كبيراً حتىٰ تمكّن من إعادة الإنسان إلىٰ طبيعته السويّة، ومن إرجاعه إلىٰ رحمته.. رحمة السماء. وفعلاً نجح في رسالته هذه بعد لأي، وخلق منهم قلوباً رحيمة وعطوفة، بل لا حدود لرحمتها. فمثلاًكان الشاعر يترنّم في ذلك المحيط الجاهلي بقوله:

لنا الجفنات الغرّ يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما (١)

ويترنّم غيره بقوله كذلك:

ألا لا يجهلنْ أحدٌ علينا فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا (٢)

فهما مفعمان بالرغبة إلى القتل، ومتأزّمان، لكن هذه النظرة إلى الحياة تغيّرت بعد مجيء الإسلام، ولذا فإننا نسمع الشاعر حينئذٍ يقول:

إنــي شكــرت لظـالمي ظـلمي وغـفرت ذاك له عـلى عـلمِ (٣)

فالتصوّر عن الحياة والمنظور فيها قد اختلفا، وهذا لا يعني أن هذا الخلق قد صيّر منه جباناً، بل إنه صيّر منه إنساناً يلتزم الرحمة في كلّ تصرّفاته، لكنه يمكن أن يستخدم الشدّة في وقتها. وهذا هو العدل الذي هو وضع الشيء في موضعه.

وعليه فإن قوله تبارك وتعالى: ﴿بِيَدِهِ مَلَكُوتُ﴾ يعني له خزائن كل شيء، كما يقول المفسرون. فكلّ شيء له خزانة؛ فالأموال لها خزانة، والعافية لها خزانة، وكذلك الرحمة لها خزانة. وهكذا فإنه تبارك وتعالى بيده الخزائن لكلّ هذه الأشياء؛ فالله يعطي الرحمة والعافية والمال والخير، وأحياناً ينزل الغضب، حيث إنه جلّ وعلا وحده بيده المنع والإعطاء. ولو أنه تبارك وتعالى منع الإنسان شيئاً فلو أن الدنيا كلها اجتمعت لتعطيه رغيف خبز ما استطاعت، ولو أنه تبارك وتعالى أعطاه شيئاً، فلو اجتمعت الدنيا كلّها على أن تسلبه إيّاه ما استطاعت أن تأخذه. فما قسمه الله تبارك وتعالى لأحد يصَل إليه.

---

(١) ديوان حسّان: ٦٩.

(٢) البيت لعمرو بن كلثوم من معلّقته. أمالي السيد المرتضىٰ ١: ٤٢، ٢: ٨، شرح نهج البلاغة ١٦: ١٠١، ١٩: ٢٢١، الجامع لأحكام القرآن ١: ٢٠٧، ٢: ٣٥٦.

(٣) البيت لمحمود الورّاق. شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٧٨.

المبحث الثاني: حقيقة السحر

وقبل الكلام على جزء الآية الكريمة المتعلّق بالإجارة والجوار سوف نتناول مسألة السحر، ثم نعرّج بعدها على هذه المسألة.

تقول الآية الكريمة: ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾، وهي تعالج هنا ما كان هؤلاء يقاسونه ويواجهونه من ضغوط الحياة وتقلّباتها التي تشتدّ عليهم، كأن يبحث أحد عن عمل ما فلايجد، أو أنه ليس لديه فرص في الحياة كافية للتحصيل أو الكسب، فيستغلّه هؤلاء المشعوذون والسحرة إذ يقصدهم بعد أن ييأس من الحصول على فرصة في الحياة، فيكتبون له عوذة بورقة، ويسطرون فيها بالزعفران أسماء غريبة مثل (يا صمائيل، يا ططائيل) إلى آخره، ثم يبيّتونها أسبوعاً، وما إلى ذلك من وسائل الشعوذة. مع أن الإنسان الذي يقصد هؤلاء ربما كان على مستويات عالية من الثقافة والتعليم.

وقد يكون عمل الساحر هذا أيضاً نتيجة لضغط الحياة؛ حيث إنه لم يجد عملاً كهذا الذي يقصده، فيلجأ للانحراف دون أن يتمكّن من إيجاد عمل له هو. وفي كلّ الأحوال فإن الضحيّة هم البسطاء والطيبون، فيستغلّهم المشعوذون بالقول للزوجة التي تخلّى عنها زوجها: سوف أُرجعك لزوجك، وسأجعله يهيم بحبك، ثم يأتي للرجل فيقول له الكلام نفسه، ويأتي لصاحب الدكان ويقول له: سوف أجعل رزقك وفيراً، وهكذا، فيستغلّ حاجة المجتمع وتطلّعه إلى حياة فضلى.

تساؤلات حول السحر

وهنا نسأل: هل للسحر وجود أم لا؟ وهل له تأثير على الآخرين أم لا؟ وما هو حكمه الشرعي من جهة الحلّية والحرمة؟

حقيقة السحر ووجوده وتأثيره

إن العلماء يختلفون حول السحر، وهل إن له حقيقة أم لا، فهم يقسمونه

إلىٰ قسمين، هما:

الأول: التخيّل

وهو السحر الناتج عن التأثير على الآخرين عن طريق الخيالات والأوهام، أي أن للإنسان القدرة على سحر عين المشاهد وذهنه، فيريه أشياء غير حقيقيّة دون أن يفعل شيئاً في الواقع. وهذا من باب الحيل والخداع والتمويه.

الثاني: السحر الواقع

وهو السحر الذي يؤثّر في الإنسان الذي يقصد به، بحيث إنه يؤثّر على الجسم أو وظائف الأعضاء عنده.

إن نسبة كبيرة من العلماء يميلون إلى الرأي الأول، فيقرّرون بأن السحر ليس له أي أثر في ذلك، وأنه ليس إلّا تخيّلاً باطلاً، فيخيل إلى الرائي أنه من سحرهم. وهذا ما حصل مع سحرة فرعون؛ حيث إنهم سحروا أعين الناس، فأوهموهم أن الحبال والعصيّ قد تحوّلت إلىٰ حيات، وأنها تسعىٰ، كما تحدّثنا به قصة النبي موسىٰ ﵇. فالناس الذين شاهدوه خيّل إليهم أنه سحر وليس بسحر، وليس له أي حقيقة إطلاقاً. فهذا دجل وتمويه وخداع، دخل رجل على الإمام الصادق ﵇ فقال له: سيدي، هل يقدر السحر على أن يعمل في الإنسان، فيصوّره كلباً أو حماراً؟ فقال ﵇: «**هو أعجز من ذلك، وأضعف من أن يغيّر خلق الله. إن من أبطل ما ركّبه الله وصوّره، وغيّره فهو شريك الله في خلقه، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً**».

فالساحر ليست له هذه القابلية، ثم ضرب الإمام ﵇ للسائل مثلاً من ذلك هو أن الساحر لو كان كذلك لفعل الخير لنفسه: «**لو قدر الساحر على ما وصفت، لدفع عن نفسه الهرم والآفة والأمراض، ولنفى البياض عن رأسه،**

والفقر عن ساحته»[1].

فهذا كلّه خداع ووهم، وهم يأخذون بالناس بعيداً عن الواقع، مستغلّين أن بعض الناس على فطرتهم، فيأتون إليهم باسم الدين وكلماته.

السحر باب إلى الاستعمار

وبسبب السحر حاول البعض استعمار الشعوب، يقول أحد الكتّاب الأوروبّيين: إن الشعوب التي تؤمن بالدجل ليست جديرة بأن تحكم نفسها، بل لابدّ من وجود من يحكمها، وليس إلّا نحن. ووجهة نظر هذا الكاتب أن هؤلاء مثل الطفل الذي يحتاج إلى الرعاية؛ فهم لا يتصرّفون بعقولهم؛ لأن الدجالين هم الذين يحرّكونها لهم، فيسيطرون عليهم بها.

وهذه دعوىٰ باطلة، فإن هذا الشيء يحصل حتى في أوروبّا، وليس هو حكراً على دول الشرق. تقول إحدى الجرائد الصادرة عندهم: إن السحرة في بريطانيا يشكون الكساد، حيث إنهم لا عمل لديهم هذه الأيّام. وهذا يعني أن هذه الظاهرة موجودة عندهم، ولها من يروّجها ويشتريها. وهي ظاهرةاجتماعيّة؛ فالإنسان عندما تزداد عليه ضغوط الحياة فإنها تلجئه إلى هذا اللون من التصرّف، فنجده بدلاً من أن يعوّض تعويضاً طبيعيّاً، فإنه يعمد إلى أن يعوض تعويضاً مفرطاً كما يقول علماء الاجتماع.

والتعويض الطبيعي هو أن يبحث عن عمل آخر، أو أن يضاعف سعيه ليحلّ مشكاله البيتيّة، أما التعويض المفرط (غير الطبيعي) فهو أن يلجأ هذا الإنسان إلى المشعوذين والسحرة. إن الطريق الصحيح الواجب اتّباعه هو أنه ينبغي على الإنسان الاعتصام بالله عزّ وجلّ، فالله تبارك وتعالى هو الذي يحيي ويميت، وهو

---

(١) الاحتجاج ٢: ٨٢.

الذي يضحك ويبكي، وهو الذي يشافي من المرض [١]. ثم إنه توجد هناك وسائل طبيعية أرشد الله تبارك وتعالى إليها، وعلينا أن نقصدها دون أن نقصد الدجالين، بل أن نكون حذرين منهم.

حكم السحر والساحر

ولكلّ هذا فإن عندنا من الناحية الفقهية أن تعلّم السحر وتعليمه والاكتساب به حرام. أمّا الساحر فيختلف الفقهاء في حكمه باختلاف ديانته وسعيه إلى الضرر بسحره الوهمي، وذلك كالتالي:

أولاً: حكم الساحر المسلم

أما الساحر المسلم، فالفقهاء فيه على قسمين:

قسم يرى أنه يجب أن يقتل. وهؤلاء هم الإماميّة [٢] والحنابلة [٣]، لكنه إنما يقتل بشروط كأن يرقىٰ بسحره إلىٰ الكفر، أو أن يسعى إلى أن يضرّ بالناس ويلحق الأذى بهم.

وقسم يرى أنه يجب أن يعزّر أو أن يسجن أو يضرب بالسياط، وهؤلاء هم باقي أبناء المذاهب الإسلامية [٤].

فالحكم بالنسبة للساحر المسلم إذن يصدر حسب جهة الساحر؛ فيُرى هل إن سحره مضرّ أم لا. ونحن نلاحظ في بعض الآيات الكريمة أن له أثراً: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ

---

(١) قال تعالى: ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ الشعراء: ٧٧ ـ ٨٢.

(٢) الخلاف ٥: ٣٢٩ / المسألة: ١٥، الجامع للشرائع: ٥٦٩، تحرير الأحكام ٥: ٤٢٥.

(٣) الشرح الكبير ١٠: ٨٩، ١١٨، كشّاف القناع ٦: ٢٣٧.

(٤) انظر بداية المجتهد ٢: ٣٧٦.

مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾[1]، لكن هذه التفرقة في الواقع وهمية: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾[2].

وربما يقول قائل: لو أن تأثير السحر وهمي وغير حقيقي كما يقال، لما أُمرنا أن نتعوّذ منه.

ونقول: إن التعوّذ في حقيقة الأمر لدفع العامل النفسي الذي يُتصوّر معه أن السحر يضرّ.

ثانياً: حكم الساحر غير المسلم

أمّا إذا كان الساحر غير مسلم، فإنه يعزّر ولا يقتل[3]. وإنما صِير إلى هذا التفريق في الحكم بين الساحر المسلم والساحر غير المسلم؛ ذلك أن السحر بنفسه حرام، والمسلم إذ يمارسه فهو إنما يعاند القرآن والإسلام، وينكر ضرورة من ضرورات الدين. وهذا بخلاف غير المسلم؛ فإنه لم يكن مؤمناً بالإسلام أصلاً.

وعلى العموم فإن هناك نزاعاً طويلاً بين المختصّين حول بيان حقيقة السحر، وهل إنه يضرّ أم لا. وقد ذكرنا في صدر هذا المبحث أن نسبة كبيرة من العلماء يرون أنه لا يضرّ، وأنه وهم وخيال، وأن الساحر منكر لضرورة دينية.

النبي الأكرم ﷺ والسحر

وسوف نتناول هنا نقطة مهمّة جدّاً، هي ـ ببالغ الأسف ـ من معتقدات إخواننا من أبناء المذاهب الإسلامية[4]، فهؤلاء يقولون بأن النبي ﷺ قد سُحر، والذي

---

(١) البقرة: ١٠٢. (٢) الفلق: ١ ـ ٤.

(٣) انظر: الجامع للشرائع: ٥٦٩، كشّاف القناع ٦: ٢٣٧.

(٤) كما أنه مذكور في كتب متأخّري الشيعة كذلك، كـ(بحار الأنوار) ونحوه، وهو نقل «وفاقاً لروايات العامّة» كما يقول الشيخ يوسف البحراني. انظر الحدائق الناضرة ١٨: ١٧٨.

سحره هو أحد يهود بني زريق، يقال له لبيد بن الأعصم، حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه يفعل الشيء، وما يفعله[١].

وهذا كلام غير معقول وغير مقبول، وهو وهم، بل من جملة أُمور وهميّة كثيرها يذكرها هؤلاء دون أن يكون لها أصل صحيح. ومن جملة من يذكرها الفخر الرازي[٢] والقرطبي[٣]. وهذا ليس غريباً على من كثرت عنده الأقاويل والمفتريات والادّعاءات الوهمية التي لا صحّة لها ولا أساس. إن الحقّ أنه لا يُستكثر مثل هذا الكلام الأجوف على من يقول: إن الشيعة حينما يفرغون من الصلاة يلتفتون إلى اليمين والشمال ويقولون ثلاث مرّات: خان الأمين، أي خان جبرائيل. فمن أين هذا الكلام الأهوج والفارغ؟ أليست مآذننا تصدح كل يوم **«أشهد أن محمداً رسول الله»**؟ فهذا الافتراء لمصلحة من؟ ولمن يقدّم هذه الخدمة العظيمة في تفريق وحدة المسلمين وتمزيق شملهم؟ ثم لماذا هذا الإلحاح والإصرار على تكفير طائفة بكاملها؟

ولذلك فإن الجصّاص الفقيه الحنفي صاحب (أحكام القرآن) يحمل على الذين يذهبون إلى هذا الرأي (تأثّر النبي الأكرم ﷺ بالسحر)، ويصفه بأنه رأي باطل[٤]. وكذلك هو رأي رشيد رضا صاحب (المنار)، والشيخ محمد عبده؛ فهما

---

(١) مسند أحمد ٦: ٥٧، صحيح البخاري ٤: ٩١، صحيح مسلم ٧: ١٤، سنن ابن ماجة ٢: ١١٧٣ / ٣٥٤٥.

(٢) التفسير الكبير ٣: ٢١٦، ٣٢: ١٨٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠: ٢٥٣.

(٤) قال: «وقد أجازوا من فعل الساحر ما هو أطمّ وأفظع، وذلك أنهم زعموا أن النبي ﷺ سحر، وأن السحر عمل فيه حتى قال فيه: «إنه يتخيّل لي أني أقول الشيء وأفعله، ولم أقله ولم أفعله». وأن امرأة يهودية سحرته في جفّ طلعة ومشط ومشاقة، فأتاه جبريل ﵇، فأخبره أنها سحرته في جفّ طلعة وهو تحت راعوفة البئر. فاستُخرج وزال عن النبي ﷺ

يريان رأي الجصّاص، وينفيان هذا المعنى، ويحملان على من يعتنقه. لكن ـ ببالغ الأسف ـ نقول: إننا نجد في موسوعات القوم الفقهية هذا الرأي.

وعلى أية حال، فإن أبناء المذاهب الإسلاميّة يقولون: إذا رأى أحد السحر فليلجأ إلى المعوذتين؛ ليتخلّص منه بهما؛ لأن النبي الأكرم ﷺ قد سحرته امرأة يهودية، وجعلت السحر في مشاطة، يعني في شعر منسّل. فلمّا قرأ ﷺ المعوّذتين وجد السحر مكتوباً في الراعوفة، وهي صخرة في قعر البئر [1].

إن هذا الكلام لا يهمنا، وإنما يهمّنا التنبيه إلى خطر الدجّالين والمشعوذين، وإلى ضرورة عدم اللجوء إليهم، بل التوجّه للاعتصام بالله تبارك وتعالى: **﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾**[2]، **﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾**[3]. فالله تبارك وتعالى هو الذي يضرّ وينفع، ولا يضرّ ولا ينفع أحد غيره، فهو جلّ وعلا إليه وحده يرجع الأمر والنهي.

إذن فالآية الكريمة في مقام طرد هذا الوهم عن أذهان معتنقيه والقائلين به، يقول عزّ من قائل: **﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾** إلى قوله تبارك وتعالى: **﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾**، أي فلا تشطحوا بعيداً بتصوّراتكم، فالعافية

☚ ذلك العارض. وقد قال الله تعالى مكذّباً للكفّار فيما ادّعوه من ذلك للنبي ﷺ، فقال جلّ من قائل: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً﴾ [الفرقان: ٨]. ومثل هذه الأخبار من وضع الملحدين تلعّباً بالحشو الطغام، واستجراراً لهم إلى القول بإبطال معجزات الأنبياء عليهم السلام والقدح فيها، وأنه لا فرق بين معجزات الأنبياء وفعل السحرة، وأن جميعه من نوع واحد. والعجب ممّن يجمع بين تصديق الأنبياء عليهم السلام وإثبات معجزاتهم، وبين التصديق بمثل هذا من فعل السحرة مع قوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩]، فصدق هؤلاء من كذّبه الله تبارك وتعالى، وأخبر ببطلان دعواه وانتحاله». أحكام القرآن ١: ٥٨ ـ ٥٩.

(١) انظر الهامش السابق.

(٢) الشعراء: ٨٠.

(٣) النجم: ٤٣ ـ ٤٤.

والغنىٰ والفقر والخير كلّها بيد الله جلّ وعلا، فاجعلوا حوائجكم عنده؛ فإن الشكوى له تبارك وتعالى ليست أمراً معيباً.

المبحث الثالث: الجوار عند العرب والإسلام

وقد قالت الآية الكريمة من قبل: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾، والإجارة مأخوذة من الجوار، وهو حالة طبيعية تنشأ من عقد اجتماعي. والكلام هنا يقع في أمرين، هما:

الأمر الأول: حقوق الجوار

وحقوق الجوار عند العرب والإسلام كثيرة، فمن يشترِ قطعة أرض بجانب قطعة أرض لشخص آخر، فقد أصبح جاره، وأصبحت لكل واحد منهما حقوق على الآخر. وهذه الحقوق ينصّ عليها الفقهاء، فيذكرون أحكاماً حولها كثيرة تتعلّق بمقدار ما يستطيع أحدهما أن يرفع داره أو يوسّعها عموديّاً؛ إذ ربما يكون هذا التوسيع على حساب جاره؛ لما له من أثر في حجب الشمس عنه أو غير ذلك من الاعتبارات العقلائيّة. وكذلك هل يحقّ لأحدهما أن يفتح شباكاً على فِناء دار جاره، وكذا معاملته والتسبّب بالأذى له.

ولعلّ البعض يستغرب حينما يسمع أن حقوق الجوار تتعدّى كل المقاييس الطبيعيّة لتصل إلى حد أنه إذا جاع الجار وجب عليه إطعامه، سيما إن لم يكن قادراً على التكسّب، وكذا في باب مواساته إذا أصابته مصيبة. وكان العرب يستعيبون أن يجنّ عليهم الليل، فيأكلون وجارهم جائع، وهذا من أخلاق البيوت الممجّدة، وفعله يعدّ عاراً على صاحبه، يقول حاتم الطائي:

ناري ونار الجار واحدةٌ ... وإليه قبلي ينزلُ القدرُ

ما ضرَّ جاراً أن يجاورني ... ألّا يكون لبابه سترُ

أعــمى إذا مــا جـارتي بـرزت ... حـتى يـواري جـارتي الخـدرُ[١]

فهذا نمط من الخلق العالي، والتهذيب السامي الذي يهزّ الإنسان من الأعماق. وهناك مثلها أبـيات لعروة بن الورد، وهي أبـيات رائعة جداً. وعروة هذا إنسان تتمثّل فيه الخصال العربية، يقول:

فــإنّي امــرؤٌ عــافِ إنــائيَ شِـرْكَـةٌ ... وأنت امــرؤٌ عــافِ إنــائِك واحــدُ

أتــهزأ مــنّي أن ســمِنْتَ وأن تَـرَى ... بـجسميَ مَسَّ الحـقّ والحـقُّ جـاهِدُ

أُفــرِّق جِسْـمِي فـي جسـومٍ كـثيرةٍ ... وأحْسُو قَرَاحَ الماءِ والمـاءُ بـاردُ[٢]

أي أنه ليس له إناء لا يشترك فيه معه إخوانه. وهذا اللون من الخلق ليس فيه مبالغة، وهو من محاسنهم الرائعة. فالجوار بهذا المعنىٰ له حقوق.

الأمر الثاني: إجارة الملهوف

وهو إجارة من يقصد غيره ويقول له: أنا أُجاورك مستغيثاً بك. وهذا كأن يكون قاتلاً أو مطلوباً بثأر أو دم، فيجيره إلّا من الله تبارك وتعالى؛ فإنه عزّ وجلّ **﴿ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾**. إننا نعرف أن القبائل ذات النفوذ والسلطان إذا استجار بها أحد فإنها تحميه ولو أن في الأمر موتها عن آخرها في سبيل حمايته. وكانت العرب تضرب المثل بإجارة البعض، فيقولون: «جارٌ كجار أبي دؤاد». فقد كان أبو دؤاد مهما ارتكب جاره فإنه يجيره ولا يسلمه، وكان إذا مـات جـاره أعـطى الديـة لأهله[٣].

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ١٨: ٥٩، زاد المسير ١: ٣٢، شرح نهج البلاغة ٥: ٤٣، ١٧: ١٠، السيرة النبوية (ابن كثير) ١: ١١١.

(٢) قالها مخاطباً من شنّع عليه بأنه نحيف الجسم. فقه اللغة ١: ١٠٣٢، ديوان الحماسة ٢: ٣٠٢، الأغاني ٢: ٧٣.

(٣) تصحيفات المحدّثين (العسكري): ٨٣٩.

وقد وصلت الإجارة عندهم إلىٰ الحيوان، وقد كان لعدي بن حاتم موقف غريب، فقد كان بجانبه مجموعة من قرىٰ النمل، فكان قبل أن يخرج يحمل فتات الخبز بثوبه، ويدور به على قرى النمل هذه يطعمها إياه. وحينما يسأل عمّا يفعله، يردّ بالقول: هذا جاري ويجب أن أُشبعه قبل أن أخرج(١).

وكان زياد الأعجم أحد رؤساء العرب في وقته، وكانت بلسانه تمتمة، وقد جاء وافداً على المهلّب الذي كان وقتها أميراً على العراق، فطلب المهلّب من ابنه حبيب أن ينقله عنده إلى بيته، فنقله إلى بيته وأكرمه، وفي أحد الأيّام بينما كانا يأكلان جاءت حمامة ووقعت على سفرة الطعام بجانب زياد، وأخذت تلتقط الحبّ وتغنّي، فاستدناها ورمىٰ لها الحبّ، ثم قال يخاطبها:

تغني أنت في ذممي وعهدي … بأن لن يذعروك ولن تطاري

وبيتك أصلحيه ولا تخافي … على حجر المزغّبة الصغارِ

فإنك كلما غنيت بيتا … ذكرت أحبتي وذكرت داري

فإما يقتلوك طلبت ثاراً … له نبر لأنك في جواري

فرأى حبيب ذلك، وأراد أن يعبث معه، فأشار إلىٰ أحد غلمانه بأن يأتيه بقوس، فرمى الحمامة وقتلها، فارتعد زياد من قرن إلىٰ قدم، فقال له حبيب: ما الخبر؟ قال: هل تعرف لم كانت واقعة البسوس؟ قال: نعم من أجل ناقة. قال: والله لأُعيدنّها عليك بسوساً ثانية، أنت تعتدي على جواري! ثم قصد المهلّب بذلك الكلام، وأخبره بما فعل حبيب ابنه، فأرسل المهلّب خلف ابنه وقال له: ماذا

☚ وفيه قال قيس بن زهير:

أحاول ما أحاول ثمّ آوي … إلىٰ جار كجار أبي دؤادِ

المصدر نفسه، وانظر مجمع الأمثال ١: ١٠٩، ١٢٣.

(١) بحار الأنوار ٦١: ٢٤٢، تاريخ مدينة دمشق ٤٠: ٨٨، ٨٩.

صنعت؟ إن هذه قد أصبحت في جواره، وللجوار عند هؤلاء قيمة يعتزّون بها ويموتون دونها. ثم قال له: أعطه دية حرّ (ألف دينار من الذهب)، وأعطه ألفي دينار أُخرى عوض التعدّي على جاره، واصطحب إليه معك بعض رؤوساء القبائل لتسترضيه. وفعلاً دفع له ما أمره به أبوه واسترضاه، فخرج زياد الأعجم، وهو يردّد هذه الأبيات:

فلله عيناً من رأى كقضية ... قضى ليْ بها شيخ العراق المهلّبُ
رماها حبيب بن المهلب رمية ... فأقصدها والسهم يخطي ويقربُ
فألزمه عقلَ القتيل ابنُ حرّة ... وقال حبيب إنما كنت ألعبُ
فقال زياد لا يروّع جاره ... وجاره جاري بل من الجار أقربُ [١]

وهذا اللون من التمسّك بحفظ الجوار إلىٰ هذه الدرجة قد أقرّه الإسلام وأيّد هذه الظاهرة تأييداً كاملاً، ومن هذا مثلاً أن القاتل عندما يقتل ويستجير بالكعبة، فإنه لا يحقّ لأحد أن يصل إليه، أو أن يقيم عليه الحدّ فيها، لكنه يمنع عنه الطعام والشراب، ويضيق عليه حتى يخرج منها ثم يقام عليه الحد. بل حتى لو استجار مشرك بمسلم: **﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾** [٢].

وكما ذكرنا فإن هذا كلّه مع الإنسان، أمّا مع الله تبارك وتعالى، فالحال مختلف تماماً؛ ذلك أنه جلّ وعلا **﴿يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾**، فإن أراد أن يجير أحداً من المكاره والآفات فلن يستطيع مخلوق أن يضره؛ لأنه تبارك وتعالى هو الذي يتولّىٰ حفظه، وفي قبالة هذا لو أنه تبارك وتعالى أراد أن يعاقب أحداً فلن يمنعه أحد منه، ولو اجتمعت الدنيا كلّها لتجيره فلن تستطيع أن تمنع عنه ذلك.

---

(١) انظر: تاريخ مدينة دمشق ٦١: ٢٩٧، خزانة الأدب ١٠: ٩.

(٢) التوبة: ٦.

كان الإمام الصادق عليه السلام جالساً بجانب المنصور فجاءت ذبابة ووقعت على أنف المنصور، فدفعها ورجعت، ودفعها ورجعت، وهكذا، فقال للإمام عليه السلام: يا أبا عبد الله، لمَ خلق الله الذباب قال عليه السلام: **«ليذلّ به الجبابرة»**[1].

فهذا مع كونه ملكاً، ومع ما أُوتي من سلطان لكنه لم يستطع أن يدفع أذى ذبابة عن نفسه أراده الله تبارك وتعالى له. وكما نرى فإن العالم الآن كلّه محتشد ليكافح عصيّات كوخ (جرثومة السلّ) التي كانت تفتك بالناس فتكاً ذريعاً، وبعد أن قضوا عليها رجعت مرّة أُخرى وهي أشدّ قوّة وفتكاً ممّا كانت عليه بعد أن حصّنت نفسها بتطوير جهازها المناعي في وجه المضادّات الحيوية. وهكذا عاد العالم من جديد ليحشد كلّ طاقاته ضدّها؛ لأنه رأى أنها بعودتها هذه استطاعت أن تقاوم جميع المضادّات الحيوية واللقاحات التي فشلت كلّها في القضاء عليها مع أنها حيوان لا يمكن أن يرى إلّا بواسطة المجهر. فهذا كائن حقير والعالم غير قادر على مواجهته. إن هذا لا يعني إلّا شيئاً واحداً هو أن الله تبارك وتعالى إذا أراد بعبد شيئاً لا يستطيع أحد أن يدفع عنه، فهو جلّ وعلا ﴿**يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ**﴾.

جوار هاني بن عروة

إذن فمعنىٰ الإجارة متأصّل في حضارتنا، وقد لاحظ هذا المعنى مسلم بن عقيل رضي الله عنه حينما دخل الكوفة، فنزل أوّل مجيئه إليها في بيت المختار، حيث انبرى جماعة من أصحابه فجمعوا الأموال لشراء الأسلحة، وتهيّؤوا للقتال. وكان من ضمنهم مسلم بن عوسجة، وكان مركزهم بيت المختار بن أبي عبيد كما ذكرنا. ولمّا اتّصل الخبر بأعوان يزيد كتبوا إليه: إن كان لك في الكوفة حاجة فابعث إليها رجلاً قوياً ينفذ فيها أمرك ويعمل بعملك في عدوك؛ فإن النعمان بن

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٧٥، سير أعلام النبلاء ٦: ٢٦٤.

بشير ضعيف أو هو يتضعّف.

فاستشار سرجون المسيحي مولى معاوية في الأمر، فقال له سرجون: أرأيت لو أن معاوية نشر لك، أكنت آخذا برأيه؟ قال: نعم. فأخرج سرجون عهد عبيد الله على الكوفة وقال: هذا رأى معاوية، فولِّ عليها عبيد اللّه بن زياد. وكان عبيد الله ابن زياد والياً على البصرة، فكتب إليه: أمّا بعد، إذا جاءك كتابي هذا، فسر حتى تصل إلىٰ الكوفة، واطلب مسلم بن عقيل طلب الخرزة، فتثقبه أو تقتله أو تنفيه والسلام.

فلما جاء إليه الكتاب استخلف أخاه على البصرة، وخرج يسير الليل والنهار، ومعه (٥٠٠) فارس، فأصاب التعب أكثرهم وهم في الطريق، فلما شارف الكوفة اعتمر عمامة سوداء تشبّهاً بالحسين عليه السلام، فكان يسلّم على الناس بعصاه، وهم يرحّبون به ظنّاً منهم أنه الإمام الحسين عليه السلام، ويردّون السلام بقولهم: مرحباً بك يابن رسول الله، قدمت خير مقدم. إلىٰ أن وصل إلىٰ باب قصر الإمارة، فالتفت مهران غلام عبيد الله بن زياد وقال لهم: إنه الأمير عبيد الله بن زياد.

فتراجع الناس، وهنا انتقل مسلم عليه السلام من بيت المختار إلىٰ بيت هاني بن عروة، وهو شيخ مراد، وله مكانة اجتماعيّة مرموقة، وكان صحابياً جليلاً، وكان عمره (٨٩) سنة. كما أنه كان يعدّ من الأبطال في الحروب، وقد دافع عن مسلم وأبى أن يسلمه لعبيد الله. وكان قد طلب منه أن يقتل عبيد الله بن زياد حينما يجيء لزيارة شريك بن الحارث بن الأعور الهمداني وكان مريضاً ونازلاً عنده، وكان قد أتاه رسوله يخبره بذلك، وفي أثناء ذلك دخل الرسول وقال: الأمير على الباب. لكن مسلماً عليه السلام ليس من شيمته أن يفعل هذا؛ فقد ربي في بيت علي بن أبي طالب عليه السلام الذي نزل إلى ساحة صفين، فوجد عمرو بن العاص رأس كلّ خطيئة، فأراد أن يحمل عليه ويضربه بالسيف، لكن ابن العاص كشف عن عورته فتركه الإمام وقال

له: «**يابن النابغة، أنت طليق عورتك أيّام عمرك**»[١]. وكذلك فعل بسر بن أرطأة الذي قتل (٣٠) ألف شخص حينما أرسله معاوية للإغارة على أطراف المنطقة التي تخضع لحكم أمير المؤمنين عليه السلام، فهذا الدموي[٢] لم يجرؤ على مواجهة أمير المؤمنين عليه السلام في صفّين، فاتّبع خطّة ابن العاص في كشف عورته[٣].

فمسلم عليه السلام يرى أنه ليس من الرجولة أن يضرب الرجل من ظهره، فهذا عار على صاحبه، والشرف أن يواجه الخصم خصمه، فضلاً عن أن امرأة هاني كانت تقول له: أُناشدك الله ألّا تقتل ابن زياد في بيتنا. وقد ألحّ شريك كثيراً بالتلميح لمسلم في أن يقوم بما طلب منه؛ ولذا راح يكرّر:

ما الانتظار بسلمىٰ أن تحيّيها ... كأس المنيّة بالتعجيل تسقيها

هل شربة عذبة أُسقىٰ على ظمأ ... وإن تلفت وكانت ميتتي فيها

فإن أحسّت سليمىٰ منك داهية ... فليس تأمن يوماً من دواهيها

ومسلم ساكن في مكمنه، وهو يأبىٰ أن يقوم بذلك. وهنا التفت مهران وقال لابن زياد: إنهم يأتمرون لقتلك، فما بقاؤك؟ فاخذ بيده وخرج، ثم أرسل إلىٰ هاني وقال له: جئت بابن عقيل، وجمعت له الجموع والسلاح، وظننت أن ذلك يخفى علي؟ فقال له: إنه دخل داري وأصبح في جواري. فقال: لتأتينّي به. فقال:

---

(١) شجرة طوبى ٢: ٣٣٤، وانظر: الفصول المهمّة (ابن الصبّاغ المالكي): ٩٠، النصائح الكافية: ٩٣.

(٢) المستأسد على ضعاف الناس.

(٣) فقال النجاشي الشاعر:

أفي كلِّ يومٍ فارسٌ تندبونَه ... له عورة وسطَ العجاجةِ باديهْ

يكفُّ بها عنه عليّ سلاحَهُ ... ويضحكُ منها بالخَلاء مُعاويهْ

بدت أمسِ من عمرٍو فقنّع رأسه ... وعورة بسر مثلها حذو حاذيهْ

فقولا لعمرٍو وابن أرطاة أبصرا ... سبيليكما لا تلقيا الليث ثانيهْ

تاريخ الطبري ٤: ١٠٦ ـ ١٠٧، الكامل في التأريخ ٣: ٣٨٤ ـ ٣٨٥، مروج الذهب ٣: ٣١ ـ ٣٢.

والله لو كانت رجلي علىٰ طفل من أطفال آل محمد مارفعتها حتىٰ تقطع؟ فقال: أضرب عنقك. فقال: تكثر البارقة حولك. فقال: والهفتاه، أبالبارقة تخوّفني؟ أدنوه إليّ. فاستعرض وجهه بقضيب بيده حتى نثر لحم خديه، وأخذت الدماء تسيل منه، ثم جاؤوا به إلى السوق، وتقدم إليه غلام تركي فضربه ضربة لم تعمل به شيئاً، ثم أوسعوه ضرباً حتى بان رأسه عن جسده، وحملوا الرأس إلىٰ ابن زياد.

وكان مقتل هاني سبباً لأن يعجل مسلم عليه السلام بالنهضة، فخرج ليصلّي في الجامع ومن ورائه (٣٠٠) مصلٍّ، لكن بعد انقضاء الصلاة التفت فلم يجد إلّا (٣٠) شخصاً، فلمّا خرج من باب المسجد وإذا به وحيداً ليس معه أحد يدلّه على الطريق.

فسلك طرق الكوفة حتى وصل إلىٰ دار طوعه، وهو عطشان ويتلفّت يميناً وشمالاً، فلمّا رأته قالت: ماوراءك ياعبد الله؟ قال: إني عطش، فهل لك أن تأتيني بشربة من ماء؟ فدخلت إلىٰ الدار وأخرجت له إناء فيه ماء، فشرب وبقي واقفاً عند الباب، فأرجعت الإناء وعادت لتجده لازال واقفاً على باب دارها، فقالت: ألم تشرب الماء؟ قال: بلىٰ. قالت: فانصرف إلىٰ أهلك يرحمك الله. فقال لها: أمة الله، ليس لي في هذا المصر أهل ولا عشيرة. فقالت: وماذاك؟ قال: أنا مسلم بن عقيل، ولقد غرّر بي هؤلاء القوم وخدعوني.

يطوعه اليوم ما تحصل سلامه … أوصيج لون بهالبلد مرّوا يتامه

گولي ترى مسلم يبلّغكم سلامه … أجرچ على الله والنبي سيد الكونين

فأدخلته الدار، وأقبلت إليه بماء، فأسبغ وضوءه، ولم يزل قائماً وقاعداً وراكعاً وساجداً حتى أوشك عمود الفجر أن ينبلج، فدخلت إليه وقالت: سيدي، ما رأيتك رقدت منذ البارحة؟ قال: بلىٰ هوّمت عيناي فنمت ورأيت عمّي أمير المؤمنين عليه السلام في المنام وهو يقول: إنك صائر إلينا عن قريب. وإني لأظن أن هذا اليوم آخر

أيّامي من الدنيا. ثمّ قام واستأنف صلاته، وما هو إلّا قليل حتّى سُمعت أصوات الخيل حول الدار، قالت: سيّدي أتاك القوم. قال: لا عليك، ناوليني سلاحي.

فداروا حوله أربع فرق: فرقة بالرماح، وأُخرىٰ بالسيوف، وأُخرى بالحجارة، وفرقة توقد النار وتلقيها على رأسه، وقاتل قتال الأبطال، وجعل يأخذ الفارس من علىٰ ظهر جواده ويتلقّاه بسيفه ويقتله إلى أن أُثخن بالجراح، فلمّا اشتدّ عليه الألم والجراح، تكاثر عليه القوم حتى أسروه، ثمّ أُخذ إلى القصر، فأمر عبيد الله بضرب عنقه.

فلمّا أُصعد مسلم إلى أعلى القصر حوّل وجهه إلى جهة الحسين﵇ وصاح: عليك مني السلام أبا عبد الله، إن ابن عمّك بين يدي القوم لا يدري متىٰ يقتل. فقام الحسين﵇ مختنقاً بعبرته وقال: **«وعليك السلام ياغريب كوفان»**. ثم دخل إلى خيمة النساء، وصاح: **«زينب»**. قالت: لبّيك. قال: **«عليّ بطفلة مسلم»**. فأخرجت إليه طفلته، فوضعها في حجره، وأخذ يمسح بيده علىٰ رأسها، فرفعت رأسها إليه وقالت: ياعمّ، أراك تصنع بي ما يُصنع باليتامىٰ، لعلّ والدي قد استشهد؟ قال﵇: **«أنا أبوك، وبناتي أخواتك»**[1].

يـعمّي ابـوي ويـنه   مـن ازمـان مـا بـيّن عـلينه

منّـه خبر شـو مـا يجيـنـه

* * *

لم يُـبكِها عـدم الوثـوق بعمّها   كـلّا ولا الوجـد المـبرّح فـيها



---

(١) انظر في كلّ ذلك: روضة الواعظين: ١٧٣ - ١٧٤، مثير الأحزان: ٢٠، الإرشاد ٢: ٤٢، تاريخ الطبري ٤: ٢٦٥، الكامل في التاريخ ٤: ٢٢ - ٢٣، مقاتل الطالبيين: ٦٥، شرح نهج البلاغة ١٦: ١٠٣.

فهرس العناوين الرئيسة

المحتويات